

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية

في عهد الإمبراطور مانونيوس الأول

١١٤٣ - ١١٨٠ م



سجده الباحث عماد أمير

ونسقه وفهرسه

جروب معين التاريخ للأهل التاريخ



دار المعارف

١٩٨٥

دكتور
محمود سعيد عمران

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانيول الأول ١١٤٣ - ١١٨٠ م

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ التاريخ، معهد الدراسات والبحوث
السياسية والأدبية - جامعة الإسكندرية



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«تقديم»

عندما شرع الدكتور محمود سعيد عمران في بحث موضوع :
«الامبراطورية البيزنطية وسياساتها الشرقية في عصر الإمبراطور مانويل الأول
١١٤٣ - ١١٨٠ م» قدرت مبلغ الجهود التي كان عليه أن يبذلها والمستويات
التي كان عليه الاضطلاع بها والصعاب التي تحتم عليه مواجهتها وتدليلها حتى
يتم له إنجاز بحثه ويقدمه للقارئ الكريم .

فهذا الموضوع يختص بدراسة عصر هام كان بمثابة منعطف تاريخي
شاهد تطورات أساسية في التكوين السياسي والحضاري لعالم العصور الوسطى
بمجمعاته الرئيسية ، وهي المجتمع الأوربي الشرقي بملحقاته في البلاد الآسيوية
وهو المعروف حالياً بالامبراطورية البيزنطية ، بما له من ثقافة هيلينية وعقيدة
مسيحية أرثوذكسية المذهب ، والمجتمع الأوربي الغربي بثقافته اللاتينية وعقيدته
المسيحية الكاثوليكية ، والمجتمع العربي الإسلامي وبالذات ذلك القسم منه الذي
يقع في منطقة الشرق الأدنى .

وكان من أهم التغيرات في المنظور التاريخي العام للعصر موضوع هذا
البحث ، ذلك التغيير في ميزان القوى بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية
والغرب الأوربي اللاتيني من ناحية أخرى . فمنذ منتصف القرن الحادى عشر
للميلاد أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفقد الكثير من عناصر قوتها وما سبق
أن تمتعت به من تفوق سياسى وعسكرى وحضارى على الغرب الأوربي .
وذلك على إثر المشاكل الداخلية التي أخذت تواجهها والأخطار الخارجية
المتزايدة التي باتت تهددها ، ومن بينها خطر النورمان والأتراك والسلاجقة .

أما الغرب اللاتيني فقد أخذ يتغلب على العديد من المشاكل التي واجهها في المراحل المبكرة من العصر الوسيط ، وقامت به نهضة القرن الثاني عشر للميلاد ، التي تعتبر كبرى النهضة التي شاهدها الغرب في العصور الوسطى بأبعادها الثقافية والإقتصادية والسياسية . وقد صاحب ذلك تزايد في قنوى الغرب اللاتيني حتى أصبح يتطلع لخارج حدوده . وشرع في إتباع سياسة توسعية كان من أهم مظاهرها حركة الاسترداد الموجهة ضد الكيان الإسلامي في أسبانيا ، وإنزاع النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا من أيدي المسلمين . وفضلا عن هذا وذلك ، كانت الحركة الصليبية التي عرفها المسلمون بحركة الإفرنج ، والتي أسفرت عن نجاحهم في إقامة إمارات لاتينية كاثوليكية في بلاد الشام . هذا وقد أخذت أنظار الغرب اللاتيني تتجه للإمبراطورية البيزنطية لتحقيق مكاسب له على حسابها ، وجاء ذلك نتيجة لعدة عوامل .

وكان من أخطر العوامل التي أثرت في العلاقات بين بيزنطة والغرب اللاتيني تفاقم الخلاف الديني الذي إنتهى بحدوث القطيعة الدينية الكبرى بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ، وإشتعال الخلاف المذهبي الأمر الذي ترك آثاره السيئة على العلاقات بين البيزنطيين واللاتين . لما أشاعه من كراهية وتعصب متبادلين . هذا وقد تزايدت أطماع التجار والبنادقة في الحصول على مزيد من الإمتيازات التجارية في الإمبراطورية البيزنطية وكانت أى محاولة من جانب الأخيرة للحد من ذلك من شأنها أن تؤدي إلى مزيد من سوء العلاقات بين الجانبين .

وفضلا عن هذا وذلك فعلى إثر عبور الصليبيين السلاطين أراضي الإمبراطورية البيزنطية وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة ، أخذت

الاختلافات بينهم وبين البيزنطيين في التزايد نتيجة لتضارب المصالح السياسية لكل من الجانبين فضلاً عما كان بينهما من تباين حضارى . كما أن اللاتين بعد تعرفهم على خيرات الإمبراطورية البيزنطية أخذوا يفكرون في وضع أيديهم عليها . وباتت هذه تشعر بما يهددها من أخطار متزايدة من جانب العناصر اللاتينية .

وفي هذه الظروف المتشابكة المعقدة التي تعرضت فيها الإمبراطورية البيزنطية للعديد من المشاكل الداخلية والخارجية والتي تزايدت فيها أطماع الغرب اللاتينى ، إعتلت أسرة آل كومنين العرش البيزنطى وحاولت تحقيق نهضة جديدة لتلك الإمبراطورية وتسجيل مزيد من صفحات المجد لتاريخها المديد . وكان من أبرز أباطرة آل كومنين ، الإمبراطور مانويل الأول الذى تمتع بشخصية طموحة طريفة . فقد كان حاكماً مرموقاً وجندياً باسلاً - ودبلوماسياً ماهراً . كما كان حريصاً على مصالح دولته هادفاً لتحقيق سيادتها العالمية بالرغم من المشاكل والتحديات والتي كانت تواجهها . وبالرغم من التنافر والاختلاف بين البيزنطيين واللاتين في هذا العصر ، كانت لمانويل نزعات وميول لاتينية واضحة ، إذ كان يتحلى بخصائص الفارس اللاتينى الغربى كما كان أكثر ميلاً للعادات الغربية واللاتينية من أى من الأباطرة البيزنطيين الآخرين . وقد أعجب به اللاتين الذين شابههم أكثر من إعجابهم بأى إمبراطور بيزنطى آخر .

وقد اتبع مانويل سياسة خارجية واسعة المدى ، وأدخل أوروبا بأكملها في نطاق سياسته الخارجية لتحقيق أطماعه في الغرب ، هذا بالرغم من تقديره للقوة المتزايدة للدول اللاتينية . وتطلب منه عمل ذلك نشاطاً دبلوماسياً كبيراً ، فبزنطة من أجل تدعيم نفوذها وسط التحالفات الأوروبية المتشابكة ، كان

عليها أن تناور دبلوماسياً من أجل الحفاظ على مركزها ، ومواجهة أعدائها الذين لم يكن هناك أدنى شك في رغبتهم في غزو أراضي الإمبراطورية البيزنطية متى تيسر لهم ذلك .

ومع إهتمامه بالسياسة الغربية ، إهتم مانويل كذلك بالسياسة الشرقية ، وكانت هذه مواجهة بشكل خاص لفرض السيادة البيزنطية على الإمارات الصليبية في الشام ، وتأكيد سيادته على الأمراء الأرمن في قيليقية . ومواجهة القوة الإسلامية في الشرق الأدنى والأترك السلاجقة في آسيا الصغرى .

والحق أن المشاكل السياسية للإمبراطورية البيزنطية في عصر مانويل كانت متداخلة ومعقدة ، مما تتطلب من صاحب البحث بذل جهود كبيرة لاستجلاء حقائق الأمور ، وتتبع الخطوات التي إلتبعها مانويل في دبلوماسيته وسياسته الخارجية سواء أكان ذلك في الغرب أو الشرق . وكان على الباحث تتبع مصادر البحث المتعددة ما بين عربية ويونانية ولا تينية وأرمينية لجمع مادة بحثه وتحليلها تحليلًا موضوعيًا وتخليصها مما علق بها من تعصب ديني أو عنصري . هذا وقد وفق الباحث في عرضه للموضوع عرضاً منهجياً سليماً يتسم بتحرى الدقة والوضوح . والواقع أن ما بذله من جهد ليستحق الثناء خاصة وأن هذه هي المحاولة الأولى التي يتقدم بها أحد الباحثين بموضوع هذا البحث للمكتبة العربية .

والله ولي التوفيق ؛ ؛ ؛

دكتور عمر كمال توفيق

رئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية سابقاً
وأستاذ التاريخ الوسيط بجامعة الكويت حالياً .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كان يجب إصدار هذا الكتاب في عام ١٩٧٥ ، ولكن مشاغلي وتواجدي خارج البلاد حال دون ذلك . وأحمد الله أننى وجدت بعض الوقت لأنفـرغ لإصدار هذا الكتاب الذى كان يحثى لرسالة الدكتوراه وحصلت به على مرتبة الشرف الأولى . وإذا كان عنوان الكتاب هو (السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول ١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٧ - ٥٧٦ هـ) ، فإن ما ورد به يمثل جانباً هاماً من التراث العربى والمصرى فى هذه الحقبة التى تعرف بعصر الحروب الصليبية ، وما كان من أطماع الامبراطورية فى الشام ومصر ، وما أعدته الامبراطورية من جيوش وأساطيل للسيطرة على هذه البقعة الهامة من العالم ، وما كان من الدور البطولى الذى وقفه نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي فى مصر والشام . ولا يفوتنى فى هذه المناسبة أن أتقدم لأستاذنا الفاضل الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق - الذى أشرف على هذه الرسالة - بكل الشكر والتقدير لشخصه العظيم .

والله ولى التوفيق

محمود سعيد عمران

اسكندرية فى ١٩٨٤/٩/٣٠

محتويات الكتاب

صفحة

أ - د

هـ

ز - ي

ي

قديم

مقدمة الكتاب

محتويات الكتاب

الخرائط

المقدمة

٣٧ - ١

أولا : هدف البحث وأهمية موضوعه

ثانيا : عرض وتحليل لأهم مصادر البحث : المصادر
البيزنطية - المصادر اللاتينية - المصادر السريانية -
المصادر الأرمنية - المصادر اليهودية - المصادر العربية.

الفصل الأول

السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

٩٧ - ٣٩

قبيل عهد مانويل

العلاقات مع سلاجقة الروم - العلاقات مع الأمراء
الأرمنين - العلاقات مع الصليبيين - العلاقات مع
الدولة الفاطمية - العلاقات مع الإمارات والدويلات
الاسلامية في الشام .

الفصل الثاني

جهود مانويل للمحافظة على النفوذ البيزنطي

منذ تولية العرش حتى نهاية الحملة الصليبية

١٦٤ - ٩٩

الثانية ١١٤٣ - ١١٤٨ م / ٥٣٧ - ٥٤٣ هـ

تمرد ريموند أف بواتيه على السيادة البيزنطية - هروب
الأمير ثوروس واعادة تأسيس الامارة الأرمنية -
حروب مانويل مع الأتراك السلاجقة - سقوط الرها
وموقف مانويل من الامارة - قيام الحملة الصليبية الثانية
وموقف مانويل من المشروع - موقف مانويل من الملك
كونراد - موقف مانويل من الملك لويس - فشل

الحملة - نتائج فشل الحملة بالنسبة للامبراطورية
البيزنطية .

الفصل الثالث

مرحلة (الدبلوماسية) البيزنطية وفشلها

١١ - ١١٥٦ م - ٥٤٤ - ٥٥١ م ١٦٥ - ٢١٥

مشروع مانويل لترشيح زوج لكونستانس أميرة
أنطاكية وفشله - شراء مانويل بعض مدن وقلاع امارة
الرها المنهارة - استيلاء نور الدين على ما آل إلى
الامبراطورية البيزنطية من امارة الرها - انتصار الأمير
الأرميني ثوروس على القوات البيزنطية - تحالف مانويل
مع السلاجقة ضد ثوروس وفشل هذا التحالف - مانويل
يخرض رينو أمير أنطاكية على مهاجمة ثوروس -
اتفاق رينو وثوروس على مهاجمة جزيرة قبرص التابعة
للامبراطورية البيزنطية .

الفصل الرابع

ذروة النفوذ البيزنطي في الشرق

١١٥٨ - ١١٦٢ م / ٥٥٣ - ٥٥٧ م ٢١٧ - ٢٢٧

مصاهرة الملك بلديون للامبراطور مانويل - مهادنة
الامبراطور مانويل للسلاجقة - مهاجمة القوات
البيزنطية اقليم قيليقية وهروب ثوروس - خضوع رينو
أمير أنطاكية للامبراطور مانويل - خضوع ثوروس
للامبراطور مانويل - دخول مانويل مدينة أنطاكية -
استعداد القوات البيزنطية والصليبية لقتال المسلمين -
عقد الهدنة بين مانويل ونور الدين - حروب مانويل
مع السلاجقة وانتصار القوات البيزنطية - زواج مانويل
من الأميرة ماريا الأنطاكية - زيارة السلطان قلعج
أرسلان للقسطنطينية .

صفحة

الفصل الخامس

فشل الخطط البيزنطية في ضرب السلاجقة وغزو مصر

٣٦٤ - ٢٧٩

١١٦٣ - ١١٨٠ م / ٥٥٨ - ٥٧٦ هـ

سوء تصرف الحاكم البيزنطى فى أرمينية - تحالف بيزنطى
أرمينى صليبي ضد المسلمين عام ١١٦٤ - زواج
عمورى الأول من الأميرة البيزنطية ماريا عام ١١٦٧ م
اتفاق البيزنطيين والصليبيين على غزو مصر عام ١١٦٨ م
الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م -
زيارة الملك عمورى للامبراطور مانويل عام ١١٧١ م -
معركة ميريو كيفالون عام ١١٧٦ م ونتائجها - مشروع
حملة بيزنطية صليبية فى عام ١١٧٧ م - تجدد الحروب
بين السلاجقة وبيزنطة من عام ١١٧٧ م - ١١٨٠ م .

الخاتمة

نتائج السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

٣٧٤ - ٣٦٥

١١٤٣ - ١١٨٠ م

الجداول والمصادر والمراجع

٣٨١ - ٣٧٧

جداول بأسماء الحكام

المصادر والمراجع

٣٨٣

المختصرات

٣٤٨ - ٣٨٣

مجموعات ودوريات

٣٨٤

دوائر معارف

المصادر الأجنبية

٣٨٥

المصادر البيزنطية

٣٨٥

المصادر اللاتينية

٣٨٨ - ٣٨٧

٣٨٩

٣٩٣ - ٣٩١

٣٩٩ - ٣٩٣

٤٠٥ - ٤٠٠

٤١٠ - ٤٠٧

٤٤٣ - ٤١١

المصادر السريانية والأرمينية

المصادر المتنوعة

المصادر العربية

المخطوطات

الكتب

المراجع الأجنبية

المراجع العربية والمعرية

كشاف عام

الخرائط

خريطة رقم (١)

آسيا الصغرى

٤٤٥

خريطة رقم (٢)

أرمينية الصغرى

٤٤٧

خريطة رقم (٣)

امارة الرها

٤٤٩

خريطة رقم (٤)

امارة أنطاكية

٤٥١

خريطة رقم (٥)

الحدود الشرقية

٤٥٣

تصويب

٤٥٥

مقدمة

أولاً : هدف البحث وأهمية موضوعه

ثانياً : عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

المصادر البيزنطية

المصادر اللاتينية

المصادر السريانية

المصادر الأرمنية

المصادر اليهودية

المصادر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذا الكتاب هو السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الاول كومنينوس Manuel I Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٧ - ٥٧٦ هـ) . والمقصود «بالسياسة الشرقية» هو سياسة الامبراطورية تجاه الدول والدويلات والامارات الاسلامية والمسيحية التي كانت تجاور الحدود الشرقية للامبراطورية بشكل مباشر وغير مباشر . وكانت المجموعة التي تتأخم حدود الامبراطورية هي دولة الاثراك السلاجقة المعروفة باسم سلاجقة الروم التي تسيطر على جانب كبير من آسيا الصغرى وتتخذ مدينة قونية (١) عاصمة لها في هذه الفترة ، وكذلك إمارات آل دانشمند التي كانت تحكم إقليم كبادوكيا الواقع في آسيا الصغرى كذلك . وإمارة الارمن الذين كانوا يسيطرون على إقليم قيليقية الذي يقع إلى الجنوب من دولة السلاجقة والامارات الدانשמندية ويحتل الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ، أما المجموعة الاخرى فهي الامارات الصليبية والدويلات الاسلامية بالشام والدولة الفاطمية ثم الدولة الايوبية في مصر .

وقد اختار الباحث هذا الموضوع للدراسة لعدة أسباب ، منها حاجة المكتبة العربية إلى دراسة عامية مستقلة تتناول هذا الموضوع الهام ، وليس ذلك فحسب بل ما هو أهم أن هذه الفترة كانت تمثل حلقة من أخطر حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، فقد ألقى الغرب الاوربي بكل ثقله في المنطقة

(١) اتخذ سلاجقة الروم مدينة نيقية عاصمة لهم عندما فتحها سليمان بن قتلش عام ١٠٧٤ م / ٤٦٧ هـ ثم اتخذوا مدينة قونية بعد سقوط نيقية على يد الصليبيين عام ١٠٩٧ م / ٤٩٠ هـ . أنظر :

العظيمي : تاريخ العظيمي ص ٣٦١ ، أنظر أيضاً : Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, pp. 33, 37.

أنظر أيضاً : عمر كمال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ٤٥ .

وتمكن من إقامة الامارات الصليبية في الشام في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أواخر القرن الخامس الهجرى . وفى الوقت الذى بدأت فيه القوى الاسلامية تجمع قواتها لضرب هذه العناصر الدخيلة وطردها من أراضيها يبرز الامبراطور مانويل محاولا السيطرة على الشرق الاسلامى وبسط نفوذ الامبراطورية البيزنطية على المنطقة .

وبات يتصارع على المنطقة ثلاث قوى . أولا . القوى الاسلامية باعتبارها صاحبة البلاد الأصلية . وثانيا . القوى الصليبية الدخيلة التى تمكنت من فرض نفوذها فى المنطقة . وثالثا . الامبراطورية البيزنطية وهى ما تمهنا فى هذا البحث ، والواقع أن الصراع بين الامبراطورية البيزنطية والشرق الاسلامى لم يكن وليد عهد الامبراطور مانويل فالصراع بين الامبراطورية والمسلمين كاد لا ينقطع منذ الفتح الاسلامى .. وفى عهد الامبراطور مانويل كانت الامبراطورية البيزنطية تسعى لاعادة سيطرتها على آسيا الصغرى والقضاء على السلاجقة وآل دانشمند وأمراء الأرمن الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على كيان الامبراطورية، يضاف إلى ذلك ما كانت تسعى إليه بزنطة من استعادة أملاكها التى استولى عليها المسلمون ثم الصليبيون فى الشام خاصة إمارة أنطاكية الصليبية وأخيرا ما كانت تدعيه الامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل من حقها فى الديار المصرية باعتبارها كانت من أملاك الامبراطورية قبل الفتح الاسلامى ويجب أن تعود مصر إلى دائرة النفوذ البيزنطى (١) .

(١) حول هذه الفكرة أنظر : Cinnamus, Epitome Historiarum, p. 278.

وتشعبت المشاكل الشرقية في عهد مانويل ازاء القوى المتعددة في المنطقة من مسلمين و صليبيين وأرمن ، ويزيد من تعقيد هذه المشاكل أن المسلمين لم يكونوا تحت قيادة موحدة ، فكثيرا ما نجد الصراع بين السلاجقة وآل داندمنند وحكام الشام المسلمين حيناً ، والتقارب الظاهري بين هذه الأطراف حيناً آخر ، وكذلك ما نجده من خلافات بين الحكام الصليبيين في وقت ما ، ثم اتفاقهم في وقت آخر ، . يضاف إلى ذلك ما دار من صراع بين حكام الأرمن أنفسهم ، وأخيراً صراع هذه القوى مع بعضها حيناً وتحالفها مع البعض الآخر حيناً آخر . وفي خضم هذا الصراع يظهر الامبراطور مانويل ليحاول من خلال هذا التطاحن الذى يسود المنطقة إعادة نفوذ الامبراطورية على المنطقة تارة بقوة السلاح ، ومرة أخرى عن طريق ضرب قوى المنطقة ببعضها دون تدخل القوات البيزنطية ، وفي مناسبة ثالثة عن طريق المعاهدات التى عقدها مع بعض الأطراف ليتفرغ لضرب أحد القوى المعادية لسياسة الامبراطورية . ولهذا الأسباب وغيرها التى سأتناولها في ثنايا هذا البحث بالنقد والتحليل تتضح أهمية دراسة هذا الموضوع الذى تعتبر فترته من الفترات المصيرية في تاريخ الشرق الاسلامي .

ولما كان هذا البحث يتناول طرفاً من العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وبين الشرق ، بما كان يحكمه في هذا الوقت من مسلمين وأرمن و صليبيين ، لذلك تحتم على الرجوع إلى كافة المصادر العربية والأجنبية على قدم المساواة سعياً وراء الحقيقة التاريخية المطلقة التى هي فوق كل اعتبار ، ولاشك أن ما اعترى الكتابات التاريخية في هذا الميدان من قصور ولبس في بعض النواحي إنما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين جنحوا إلى الاعتماد على شئ واحد من أصول هذا الموضوع أكثر بكثير من اعتمادهم على البعض الآخر ، فانطبع استعراضهم السريع المبثور لبعض البحث ومشاكله التى تعرضوا اليها

بطابع انصاف الحلول ، وعلى ذلك أصبحت مهمة الباحث في معالجة سياسة الامبراطورية البيزنطية في هذه الحقبة التاريخية هي مناقشة مختلف الأسانيد والرويات التاريخية التي تعرضت لهذا الموضوع أو تناولت جانباً منه ومقارنتها ببعضها البعض بغية الوصول إلى أسلم النتائج التي يتمخض عنها البحث التاريخي السديد .

وعلى هذا المنهج الذي أتبعه الباحث في هذه الرسالة رجع إلى المصادر الشرقية والغربية وبعضها لازال بلغته الأصلية كالإيونانية واللاتينية والبعض الآخر لازال مخطوطاً لم ير النور بعد ، وأهم هذه المصادر دون شك مصادر شهود العيان والمؤرخين المعاصرين للأحداث ثم المصادر المتأخرة زمنياً التي دون أصحابها مادتهم التاريخية عن الأصول المفقودة أو غير المفقودة . وأحمد الله لأنني وفقت في الحصول على كافة المصادر الرئيسية لهذا البحث لدرجة أنني رجعت في معظم المادة التاريخية المتعلقة بصميم هذه الرسالة إلى المصادر الأصلية ولم أراجع إلى المراجع العربية أو الأجنبية إلا فيما يتعلق بفكرة أو رأى أو الإشارة إلى أحداث جانبية تتعلق بموضوع البحث .

وقد لجأت إلى وضع المصادر البيزنطية في المكانة الأولى تليها المصادر اللاتينية فالمصادر السريانية ثم المصادر الأرمنية والمصادر اليهودية وأخيراً المصادر العربية . ويرجع هذا الترتيب إلى أهمية المصادر التي استقيت منها المادة التاريخية موضوع البحث ، فالمصادر البيزنطية قد شملت معظم جوانب هذه الرسالة تليها المصادر اللاتينية وهكذا ، ولما كنت قد رجعت إلى العديد من المصادر فأنتنى أكتفى في الصفحات التالية بالقاء الضوء على أهم المصادر التي استقيت منها المادة التاريخية والتعريف ببعض آخر تاركا البقية منها إلى ثنايا الكتاب .

وفما يتعلق بالمصادر البيزنطية فأهم ما رجعت إليه ما كتبه المؤرخ المعاصر نيكيتاس خونيئاتس Nicetas Choniates في كتابه «التاريخ» Historia (١) والمؤرخ نيكيتاس ولد في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري في مدينة خونية Chonea بآسيا الصغرى ولذلك اقترن اسمه بمسقط رأسه (٢) وعندما بلغ التاسعة من عمره انتقل إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ليتلقى تعليمه تحت اشراف أخيه الأكبر ميخائيل خونيئاتس Michel Choniates الذي أصبح مطرانا لمدينة أثينا فيما بعد (٣). ولقد تقلد نيكيتاس عددا من الوظائف الهامة كان أولها أنه عمل حاجبا في البلاط البيزنطي في أواخر عهد الامبراطور مانويل ثم أصبح عضوا في مجلس السناتو Senatus، كما عمل قاضيا وتدرج في منصبه حتى أصبح كبير الحجاب Paracoemomenus في عهد الأمبراطور اسحق الثاني انجيلوس Issac II Angelus (١١٨٥) — (١١٩٥ م) ثم عين حاكما لثيم فيليبوليس Philippolis الواقع في البلقان. وعندما سقطت القسطنطينية في يد اللاتين عام ١٢٠٤ م / ٦٠٠ هـ لجأ نيكيتاس إلى اقليم بثينة Bithynia في آسيا الصغرى ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ثيودور الأول لاسكاريس Theodore I Lascaris (١٢٠٤) — (١٢٢٢ م) الذي أقام حكومته في نيقية حيث انتهت حياة نيكيتاس في تاريخ غير معروف يمكن تحديده في الفترة الممتدة من عام ١٢١٠ وهي السنة الأخيرة التي انتهت فيها الحوادث التي ذكرها في مؤلفاته وعام ١٢٢٢ م وهي السنة

(١) Nicetas Choniates, Historia, cf., C.S.H.B., Bonn, 1835.

والكتاب منشور باللغة اليونانية ومزيج لآتينية .

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 312.

(٣) Brehier, L., la Civilisation Byzantine, p. 322.

التي مات فيها أخوه وأشار فيما كتبه عن موت أخيه الأصغر نيكيتاس (١).

وكتاب «التاريخ» الذي تركه لنا نيكيتاس هو المؤلف البيزنطي الوحيد الذي تناول فيه الفترة الممتدة من عام ١١١٨ - ١٢٠٦ م / ٥١١ - ٦٠٢ هـ وأرخ فيه للأباطرة البيزنطيين وذيله بملحق صغير تناول فيه المؤلف تماثيل القسطنطينية التي أثلفها اللاتين عام ١٢٠٤ م عندما استولوا على العاصمة البيزنطية ، وللمؤرخ بعض المؤلفات الأخرى تتعلق بالمجالات الدينية والشعرية والخطابية . والمهم أن كتاب التاريخ يعتبر من أعمدة المصادر التاريخية البيزنطية عن حكم الإمبراطور مانويل الأول .

ويقع كتاب «التاريخ» في واحد وعشرين فصلا : يهتما في هذا البحث الفصل الأول الخاص بعهد الإمبراطور يوحنا الثاني كومنينوس John II Comnenus ١١١٨ - ١١٤٣ م / ٥١١ - ٥٣٧ هـ والفصل الثاني حتى الفصل الثامن المتعلق بحكم الإمبراطور مانويل . والمتصفح لفقرات هذا الكتاب يمكنه أن يلاحظ بوضوح أن المؤرخ دون الفصول الثلاثة الأولى بعد عهد الإمبراطور مانويل وفي عهد الإمبراطور اندرونيكوس كومنينوس Andronicus Comnenus ١١٨٣ - ١١٨٥ م / ٥٧٨ - ٥٨١ هـ) ومما يدل على ذلك أن المؤرخ تحدث عن بعض أخبار اندرونيكوس كإمبراطور في الوقت الذي يتحدث فيه عن أخبار الإمبراطور مانويل (٢) : أما بقية الفصول فقد كتبها المؤرخ بعد سقوط القسطنطينية لأنه تحدث فيها عن سقوط القسطنطينية وأشاد

(١) Chalandon, F. les Comnenes t., II, XXIII; Michaud, Bibl. Croi, II, pp. 249—250.

Nicetas, op. cit., p. 68.

(٢)

فيها بحسن سياسة الأمبراطور مانويل التي أتبعها مع اللاتين (١) ، وربما يكون قد دون بعضها قبل ذلك .

ولم يشر نيكيتاس إلى المصادر التي استقى منها مادته التاريخية ، ولكن من الواضح أن المناصب التي تقلدها هذا المؤرخ قد مكنته من الاتصال بكبار الشخصيات الذين كانوا يحركون الأحداث كالقادة العسكريين ورجال البلاط ، وعلى ما يبدو أن المؤرخ قد استقى بعض مادته التاريخية من الروايات الشعبية التي تناقلها البعض خاصة فيما يتعلق بعلاقة الأمبراطورية مع الحملة الصليبية الثانية (٢) . كما رجع المؤرخ إلى بعض المصادر المكتوبة ويتضح ذلك من تطابق مادته التاريخية التي أوردتها عن معركة ميريوكيفالون Myriokephalon إلى حد كبير مع ما كتبه الأمبراطور مانويل في تقريره الذي أرسله الأمبراطور إلى هنري الثاني Henry II ملك إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩ م) في نوفمبر عام ١١٧٦ م (٣) .

وقدم لنا نيكيتاس مادة تاريخية تتعلق بكل من الشرق والغرب على السواء . وما يهمننا في هذا البحث هو سياسة الأمبراطور مانويل الشرقية ، لذلك ينصب التحليل للمادة التاريخية على ما يخص الأمور الشرقية فقط دون الإشارة إلى ما يخص الغرب إلا إذا لزم الأمر ، وينسحب هذا المنهج على كافة المصادر التي أ تعرض لها في هذه الصفحات .

تناول المؤلف في الفصل الأول عهد الأمبراطور يوحنا ، وقد سجل فيه الأحداث حسب ترتيبها الزمني وقد أوردتها في صورة مختصرة ، ورغم ذلك

Nicetas; op. cit., p. 265.

(١)

(٢) قارن على سبيل المثال بين ما كتبه نيكيتاس مع ما أوردته المؤرخ الفرنسي

Odo of Deuil, De Profection Ludovici VII, pp. 103, 105 ff.

(٣) أنظر ما يلي ص ٢١ .

فقد قدم لنا مادة طيبة في بعض جوانبها خاصة ما يتعلق بحروب الامبراطور ضد السلاجقة وكذلك حملاته على قيليقية وأنطاكية . أما بقية الاحداث الخاصة بعلاقته مع الأمراء الصليبيين فقد أوردها المؤرخ بإيجاز شديد .

واختص الفصل الثاني بالأحداث منذ بداية عهد الأمير اطور مانويل حتى عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ هـ . وقد اشتمل هذا الفصل على عودة الأمير اطور بعد وفاة أبيه إلى العاصمة البيزنطية ، كما قدم لنا أيضا أحداث حروب الأمير اطور مع السلاجقة ومعلومات عن الحملة الصليبية الثانية .

واشتمل الفصل الثالث على ما يلي ذلك من أحداث حتى عام ١١٦٢ م / ٥٥٧ هـ وأورد فيه المؤرخ أخبار حملة الأمير اطور مانويل على قيليقية ودخول الأمير اطور مدينة أنطاكية وعلاقته بالصليبيين وأسباب عودة مانويل إلى العاصمة البيزنطية وموت الامبراطورية ايرين Iren زوجة مانويل وزواج الأمير اطور من الأميرة الصليبية ماريا Maria . كما تناول باختصار حروب مانويل مع السلاجقة وتوسع في أخبار زيارة السلطان السلجوقي قلیج ارسلان . (٥١٠ - ٥٥١ هـ / ١١١٦ - ١١٥٦ م) لنقسطنطينية ، وأشار إلى مساندة الامبراطور للسلطان قلیج ارسلان ضد آل دانيشمندي .

أما الفصل الرابع فقد تضمن علاقة الأمير اطورية بهنغاريا والمجر وما ترتب على ذلك من أحداث . وكل ما ورد به عن الجانب الشرقى خاص بحروب الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى التي انتهت أحداثها حوالي عام ١١٧٣ م . ٥٦٩ هـ .

وأورد المؤرخ في الفصل الخامس أحداثا تاريخية امتدت من عام ١١٦٦ م ٥٦١ هـ حتى عام ١١٨٠ م / ٥٧٦ هـ أي حتى نهاية حكم الأمير اطور مانويل ،

وخصص معظمها لأحداث البحر والغرب وقصة الصراع بين الامبراطورية والبنادقة ، وفي الجانب الشرقى تناول أحداث الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ بإيجاز .

وتضمن الفصل السادس حروب الامبراطورية مع السلاجقة في آسيا، وفيه يعود المؤرخ بالأحداث منذ عام ١١٧٤ / ٥٧٠ هـ حتى عام ١١٨٠ ، ولم يتضمن أحداثا أخرى .

وعالج في الفصل السابع علاقة الامبراطورية بايطاليا والأحوال الداخلية للامبراطورية وينتهى بالأيام الأخيرة لحكم الأمبراطور مانويل .

ويتضح مما كتبه نيكيتاس أنه لم يراع التسلسل الزمني للأحداث أو للموضوع إلى حد ما وأنه كان يميل إلى الاستطراد في بعض الأحيان كما أنه لم يشر إلى السنة التي وقعت فيها الأحداث وإنما كان يكتفي بذكر الفصل الجغرافي ، كما أبدى إعجابه بالامبراطور يوحنا على العكس من ابنه مانويل ، ولعل ذلك مرجعة إلى أنه شاهد أو آخر حكم مانويل وهي الفترة التي بدأت فيها الأخطار تحيط بالامبراطورية. كما أنه لم يشر إلى انقارة التي قام بها الأمبراطور مانويل ضد أنطاكية (١) في عام ١١٤٣ م بعد وفاة الأمبراطور يوحنا مباشرة عندما تمرد ريموند أف بواتيه Raymond of Poitiers

أمير أنطاكية (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣٠ - ٥٤٤ هـ). كما أنه لم يشر كذلك إلى الهجوم الذي دبره ريموند الثالث كونت طرابلس (٢) (١١٥٢ - ١١٨٧ م

(١) عن المادة التاريخية لهذه الأحداث راجع :

Cinnemus, Epitome Historiarum, pp. 33—35.

(٢) عن هذه الأحداث أنظر : William of Tyre, History of Deeds Done

Beyond The Sea; II, pp. 291—2.

٥٤٦ - ٥٨٣ هـ) في عام ١١٦٢ م / ٥٥٧ هـ على الأراضي البيزنطية عندما رفض الأميراطور مانويل الزواج من أخته ميلسند Melisende . كما أنه لم يشر إلى مشروع التحالف البيزنطي الصليبي بهدف غزو مصر عام ١١٧٧ م ٥٧٣ هـ (١) . وقد انفرد نيكيتاس بما أورده عن الحروب السلجوقية البيزنطية التي وقعت في الأربع سنوات الأخيرة من حكم الأميراطور مانويل ، وقدم لنا مادة مفيدة عن هذه الأحداث غطت جانباً هاماً في هذا البحث خاصة وأنها تتعلق بنهاية حكم الأميراطور مانويل .

والمصدر البيزنطي الثاني الذي لا يقل أهمية عن كتاب نيكيتاس هو كتاب «مختصر التاريخ» للمؤرخ يوحنا كيناموس John Cinnamus (٢) . ومعلوماتنا عن هذا المؤرخ قليلة : فمستقط رأسه غير معروف لدينا . وكل ما نعرفه أنه ولد حوالي عام ١١٤٣ م / ٥٣٧ هـ أي مع بداية حكم الأميراطور مانويل أو بعد ذلك بقليل ، وأنه عمل كذلك حاجباً في البلاط البيزنطي شأنه في ذلك شأن زميله نيكيتاس (٣) . وعلى ما يبدو أنه صاحب الأميراطور مانويل في بعض حملاته العسكرية بدليل ما نجده من اسباب في شرح تفاصيل بعض المعارك أو أنه كان يعمل في البلاط في بعض الشؤون العسكرية . وتاريخ وفاته غير معروف والواضح من النصوص التي تركها في مؤلفه «مختصر التاريخ» أنها كانت في عهد الأميراطور الكيسوس الثاني كومنينوس Alexius II Comnenus (١١٨٠ - ١١٨٣ م / ٥٧٦ - ٥٧٩ هـ) ابن الأميراطور مانويل أو بعده بقليل ، لأنه أشار في بداية مؤلفه إلى حكم الكيسوس الثاني (٤) .

William of Tyre, op. Cit., II, pp. 420 ff.

(١) راجع :

Cinnamus, J., Epitome Historiarum, CF. C.S.H.B. Bonn, 1836. (٢)

و الكتاب منشور باللغة اليونانية ومذيل بترجمة لاتينية كاخال مع كتاب نيكيتاس

M.E.E.II., tom. 14, p. 437. (٣)

Cinnamus, op. Cit., p. 4. (٤)

ويعتبر ما كتبه كيناموس من المصادر الهامة في التاريخ البيزنطى التى تناولت جانباً من القرن الثانى عشر الميلادى ولا يقل أهمية عن نيكتاس، فقد تناول فى كتابه الأحداث التى تبدأ من عهد الإمبراطور يوحنا (١) ، وعهد الإمبراطور مانويل حتى عام ١١٧٦ م . ومن المحتمل أن يكون كيناموس قد انتهى من كتابة عهد الإمبراطور مانويل وأضاف إليه عهد أبنة الكيسوس ولكنه فقد ولم يلحق بالكتاب الذى بين أيدينا . ومن الملاحظ أن المؤرخ كيناموس كان معاصراً لزميله نيكتاس ، وإذا كان كيناموس قد توفى فى زمن سابق لوفاة نيكتاس فمن المشاهد كذلك أن المؤرخ نيكتاس لم يشر إلى زميله كيناموس ، ولعل من أسباب ذلك أن المؤرخ كيناموس لم يكن معروفاً لدى معاصريه كمؤرخ وأن ما دونه من مادة تاريخية لم تعرف إلا بعد وفاة نيكتاس ، أو أن الأخير تعمد اغفاله .

وكتاب «مختصر التاريخ» من المصادر التى يعتمد عليها خاصة وأنه المؤرخ الوحيد بعد نيكتاس الذى ألف لعهد الإمبراطور مانويل - وصلت مادته التاريخية إلى أيدينا - يضاف إلى ذلك أن ما تركه لنا هذا المؤرخ يمتاز بالدقة والمعرفة . وعلى ما يبدو أنه لم يسهب إلا فى سرد الأحداث التاريخية التى شاهدها بنفسه بدليل ما نجده من اسهاب فى ذكر بعض الأحداث على العكس من بعض الأحداث الأخرى، وهى التى على ما يبدو قد نقلها عن شهود العيان، لذلك أوردنا باختصار وفى غاية التحفظ .

ومن الملاحظ أيضاً على كيناموس أنه كان يجب الإمبراطور مانويل ومعجبا به بشكل واضح، ومن ذلك ما نشاهده من أنه أعطى أعمال الإمبراطور

(١) ويلاحظ هنا أن المؤرخين يكتلون أعمال المؤرخة أنا كومنينيا التى أرخت حتى أحداث عام ١١١٨ م . أنظر ما يلى ص ١٧ .

قيمة خاصة وأنه عندما يتكلم عن أعمال مانويل العسكرية يضمن عليه نوعاً من البطولة الأسطورية وكان ذلك على حساب المادة التاريخية للأحداث لأنه في نعمة حديثه عن بطولات مانويل الفردية ينسى إمدادنا بالمعلومات التاريخية الكافية عن أحداث هذه المعارك .

وينقسم كتاب «مختصر التاريخ» إلى سبعة فصول . يشتمل الفصل الأول منها على حكم الإمبراطور يوحنا . والمعلومات التاريخية التي وردت به موجزه وقد أوردتها المؤرخ حسب ترتيبها الزمني .

أما الفصل الثاني فقد تضمن الأحداث منذ بداية حكم مانويل حتى عام ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ ، وقد أورد فيه المؤرخ أحداث حروب الإمبراطورية مع السلاجقة وأخبار الحملة الصليبية الثانية وعلاقات الإمبراطور مانويل مع الملك كونواد أثناء عبوره على رأس قواته إلى آسيا الصغرى ، وما كتبه المؤرخ في هذا الفصل عن العلاقات السلجوقية البيزنطية يدل على معرفته الطيبة بالمسائل السلجوقية ، والمادة التاريخية وردت حسب ترتيبها الزمني في سرد الوقائع .

وتناول الفصل الثالث الفترة التالية الممتدة حتى عام ١١٥٦ م / ٥٥١ هـ وقد اشتمل على جانب كبير عن علاقة الإمبراطورية بالغرب ، والجانب الشرقي الذي أوردته المؤرخ يتعلق بصراع الإمبراطورية مع الأرمن وهى معلومات ناقصة ولا تتناسب إطلاقاً مع مجريات الأحداث .

وبلى ذلك الفصل الرابع الذى امتدت أحداثه حتى عام ١١٦١ م / ٥٥٦ هـ ، وتناول فيه المؤرخ حملة الإمبراطور مانويل على قيليقية والشام وانتهى بأحداث هجوم السلاجقة على الإمبراطورية البيزنطية . وقد قدم المؤلف في هذا الفصل

معلومات طيبة عن الأحداث المتعلقة بأنطاكية وآسيا الصغرى ولكن معلوماته عن أحداث قيليقية قليلة وفي غاية الاختصار .

أما الفصل الخامس فقد شملت مادته التاريخية الفترة التالية حتى عام ١١٦٦ م / ٥٦٢ هـ ، وتضمن الأحداث الشرقية الخاصة بحروب الامبراطورية مع السلاجقة وعلاقة الامبراطور مانويل بامارة أنطاكية ، والأحداث التاريخية واردة حسب ترتيبها الزمني واشتمل هذا الفصل على جانب كبير من العلاقات البيزنطية الغربية والروسية .

واشتمل الفصل السادس ما يلي من أحداث عام ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ وما ورد به من الجانب الشرقى يتركز في الحملة البيزنطية الصليبية على مصر في عام ١١٦٩ م وزيارة الملك عمورى الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٣ م / ٥٥٧ - ٥٦٩ هـ) وجانبها من الحروب السلجوقية .

أما الفصل السابع والأخير فقد تناول فيه المؤلف الأحداث حتى منتصف عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ تقريبا ، وقد أورد فيه المؤلف الحروب السلجوقية مع الامبراطورية في هذه الفترة والجهود التي قام بها مانويل الأول لضرب السلاجقة ، وتنتهى أحداث هذا الفصل بما ذكره المؤلف عن ارسال بعض قطع الأسطول البيزنطى إلى مصر ويتوقف في الوقت الذى نظم فيه الامبراطور مانويل قواته لضرب السلاجقة التي انتهت طبقا لما روت لنا المصادر الأخرى بهزيمة القوات البيزنطية في معركة ميريو كيفالون .

هذا وقد انفرد كيناموس بذكر حادثة تاريخية لم ترد في المصادر الأخرى المتاحة لنا وهى الحملة البرية البحرية التي أرسلها الامبراطور مانويل لاختضاع ريموند أمير أنطاكية الذى تمرد على الامبراطورية البيزنطية وهاجم أملاكها

عقب وفاة الإمبراطور يوحنا مباشرة (١). كما أغفل المؤرخ بعض الوقائع التاريخية الهامة وهي مصاهرة الملك بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤) ١١٦٢ م / ٥٣٨ - ٥٥٧ هـ) للإمبراطور مانويل الأول ، كما أنه لم يشير إلى الغارة التي شنّها ريموند الثالث كونت طرابلس على الأملاك البيزنطية بسبب رفض الإمبراطور مانويل الزواج من أخته ميلسند .

ومن المصادر البيزنطية الهامة التي رجعت إليها الخطاب الذي أرسله الإمبراطور مانويل إلى هنري الثاني ملك إنجلترا (٢) . ويقتصر ما ذكر في هذه الوثيقة على أحداث معركة ميريوكيفالون وقد صورت هذه الوثيقة المعركة بكل تفاصيلها وتوضح لنا جانباً كبيراً من فنون الحرب السلجوقية والبيزنطية . والواقع أن الإمبراطور مانويل كان صادقاً مع نفسه إلى حد كبير في تسجيل أحداث هذه المعركة التي انتهت بهزيمة القوات البيزنطية هزيمة ساحقة . ولكن يلاحظ على ما ورد بها من مادة تاريخية ما دونه الإمبراطور من أن السلطان قلع قد عرض عليه الصلح بعد هزيمة القوات البيزنطية ومبالغة الإمبراطور بأنه كان يحارب القوات السلجوقية وكافة القوات الإسلامية التي أتت لنجدة السلطان ، وقد ناقشت هذه الآراء وغيرها التي وردت في هذه الوثيقة في متن الكتاب . وقد كتب الخطاب بنبذة حزينة جعلت المؤرخ الإنجليزي روجر أف وندوفر يشير إلى أن السفارة التي حملت الخطاب جاءت لتتمس المشورة من الملك هنري (٣) .

وقبل أن أنتقل إلى نوع آخر من مصادر البحث أود أن أشير إلى بعض

(١) أنظر ما يلي ص ١١٠ .

(٢) Manuel I, Empror of Constantinople., Lettre to the King Henry II of England, CF. Roger of Hovenden I, pp. 419—423.

(٣) Roger of Wendover, Flowers of History, II, p. 35.

المصادر البيزنطية التي أفادت في الفترة السابقة لحكم مانويل وهي كتاب «الالكسياد» (١) للمؤرخة أناكومينا (٢) وحولية المؤرخ ميخائيل بسلوس (٣) وما كتبه الرحالة البيزنطي يوحنا فوكاس (٤) في عام ١١٨٥ م / ٥٨١ هـ عن الإصلاحات التي تمت في كنيسة بيت لحم عام ١١٦٩ م / ٥٦٤-٥٦٥ هـ.

أما المصادر اللاتينية فيتصدرها ما كتبه المؤرخ وليم الصوري William of Tyre في كتابه «تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر» (٥) . وقد ولد وليم في مملكة بيت المقدس حوالي عام ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ ، وعلى ما يبدو أنه تلقى تعليمه في مدينة بيت المقدس نفسها ، وقد لجأ وليم في مرحلة مبكرة من حياته إلى السلك الكنسي ثم أصبح في حوالي عام ١١٦١ م / ٥٥٦ هـ أحد رجال الدين التابعين لرئيس أساقفة صور . وبعد ذلك بقليل سافر إلى أوروبا ليوصل دراسته هناك ثم ما لبث أن عاد في خريف عام ١١٦٣ م /

(١) Anna Comnena, Alexiad. (Tran. Sewter. Great Britain, 1969. وهي الطبعة التي اعتمدت عليها .

(٢) هي ابنة الإمبراطور الكيسوس من زوجته الإمبراطورة ايرين دوكاس وكان ميلادها عام ١٠٨٣ م وتوفيت في عام ١١٤٨ م ، وتزوجت من نيقفور برنيوس . وقد وضعت كتابها هذا ليكون سجلا حافلا لتاريخ أبيها ويشمل الفترة الممتدة من ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٨ م . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

جوزيف نيسم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٣ حاشية (١) .

(٣) Psellos, M., Chronographie 2 Vols. Paris. 1926—8. (٢)

والكتاب منشور باللغة اليونانية وعلى الصفحات المقابلة ترجمة باللغة الفرنسية .

(٤) Phocas, J., A Brief Description (Tran. Stewart), P.P.T.S. Vol. V. London, 1889. (٤)

(٥) William of Tyre, History of Deeds Done Beyond the Sea, Trans E.A. Babcock and Krey, 2 Vols. New York, 1943. (٥)

وهي النسخة التي رجعت إليها في هذا البحث .

أواخر عام ٥٥٨ هـ ، وعلى ما يبدو أن عمله اقتصر بعد عودته على أداء بعض الواجبات الدينية في كنيسة صور. ولم تكن علاقته مع فريديريك Frederick رئيس أساقفة صور طيبة في هذه المرحلة . ومنذ عام ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ بدأ وليم في الارتباط بالملك عمورى الأول الذى طلب منه تسجيل تاريخ عهده خاصة وأنه في هذا الوقت كان الصراع على أشده بين الصليبيين ونور الدين لامتلاك مصر ، وتكريما للمؤرخ وليم عينه عمورى رئيسا لشمامسة كنيسة صور . وتوثقت الصلة بين عمورى ووليم ومن ذلك ارساله في سفارة إلى الامبراطور مانويل عام ١١٦٨ م / ٥٦٣ هـ للتفاوض على تنظيم حملة بيزنطية صليبية لغزو مصر . وبعد موت عمورى عين وليم مستشارا للمملكة الصليبية في عام ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ ثم أصبح في العام التالى رئيسا لأساقفة كنيسة صور . وفي عام ١١٧٨ م / ٥٧٤ هـ سافر إلى روما بناء على دعوة البابا وعند عودة عرج على القسطنطينية لمقابلة الامبراطور مانويل بتكليف من البابا، وكان ذلك في أواخر عهد مانويل وقبل وفاته بأشهر قليلة ، وقد أتاحت لوليم الصورى بحكم المناصب التى شغلها والأعباء التى اضلع بها فرصة طيبة لمعرفة بواطن الأمور فى الامارات الصليبية والامبراطورية البيزنطية. وقد ساعده على ذلك إلمامه ببعض اللغات الأخرى كالعربية والفرنسية واليونانية والفارسية والعبرية فضلا عن لغته الأصلية وهى اللاتينية . وتاريخ وفاة وليم غير معروفة واختلف فيها المؤرخون ولكنه يمكن القول بأنها تقع بعد ما قدم لكتابه فى عام ١١٨٤ م ٥٨٠ هـ وقبل معركة حطين فى عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ (١) .

(١) عن هذه المعلومات وغيرها راجع البحث القيم الذى قام به الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق للمؤرخ وليم الصورى المنشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية العدد الحادى والعشرين سنة ١٩٦٨ ص ١٨١ - ٢٠٠ .

ويبدأ كتاب ولیم الصوری بعرض سريع عن حالة الأراضي المقدسة قبل الحملة الصليبية الأولى وعن أصل الأتراك السلاجقة والتاريخ الاسلامي والعقيدة الاسلامية ويقدم عرضا للمعاملة التي لاقاها الحجاج المسيحيون الغربيون في بيت المقدس ثم يصل إلى حملة بطرس الناسك ووصول قواد الحملة الصليبية الأولى، وهكذا يستمر في سرد الأحداث حتى عام ١١٨٤ م ، وقد استقى ولیم بعض مادته التاريخية خاصة قبل عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ من سبقوه أمثال المؤرخ فوشيه أف شارتر Fulcher of Chartres ، والمهم أن ما كتبه ولیم بعد هذا العام يعتبر المصدر الرئيسي للامارات الصليبية (١) .

ولقد قدم لنا ولیم الصوری مادة تاريخية في غاية الأهمية لا يتسع المكان في هذا الموضوع لذكرها ويبدو أثرها واضحا في ثنايا هذا البحث ولكنه يكفي في هذه السطور أن أنوه ببعض منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر واقتصر على ذكر بعض نوعيات من هذه المادة وهي ، أولا ، المادة التاريخية التي لم ترد في غيره من المصادر . ثانيا ، الأحداث التي أسهب فيها المؤرخ على العكس من المصادر الأخرى المتاحة لنا . وثالثا ، الأحداث التي لم يقدم لنا المؤرخ عنها مادة تاريخية كالمصادر الأخرى . ورابعا ، الوقائع التي لم يذكرها المؤرخ في الفترة موضوع البحث . وخامسا ، الأخطاء التي وقع فيها المؤرخ . والنموذج الأول الذي اتعرض له وهو المادة التاريخية التي قدمها ولیم الصوری دون غيره من المصادر المتاحة لنا هو مشروع الحملة البيزنطية الصليبية في عام ١١٧٧ م ورغم قدوم الأسطول البيزنطي وسفارة من قبل الامبراطور مانويل الا أن المؤرخ نيكيتاس الذي تناول هذه الفترة لم يشر إليها ،

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٨٩ .

ولاشك أن ما دونه ولم من مادة تاريخية حول هذا المشروع يعتبر فائدة قيمة لهذا البحث خاصة وأن هذه المعلومة تتعلق بصميم هذا البحث .

والنوع الثاني وهو الأحداث التي أسهب فيها المؤرخ فهي كثيرة ومتعددة نذكر منها حملتي الأمبراطور يوحنا على الشام عام ١١٣٧ م / ٥٣١ هـ وعام ١١٤٢ م / ٥٣٧ هـ والموكب الذي دخل به مانويل مدينة أنطاكية عام ١١٥٩ م / ٥٥٤ هـ ومعاهدة ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ بشأن غزو مصر وحملة عام ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ على دمياط ، وخاصة شجاعة المصريين في الدفاع عن المدينة وأحوال مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية التي دفعت عمورى لزيارة القسطنطينية واحداث الزيارة نفسها ونتائجها .

أما الجانب الثالث الخاص بالأحداث التي أوجزها المؤرخ فهي معركة ميريوكيفالون فقد أشار إليها بإيجاز شديد وكذلك أحوال امارات الأرمن والسلجقة وآل دانتشمنند . وربما نلتبس للمؤرخ العذر في هذا الجانب باعتباره يؤرخ للامارات الصليبية .

ولذا كان للمؤرخ عذره في الجانب الثالث فان النموذج الرابع لا عذر له فيه لأنه يتعلق بامارة أنطاكية ، فلم يذكر لنا المؤرخ الحملة البرية البحرية التي أرسلها الأمبراطور مانويل في عام ١١٤٣ م لتأديب ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية عندما تمرد على السيادة البيزنطية وهاجم أملاكها عقب وفاة الأمبراطور يوحنا .

والنوع الأخير وهو الاخطاء التي وقع فيها ولم الصورى ومنها الأحداث الخاصة بوفاة الكسيوس وأندرونيكوس ولدى الأمبراطور يوحنا . وأنه أشار إلى مقتل ريموند أف بواتيه في عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ هـ وصحته عام ١١٤٩ م / ٥٤٤ هـ ، وأنه ذكر أن زيارة عمورى للقسطنطينية كانت في السنة السابعة من

حكم الملك والصواب أنها كانت في السنة التاسعة أي عام ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ كما أن وفاة مانويل كانت في أكتوبر عام ١١٨٠ م والصواب أنها في الرابع والعشرين من سبتمبر من العام نفسه / أول جمادى الثاني عام ٥٧٦ هـ . ورغم ذلك فإن ما كتبه ولیم الصوري يعتبر مصدرا في غاية الأهمية للدراسة الامارات الصليبية في الفترة التي أُلّف لها بوجه خاص وعلاقتها مع جيرانها من المسلمين والبيزنطيين والأرمن بوجه عام .

ومن المصادر اللاتينية الهامة التي أفادت جانباً من هذا البحث ما كتبه المؤرخ الفرنسي أودو أف ديل في كتابه «حملة لويس السابع في الشرق (١)» ، وتاريخ ميلاد هذا المؤلف ليس معروف لدينا ، وعلى ما يبدو أنه إنحدر في السلك الكنسي في بداية حياته حتى أصبح راهبا في دير سانت دنيس St.Denis شمالي مدينة باريس . وقد عين واعظا للحملة الصليبية الثانية التي قادها كل من كونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا (١١٣٨ - ١١٥٢ م) ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠ م) ، وقد اصططحبه لويس معه في حملته هذه وعاد إلى بلاده في عام ١١٤٩ م ثم ما لبث أن عين رئيسا لدير سانت دنيس في عام ١١٥٢ م وظل في هذا المنصب طوال حياته (٢) .

وما كتبه أودو عن الحملة يبدأ منذ أن كانت فكرة وما يلي ذلك من أحداث كالإعلان عنها والدعوة اليها واعداد القوات ومسيرتها من فرنسا في طريقها إلى آسيا الصغرى . وانتهى عند المرحلة التي وصل فيها الجيش الفرنسي

Odo of Deuil, De Profection Ludovice VII in Orientem New York, (١)
وهذه الطبعة منشور باللغة اللاتينية وعلى الصفحة المقابلة الترجمة الانجليزية . 1948.

Odo of Deuil, op. Cit., pp. XIV FF.

(٢)

إلى مدينة أضااليا البيزنطية الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى. كما تناول جانباً من الأحداث التي لحقت بالجيش الألماني الذي كان تحت قيادة كونراد. والملاحظ أن المؤرخ أورد فيما كتبه جملة عن حصار دمشق (١) مما يجعلنا نشك أن المؤرخ قد أكمل تاريخ الحملة خاصة وأن مهاجمة دمشق لم تتقرر إلا بعد انعقاد مجلس الحرب الذي عقده الصليبيون في مدينة عكا بعد وصول لويس وكونراد إلى هناك (٢) .

والواقع أن ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية عن الحملة وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية يعتبر في غاية الأهمية وهو مالا نشاهده في أى مصدر آخر . كما أمدنا المؤرخ ببعض العلاقات البيزنطية السلجوقية قبل وصول الحملة إلى آسيا الصغرى وأهم ما قدم لنا في هذا الجانب أخبار الهدنة السلجوقية البيزنطية وقد أشار إليها المؤرخ بأنها اثني عشر عاماً (٣) ، كما أمدنا أيضاً بموقف روجر الثاني Roger II ملك صقلية (١١٢٩ - ١١٥٤ م) من الحملة ومهاجمته الاملاك البيزنطية أثناء مرور الحملة في آسيا الصغرى . ومن الملاحظ على المؤرخ عدائه الشديد للبيزنطيين بصفة عامة والامبراطور مانويل بصفة خاصة. ومن الجائز أن هذه الكراهية قد انعكست على المؤرخ لدرجة أنه لم يذكر في مؤلفه اسم الامبراطور مانويل وأشار إليه بعبارة أميراطور اليونانيين Greek Emperor أو عبارة امبراطور القسطنطينية Emperor of

Constantinople أو اكتفى بكلمة الأمبراطور the Emperor . ورغم ذلك فقد أشار إلى الخدمات التي قدمها مانويل للحملة والنصائح التي قدمها إلى كل من

Odo of Deuil, op. cit., p. 119.

William of Tyre, op. Cit., II p. 184—6.

Odo of Deuil, op. Cit., p. 55.

(١)

(٢)

(٣)

كونراد ولويس قبل عبورهما وفواتهما آسيا الصغرى حتى تتفادى القوات الصليبية الهجمات السلجوقية وهى فى طريقها إلى الشام .

وإذا كان أودواف ديل قد أمدنا بمعلومات فى غاية الأهمية عن موقف الامبراطور من الحملة باعتباره أحد شهود العيان ، فإن زميله أوتواف فرايزنج Otto of Freising الأخ غير الشقيق للملك كونراد والذى كان يصاحب القوات الألمانية للحملة فإنه لم يترك لنا فى مؤلفاته ما يشقى غليل الباحث عن أحداث هذه الحملة وكل ما قدمه لنا بضع كلمات . والواضح أن المؤرخ قصد عن عمد عدم كتابة تاريخ الحملة بعد النهاية الفاشلة التى منيت بها وهو ما ذكره المؤلف صراحة فى كتابه (١) .

وعلى أية حال فانه ما يعوضنا بعض الشيء عن ندرة مصادر الحملة الثانية بعض ما أورده المؤرخ ولیم الصورى فى كتابه الذى أشرت إليه وبعض الخطابات التى أرسلها مانويل إلى لويس وإلى البابا وخطابات الملك كونراد إلى ويبالد أف كورفى Wibald of Corvey وخطابات الملك لويس إلى البابا وقد أوردناها فى الفصل الثانى من الكتاب وستظهر أهميتها بوضوح من سياق الأحداث .

ومن المصادر اللاتينية أيضا خطابات الملك عمورى للغرب الأوربى التى تتعلق بطلب المساعدات للإمارات الصليبية ، وكذلك خطاب الملك عمورى للملك لويس الذى يشكو فيه من تدخل الامبراطور مانويل فى شئون أنطاكية بعد

(١) Otto of Freising, The Deeds of Frederick Barbarossa p. 103.

وقد خدم هذا المصدر بعض نقاط هذا البحث .

ولفس المؤرخ مصدر آخر بعنوان المدينتين . The Two Cities.

أسر أميرها بوهمند الثالث Behemond III (١١٦٣ - ١٢٠١ م / ٥٥٨-٥٥٩٧هـ)، وبعض المصادر اللاتينية الأخرى التي سجلتها في أئمة المصادر اللاتينية وكلها خدعت جانباً أو أكثر من هذا البحث

أما المصادر السريانية فأهمها على الإطلاق حولية المؤرخ ميخائيل السرياني Michel le Syrien (١). وقد ولد ميخائيل عام ١١٢٢ م تقريباً / ٥١٦ هـ وكان أبوه أحد رجال الدين في مدينة ملطية. وبدأ حياته في دير القديس مار برسوم Mar Barsauma ثم تدرج في مناصبه الدينية حتى أصبح رئيساً لهذا الدير وكان آخر المناصب الدينية التي تولاهها منصب بطريرك السريان في مدينة أنطاكية من عام ١١٦٦ حتى عام ١١٩٩ م (٥٦١-٥٩٦هـ) أي حتى نهاية حياته (٢). وبالإضافة إلى حوليته المشهورة فقد ألف ميخائيل في النواحي الدينية والقانونية وكان أحد رجال الدين البارزين في عصره حتى أن الامبراطور مانويل أرسل إليه بغرض توحيد الكنيستين السريانية والبيزنطية.

وقد كتب ميخائيل حوليته هذه على ما يبدو في عام ١١٩٦ م / ٥٩٢ هـ أي قبل ثلاث سنوات من وفاته وتنتهي الأحداث التاريخية التي أوردتها المؤرخ في عام ١١٩٥ م / ٥٩١ هـ. وقد اعتمد ميخائيل السرياني في مادته التاريخية على بعض ممن سبقوه من المؤرخين السريان ومنهم أجناس الملطي Ignace de Melitene (ت ١١٠٤ م / ٤٩٨ هـ) وبازل ابن شومان Basil bar Choumana (ت ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ) واوانيس الكسيوني Iwannis de Kaisoun

(١) Michel le Syrien, Chronique, CF, R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 309-409

وهي النسخة التي اعتمدت عليها وتشمل الأحداث من عام ١١٣٧ م وما بعدها وتوجد طبعة أخرى للحولية نشرها شابو Chabot في أربعة أجزاء باريس ١٨٩٩ - ١٩١٠، وهي كاملة.

Michel le Syrien, op. cit., pp. 309—310. (٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 306. (٣)

(ت ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ) وديونيسوس ابن الكلبي Dionysos bar Calibhi
(ت ١١٧٥ م / ٥٧١ هـ) (١) وقد فقدت هذه المؤلفات كلها مما يجعل لهذه
الحولية أهمية خاصة للتاريخ من وجهة النظر السريانية في القرن الثاني عشر
الميلادي (٢). كما يعتمد ميخائيل السرياني على بعض المؤلفات العربية في مادته
التاريخية المتعلقة بالفترة من ١١٠٧ - ١١١٩ م / ٥٠١ - ٥١٣ هـ (٣).

أرخ ميخائيل الأحداث التي تعرض لها على طريقة السنوات شأنه في ذلك
شأن معاصريه ولكنه لم يوفق إلى حد ما في هذا المضمار، فمن الملاحظ عليه أنه
لم يوف الحادثة حقها التاريخي وأحيانا يعود مرة أخرى ليصف بعضا من
وقائعها في سنوات لاحقة. كما أنه كثيرا ما يغفل الحادثة برمتها ثم يعود إليها
ويذكر جانباً منها في سنوات متتالية. وقد انطبع ما كتبه ميخائيل بطابع
رجال الدين وذلك بسبب النشأة الدينية التي نشأها وتعصبه لمذهبه. يضاف إلى
ذلك أنه أدخل على مادته التاريخية كثيرا من الأساطير الدينية وغير الدينية،
ولذلك كله يجد الباحث مشقة بالغة في استخلاص المادة التاريخية.

ورغم ما يشوب هذه الحولية من الاضطراب إلا أنها تحوى مادة تاريخية
في غاية الأهمية وتعتبر من المصادر الهامة التي استفدت منها في هذا البحث، ذلك
لأن المؤرخ تناول فيما كتبه الكثير عن أحداث هذه الرسالة خاصة ما يتعلق
بدولة سلاجقة الروم وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية وآل دانيشمنده وهي
نقطة افتقرت إليها معظم المصادر المعاصرة للأحداث، يضاف إلى ذلك علاقة

Cahen, la Syrie du Nord, p. 96.

(١)

Runciman, A History of the Crusades, II, p. 484.

(٢)

Cahen, op. cit., pp. 96—7.

(٣)

السلاجقة بنور الدين وهو ما أشارت اليه بعض المصادر العربية في سطور أو لم تشر اليه على الاطلاق .

كما تناول المؤرخ جانبا كبيرا من تاريخ الأرمن في قيليقية وعلاقتهم بالامبراطورية البيزنطية وتحالف الامبراطورية مع السلاجقة ضد الأرمن والحملات التي شنها السلاجقة ضد الأرمن ، يضاف إلى ذلك تحالف الامبراطورية مع الصليبيين ضد الأرمن وما ترتب على ذلك من نتائج ، منها اتفاق الأرمن وبعض القادة الصليبيين على مهاجمة جزيرة قبرص . وخلاصة القول أن ما قدمه لنا ميخائيل السرياني عن الأرمن يبدو أثره واضحا في المادة التاريخية التي أوردتها في الفصل الثالث .

وللحولية أهمية أخرى فيما يتعلق بالمسلمين وعلاقتهم بالصليبيين وموقف الامبراطورية البيزنطية من هذه العلاقات . فقد تعرض لاحداث سقوط مدينة الرها وأحداث أسر جوسلين الثاني Joscelin II أمير الرها (١١٣١ - ١١٥٠ م / ٥٢٥ - ٥٤٥ هـ) وأطماع البيزنطيين والسلاجقة والمسلمين في هذه الامارة وزواج الملك عمورى من الأميرة البيزنطية ماريما والتحالف بين البيزنطى الصليبي لغزو مصر ، وكذلك التجاء بوهمند الثالث أمير أنطاكية بعد اطلاق سراحه إلى الأمبراطور مانويل وعودته من القسطنطينية ومعه البطريك البيزنطى الأرثوذكسى ليكون بطريكا على أنطاكية (١) . وقد انفرد بذكر هذه المعلومة دون غيره من المؤرخين ، وغير ذلك من الأحداث التاريخية التي تظهر بوضوح على امتداد هذا البحث وقد قست بمناقشتها في موضعها .

ومن المصادر السريانية أيضا ما كتبه المؤرخ السرياني المجهول : وهو

الكاتب الذى كتب حوليته فى العقد الرابع من القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى . وقد اعتمد هذا المؤرخ فيما كتبه على حولية ميخائيل السريانى وعلى المصادر التى رجع اليها ميخائيل السريانى كذلك (١) . وتمتد أحداث هذه الحولية من الحرب الصليبية الأولى حتى وفاته ، والحقيقة أننى لم أطلع على كل ما كتبه المؤرخ وإنما رجعت فقط إلى الجانب المنشور منه والذى تنهى مادته التاريخية حتى عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ (٢) .

وقد أمدت هذه الحولية بعض جوانب البحث بمادة تاريخية لها قيمتها خاصة فيما يتعلق بسقوط الرها وحسن معاملة المسلمين لأهل المدينة وقيام عماد الدين زنكى باصلاح الكنائس الأرثوذكسية والسريانية وهو ما انفرد به المؤرخ (٣) ، وكذلك بعض الأحداث الخاصة بالتحالف البيزنطى الأرمينى الصليبي ضد المسلمين عام ١١٦٤ م وهروب الأمير الأرمينى ثوروس الثانى Thoros II (١١٤٤ - ١١٦٧ م / ٥٣٩ - ٥٦٣ هـ) من المعركة وهى معلومة انفرد بها المؤرخ كذلك (٤) . كما أمدنا المؤرخ ببعض الأحداث التى أفادت جوانب متفرقة فى البحث تتعلق بالسلاجقة الأرمن والبيزنطيين وآل دانتشمند . والمادة التاريخية التى قدمها المؤلف أكثر ترتيبا ووضوحا وتفصيلا من المادة التاريخية التى قدمها لنا ميخائيل السريانى وهذا جانب آخر يوضح أهمية هذه الحولية .

(١) Cahen, op. cit., p. 97; Runciman, op. cit., II, p. 484.

(٢) A.S.C., The First and Second Crusades, Cf. Journal of The Royal Asiatic Society, London 1933. pp. 69—101, 272—305.

(٣) A.S.C., pp. 290—1.

(٤) A.S.C., p. 304.

أما المصادر الأرمينية فهي متعددة ، ويتصدر هذه المؤلفات حولية القس جريجوار Gregoire le Pretre (١) ، وكان جريجوار أحد الرجال البارزين في عصره وتلميذا للمؤرخ متى الرهاوى Matthieu d'Edesse وتولى أسقفية مدينة كيسون منذ عام ١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ حتى وفاته في عام ١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ ، كما تمتع جريجوار بثقة الحكام المعاصرين له (٢) .

ولما كان المؤرخ متى الرهاوى قد سجل لنا في حوليته الأحداث التاريخية حتى عام ١١٣٦ م / ٥٣١ هـ (٣) ، فإن المؤرخ جريجوار كان وفيا لأستاذه وأكمل تاريخ متى الرهاوى وقدم لنا بعض الأحداث التاريخية الهامة حتى أوائل عام ١١٦٣ م ، والواضح أن المؤرخ لم تكن لديه النية في الكتابة أكثر من ذلك فقد ختم مؤلفه بكلمة «آمين» . وترجع أهمية ما كتبه جريجوار إلى نقطة في غاية الأهمية ، فإن توليه أسقف مدينة كيسون لفترة تزيد على نصف قرن جعلته على اتصال بالحكام الصليبيين والبيزنطيين والسلاجقة والمسلمين ، ذلك لأن هذه المدينة كانت ضمن إمارة الرها وتحت الحكم الصليبي عندما تولى جريجوار منصب أسقف المدينة ثم آلت إلى السلاجقة بعد سقوط إمارة الرها وكانت تجاور الاملاك البيزنطية التي آلت إلى الامبراطورية بعد ما تنازلت عنها زوجة جوسلين الثاني للأمبراطور مانويل . يضاف إلى ذلك ما دار من صراع على المدينة بين نور الدين والسلاجقة وبين نور الدين والصليبيين . وعلى ذلك فقد تيسر للمؤرخ فرصة طيبة لرؤية الأحداث التاريخية من زاوية اختلفت عن بقية معاصريه إلى حد ما .

(١) Gregoire le Pretre, Chronique, Cf. R.H.C. Doc. Arm. I, pp. 151— 201.

(٢) Gregoire le Pretre, op. Cit., p. 151 ; Cahen, op. cit., p. 98.

(٣) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : عمر كمال توفيق : العدوان الصليبي على الشرق العربي — الامبراطور يوحنا تربيسكيس وسياسته الشرقية ص ١٧٧ .

قدم لنا المؤرخ جريجوار مادته التاريخية باختصار في بعض الأحيان— وبأسباب حيناً آخر وظهر الطابع الديني عليها بوضوح . وقد حاول المؤرخ ترتيب الأحداث حسب سنى الأحداث ولكنه أخفق في ذلك اخفاقاً شديداً ، فكان يبدأ بسرد الأحداث التاريخية ونتائجها ثم يعود ليذكر الأسباب التي أدت إلى هذه الأحداث . ورغم المادة المضطربة التي قدمها لنا المؤرخ فقد سجل الكثير من الوقائع التي غطت جوانب متعددة في هذا البحث خاصة ما يتعلق بحملتي الإمبراطور يوحنا على قليقية والشام . وكذلك حروب الإمبراطور مانويل مع الأمير ثوروس وتحالف السلطان سعود السلجوقي (٥١٠-٥٥١هـ/ ١١١٦-١١٥٦ م) وحملتي السلطان مسعود على قليقية والعلاقات السلجوقية بآل دانشمند وحملة مانويل على قليقية والشام ودخوله مدينة أنطاكية والتحالف البيزنطي الأرمني الصليبي ضد نور الدين والغارة التي شنها رينو أف شاتيون Reynald of Chatillon أمير أنطاكية (١١٥٣-١١٦٠م/ ٥٤٨-٥٥٥ هـ) بالتحالف مع ثوروس على قبرص . وقد انفرد جريجوار ببعض الأحداث منها أطماع الأمير استيفاني شقيق الأمير ثوروس الأرمني في إمارة الرها (١) . وما أورده من إطلاق نور الدين سراح الأسرى الصليبيين بعد عقد الهدنة مع مانويل وقد كساهم نور الدين بالملابس الجديدة (٢) وانضمام بعض الأمراء الأرمن إلى جانب الإمبراطورية البيزنطية في حروبها ضد ثوروس (٣) .

ويتضح مما كتبه جريجوار أعجابه الشديد بالأمير ثوروس الذي صورته

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 178.

(١)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٢)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 168.

(٣)

على شاكله الأبطال الاسطوريين على العكس من والده الأمير ليو Leo (١١٢٩ - ١١٣٦ م / ٥٢٣ - ٥٣١ هـ) الذى يبدو أن المؤرخ لم يكن يعترف به كأمر على الأرمن لأنه كان يطلق على الأمير اطور البيزنطى يوحنا لقب «أمبراطورنا أى أمبراطور الأرمن . وإذا كان جريجوار قد أعجب بالابن دون الأب فى الأمراء الأرمن فعكس الحال مع الأباطرة البيزنطيين فقد أعجب بالأب دون الابن فكان يكره الامبراطور مانويل خاصة بعد حملته على قيايقية، وعندما عقد مانويل الصلح مع نور الدين ألتى باللوم على الامبراطور وصور خيبة الأمل التى أصابت الأرمن من جراء هذا الصلح، كما أنحى باللائحة على كافة البيزنطيين باعتبارهم مخادعين وأن المسلمين أشرف منهم لأن المسلمين لم يخدعوا الأرمن . والملاحظ أنه عاد بعد ذلك ليصور أن المسلمين خدعوا الصليبيين . وازاء ما يقدمه المؤرخ من مواقف متناقضة فإنه فى تصورى أن المؤرخ كان يقيم الحاكم حسب كل واقعة على حدة من وجهة نظره ، فيقدم حسناته حيناً وسيئاته حيناً آخر ومن ذلك يتضح عدم تحيز جريجوار لأى جانب باستثناء الأمير ثوروس .

وهناك مجموعة أخرى من المصادر الأرمينية بعضها معاصر للأحداث والبعض الآخر متأخر زمنياً ، انتقى منها مصدرين لالقاء الضوء عليها وعلى المادة التاريخية التى قدماها لهذا البحث ، ولايعنى هذا الاختبار أن المصادر الأخرى غير ذات أهمية بل على العكس فلكل مصدر ميزة خاصة يقدمها للباحث وإنما هذا الاختبار يرجع لأن المصادر التى اخترتها قدمت بعض النقاط الهامة التى تهتم البحث فضلاً عن أنها تضم أنماطاً مختلفة للمؤرخين الأرمن وأول هذه المصادر قصيدة شعرية من الأدب الأرمينى تركها لنا سانت

نرسييس (١) الذى تولى أسقفية مدينة كيسون خلفا للقس جريجوار ١١٦٣ - ١١٧٣ م ولعب دورا كبيرا لمحاولة التوفيق بين الكنائس اللاتينية والبيزنطية والأرمينية ولبي دعوة الأمبراطور مانويل لبحث الاختلاف الناشئ عن —
الجماع الدينية (٢) .

والقصيدة التى تركها لنا نرسييس خاصة بسقوط مدينة الرها وأهم مآنى القصيدة اللوم الذى يلقيه نرسييس على الامبراطور مانويل لعدم تجديده مدينة الرها .

والمصدر الثانى هو الحولية التى تركها لنا المؤرخ سمباد (٣) . وهو سليل الأسرة الحاكمة فى مدينة لامبرون Lampron بأرمينية، وقد ولد عام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ وكانت وفاته فى عام ١٢٧٦ م / ٦٧٥ هـ . وقد اعتمد سمباد فيما كتبه على متى الرهاوى والقس جريجوار، ولكنه لم يشر إلى ذلك، ولكنه اعتمد على نفسه بعد احداث عام ١١٥١ م / ٥٤٦ هـ حتى تاريخ وفاته، ولكن الحولية لم تقف عند هذا الحد فقد أضاف إليها مؤرخ مجهول الأحداث التالية حتى عام ١٣٣١ م / ٧٣٢ هـ . وقد أتاحت له الفرصة للاطلاع على الوثائق باعتباره أخا لهيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينية الصغرى (١٢٢٦ - ١٢٦٩ م / ٦٢٣ - ٦٩٦ هـ ، فضلا عن المادة التى استقاها من دار المحفوظات الأرمينية (٤) .

وقد صنف سمباد ما كتبه حسب سنى الأحداث وقد أفاض فى بعضها واختصر فى البعض الآخر، ولكنها وردت أكثر ترتيبا من حولية المؤرخ

Saint Narses Schnorhali, Elegie sur la Prise d'Edesse Cf. R.H.C., Doc. (١)

Arm., I, pp. 226—307.

Fortescus, E., The Armenian Church, p. 128. (٢)

Le Connetable Sempad, Chronique, (extr.) Cf. R.H.C. Doc. Arm. I (٣)
pp. 605—680.

Sempad, Op. Cit., pp. 605—9.

(٤) عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر :

جريجوار وتعين الباحث في التعرف عليها بوضوح . وقد أورد المؤرخ في مادته جانباً طيباً عن الجهود التي قام بها الأمير ثوروس لاعادة تأسيس امارة الأرمن وتحالف البيزنطيين مع السلاجقة ضد الأرمن وقيام السلطان السلجوقي قنچ أرسلان الثاني (٥٥١ - ٥٨٤ هـ / ١١٥٦ - ١١١٨ م) بعقد الصلح مع ثوروس بعد وفاة السلطان سعود : كما أمدنا بمادة تاريخية لها قيمتها تتعلق بالأمير منيخ أخو ثوروس والدور الذي لعبه مع نور الدين وعودة مليخ إلى أرمينية بعد وفاة ثوروس واغتصابه العرش. يضاف إلى ذلك هزيمة القوات البيزنطية أمام ثوروس وفرار القائد البيزنطي اندرونيكوس كومنينوس وتنازل زوجة جوسلين عن بقية أملاك الرها وأخبار موجزة عن معركة مير يوكيفالون .

والمادة التي قدمها المؤرخ لا تخلو من الأساطير الدينية وقد فسرت بعض جوانب المادة التاريخية التي تركها لنا المؤرخون الآخرون وانفرد المؤرخ سماد بذكر الشخصيات الأرمينية التي كانت تحارب في صفوف الجيش البيزنطي ضد الأمير ثوروس وموقفه من هذه الشخصيات بعد هزيمة القوات البيزنطية في عام ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ (١) .

وفي ختام التعريف بأهم المصادر غير العربية أود الإشارة إلى حولية المؤرخ اليهودي يوسف بن يوشع (٢) وتبدأ هذه الحولية منذ بداية الخليقة وتنتهي في منتصف القرن السادس عشر الميلادي تقريباً مع نهاية حياة المؤلف .

والمواقع أن المادة التاريخية التي قدمتها هذه الحولية لنبعث وردت مبسورة وتشير إلى فلسفة الأحداث برمتها ، ولم يشر المؤلف إلى المصدر التي رجع

Sempad, Op. Cit., pp. 618—9.

(١)

Joseph ben Joshua. Chronicle, (tran. Biallablotzky), 2 Vols. London, (٢)

1834—6.

انها في جميع مادته التاريخية. وعلى ما يبدو أن المؤرخ رجع إلى ما كتبه وإيم الصوري وإلى المؤرخ جاك دي فترى (١)، لتقارب مادة الحولية التاريخية إلى ما أورده هذان المؤرخان . ولقد تعمدت الإشارة إلى هذه الحولية لأن المؤلف اليهودي لم يختلف في تفكيره الصليبي - رغم التباعد الزمني بين عصر الحروب الصليبية وبين عصره - مع فارق يبدو في نظري في غاية الأهمية وهو أن المؤلف عندما يشير إلى منطقة الشام فإنه يشير إليها بكلمة «أرضنا» وأن جميع البلدان الشامية التي أوردها في حوليته قد ذكرها جميعها بالأسماء اليهودية، ومن هنا يتضح لنا مدى الأفكار والأطماع اليهودية في أرض الشام منذ مئات السنين .

وبعد التعرف على بعض المصادر الأجنبية ننتقل إلى المصادر العربية ، والواقع أن المصادر العربية المنشورة منها وغير المنشورة المتاحة لنا لم تتعرض إلا لجوانب محدودة في هذا البحث . وأنتى أقدم عذري عن هؤلاء المؤرخين ، فحقيقة الأمر أن اهتمام المؤرخين في هذه الفترة إنصب على جانب كبير من

(١) ولد جوائ عام ١١٨٠ م ، وتقلد العديد من المناصب الكنسية وسرعان ما أصبح أحد رجال الدين المرموقين . وكان تأثيره على الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي لا يقل عن تأثير بطرس الناسك في زمانه وقد كرس حياته لاعادة تعزيز الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة بالشام بعد ما عين إسقفا على عكا في عام ١٢١٦ واصطحب الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ١٢١٨ - ١٢٢١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ . وبعد هزيمة الحملة عاد إلى عكا وظل بها حتى عام ١٢٢٧ م وقفل عائدا إلى روما وهناك شغل عدة مناصب دينية وفي أواخر أيام حياته عين بطريكا على بيت المقدس ولكنه توفي في نهاية إبريل أو أول مايو عام ١٢٤٠ م قبل أن يتسلم مقاليد هذا المنصب . انظر :

الصراع مع الصليبيين ، كما أن العلاقات البيزنطية مع حكام الشام ومصر المسلمين كانت محدودة في هذه الرسالة ومعظمها أتى من خلال العلاقات الصليبية . ولكن الملاحظ على المصادر العربية أن بعض المعارك العسكرية التي تحالفت فيها القوى البيزنطية والصليبية ضد المسلمين تطالعنا المصادر الإسلامية حتى الخاصة منها بأحداث موجزة عن الوقائع التاريخية ، ولو كانت هذه الأحداث تتعلق بالجانب غير الإسلامي لكان للمؤرخين عذرهم ، أما وأن هذه الأحداث تتعلق مثلاً بدفاع المسلمين عن مدينة دمياط ولا تقدم لنا المصادر الإسلامية جانباً من هذه البطولات التي تمدنا بها المصادر الأخرى فهذا ما يدفعني إلى توجيه النقد إلى المؤرخين الذين تعرضوا للأحداث خاصة المعاصرين منهم .

لقد اشتمل هذا البحث على علاقة الامبراطورية البيزنطية أثناء حكم الامبراطور مانويل بالدول والامارات والدويلات الشرقية وهم السلاجقة والدانشمندیون والأرمن والصليبيون والمسلمون في الشام ومصر . وفيما يتعلق بالجانب البيزنطي السلجوقي فالملاحظ أن المصادر العربية لا تقدم لنا عن دولة السلاجقة كدولة إسلامية سوى بعض سطور قليلة لا تصور لنا الحال حتى داخل الدولة نفسها ، أما عن العلاقات السياسية البيزنطية السلجوقية فلم تقدم لنا المصادر العربية سوى جانب ضئيل منها لا يتعدى بضع جمل على امتداد هذا البحث (١) . وعلى ذلك يتضح أن المصادر العربية لم تقدم للبحث المادة التاريخية التي تستحق الذكر عن العلاقات البيزنطية السلجوقية خاصة وأن

(١) راجع على سبيل المثال ما كتبه ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٤١١ .

السلاجقة لعبوا دورا كبيرا وفي غاية الأهمية والخطورة في عهد الإمبراطور مانويل .

ولا يختلف الأمر كثيرا مع آل دانشمند وأن ما يمكن جمعه من المصادر العربية لا يتعدى وفاة أمير وتولية أمير آخر ، ولعل أهم ما قدمته لنا هذه المصادر هو التجاء أمراء آل دانشمند إلى نور الدين بعد ما طردهم قليج أرسلان من أملاكهم وبعض سطور عن الصراع السلجوقي مع نور الدين (١) .

والحال نفسه مع أمراء الأرمن وعلاقتهم السياسية بالامبراطورية البيزنطية وحتى غير السياسية ، فما أوردته المصادر العربية من مادة تاريخية لا يتجاوز بضع سطور . ولعل أهم ما قدمته لنا على امتداد هذا البحث هو التجاء الأمير مليح الأرمني إلى نور الدين والعمل في صفوف القوات الإسلامية ومساعدة نور الدين للأمير مليح على دخول قيليقية بعد وفاة أخيه الأمير ثوروس (٢) .

أما العلاقات البيزنطية الصليبية فهي نوعان : علاقات صليبية بيزنطية بحتة وعلاقات بيزنطية صليبية مع المسلمين . والنوع الأول منها مثل زواج الأمراء الصليبيين من الأميرات البيزنطيات وزواج مانويل من الأميرة الصليبية ماريّا والسفارات التي رأسها ولیم الصوري أو الشخصيات الأخرى الصليبية أو السفارات البيزنطية فلا تطالعنا بها المصادر العربية. وعذر المؤرخ هنا ويبدو واضحا باعتبارها أحداث غير مرثية له ، أو ربما لا تهتم المؤرخ العربي في ذلك الوقت .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩١ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٦٦ وهو ينقل عن ابن الأثير .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ ، ابن العديم : زبدة الخلب ج ٢ ص ٣٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٥ . والملاحظ أن ابن العديم وابن واصل ينقلان عن ابن الأثير .

والنوع الثاني وهو العلاقات البيزنطية الصليبية ضد المسلمين. فالمصادر العربية لم تشر إلى بعضها وأفاضت في جانب منها وأغفلت ذكر حقائق في الجزء الثالث. وعن الجانب الذي لم تشر إليه هو مشروع التحالف البيزنطي الصليبي لغزو مصر عام ١١٧٧ م. والأحداث التي أمدتنا بها المصادر العربية بمادة تاريخية طيبة ومفصلة الوقائع التاريخية الخاصة بهجوم التحالف البيزنطي الأرميني الصليبي في عام ١١٦٤ م. والمثال الأخير منها أحداث الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م فما ورد منها من أحداث تاريخية جاء في غمرة النصر التي حققه المسلمون على المتحالفين كما لو كان مهرجانا للعداء والخطابة وليس مادة تاريخية يمكن مقارنتها بالمادة التاريخية التي وردت في المصادر اللاتينية. وإذا كان ما قصرت فيه المصادر العربية يتعلق ببعض الجوانب الخاصة بالبيزنطيين والصليبيين لكان للمؤرخين عذرهم ولكن إذا كان ما أغفلته المصادر يتعلق بجانب من البطولات الإسلامية التي توضح لنا جانباً من فنون الحرب والقتال التي كانت وليدة الحصار على مدينة دمياط أشاد بعظمتها الأعداء فهو أمر يلفت النظر ويدعو للتساؤل (١).

ولعل أهم ما ورد في المصادر العربية ما قدمه لنا المؤرخ ابن الفرات (٢) الذي انفرد بذكر فرار نصرة الدين أخ نور الدين من وجه أخيه بعد وقوع الخلاف بينهما، والتجاء نصرة الدين إلى الأمبراطور مانويل في القسطنطينية

(١) راجع على سبيل المثال ما كتبه ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٣ .

(٢) هو محمد بن عبد الرحيم بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن الفرات . وعرف بين الخاصة والعامة بابن الفرات ولقب بالمصري واشتهر بالشيخ ناصر الدين وكان ميلاده عام ٥٧٣هـ / ١١٣٤ م ووفاته ٨٠٧هـ / ١٤٠٥ م وقد أרך لثلاثة قرون ويعرف تاريخه باسم تاريخ الدول والملوك. وقد نشر جانب منه باسم تاريخ ابن الفرات . أنظر ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع ج ١ ص ٤ .

وترحيب الامبراطور به واستضافة . وقد أفاض المؤرخ في ذكر أعمال نصره الدين أثناء تواجده في العاصمة البيزنطية واعجاب الامبراطور به لما أبداه من فروسية وشهامة عربية ، واستجابة مانويل لطلبات نصره الدين كتمير مسجده القسطنطينية وهدم التمثال الذي كان مقاما بالعاصمة البيزنطية على صورة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ليسخر منه البيزنطيون (١) .

وبهذه الدراسة التحليلية يكون الباحث قد قدم صورة لأهم المصادر التي اعتمد عليها في بحثه ، هذا فضلا عن المصادر والمراجع الأخرى المتعددة التي رجع إليها أثناء كتابة بحثه ، والتي تتضح أهميتها أثناء متابعة صفحات الكتاب .

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) المجلد السادس لوحة ١٤ ب - ١٥ أ ، لوحة ٢٨ أ - ٢٨ ب .

الفصل الأول

السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

قبيل عهد مانويل

- ١ - العلاقات مع سلاجقة الروم . ٥٧ - ٦١
- ٢ - العلاقات مع الأمراء الأرمنيين .
- ٣ - العلاقات مع الصليبيين .
- ٤ - العلاقات مع الدولة الفاطمية . ٨٣ - ٨٨
- ٥ - العلاقات مع الامارات والدويلات الاسلامية في الشام . ٨٨ - ٩٧

كانت الامبراطورية البيزنطية بمثابة خط الدفاع الأمامي المنيع لأوروبا في الشرق ضد الهجمات التي تعرض لها الأوريون من جانب العناصر الشرقية الآسيوية . فقد لعب الامبراطور البيزنطي هرقل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) دورا هاما في ايقاف تقدم الفرس وسحق قوتهم العسكرية في نهاية الأمر . وقد ظهر بعد ذلك الخطر العربي بشكل مفاجيء مفزع على المسرح السياسي وأصبح العرب قوة من أعظم القوى في العالم . وهكذا أصبح على الامبراطورية البيزنطية أن تكافح من أجل حياتها ضد الخطر الجديد ، وظل الصراع ضد العرب في الشرق أحاد المسائل الرئيسية التي كان على الأباطرة البيزنطيين أن يلتفتوا اليها (١) .

وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد نجحت في الدفاع عن أراضيها حينما ومهاجمة المسلمين حينما آخر ، فإنه بعد هزيمة القوات البيزنطية في موقعة مانزكرت عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م (٢) ، كان على الأباطرة البيزنطيين أن يهتموا بالجانب الشرقي اهتماما كبيرا لوقف الخطر السلجوقي الذي كان يزداد يوما بعد يوم . وقد حاول الامبراطور الكيسوس الأول Alexius I

(١٠٨١ - ١١١٨ م / ٤٧٣ - ٥١٢ هـ) مؤسس الأسرة الكومينية (١٠٨١ - ١٢٠٤ م) ومن بعده ابنه الامبراطور يوحنا النهوض بالامبراطورية واعادة حيويتها اليها فأعطيا اهتماما كبيرا للشئون الآسيوية بهدف اعادة الحدود البيزنطية حتى أنطاكية والفرات وارغام الأمراء الأرمن في قيليقية والأمراء الصليبيين في الشام على قبول سيادة الامبراطورية (٣) .

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣ ، ١١١ .

(٢) أنظر مايل ص ٢٣ .

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

ولعل نظرة سريعة إلى أحوال الامبراطورية البيزنطية - في الفترة السابقة لعهد الامبراطور مانويل وعلاقاتها السياسية بجيرانها من السلاجقة والأرمن والصليبيين والمسلمين توضح لنا جانباً هاماً وتعطى لنا صورة واضحة عن الفترة السابقة لحكم مانويل تكون مدخلاً لهذا البحث . وأود الإشارة هنا إلى أنني وجدت أنه من الأفضل أن أعرض بإيجاز لسرد أحداث هذا الفصل دون الدخول في التفاصيل إلا عندما تقتضى ضرورة البحث، حتى يمكن إعطاء خلفية مناسبة ستكون ولا شك مفيدة للقارئ علية فهم عمق فترة حكم الامبراطور مانويل وجسور المشاكل التي ورتها عن أسلافه ، أو بمعنى آخر أطماع الامبراطورية البيزنطية في المنطقة وهي نقطة ظهرت في تصرفات وسلوك حكام الدول والامارات الشرقية من السلاجقة وآل داندشند والأرمن والصليبيين والدولة الفاطمية، يضاف إلى ذلك الامارات والدويلات الاسلامية في الشام ، وسنفرد لكل منها بمبحث خاص .

وفى يتعلق بالسلاجقة فقد كان عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) فاتحة عهد جديد في علاقة الأتراك السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية ، فقد تمكن السلاجقة من الاستيلاء على مدينة آنى Ani الواقعة في الشمال الشرقي من شبه جزيرة آسيا الصغرى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م (١) . ومنها نفذ السلاجقة إلى الأقاليم الشرقية للامبراطورية واتخذوا طريقهم داخل آسيا الصغرى واستولوا على قيصرية عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م في الوقت الذي اتخذت فيه بزنطة سياسة الدفاع عن نفسها (٢) ولكي يدعم ألب أرسلان مركزه للانطلاق إلى عمق الأقاليم البيزنطية استولى على

(١) الأصفهاني : تواريخ آل سلجوق ص ٣١ .

Ostrogorsky, op. cit., p. 303.

(٢)

حلب التي كانت تتبع الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر . ونجح أيضا في الاستيلاء على جزء كبير من الشام كما أستولى على بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، وبذلك أحاط السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية من الشرق والجنوب الشرقي ، وهكذا سبب تقدم السلاجقة قلقا بالغا للامبراطورية البيزنطية (١) .

وحاول الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع (Romanus IV ١٠٦٨ / ١٠٧١ م) وقف حركة التوسع السلجوقي والانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم واستعادة الأراضي البيزنطية من السلاجقة ولكنه فشل في تحقيق أهدافه وهزم هزيمة نكراء في موقعة مانزكرت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ووقع الامبراطور نفسه أسيرا في يد السلاجقة (٢) . ومن النتائج الثابتة لهذه المعركة أنها فتحت الطريق أمام السلاجقة للتوغل في عمق آسيا الصغرى وجاءت دليلا على فقدان بيزنطة ما يمكن أن نطلق عليه لقب «حامية أوروبا المسيحية ضد الاسلام في الشرق» (٣) .

والمهم أنه تمخض عن معركة مانزكرت عقد معاهدة بين ألب أرسلان ورومانوس الرابع نصت على أن يقوم الامبراطور باطلاق سراح الاسرى المسلمين ودفع جزية سنوية وفدية مالية مقابل اطلاق سراح الامبراطور الذي عاد إلى القسطنطينية ليجد ميخائيل السابع ودو كاس Michael VII Docas

Psellos, op. cit., II, p. 147.

(١)

(٢) عن معركة مانزكرت أنظر : العظيمي : تاريخ العظيمي ص ٣٥٩ ، الراوندي : راحة الصدور ص ١٨٨ - ١٩٠ ، صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٦ -

Psellos, op. cit., II, p. 162. ، ٥٣

(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٣ .

(١٠٧١ - ١٠٧٨ م) قد أستولى على العرش . وتم القبض على الامبراطور المهزوم وسلمت عيناه ثم ما لبث أن مات بعد قسـيل (١) . ولم يعترف الامبراطور ميخائيل السابع بهذه المعاهدة فقرر ألب أرسلان الانتقام من الامبراطورية البيزنطية ولكنه توفي في العام التالي فخلفه ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥/١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) الذي عين سليمان بن قنلمش قائدا على القوات السلجوقية في آسيا الصغرى . وقد انتهز سليمان فرصة الحرب الأهلية داخل الامبراطورية البيزنطية فوسع من حدود أملاكه واستولى على مدينة قيزيقوس Cyzicus ونيقية واتخذ الأخيرة عاصمة لملكه وهو ما عرف بدولة سلاجقة الروم (٢) .

وقد حاولت بيزنطة جاهدة هدم الدولة الناشئة التي تهدد الامبراطورية وحشدت لذلك جيشها كما أستعانت بجند من المرتزقة . ولكن هذه الجهود قد فشلت ، وليس ذلك فحسب بل راحت القوات المرتزقة تنهب المواطنين البيزنطيين ، وتسبب كل ذلك في انزال الضرر بالامبراطورية أكثر من الافادة منها (٣) وازاء تزايد الخطر السلجوقي طلب الامبراطور ميخائيل السابع النجدة من البابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) . وقد وجد البابا في ذلك فرصة طيبة لوضع حـدد للقطيعة الدينية بين روما والامبراطورية البيزنطية ، ولكن مشاغله في الغرب الأوربي حالت دون تنفيذ ذلك (٤) .

(١) Psellos, op. cit., II, p. 172.

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 77; Otto of Freising, The two Cities, p.

404; Freeman, E., The Historical Geography, p. 382.

(٣) Finlay, History of Greece, III, p. 42.

(٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٦ .

نظام السلاجقة في الأقاليم البيزنطية

ومما ساعد على استقرار السلاجقة في الأقاليم البيزنطية الصراع الذي دار بين بيزنطة وبين قيادة القوات المرتزقة التي جلبتها الامبراطورية لمساعدتها في وقف الزحف السلجوقي وتمكن أحد هؤلاء القادة المرتزقة وهو رسل Roussel النورمانى من التمرد على سادته واستولى على بعض الأقاليم الشرقية وأسس إمارة له في بنطس Pontus . وقد دفع الخطر الجديد الامبراطور ميخائيل السابع إلى التحالف مع السلاجقة عام ١٠٧٤ م / ٤٦٦ - ٤٦٧ هـ للقضاء على رسل وأتباعه، وقد نجح هذا التحالف في القضاء على رسل في نهاية الأمر وسملت عيناه ^(١) وتمكن السلاجقة بموجب هذا التحالف من عقد معاهدة مع بيزنطة التي اعترفت للسلاجقة بما استولت عليه من أراضي ويضاف إلى ذلك حركة العصيان التي قام بها نقفور بوتانيثس Nicephorus Botaneiates حاكم مدينة عمورية وذلك عام ١٠٧٨ م وخروجه على الامبراطور ميخائيل السابع ، وقد استعان نقفور بالسلاجقة وزحف على العاصمة وخلع الامبراطور وتوجه بطريق القسطنطينية امبراطورا (١٠٧٨ - ١٠٨١ م) (١) ولكن حالته الصحية وعدم اعتراف الطبقة الارستقراطية وملوك الأراضي به لم تمكنه من أن يصبح الامبراطور المرتقب الذي يستطيع حماية أملاك بيزنطة (٢) . والمهم أن السلاجقة وجلوا الفرصة المناسبة للتوسع مقابل ما قدموه من مساعدة للامبراطورية في أزمتها، يضاف إلى ذلك ضعف الامبراطور ، فمدوا نفوذهم من البحر الاسود شمالا حتى شواطئ البحر الأبيض جنوبا وأصبحوا يسيطرون على نيقية ونيقوميديا والبسفور (٣) .

Anna Comnena, op. cit., pp. 32—31.

(١)

(٢) نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٥٢ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٩١ .

وقد أدى ضعف الامبراطور وسوء الحالة الداخلية ، فضلا عن الاخطار الخارجية إلى ظهور عدد من الطامعين في العرش البيزنطي وكان على رأسهم الكيسوس الأول الذي تمكن من اعتلاء العرش بعد أن تنازل له نفقور . ومع بدايات حكم الكيسوس كانت تحركات السلاجقة تشكل خطرا ممينا على الامبراطورية البيزنطية ، وقد وجد الكيسوس أنه من الحكمة مهادة السلاجقة حتى لا تساند كل منشق على الامبراطورية يضاف إلى ذلك الاستفادة بهم في حروب الامبراطورية ضد النورمان ، فعقد معاهدة مع الأمير السلجوقي سليمان بن قتلмыш ، وتقضى هذه المعاهدة بأن يحصل السلاجقة على الأراضي الممتدة حتى منابع نهر سانجاريوس Sangarius على البحر الأسود ويقوموا بدفع الرافد الصغير لنهر سانجاريوس بمثابة الحد الفاصل بين الحدود البيزنطية ، وفي مقابل ذلك قدم سليمان بن قتلмыш سبعة آلاف مقاتل من السلاجقة وعددا من القادة العسكريين على مستوى عال من المهارة لمقاومة روبرت جويسكارد Robert Guiscard دوق أبوليا Apulia النورمانى (١٠٥٩-١٠٨٥م) الذى بات يهدد الامبراطورية البيزنطية (١) . وإذا كان السلاجقة قد أكتسبوا جانبا من الأراضي البيزنطية بموجب هذه المعاهدة فمن الملاحظ أن الممتلكات السلجوقية في آسيا الصغرى لم تكن تدين كلها بالولاء للأمير سليمان بن قتلмыш ولم تكن هناك رابطة بين سلاجقة الروم حتى ذلك الحين ، فكان هناك مجموعة من الامارات المستقلة وهى امارة فيزيتوس و امارة أزمير و امارة سينوب و امارة كبادوكيا التى حكمها آل دانشمند (٢) .

Anna Comnena, op. cit., p. 129.

(١)

Anna Comnena, op. cit., pp. 97, 102—103, 131, 167.

(٢)

Finally, op. cit., III, pp. 72—3, 90.

(٣)

وآل دانشمند أحد البيوت السلجوقية التى أقامت حكما فى كبادوكيا على أيدي دانشمند أحمد

غازى المعروف بشمس الدين (٤٥٥ - ٤٧٧ هـ) زابارو : معجم الانساب ج ٢ ص ٢٢٠

غير أن أطماع السلاجقة لم تقف عند هذا الحد ، إذ نجح سليمان بن قتلмыш في الاستيلاء على بعض الممتلكات البيزنطية ، فاستولى على طرطوس عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (١) كما استولى على أنطاكية عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م (٢) إلا أن وفاة سليمان في العام نفسه تسببت في حدوث انقسامات خطيرة وتمكن أبو القاسم أمير مدينة نيقية من الاستيلاء على السلطة . وقد أعطى ذلك الفرصة للامبراطور الكيسوس للتحالف معه ضد زاخاس أمير أرمير الذي كان يعمل على احتلال القسطنطينية (٣) .

ولم يترك السلطان السلجوقي ملكشاه الأمراء السلاجقة في آسيا الصغرى فريسة هذا الانشقاق فأرسل عماد الدين بوزان حاكم أنطاكية لمنازلة أبي القاسم وقد نجح في هزيمته بل وذبحه . وحاول الكيسوس الاستفادة من الموقف بالتحالف مع بوزان إلا أن موت ملكشاه جعله يتحول إلى التحالف مع قلعج أرسلان بن سليمان الذي استعاد عرش والده (٤٨٥ - ٥٠١ هـ / ١٠٩٢ - ١١٠٧ م) (٤) وبذلك أصبح شغل الكيسوس الشاغل هو التحالف مع بعض السلاجقة لضرب بعضهم البعض الآخر ، خاصة زاخاس الذي تمكن من هزيمة الأسطول البيزنطي عام ١٠٩٠ م / ٤٨٣ هـ ولقب نفسه بالامبراطور

واتخذ شعار الامبراطوري . وقد كان لدى زاخاس قوات كبيرة لدرجة أنه حاصر مدينة أبيدوس Abydos عام ١٠٩٣ م / ٤٨٦ هـ (٥) مما جعل قلعج أرسلان يسعى لكسب وده فتزوج من ابنته . ولم يجد الكيسوس وسيلة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١٥ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ ، الاصفهاني : المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) Anna Comnena, op. cit., p. 201.

A.S.C., p. 89.

Anna Comnena, op. cit., pp. 233-4, 275.

(٣)

(٤)

(٥)

للتخلص من السلاجقة الا باتباع الدس والوشاية بين الصهرين ، وقد آتت هذه السياسة أكلها فقتل قلعج أرسلان صهره بعد أن أسكره ، كما عقد الامبراطور صلحا مع قلعج أرسلان ونم توقيع المعاهدة التي لم تكن في صالح السلاجقة بقدر ما كانت في صالح بزنطة التي استعادت بموجبها بعض المدن الساحلية . وبعد أن أمن الامبراطور جانب قلعج أرسلان بدأ يعمل على حماية أملاكه من خطر الدانشمندين في كبادوكيا وذلك باقامة بعض التحصينات لتساعد في الدفاع عن المقاطعات البيزنطية ، وليتفرغ للأحوال الداخلية والقضاء على محاولات التمرد التي قامت في هذه الفترة وهددت حياته (١) .

ومع حلول عام ١٠٩٦ م / ٤٨٩ هـ نجد أن الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أصبح في يد السلاجقة ، وكانت حدود الامبراطورية البيزنطية لا تمتد أكثر من خلقدونية . ويقوم بديا ومنطقة الساحل الغربي لآسيا الصغرى وبعض المدن المعزولة على ساحل البحر الأسود مثل سينوب وطرايزون (٢) ، أما إقليم قيليقية فقد استولى عليه الأرمن كما استولى الدانشمنديون على إقليم كبادوكيا ووسعوا حدود ممتلكاتهم ونجحوا في الاستيلاء على مدينة قسطنطين الواقعة في إقليم بفلاجونيا Paphlagonia . ومن الملاحظ في هذه الفترة استمرار العداء بين الدانشمنديين والسلاجقة ولم تهدأ القوات الا عندما أحسنا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما (٣) .

ويرجع اتفاق آل دانشمند والسلاجقة إلى أن الامبراطور انكسبوس لم يترك القوات الصليبية تمر عبر بلاده دون أن يغتنم هذه الفرصة ويستغلها

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 278—9, 207.

(٢) Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, I, p. 238.

(٣) سيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٢٠ .

لتحقيق أهدافه، وهى استعادة الاملاك البيزنطية التى استولى عليها المسلمون. وكانت ضرورة أمن الصليبيين الحربى تجمع بين أهدافهم وأهداف الامبراطورية البيزنطية فى هذه المرحلة بالذات ، لأنه لو ظلت نيقية فى يد السلاجقة فستكون البقعة التى تهدد طرق مواصلاتهم وامداداتهم الحربية (١) . وساعد على ضرب السلاجقة فى هذا الوقت أن قلق أرسلان لم يكن موجودا فى نيقية وقت تحرك الصليبيين فى أبريل ١٠٩٦ م / ربيع ثان ٤٨٩ هـ لانشغاله باخرب مع الأمراء الدانشمنديين حول ملطية (٢) ، وشدد الصليبيون والبيزنطيون الحصار على نيقية التى ظلت تقاوم أملا فى وصول بعض النجادات اليها ولكنها استسلمت فى النهاية وتسلمها الامبراطور الكيسوس (٣) . ولم يكن بوسع قلق أرسلان بعد ضياع نيقية إلا التوجه إلى الأمراء الدانشمنديين الذين كان يحاربهم بالأمس ليصلح بينه وبينهم للوقوف ضد هذا الخطر الذى يهددهما سويا . وحاول التصدى للصليبيين ولكن النصر كان فى جانب أعدائه، ومن شدة حقد الكيسوس على السلاجقة أنه اشترى «من السبي خلقا كثيرا وحملهم إلى القسطنطينية» (٤) . وبعد هذه الهزيمة أتجه قلق أرسلان إلى قونية واتخذها عاصمة للملكة وقاعدة عسكرية للدفاع عن أراضيها ولكنه هزم مرة أخرى عند صورليوم Dorylaeum (٥) وليس لنا فى هذا الموضع من البحث أن نتتبع تحركات الصليبيين فى المنطقة الا أنه يمكن القول أنه بعد

(١) حسن حبشى : الحملة الصليبية الأولى ص ٨٥ .

(٢) Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse.

Cf. R.H.C.—Doc. Arm. t., I, p. 28.

(٣) Anna Comnena, op. cit., p. 330; William of Tyre, op. cit., II, p. 166.

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٣٤ .

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 34 ff.

(٥)

تحركات الحملة الصليبية الأولى ومع مطلع القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) ، كانت الحدود السياسية لدولة سلاجقة الروم قد تغيرت ، فقد فقدت أذنه وطرسوس وتل باشر والراوندان وسميساط بعد أن استولى عليها الصليبيون كما أن الامبراطور الكيسوس تمكن من انتزاع بعض المدن السلجوقية مثل أزمير وافسوس Ephesus وسارديس Sardis واستعاد عددا من المدن دون جهد (١) . والمهم أن الامبراطورية البيزنطية التي عجزت عن وقف التقدم السلجوقي نجحت في استغلال الصليبيين في ضرب السلاجقة وارجاع حدودها إلى مسافة مائتي ميل تقريبا ، وانزلت بهم ضربة قاصمة وأصبحوا مضطرين للقيام بالحرب الدفاعية لمدة ليست بقصيرة .

وكما استغل الكيسوس الصليبيين فإنه استفاد من الظروف التي أعقبت وفاة قليج أرسلان ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م والصراع الداخلي الذي قام في دولة السلاجقة حول العرش (٢) واستمر حوالي عشر سنوات وهي فترة حكم ملكشاه بن قليج أرسلان (٥٠١ - ٥١٠ هـ / ١١٠٧ - ١١١٦ م) . وقد تميزت هذه الفترة بأمرين ، أولهما : تحالف الكيسوس مع السلاجقة ضد بوهيمد الأول Bohemond I أمير أنطاكية (١٠٩٨ - ١١٠٤ م / ٤٩٨ - ٤٩١ هـ) عندما قام بمهاجمة مدينة دورازو Durazzo البيزنطية الواقعة في منتصف الساحل الغربي لشبه جزيرة البلقان عام ١١٠٧ م وكان النصر في هذه المعارك حليف الامبراطور الذي أجبر بوهيمد على توقيع معاهدة ديفول Devol (٣) .

(١) Anna Comnena, op. cit., p.p. 346—8.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 331; A.S.C., p. 89;

الفارق : تاريخ الفارق ص ٢٥٠ .

(٣) Anna Comnena, op. cit., pp. 395 ff.

أنظر أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٥٨ ، ص ٧١ من هذا الكتاب.

ويبدو أن هذا النصر العظيم الذي حققه الكيسوس بالإضافة إلى الصراع الداخلي في دولة السلاجقة قد دفع الكيسوس على نبذ التحالف الذي عقده مع السلاجقة وشجعه على استعادة بعض المدن من أيدي السلاجقة وهذا هو الأمر الثاني ، (١) فقد تمكن الكيسوس من استعادة السواحل الجوية لآسيا الصغرى حتى مدينة أضاليا وتمكن أيضا من إصلاح أسوار مدينة ضورليوم التي سبق أن خربها زاخاس . ولم تفلح المقاومة السلجوقية في هذا الوقت في وقف التقدم البيزنطي ، فقد هزمت القوات البيزنطية السلاجقة وعامل البيزنطيون الأسرى منهم أسوأ معاملة حتى أنهم كانوا يلقون بالأطفال في الماء المغلي . ويبدو أن آل دانشمند كانوا في هدنة مع السلاجقة في هذا الوقت لذلك ، حاول الدانشمنديون باورهم التصدي للبيزنطيين وإيقاف مثل هذه الأعمال الوحشية ولكن القوات الدانشمندية هزمت على يد البيزنطيين الذين قتلوا وأسروا العديد كما نجحوا أيضا في إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا في أيدي آل دانشمند (١) . ويبدو أن هذه الانتصارات أجبرت ملكشاه بن قلعج أرسلان على عقد الصلح مع الامبراطور الكيسوس في عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م ، ولم تسجل لنا المؤرخة أناكومينا شروط هذا الصلح إلا أنه من الواضح أن ملكشاه لم يتخل عن أي منطقة من المناطق الواقعة في أملاكه (٢) .

والظاهر أن ملكشاه قد عقد هذا الصلح كسبا للوقت حتى يستعد ويجمع أكبر عدد من القوات ليهاجم الامبراطورية البيزنطية ويستعيد المسدّن التي فقدتها السلاجقة في السنوات السابقة ، ولكن الكيسوس نجح هذه المرة أيضا

وتمكن من هزيمة القوات السلجوقية وخرب بيثينه Bithynia وفيلادلفيا Philadelphia واستولى على مدينة بروسه (١) ، وفي عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م جمع ملكشاه جيشا كبيرا بالاضافة إلى ما ورد اليه من امدادات ، وعندما علم الامبراطور البيزنطى بأمر هذه التجمعات أخذ زمام المبادرة (٢) ، وهاجم السلاجقة وكان النصر للسلاجقة فى أول الأمر ولكن الجيش البيزنطى تمكن بقيادة يارداس Bardas من هزيمة السلاجقة عند سهل عمورية وغنم الكثير ، ثم انتصر السلاجقة بعد ذلك وانتهت هذه المعارك بأن اقترح ملكشاه الصلح مع الامبراطور ، وقد وافق الكيسوس على ذلك دون تردد لأنه كان يخشى القوات السلجوقية التى تتجمع بأعداد ضخمة وتهاجم الجيش البيزنطى من كل جانب ، وتقابل الكيسوس وملكشاه ، وبينما كان التفاوض دائرا بين الفريقين جاءت الأخبار بخروج مسعود على أخيه ملكشاه وأعلن نفسه سلطانا على دولة سلاجقة الروم (٥١٠ - ٥٥٠ هـ / ١١١٦ - ١١٥٥ م) (٣) .

وإذا كان عرش السلاجقة قد آل إلى مسعود فلم يلبث عرش بيزنطة أن آل أيضا إلى يوحنا كومنينوس عام ١١١٨ م ، وعند موت الكيسوس أول أباطرة الأسرة الكومنينية كانت ممتلكات بيزنطة فى آسيا الصغرى هى طرابزون وكل ساحل البحر الأسود وكل الساحل الجنوبى حتى أنطاكية فى الشام وجميع المدن الواقعة غرب الخط الذى يمر بمدينة سينوب وجانجرس Gangres وانقره Ancyre وعمورية وفيلومليون Philomelion (٤) . وهكذا

Anna Comnena, op. cit., p. 453.

(١)

Diehl, C., Histoire de l'Empire Byzantin, p. 147.

(٢)

Anna Comnena, op. cit., pp. 471—491.

(٣)

Frood, E., The Byzantine Empire, pp. 343—4.

(٤)

استعادت الامبراطورية الكثير من اراضيها التي كان السلاجقة قد استولوا عليها .

واهتم يوحنا بالشنون الآسيوية مثل أبيه، وكان يهدف إلى إعادة حدود الامبراطورية حتى أنطاكية والفرات وارغام كل من الأرمن في قيليقية والامارات الصليبية في الشام على قبول سيادته (١) . والواقع أنه كان لا يستطيع القيام بهذا العمل إلا بالقضاء أولا على القوة السلجوقية . ويبدو أن السلاجقة قد استعادوا سيطرتهم على بعض المناطق الممتدة من وادي نهر المياندز Meander حتى أضااليا مستغلين الفرصة التي أتاحها الصراع على العرش البيزنطي وقطعوا اتصال الامبراطورية بممتلكاتها الواقعة شرقي هذه المنطقة إلا عن طريق البحر ، وقد تمكن يوحنا في فترة مبكرة من حكمه من طرد السلاجقة واجلاهم عن المنطقة التي تسلكوا اليها (٢) وبذلك قضى على الاسفين الخطير الذي سببه وجود الممتلكات السلجوقية داخل الأراضي البيزنطية (٣) . وحتى يفتح الطريق أمامه إلى أنطاكية .

ولكن السلاجقة عادوا مرة أخرى للهجوم على أملاك الامبراطورية البيزنطية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م فعبّر يوحنا البسفور في العام التالي وأغار على القبائل السلجوقية الرحل والزم عددا كبيرا منها بالدخول في طاعته وأجبرهم على إمداد الامبراطورية بعدد من القوات العسكرية (٤) وفي الفترة التالية

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) Nicetas, op. cit., pp. 17, 19: Cinnamus, op. cit., pp. 2—3.

(٣) عمر كمال توفيق : نفس المرجع والصفحة .

Frood, op. cit., p. 347. (٤)

انشغل يوحنا بمسائل الصرب وهنغاريا (١) ، وانشغل بالملاجقة بالصراع بين بعضهم البعض وبينهم وبين آل دانشمند من جانب آخر . فقد قام عرب أخ السلطان السلجوقي مسعود بعزله فلجأ الأخير إلى الامبراطور يوحنا لمساندته على أخيه ، الأمر الذي رحب به الامبراطور ، ولم يجد عرب بدا من التحالف مع الأمير الأرمني ثوروس الأول Thoros I (١١٠٠ - ١١٢٩ م / ٤٩٣ - ٥٢٣ هـ) . وبفضل المساعدات البيزنطية تمكن مسعود من الانتصار على أخيه عرب واستعادة العرش السلجوقي فلجأ عرب بدوره إلى يوحنا أيضا ولكنه ما لبث أن مات هناك . وفي الوقت نفسه ازداد نفوذ آل دانشمند وتمكن محمد ناصر الدين بن كمشكين (٤٩٥ - ٥٣٧ هـ - ١١٠٢ - ١١٤٣ م) من توسيع رقعة أملاكه إلى الشرق في اتجاه الفرات على حساب الممتلكات السلجوقية وشمالا تجاه الممتلكات البيزنطية عند بنطس Pontus ، وخاصة بعد أن سلمه الحاكم البيزنطي كاسيانوس Casianos المنطقة التي كان يسيطر عليها وكانت آخر ما تبقى للامبراطورية البيزنطية من مراكز في هذه المنطقة (٢) .

وحوالي ذلك الوقت كان يوحنا قد فرغ من مشاكله في الغرب فقرر القضاء على قوة آل دانشمند ، وخلال الفترة الممتدة من ١١٣٠ - ١١٣٥ م / ٥٢٦ - ٥٣١ هـ قام الامبراطور بعدة حملات على آسيا الصغرى الاسلامية لمحاولة استعادة الأراضي المفقودة ولتأكيد هيبة خاصة أن بوهمند الثاني Bohemond II أمير أنطاكية (١١٢٦ - ١١٣٠ م / ٥٢٠ - ٥٢٤ هـ)

(١) عن مسائل الصوب وهنغاريا في هذه الفترة أنظر :

Ostrogosky, op. cit., p. 336; Brehier, L., Vie et Mort de Byzance, p. 321; Bailly, A., Byzance, p. 327.

Chalandon, F., Jean II Comnene et Manuel Comnene, pp. (٢)

أصدرت : الروم : ج ٢ ص ١٤١ . 80-81; Brehier, op. cit., p. 323.

حاول السيطرة على أملاك الأمير الارميني ثوروس عند موته (١) . وكانت الحملة الأولى للامبراطور يوحنا سنة ١١٣٠ م / ٥٢٦ هـ ولكنها لم تستكمل بسبب المؤامرة التي دبرها أخوه اسحق Issac مما اضطره للعودة إلى العاصمة لمواجهتها (٢) وقد فر اسحق وابنه يوحنا إلى الأمير الدانشمندى الذى رحب به، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل أن الأمير الدانشمندى محمد ناصر الدين تحالف مع ليو الأول Leo I (١١٢٩ - ١١٣٦ م / ٥٢٣ - ٥٣١ هـ) خليفة ثوروس (٣) ، وانزعج يوحنا لهذا التحالف فخرج فى عام ١١٣٢ م / ٥٢٧ هـ إلى إقليم بنطس، ولكن أنصار اسحق فى العاصمة اغتسموا فرصة غياب الامبراطور ونادوا باسحق امبراطورا ، مما اضطر يوحنا للعودة مرة أخرى للقضاء على المتآمرين ، وكان ذلك فرصة للأمير الدانشمندى الذى تقدم حتى سينوب (٤) :

وفى أوائل عام ١١٣٣ م / ٥٢٧ هـ تمكن الامبراطور البيزنطى من الاستيلاء على مدينة قسطنطين من أيدى آل دانشمند وهى المدينة التى كان يعتبرها الامبراطور مركزا لانطلاق المسلمين ضد الأراضى البيزنطية، وتقدم حتى وصل إلى نهر الهاليس Halys ، وعاد يوحنا إلى العاصمة ودخلها دخول الظافرين ومعه الأسرى . ويبدو أن النصر الذى أحرزه يوحنا كان عظيما لدرجة أن الشعب استقبله استقبالا رائعا وقدم له مركبة مزينة بالذهب والاحجار الكريمة . ولم يستسلم الأمير محمد ناصر الدين لهذه الهزيمة فبعد

(١) Hethoum, Comte de Groigos, cf., R.H.C. Doc. Arm., I, P. 473.

(٢) Walter, G. la Vie quotidienne a Byzance, p. 24.

(٣) A.S.C., p. 99.

(٤) Chalandon, op. cit., 85.

عودة يوحنا هاجم مدينة قسطنطين واستردها بالقوة، وكان على يوحنا أن يجهز حملة جديدة لمهاجمة الأمير محمد ناصر الدين ولكن وفاة زوجة الامبراطور أخرت قيام هذه الحملة حتى صيف العام التالى. وقد ساعد يوحنا عندما قام بحملته هذه أمران ، أولهما الصراع الذى نشب بين آل دانتشمند وبعضهم البعض ، وثانيهما أن الامبراطور نجح فى استالة السلطان مسعود السلاجوقى إلى جانبه . وقد تمكن يوحنا من مهاجمة مدينة قسطنطين التى سلمت له ثم اتجه إلى بانجرس واستولى عليها أيضا وترك بها حامية بيزنطية (١) . وظن يوحنا أنه أضعف من قوة آل دانتشمند وأنه أصبح فى امكانه أن يتجنب أخطار سلطنة قونية والأمراء الدانتشمندين (٢) . بعد هذه الحملة الظافرة التى أعادت للامبراطورية بعض الأراضى التى فقدتها منذ زمن طويل (٣) . فقد تمكنت من استرداد كل ساحل البحر الأسود حتى شرقى طرابزون وكل سواحل آسيا الصغرى الأمر الذى أسهم فى إعادة الامبراطورية إلى قوتها مرة أخرى كدولة بحرية (٤) .

واستعد يوحنا لمهاجمة السلاجقة عندما حاصروا مدينة كيسون واستنجد ببلدوين Baldwin حاكم مرعش وكيسون بالامبراطور ، وعندما علم السلاجقة بقدوم القوات البيزنطية رفعوا الحصار ، ولما كان يوحنا فى طريقه إلى أرمينية وأنطاكية لاختصاصهما لسلطانه فلم يهاجم السلاجقة واتخذ طريقه إلى الجنوب . وانتهر السلطان مسعود فرصة غياب يوحنا وتواجهه فى انشام وهاجم مدينة

Nicetas, op. cit., pp. 25—7; Cinnamus, op. cit., pp. 13—14. (١)

Diehl, op. cit., p. 148. (٢)

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

Brehier, op. cit., p. 323. (٤)

أدنه (١) الأمر الذى دفع يوحنا بعد عودته من الشام إلى القيام ببعض العمليات العسكرية ضد السلاجقة التى انتهت بانسحاب مسعود، ولم يستمر يوحنا فى مهاجمة السلاجقة ، ربما لعلمه بالارهاق الذى تعانیه قواته بعد حملته على الشام أو ربما أنه اطمأن ببعض الشئ خاصة وأنه أثناء عودة الامبراطور إلى القسطنطينية ، قدم أخيه اسحق وابنه يوحنا - اللذان سبقا أن تأدرا على - الامبراطور وفرا إلى آل دانشمند - وأعلنا خضوعهما للامبراطور وحصلا على عفوه (٢) ، وكان آخر ما قام به يوحنا ضد المسلمين فى آسيا الصغرى هو مهاجمة أمراء دانشمند إنتقاما لمهاجمتهم أملاكه عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م ، فقام فى العام التالى بمهاجمة مدينة نيكسار ولكن المدينة قاومت ببسالة واضطر يوحنا لرفع الحصار الذى طال لمدة ستة أشهر وانسحب فى نهاية العام دون أن يحقق أى نجاح (٣) .

وإذا كانت هذه هى صورة العلاقات السياسية بين السلاجقة وآل دانشمند والبيزنطيين فى هذه الفترة نتيجة توغلهم فى الأراضى البيزنطية واستقرارهم فى شمال ووسط آسيا الصغرى ، فأندا نجد أنه قد صاحب ذلك هجرة الأرمن تجاه الأراضى البيزنطية أيضا بعد ما استولى السلاجقة على مواطنهم الأصلية فى منابع نهر الفرات . وقد رحبت الامبراطورية البيزنطية فى أول الأمر بالمهاجرين الجدد ومنحتهم ضياعا واسعة فى كبادوكيا ، وقد أدى ذلك إلى زيادة هجرة الأرمن إلى موطنهم الجديده. ولكنهم بدأوا يبحثون عن موطن

A.S.C., pp. 276—7.

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

Nicetas, op. cit., pp. 42—3.

(٢)

Brehier, op. cit., p. 225.

(٣)

آخر نتيجة الزحف الساحق فأتجهوا إلى أراضي قبليقية الجبلية في جنوب شرق آسيا الصغرى وتركزوا في الجهات المحيطة بملطية والره وأنطاكية (١).

وبالتدريج أخذ هؤلاء المهاجرون الريفيون الجبليون الذين يتميزون بطاقات كبرى والجلد على العمل المغرمون بالاستقلال ينزلون إلى سهل قيقية الفسيح بعد أن جهزوا وحصنوا معاقلمهم القوية بالأبراج على قمم الجبال ومنافذ الوديان ، وشيثا فشيثا تمكنوا من السيطرة على هذا الاقليم الجبلي الموحش الذي يسرت له الطبيعة سبل الدفاع عنه (٢) . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المنطقة كانت تضم عددا من البلدان والقلاع التي كانت تتحكم في الطريق من آسيا الصغرى إلى الشام ومنها أدنه وطرسوس والمصيصة وعين زريه وهي التي عرفت بالثغور الاسلامية (٣) وكانت في هذا الوقت بمثابة خط الدفاع الأممي للامبراطورية البيزنطية وسيكون لاستيلاء الأرمن على هذه المنطقة أثرا كبيرا على أمن الامبراطورية في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى . وعلى أية حال كان ضمن المهاجرين عدد من الشخصيات الذين لعبوا دورا كبيرا في تاريخ هذه المنطقة . وقد استغلوا الصراع الذي دار بين السلاجقة والبيزنطيين لكي يستقوا في أماكنهم على حساب القوتين معا (٤) . وكان من الذين انتهزوا مثل هذه الفرصة فيلاريترس Philaretus الذي اعتمدت عليه الامبراطورية البيزنطية في صراعها مع السلاجقة إذ كانت تكن له كل تقدير واحترام لما توسمت فيه من الشجاعة والاخلاص . واعتبره الامبراطور

(١) فيلاريترس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) Schlumberger, G., Renaud de Chatillon, p. 45.

(٣) لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٩ وما بعدها وعن هذه المدن وغيرها . أنظر الخريطة

رقم ١ - ٤ .

Chalandon, op. cit., p. 97.

(٤)

رومانوس الرابع أحد رجاله المقربين . ولكنه ما لبث أن تمرد على الامبراطورية البيزنطية بعد معركة مازكرت التي أسر فيها الامبراطور وما أعقب ذلك من خلعه من العرش وسمل عينيه ، ورفع راية العصيان (١) .

وانتهز فيلاريتوس ضعف كل من الامبراطور ميخائيل ونقفور واضطراب الأحوال الداخلية في بزنطة من ناحية وانشغال الامبراطورية بالصراع مع السلاجقة من ناحية أخرى فتمكن من تدعيم مركزه حول مرعش وريعيان والبلستين ، كما نجح أيضا في انتزاع مدينة ملطية من أيدي السلاجقة وهي أيضا من مدن الثغور . وكان من نتيجة هذا النجاح الذي أحرزه فيلاريتوس أن دخل في طاعته الزعماء الأرمن المجاورين له وكانوا يسيطرون على طرسوس والمصيصة وعين زربه ، وزادت أطماع فيلاريتوس في الممتلكات البيزنطية فاستولى على الرها سنة ١٠٧٧ هـ / ١٠٧٧ م ، ثم انتزع أنطاكية في العام التالي ، وهي المدينة التي سلمها له أهلها مختارين خشية استيلاء السلاجقة عليها (٢) وبذلك أصبح فيلاريتوس يسيطر على الأراضي الممتدة من طرسوس غربا حتى فيما يلي نهر الفرات شرقا (٣) وأصبحت حدود دولته الجديدة متاخمة للأتراك السلاجقة من الشرق والشمال والامبراطورية البيزنطية من الغرب .

ولم يجد الامبراطور البيزنطي نقفور بدا من محاولة ربط هذا الأمير بالدولة البيزنطية فعمل على التقرب إليه في الوقت الذي كان يخشى فيه فيلاريتوس قوة الأتراك السلاجقة . فأعلن ولاءه للامبراطور واعترف

١٠٧٧
سنة ١٠٧٧ هـ / ١٠٧٧ م
على الرها

١٠٧٨
الأنطاكية

شعبه
نقفور

Anna Comnena, op. cit., p. 198; Grousset, R., L'Empire du Levant, (١)
p. 177.

Anna Comnena, op. cit., p. 189. (٢)

أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

Runciman, op. cit., I, p. 73. (٣)

بالسيادة للامبراطور نقفور الثالث . وبذلك أمن فيلاريتوس جانب
الامبراطورية البيزنطية . ولكن الأتراك السلاجقة لم يتركوه ينعم بهذه الغنيمة
التي تعرض توسعاتهم . وحانت الفرصة عندما سار فيلاريتوس إلى القسطنطينية
فكتب أهل أنطاكية إلى سليمان بن قتلмыш «وراسلوه ليحضر ليسلموا إليه
أنطاكية ، فسار اليهم وتسلم البلد وملكه» (١) وهكذا ضاعت أنطاكية من
أيدي البيزنطيين والأرمن عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ - ١٠٨٥ م وآلت بعد مقتل
سليمان في عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م إلى الأمير باغى سيان حتى فتحها الصليبيون
عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٨ م (٢) .

وبعد ضياع أنطاكية من فيلاريتوس استقل أحد رجاله وهو جيريل
Gabriel بمدينة ملطية ، كما احتفظ رجل آخر من رجاله وهو ثوروس
Thoros بالرها . ولكنهما تحولاً تجاه السلاجقة وأعلنا ولاءهما للحكام
المسلمين وظل هذا الوضع قائماً حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى التي استولت
على الرها في عام ١٠٩٨ م وانتهى أمر ثوروس . كما تسلم بوهمند أمير أنطاكية
مدينة ملطية من جيريل الذي زوجه ابنته وقدم له المدينة بائنة لهذا الزواج (٣) .

غير أن الأرمن الذين كانوا يتأرجحون في ولائهم بين المسلمين
والبيزنطيين بالأمس نجدهم منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى يتأرجحون في
ولائهم بين البيزنطيين والصليبيين ، وكان من هؤلاء الأمراء الذين ظهروا في
هذه الفترة هو باكرد Pakrad الذي هرب من سجنه في القسطنطينية وتمكن
من الانضمام إلى القوات الصليبية عندما كانوا يحاصرون نيقية ، كما قدم اليهم

⑤

باكرد

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦ .

(٢) أعمال الفرنجة ص ٦٤ وما بعدها ، عمر كمال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ٥٠ .

(٣) سعيد عبد الفتاح هاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٠١

خدمات جليلة أثناء مرورهم عبر قيليقية لخبرته بمسالك هذه المنطقة وكافأه الصليبيون على ذلك بمنحه بعض القلاع في تل باشر والراوندان ولكن العلاقة بينة وبين الصليبيين ما لبثت أن أنتابها الشكوك فانتزعوا منه أملاكه بعد أقل من سنة (١) .

كوخ بازل

وإلى جانب باكرد نجد أيضا أخيه كوخ بازل Kogh Basil أو بازل اللص كما يسميه المؤرخ أبو الفرج الملقب لأنه سرق عدة قلاع من البيزنطيين في قيليقية وحكمها (١٠٩٨ - ١١١٢ م / ٤٩٠ - ٥٠٦ هـ) (٢) ، وقد تمكن بازل من بسط نفوذه على كيسون وربعان وحصن منصور وقلعة الروم (٣) ، كما حاول الإبقاء على الروابط الاسمية مع الامبراطورية البيزنطية (٤) ، وفي الوقت نفسه ظل على علاقة طيبة ظاهرية مع الصليبيين حتى عام ١١١٢ م وهي السنة التي دخل فيها في صراع مكشوف مع تانكرد Tancerd أمير أنطاكية ١١٠٤ - ١١١٢ م / ٤٩٧ - ٥٠٦ هـ ، الذي هاجم ممتلكاته ولكنه ما لبث أن مات بعد قليل وقد سبب موته حزنا بالغا للأرمن الذين كانوا يجدون فيه كل الصفات الممتازة على حد قول المؤرخ الأرمني سباد (٥) . ولا تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بأية معلومات عن أية مساعدات قدمها الامبراطور البيزنطي الكيسوس للأمير بازل في صراعه ضد تانكرد .

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 188, 304-5.

(٢) أبو الفرج الملقب : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٦ . A.S.C., p. 72.

(٣) Sempad, op. cit., p. 610.

(٤) يذكر المؤرخ الأرمني جريجوار اسم كوخب بازل مقرونا بكلمة Sebaste وتسمى «المفضل» وهي من الألقاب التي كان يحملها رجال الامبراطورية البيزنطية آنظر :

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 165.

Sempad, op. cit., p. 613.

(٥)

ونخلف الأمير بازل أمير أرميني آخر هو بازل دجه Basil Dagah (١١١٢ - ١١١٦ م / ٥٠٦ - ٥١٠ هـ) وأقام في كيسون وقد اختلفت سياسة هذا الأمير عن سلفه فانحاز تماما إلى الصليبيين وهم الجانب الأقوى في هذه المرحلة بعد ما اتعظ بما لحق بسلفه ، ولكنه لم يتمكن من ارضاء كافة الزعماء الصليبيين ، ففي الوقت الذي وطد فيه العلاقات الطيبة مع تانكرد نجدها على العكس مع أمير الرها بلدوين أف بورج (١) Baldwin of Bourg (١١٠٠ - ١١١٨ م / ٤٩٣ - ٥١٢ هـ) وحاول بازل دجه إيجاد روابط أرمينية قوية لمواجهة الموقف فتزوج من أخته ليو وهو زعيم أرميني آخر ، ولكن ثوروس أخ ليو قبض عليه وسلمه لبلدوين فاضطر للتنازل عن ممتلكاته مقابل اطلاق سراحه . وبعد اخلاء سبيله في عام ١١١٦ م لجأ إلى القسطنطينية حيث قابله الامبراطور الكيسوس بالترحاب (٢) .

هذا ما كان من أمر الزعماء الذين جاء حكمهم قبل بداية حكم الامبراطور مانويل ، أما سلالة آل روبيان Rupen فقد استمرت وعاصرت حكم مانويل . وبهنا في هذا الموضع لقاء الضوء على هذه الأسرة . وروبان هذا كان أحد الزعماء الأرمينيين وكان له أبنا هو قنسطنطين Constantine الذي تمكن من السيطرة شيئا فشيئا على ممرات طرسوس وأصبح يتحكم في الطريق المؤدى من قيصرية إلى عين زربة ، وقد احتفظ بالعلاقات الطيبة مع الصليبيين أثناء الحصار على أنطاكية ، وعندما مات في عام ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ خلفه ابنه ثوروس الأول Thoros I (١١٠٠ - ١١٢٩ م / ٤٩٣ - ٥٢٣ هـ) الذي منحه الصليبيون لقب بارون . وقد أعلن ثوروس هذا راية العصيان على

(١) تول بلدوين هذا ملك مملكة بيت المقدس (١١١٨ - ١١٣١ م) بعد امارة الرها .

Chalandon, op. cit., p. 101.

(٢)

بزنطة واستولى على بعض الأراضي البيزنطية وأقام في مدينة فاهجه (١) Vahka الواقعة في شمال قيليقية إلى الشمال من مدينة سيس ولم يعترف بالتبعية للامبراطور الكيسوس، وازدادت العلاقة سوءا عندما قام ثوروس بقتل أولاد مانديليه Mandale الموالين للامبراطورية البيزنطية انتقاما لقتل الملك كاكيج الثاني آخر ملوك أرمينية الكبرى - في عام ١٠٩٢ م / ٤٨٥ هـ . ولم يترك الكيسوس أية فرصة إلا وانتهزها لتأكيد ملكية الامبراطورية البيزنطية للأراضي التي يحكمها ثوروس ومن ذلك ما نصت عليه معاهدة ديفول التي أجبر بوهمند على توقيعها من تبعية ثوروس للامبراطور (٢) . وظل الوضع متأزما بين بزنطة وثوروس حتى مات في عام ١١٢٩ م (٣) .

وخلف ثوروس أخيه ^(٤) ليو الأول (٤) الذي تمكن من الاستيلاء في عام ١١٣٢ م / ٥٢٦ هـ على أدنه وطرسوس والمصيصة وعين زربه (٥) وهي المدن التي كانت في حوزة بزنطة في ذلك الوقت (٦) وفي العام التالي استولى على بعض الأراضي الواقعة جنوبي ملطية وكانت في حوزة آل دانيشمند ، وفي عام ١١٣٥ م / ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ استولى ليو على بعض الأراضي الخاضعة للصليبيين والواقعة في جبال الامانوس Amanus . وبذلك دخل ليو في صراع مع البيزنطيين والصليبيين والمسلمين . وقد تمكن بلدوين حاكم مرعش

Sempad, op. cit., p. 610.

(١)

Anna Comnena, op. cit., p. 430.

(٢)

Sempad, op. cit., p. 615.

(٣)

(٤) كان جوسلين الثاني Josceline II أمير الرها (١١٣١ - ١١٥٠ م) متزوجا من

بياتريس Beatrice أخت ليو الأول . أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, p. 52.

(٥)

A.S.C., p. 276.

Cinnamus, op. cit., p. 16.

(٦)

وكيسون من القبض عليه وسلمه إلى ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وظل
ليو في السجن لمدة شهرين تقريبا ثم أطلق سراحه بعد ما سلم أولاده كرهائن
وتنازل عن مدينة أدنة والمصيصة وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ستون ألف
تاهيجان Tahegane (١).

ويبدو أن ليو تحالف مع الصليبيين ضد بيزنطة عندما كان في الأسر لأنه
قام عقب عودته إلى قيليقية بمهاجمة مدينة سليوقية Seleucia وهي من
المدن المتقدمة في الامبراطورية البيزنطية (٢) ومن أعظم المدن التجارية (٣)
وحوالي ذلك الوقت كان الامبراطور البيزنطي يوحنا قد فرغ من مشاكله
وعاد ليؤكد سيطرته على أنطاكية وأرمينية لأنه كان يهدف إلى جمعهم
اقطاعا لأبنة المفضل مانويل (٤). وقام يوحنا بحشد عددا كبيرا من الوحدات
العسكرية المتمرسه على الحروب وكانت تتكون من أجناس مختلفة من الشعوب
الخاضعة للامبراطورية استعدادا لغزو أرمينية وأنطاكية. وسار يوحنا جنوبا
حتى أضاليا ثم توجه إلى عين زربة واستولى عليها بعد حصار دام سبعة وثلاثون
يوما، وتشير هذه المدة إلى مدى مقاومة الأرمن للقوات البيزنطية رغم ضخمتها
في الوقت الذي لم تعلق فيه المدينة أية نجدات لأن المنطقة المحيطة بها لم تكن

(١) Sempad, op. cit., pp. 615—6.

راجع أيضا : انطوان خانجي : مختصر تواريخ الأرمن ص ٢١٩ . والتاهيجان عمله أرمينية
كانت تعادل الدينار عند المسلمين وأحيانا تعادل البيزنط وأصل الكلمة فارس . وكان
التاهيجان مقسم إلى عشر أقسام مثل الدينار أو البيزنط وكان أيضا من نوعين أحدهما من الذهب
والآخر من الفضة عن ذلك أنظر : Matheu d'Edesse, op. cit., P.IX N.2.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 141.

(٣) Brehier, op. cit., p. 333.

(٤) Diehl, op. cit., p. 157.

كلها تابعة لحكم ليو ، والدليل على ذلك أن المؤرخ الأرمني جريجوار أطلق لقب «امبراطورنا» على الامبراطور يوحنا (١) . وقد نجح يوحنا أيضا في الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع التابعة للأمير ليو وأسر زوجته وهرب أثنان من أولاد ليو واتجها إلى خالهما جوسلين الثاني كونت الرها ، كما لاذ ليو بالفرار ومعه أثنان من أولاده وهما روبان وثوروس واختبأوا جميعا في جبال طرسوس ورفعوا لواء المقاومة (٢) .

ولم يستمر يوحنا في مطاردة ليو وإنما أدخر قواته لاختضاع أنطاكية وهو ما سنوضحه في موضع آخر في هذا البحث ، ولكن ما يهمنا في هذا الصدد أن يوحنا بعد ما عاد من أنطاكية عام ١١٣٧ م / ٥٣٢ هـ أكمل حملاته ضد ليو وانتهى الأمر بالقبض عليه ومعه ولديه روبان وثورس وأرسلوا جميعا إلى القسطنطينية (٣) ، ولتأكيد السيادة البيزنطية على هذه المنطقة أقام يوحنا بطاركة بيزنطيين في هذه المدن (٤) ، وظل ليو في أسرهِ حتى مات في عام ١١٤٢ م / ٥٣٦ هـ ، ولكن ابنه ثوروس تمكن من الهرب في عام ١١٤٤ م / ٥٣٨ هـ وعاد إلى قبيلية ليعيد تأسيس الامارة الأرمنية مرة أخرى (٥) .

وهكذا سجل يوحنا نصرا حقيقيا على اماراة أرمنية قبل موته في عام ١١٤٣ م / ٥٣٧ هـ وأعاد المنطقة إلى حظيرة الامبراطورية ، ولكن ذلك لم يكن

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 154. (١)

William of Tyre, op. cit., II, 52, Chalandon, op. cit., p. 116. (١)

Sempad, op. cit., p. 617. (٢)

ويرى ابن العديم أن الامبراطور يوحنا قال للأمير ليو الأرمني «أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام» فسيره إلى القسطنطينية . أنظر : ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣ ، أنظر أيضا : ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢١٢ .

Odo of Deuil, op. cit., p. 69. (٤)

Hethoum, Comte de Groigos, op. cit., p. 474. (٥)

كل أهداف الأمبراطورية في الفترة السابقة لحكم مانويل . بل كان من هدفها أيضا تأديب الصليبيين واعادة امارة أنطاكية بالذات إلى السيادة البيزنطية وهو ما سنوضحه في المبحث التالي .

كانت الامبراطورية البيزنطية قد مرت بفترة من المتاعب السياسية وضعفت فيها السلطة المركزية وترتب على ذلك ضعف القوة العسكرية حتى حلت بها كارثة مانزكرت ، ومع هذا الشعور بالخطر نجد أن الامبراطور ميخائيل السابع الذي استولى على العرش عقب موقعة مانزكرت قد ألح على البابا جريجورى السابع لارسال نجدة سريعة لانقاذ الامبراطورية البيزنطية وأراضيها في آسيا الصغرى . ونظير ذلك وعد ميخائيل السابع بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية ، وحاول البابا تنفيذ ذلك ولكنه لم يستطع ، وانبعث الأمل من جديد في بيزنطة أثر اعتلاء الامبراطور الكيسوس العرش الذى كان رجلا ذكيا حاضرا الذهن قوى الارادة وقائدا عظيما — ودبلوماسيا ماهرا ، وظهر في تلك الفترة العصبية من تاريخ الامبراطورية كرجل الساعة . وقد تمكن الكيسوس من التغلب على بعض المشاكل كحقوق استقرارا نسبيا في الداخل وصد بعض الاخطار الخارجية التي تعرضت لها الامبراطورية (١) .

وبينما كان الامبراطور الكيسوس مهتما بالأمر الداخلية للأمبراطورية ويعمل على صد الأخطار السلجوقية ، أعلن البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) في مؤتمر كليرمونت Clermont الذى عقد في عام

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٣٠ .

١٠٩٥ م عن مشروع الحملة الصليبية الأولى (١) ، واستعدت القوات الصليبية لتأخذ طريقها إلى الأراضي المقدسة بالشام عبر القسطنطينية ، ومع قدوم الحملة الأولى تدخل الأمبراطورية البيزنطية في صراع ضد عنصر آخر ، هو الصليبيون .

اتخذت القوات الصليبية طريقها من أوروبا شرقا إلى آسيا الصغرى ، وعندما تجمع الصليبيون عند القسطنطينية بغية الوصول إلى الأراضي المقدسة في الشام ، كان الأمبراطور البيزنطي الكيسوس يعتبرهم قوات مرتزقة ، لذلك رأى أنه يجب على جميع القادة الصليبيين أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للأمبراطور ، وعليهم أن يعتبروا أنفسهم أتباعا للأمبراطورية البيزنطية ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، ولكنه بعد مناقشات عديدة ومواقف متباينة واختلاف وجهة النظر بين الأمبراطور والقادة الصليبيين انتهى الأمر بأن قام جودفري أوف بوايون Godfrey of Bouillon دوق اللورين بتقديم الولاء وأعلن وضع قواته في خدمة الأمبراطورية البيزنطية لاسترداد الأراضي التي استولت عليها السلاجقة (٢) ، وسمح الأمبراطور جودفري بعبور البسفور حتى لا تتجمع القوات الصليبية كلها عند القسطنطينية ، وأعقب ذلك قدوم بوهمند النورمانى أكبر أبناء روبرت جويسكار د العدو القديم للأمبراطورية (٣) . ولا شك أن قدوم بوهمند قد أثار المخاوف في نفوس البيزنطيين ، ولكن هذه الغيوم مالبثت

(١) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 11 ff.

وعن أسباب الحروب الصليبية ودوافعها أنظر : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢ وما بعدها ، سعيد عيد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٢١ وما بعدها ، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 323.

(٣) عن الصراع بين روبرت جويسكار وبيزنطة أنظر :

Saewulf, Pilgrimage to Jerusalem, P. 2; Bailly, op. cit., pp. 308—9.

أن تبتدئ عندما أقسم بوهند يمين الولاء كسلفه جودفري ، ولكن الأمر اختلف مع بوهند فقد ذكرت إحدى الحوليات أن بوهند طلب من الكيسوس أن يمنحه اقطاعا في أنطاكية فوافق الأميراطور على ذلك ووعد أن يمنح بوهند منطقة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوما وعرضها مسيرة ثمانية أيام (١) .

وتلى ذلك قدوم ريموند كونت تولوز Raymond Count Toulouse . وقد دعاه الكيسوس ليقدم يمين الولاء كزملائه ولكنه رفض في أول الأمر وأصبح الوضع يهدد بصدام مسلح بين الطرفين . وتحت بعض الظروف والظروف وافق على احترام الأميراطور ووعد ألا يقوم هو أو رجاله بأي عمل يسيء إلى الأميراطور . أما بقية زعماء الحملة الذين قدموا عن طريق القسطنطينية فلم يسيبوا متاعب تذكر للأميراطور البيزنطي . وقد وجد بعض زعماء الحملة أمثال تانكرد أخو بوهند عدم الارتباط مع الأميراطور بأي عهود لذلك تجنبوا المرور عبر القسطنطينية (٢) ريثما في هذا الموضوع أن نتبع إلى أي مدى التزم الصليبيون بالعهود التي قطعوها على أنفسهم للأميراطور الكيسوس .

اتجه الصليبيون ومعهم بعض القوات البيزنطية إلى نيقية التي سقطت في أيديهم وانتهى الأمر بأن ضمت إلى أملاك الأميراطورية البيزنطية . وتقدم الصليبيون بعد ذلك في ربوع آسيا الصغرى ، وعند مدينة طوانه Tyana انقسموا إلى شعبتين ، واتخذت الشعبة الأولى طريقها إلى الرها بقيادة بلدوين

(١) أعمال الفرنجة : ص ٣١ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٥٦ .

(٢) Anna Comnena, op. cit., pp. 323, 339; William of Tyre, op. cit., I, pp.

أخ جردفري ، وقد نجح بلدوين هذا في دخول المدينة ، ثم ما لبث أن سيطر على زمام الموقف في المدينة بعد مقتل حاكمها ثوروس الأرميني وأصبح أميراً على الرها (١) . وأما الشعبة الثانية وكان على رأسها جودفري وبوهمند فقد اتجهت إلى مدينة أنطاكية ، ولما كان بوهمند يعمل على التنصل من الوعد الذي قطعه على نفسه ، فقد أتهم القائد البيزنطي تاتكيوس Taticius الذي كان يرافق القوات الصليبية بالخيانة مما أثار غضب الصليبيين ، يضاف إلى ذلك تهديده بالانسحاب أثناء حصار مدينة أنطاكية وتوسل الزعماء الصليبيين إليه في البقاء ووعدوه بتسليم المدينة ، هذا إلى جانب أن المسلمين عندما حاصروا الصليبيين داخل المدينة استنجدوا بالأمبراطور البيزنطي ، وبينما كان الكيسوس في طريقه إلى أنطاكية أخبروه بأن المسلمين استعادوا المدينة وأنهم في طريقهم إلى آسيا الصغرى فانزعج الكيسوس وعاد إلى بلاده (٢) . بكل هذه الأسباب مهد بوهمند لعدم الارتباط بالعهد الذي قطعه على نفسه وانتهى الأمر بعد صراعه مع ريموند كونت تولوز أن آلت إليه أنطاكية وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً عليها (٣) . وقد أثار ذلك حفيظة الأميراطور الكيسوس باعتباره خرقاً لنصوص الاتفاقية المعقودة بينه وبين الصليبيين ، ولكن احتجاج الكيسوس لم يلقِ أذناً صاغية من جانب بوهمند (٤) . واستمر الصليبيون في فتح الشام وتمكنوا بعد ذلك من تأسيس إمارة بيت المقدس ثم طرابلس في الوقت الذي كان يخطط فيه الكيسوس للانتقام من بوهمند .

A.S.C., pp. 70—71.

(١) عن ذلك ولزيد من التفاصيل أنظر :

William of Tyre, op. cit., I, pp. 219, 277—8.

(٢)

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٥٤ — ٥٦ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٤٤ وما بعدها .

وحانت الفرصة للامبراطور عندما وقع بوهمند أسيرا عام ٤٩٥ هـ
 ١١٠١ - ١١٠٢ م في يد الأمير غازي بن دانشمند أمير سيواس (٤٧٧) -
 ٤٩٥ هـ / ١٠٨٤ - ١١٠٢ م (١) ، وتولى الوصاية على أنطاكية ابن أخته
 تانكرد الذي لم يكن أقل عداء للأمبراطورية البيزنطية عن بوهمند ، فقام بالاستيلاء
 على بعض المدن البيزنطية وهي أدنه والمصيصة وطرشوس واللاذقية (٢) .
 كما قام أيضا بعزل رجال الدين الأرثوذكس وحل محلهم رجال الدين
 الكاثوليك ، مما زاد في غضب الأمبراطور الكيسوس (٣) . وعمل الكيسوس
 جاهدا لاستلام بوهمند من الأمير غازي بأى ثمن ولكن جهوده باءت بالفشل
 لأن الزعماء الصليبيين نجحوا في فك أسر بوهمند للحد من أطماع تانكرد (٤) .
 وعندما عاد بوهمند إلى أنطاكية ، أرسل إليه الكيسوس سفارة يضليه
 بتنفيذ العهد الذى قطعه على نفسه ويطالبه برد جميع المدن التى انتزعها من
 السلاجقة وعلى رأسها أنطاكية . ولكن بوهمند رفض طلب الامبراطور متعللا
 بخيانة تاتكيوس وعدم حضور الامبراطور على رأس قواته لمساعدة الصليبيين
 أثناء زحفهم على الشام ، ويلومه أيضا على ترك الصليبيين يقاسون ويلات الخروب
 ضد المسلمين بمفردهم ، وعندما عادت السفارة إلى القسطنطينية ومعها رد
 بوهمند قرر الامبراطور مهاجمته (٥) ، وقد شجعه على ذلك هزيمة بوهمند
 على يد المسلمين في موقعة حران عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، والثورة التى قام
 بها الرعايا البيزنطيون في مدن أرمينية ضد الحكم النورمانى (٦) ، وأرسل

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤ - ٢١٤٥

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٣) Neal and Others, The Patriarchate of Antioch. p.

(٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١ .

(٥) Anna Comnena, op. cit., pp. 357-8.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٦ .

حملة بحرية بقيادة كانتاكوزينوس Cantacuzenus ، وقد تمكنت هذه الحملة من استعادة اللاذقية وعديد من القلاع على طول الساحل حتى طرابلس (١). ولم يسع بوهمند إلا الابحار إلى أوربا وقام بدعاية سيئة واسعة النطاق ضد الأمير اطورية البيزنطية خاصة لدى البابا وملك فرنسا، وتمكن من حشد عدد كبير من المحاربين لمحاربة بيزنطة وقام بمهاجمة دورازو، وقد أسرع الكيسوس للملاقاة بوهمند بعد أن تحالف مع السلاجقة (٢). وقد تمكن الأمير اطور من انزال الهزيمة بخصمه مما اضطر بوهمند في النهاية للاستسلام وتوقيع معاهدة ديفول مع الامبراطور عام ١١٠٨ (٣). ويعتبر خضوع بوهمند وهو الأمير كان ينطاول على الأمير اطور للدليل على ما كان للأمبراطورية من جلال ومجد (٤) وفي الواقع فإن خضوع بوهمند وتوقعه مع هذه ديفول يعتبر حرج زاوية في هذا البحث ، وقد أوردت نصوص المعاهدة أنا كرمينا، ونستخلص منها أن المعاهدة ألغت كل العهود التي قطعها بوهمند على نفسه عند مروره مع الحملة الصليبية الأولى وأن بوهمند نفسه هو الذي طلب عقد هذه المعاهدة التي تعهد فيها من جديد أن يكون تابعا وخادما مخلصا طول حياته للامبراطور الكيسوس ولأبنة يوحنا من بعده وأنه يعتبر نفسه حايقا للامبراطور وأنه قبل أن يحكم الأراضي التي تحت يديه، كوديعة من قبل الأمير اطور ، كما تعهد بوهمند أن يحترم حلفاؤه من بعده هذه المعاهدة ووافق على تنصيب بطاركة بيزنطين أرثوذكس بدلا من البطاركة الكاثوليك (٥).

(١) Anna Comnena, op. cit., p. 365

(٢) ابن خلدون : البرج ٥ ص ١٦٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., I, pp. 417—2, Anna Comnena, op. cit., p. 416

(٤) Runciman, op. cit., I, pp. 50—51: Baynes and Moss, Byzantium, p. 30.

(٥) Anna Comnena, op. cit., pp. 424—433. عن نصوص المعاهدة أنظر :

وفي الواقع لقد كان الأمير اطور في منتهى الحرص عندما وضع في بنود هذه المعاهدة نصا يلغى الاتفاقيات الأولى ويجبر بوهمند على عهود جديدة لأنه كان يعلم أنه أخل بشروط الاتفاق لعدم زحفه بنفسه مع القوات الصليبية، وهي النقطة التي كان يتذرع بها الصليبيون في رفض أحقيته في البلدان التي فتحوها وكانت ملكا للأمبراطورية البيزنطية من قبل ، فأراد أن يقطع خط الرجعة على الصليبيين بهذا البند الذي صيغ بمنتهى الحكمة ، يضاف إلى ذلك أن — الأمير اطور أمن لأولاده من بعده ملكية المدينة ، والأهم الذي نود أن نوضحه في هذا المكان ونحن بصدد نصوص المعاهدة أن إدعاء بزنطة في ملكية أنطاكية بعد ذلك أصبح مرجعه إلى معاهدة ديفول وليس إلى إتفاقيات القسطنطينية الأولى التي قطعها القادة الصليبيون على أنفسهم ، لأن معاهدة ديفول حلت محل العهد الذي قطعه بوهمند على نفسه عام ١٠٩٧ م (١) .

ولم يعيش بوهمند طويلا فقد مات في عام ١١١١ م بعد صراع مرير مع الأمير اطور الكيسوس وحياة حافلة بالكراه العميق للبيزنطيين جميعا (٢) فهو الذي قال «أننى أخشى البيزنطيين حتى وهم يقدمون الهدايا» مات بعد أن أحرز عايه الأمير اطور الكيسوس نصرا إسميا بينما أحرز هو نصرا فعليا . وقد خلف بوهمندوراه طفلان في حوالى الثانية عشرة من عمره فتولى أمر الوصاية عليه تنكرد (٣) . ولم يكن تنكرد أقل عداء لبيزنطة من بوهمند فشق عصا الطاعة على الأمير اطور وأعلن رفضه لأحقية الأمير اطور في أنطاكية ، وبادر الكيسوس وأرسل سفارة اليه تبلغه أن الأمير اطور لن يسكت على هذا الأمر ولكن تنكرد لم يلتق .

(١) La Monte, J., To what Extent the Byzantine Empire the Suzerain of the latin Crusading States ? Cf., Byzantion Vol. VII, 1932, p. 254.

(٢) Diehl, C., Byzantium; Greatness & Decline . p. 218.

(٣) William of Tyre, op. cit., I, p. 471—2.

بالا لتهديد الامبراطور ، وعندما عادت السفارة إلى القسطنطينية وأعلنت
الامبراطور بما انتهى إليه الأمر قرر إرسال سفارة أخرى إلى الأراضي المقدسة
بهدف ضم القادة الصليبيين الآخرين إلى جانبه ضد تانكرد، واستعان في ذلك
ببذل المال والعطاء، ولكن مثل هذه الدعاية لم تلق آذانا صاغية (١) . وعادت
السفارة إلى العاصمة في الوقت الذي كان فيه الامبراطور مشغولا بالصراع
ضد الأتراك السلاجقة وضد البنادقة والبيازنة (٢) . كما أن تانكرد ما لبث
أن مات في عام ١١١٢ م بعد أن أوصى وهو على فراش الموت لابن عمه
Roger بالوصاية على ابن بوهمند حتى يبلغ سن الرشد (٣) .

ويبدو أن الكيسوس أيقن أن استعمال القوة لضم أنطاكية تحت حكمه
بشكل مباشر أصبح أمراً غير مجدياً، فبعد أن فرغ من مشاكله بدأ يتحول إلى
طريقة أخرى لضم أنطاكية وذلك عن طريق الزواج السياسي، ولكن موته حال
دون القيام بمثل هذا العمل ، وحاول يوحنا من بعده القيام بمثل هذا التصاهر
فأرسل مبعوثاً إلى روجر حاكم أنطاكية . ولما كان روجر مشغولاً في هذا
الوقت بقتال المسلمين فأصطحب معه المبعوث البيزنطي (٤) ، ولكن روجر
لقى مصرعه في معركة البلاط ٥١٣ هـ / ١١١٩ م كما «أسر رسول ملك الروم» (٥) ،
فتأخر الشروع في العمل على التصاهر المقترح لبعض الوقت حتى أفرج
عن المبعوث البيزنطي الذي توجه إلى بلدوين الثاني Baldwin II ملك بيت

Anna Comnena, op. cit., pp. 438—444.

(١)

Finlay, op. cit., III, p. 125.

(٢)

William of Tyre, Ibid.

(٣)

Cahen, op. cit., p. 281.

(٤)

(٥) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٣ ، أنظر أيضاً ابن القلانسي : المصدر السابق ص

المقدس (١١١٨ - ١١٣١ م / ٥١١ - ٥٢٥ هـ) الذي رحب بالفكرة وعرض على المبعوث زواج إحدى كريماته من أحد الأمراء البيزنطيين . وعاد المبعوث إلى بيزنطة بعد أن تخلف لبعض الوقت في قبرص (١) ، ولكن هذا المشروع لم ير النور لأن الامبراطور كان يرى أن يتم الزواج من ابنة روجر نيوك-سيطرته على أنطاكية وهي ما يعنيه وليس من إحدى بنات بلدوين .

تولى بلدوين الثاني أمر الوصاية على أنطاكية بعد مقتل روجر . وفي عام ١١٢٦ م / ٥٢٠ هـ وصل بوهمند الثاني إلى أنطاكية ثم تزوج من اليسر Alice ابنة بلدوين الثاني في العام التالي ولكنه لم يحكم طويلا ، فقد قتل أثناء قتاله مع المسلمين عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م وترك ابنته الصغيرة كونستانس Constance وريثة للعرش ، ولما كانت والدتها اليس ترى أن تكون زمام أمور أنطاكية في أيديها فقد دخلت في صراع مع والدها الذي مات في العام التالي ومع فولك الانجوي Fulk of Anjou ملك مملكة بيت المقدس (١١٣١-١١٤٤ م ٢٥٦ - ٥٣٨ هـ) من بعده ، وعندما حاول فولك تزويج ابنتها كولستس من ريموند أف بواتيه (٢) - أحد أبناء أوليم التاسع دوق أكويتين Aquitaine (٣) - سارعت بالاتصال بالامبراطور يوحنا وعرضت عليه زواج ابنتها من ابنه مانويل وهو ما كان يتمناه الامبراطور البيزنطي (٤) ، ولكن فولك عندما علم بذلك أسرع باستقدام ريموند وتمكن من اقناع اليس بأفضلية هذا الزواج الذي تم في عام ١١٣٦ م (٥) . وقد أشد غضب يوحنا لذلك ، واعتبر أن

Chalandon, op. cit., p. 120.

(١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 59.

(٢)

(٣) يطلق عليه بعض المؤرخين لقب هرقل أنطاكية نظرا لقوته أنظر :

King, The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 43 n.1.

Stevenson, W.B., The Crusaders in The East, p. 139.

(٤)

Joseph ben Joshua, I, p. 103.

(٥)

زواج الأميرة القاصرة كونستانس دون استشارته فيه انتهاكا صريحا من قبل الصليبيين لسيادته على أنطاكية ، وأخذ يعد العدة لاحقاق الحق البيزنطي في أنطاكية بقوة السلاح (١) .

وقد شجع يوحنا على الاستعداد في هذه الفترة أن الامارات الصليبية كانت تمر بمرحلة دقيقة ، فقد مات بوهمند ١١٣٠ م وبلدوين الثاني وجوسلين الأول دي كورتناي Joscelin I de Courtenay كونت الرها عام ١١٣١ م / ٥٢٥ هـ . وزادت الانقسامات والحلافات التي نشبت بين الصليبيين الأمر الذي شجع عماد الدين زنكي لمهاجمة الممتلكات الصليبية وانزال الهزيمة بها الواحدة تلو الأخرى ، وهاجم المسلمون اللاذقية عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م وعادوا محملين بالأسرى والغنائم وكانت «نكبة ما منى الافرنج الشماليون بمثلها» ، يضاف إلى ذلك هزيمة أخرى حلت بالصليبيين عند قلعة الحجاج ومقتل بونز Pons أمير طرابلس في مارس عام ١١٣٧ م (٢) . وكان من نتيجة الكوارث والهزائم التي أنزلها المسلمون بالصليبيين أنهم «أرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكي بهم ويحثونه على لحاق البلاد قبل أن تملك ولا ينفعه حينئذ الحياء» (٣) ، وأخيرا ما كان يرمى إليه من اخضاع ثوروس الأرميني لسلطاته .

وفي صيف عام ١١٣٧ م تقريبا استعد يوحنا بجيش كبير وغير أرمينية واتجه نحو أنطاكية وعسكر على ضفاف نهر الأورنت وشرع في حصار

Brehier, op. cit., p. 324.

(١)

(٢) عن هذه الأحداث أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، راجع أيضا :

William of Tyre, op. cit., II 82.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٥٣ ، أنظر أيضا العيني : عقد الجمان ج ١٦ لوحة ٩٤ .

المدينة (١) وقد ساعد يوحنا في القاء الحصار على المدينة دون مشقة خروج ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية — رغم علمه بقدوم يوحنا وقواته — للعمل على انقاذ الملك فولك الانجوى الذى كان عماد الدين زنكى يحاصره عند قلعة بعيرين (٢) فى هذا الوقت (٣) ، وربما يكون ريموند قد قصد مساعدة فولك ضد المسلمين وفك الحصار المضروب على الحصن وبداخله فولك حتى يساعد فولك بدوره ضد الامبراطور البيزنطى . والمهم أن ما قام به يوحنا من حصار أنطاكية قد أزعج الصليبيين جميعا فى بعيرين فخفضوا لشروط عماد الدين وسلموا الحصن (٤) ، وعند عودة ريموند إلى أنطاكية ليتولى أمرها . وجد القوات البيزنطية تضرب الحصار حول المدينة وتقفها بالمجانيق (٥) فى محاولة لدخول المدينة (٦) ، وقد نجح ريموند فى دخول المدينة بعد أن كد يقع أسيرا فى قبضة البيزنطيين (٧) .

والواقع أن ريموند كان أضعف من أن يدخل فى معركة عسكرية مع القوات البيزنطية خاصة أنه عاد بمفرده دون بقية الزعماء الآخرين وقواتهم .

-
- (١) Cinnamus, op. cit., p. 18 ; William of Tyre, op. cit., II, p. 92.
 (٢) بعيرين أو يارين : تقع بين حلب وحماة جهة الغرب أو بين حمص والساحل ويسمى نوعا بعيرين . أنظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٦٧٢ .
 (٣) القلانسي : المصدر السابق ص ٢٥٩ .
 (٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٣ .
 (٥) المجانيق : كلمة فارسية ، وهى عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المجانيق التى توضع فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله إلى أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ١٩٤ .

فبدأ على الفور في ارسال مبعوثه للتفاوض مع الامبراطور والجنوح إلى السلم بدلا من الحرب ، وقد نجحت المفاوضات وانتهى الأمر بأن توجه ريموند إلى معسكر الامبراطور وأدى له يمين الولاء والطاعة وتعهد بوضع المدينة وقلعتها تحت إمرة الامبراطور وأن له أن يدخلهما في أي وقت يشاء إن سلما أم حربا (١) وقد ارتضى يوحنا بهذه التسوية السلمية وأحس أنه أدرك بعض النجاح بعد ما أحرزه من قبل في أرمينية . ومن الواضح أن يوحنا قدم بقواته لثلاث مهام : اخضاع أرمينية وتأديب الصليبيين ثم مساعدتهم ضد المسلمين بعد ما استنجدوا به ، وبعد أن فرغ يوحنا من اخضاع ثوروس وريموند بدأ يعمل مع الصليبيين على مهاجمة المسلمين . وهذا ما يتضح لنا من المفاوضات التي تمت بين يوحنا وريموند والتي اقترح فيها ريموند على الامبراطور أنه في حالة استيلاء الأخير على حلب أو شيزر أو حماه فعلى ريموند أن يتسلمها ليحكمها ويرد له أنطاكية ، ووافق يوحنا على هذا الاقتراح عن طيب خاطر وتعهد لريموند وأولاده من بعده في ملكية هذه الأراضي المزمع فتحها (٢) واستراح يوحنا لهذا العرض الذي يضمن له عودة أنطاكية إلى ملكية الامبراطورية البيزنطية، وهو ما عمل من أجله هو وأبيه منذ حوالي نصف قرن ، وخطط يوحنا وريموند للقيام بهذا العمل في الصيف القادم ، وبعد هذه الاتفاقيات رفعت الأعلام البيزنطية على أبراج قلعة أنطاكية (٣) ، ثم ما لبث الامبراطور أن عاد إلى قيليقية ليقضى الشتاء ويكمل اخضاع ثوروس .

وعندما حل ربيع عام ١١٣٨ م / ٥٣٢ هـ كان يوحنا قد انتهى من أمر

William of Tyre, op. cit., II, p. 93; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 106. (١)

William of Tyre, Ibid. (٢)

Nictas, op. cit., p. 36. (٣)

ثوروس وأرسل إلى ريموند أمير أنطاكية وجوسلين الثاني أمير الرها (١١٣١) ١١٥٠ م / ٥٢٥ - ٥٤٥ هـ) يطالبهم باعلان التعبئة العامة واعداد آلات القتال والاستعداد لقتال المسلمين (١) ، ومن الطبيعي أن يطالب يوحنا ريموند بالاستعداد للقتال بحكم الاتفاقية، اما وأن يطالب جوسلين بالاستعداد فهو أمر له دلالة ويوضح مدى أطماع يوحنا ليس في ملكية أنطاكية فحسب . بل يشير أيضا إلى أي حد كان يوحنا يعتبر امارة الرها من ضمن أملاكه . ويرى يرجع تصرف يوحنا في هذا الوقت بالذات وبهذه الصورة إلى ما أحس به من نشوة النصر بعد اخضاع ثوروس وإرساله أسيرا إلى العاصمة البيزنطية . واحساسه أيضا بأن الطريق أصبح مفتوحا أمامه إلى الشام دون عوائق بعد اخضاع أرمينية تماما للسيادة البيزنطية .

نزل يوحنا بقواته من الشام وتجمعت القوات البيزنطية وعلى رأسهم يوحنا وقوات الرها وأنطاكية وعلى رأسهم جوسلين وريموند وهاجموا حلب ومن بعدها بزاعه والآثارب وشيزر (٢) وهذا ما سنوضحه في المبحث الثالث من هذا الفصل ، والمهم أن هذه الأعمال العسكرية باءت بالفشل وانتهى الأمر بأن رفع يوحنا الحصار عن شيزر وعاد إلى أنطاكية . ويرجع سبب انسحاب الأمبراطور إلى عدة أسباب، بعضها مرجعه إلى المسلمين والبعض الآخر إلى الصليبيين ، وبمينا في هذا المقام أن نذكر منها موقف الصليبيين من الأعمال العسكرية التي قادها الامبراطور يوحنا ضد المسلمين . فبينما نجد الأمبراطور البيزنطي يقود العمليات العسكرية بكل حماس وشجاعة نلاحظ فتور وعدم

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 92.

(٢) Martin, Abb, les Premiers Princes de Croises, Cf.,

J.A., 1889, p. 77.

أبوالتدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٣ .

أكثر ريموند وجوسلين بأعمال القتال ، وليس ذلك فحسب بل أهما جلسا يلعبان النرد ولا يلقيان بالا بالامبراطور الذي أرسل اليهما عدة مرات يحثهما على اللحاق به والقتال إلى جانبه ، ولكنهما لم يستجيبا لندائه الأمر الذي دفع المؤرخين لالقاء اللأمة عليهما (١) . وعلى ذلك يمكننا القول أن موقف ريموند السلبي بصفة خاصة يرجع إلى أنه لم يكن راغبا لإطلاقا في انجاح عمليات يوحنا العسكرية في الأراضي الاسلامية واستيلائه عليها حتى لا يتسلها بدوره حسب اتفاق عام ١١٣٧ م ، ويسلم أنطاكية للامبراطور ، وربما يكون أبعد نظرا من ذلك ورأى أن المسلمين لن يتركوه سالما في ملكه الجديد بعد عودة الامبراطور إلى بلاده وأنه سيتعرض لهجمات اسلامية لا طاقة له بها وأنه سيفقد ملكه المقترح لا محالة ويرجع بخفي حنين .

ومهما يكن من أمر فقد غضب يوحنا من تصرفات ريموند وجوسلين ولم يستمر في قتال المسلمين وأدخر قواته واتجه إلى أنطاكية ودخلها طبقا لاتفاق عام ١١٣٧ م في موكب مهيب وأقام في قلعتها وتصرف في المدينة كما لو كان صاحبها وأسبغ هداياه على الجميع وطالب باستلام البلاد طبقا للاتفاق المعقود مع ريموند حسبما تشير بذلك الحوليات المعاصرة ، وليس إلى معاهدة ديفول التي لم تذكر في هذا الوقت ، سواء في المصادر البيزنطية أو الصليبية (٢) . ومن ذلك يتضح أن اتفاق بوهمند الأول أثناء مروره عبر آسيا الصغرى مع الامبراطور الكسيوس قد ألغاه اتفاق معاهدة ديفول بين بوهمند والكسيوس وأنه إذا كان يوحنا طالب حتى عام ١١٣٧ ملكية أنطاكية بموجب معاهدة

William of Tyre, op. cit., II, pp. 95—6; Vitry, History of Jerusalem, (١) p. 24; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 107.

William of Tyre, op. cit., II, p. 97, Cinnamus, op. cit., 19; See Also, (٢) Otto of Freising, op. cit., p. 473.

ديفول ، فان اتفاق ١١٣٧ م قد حل محل معاهدة ديفول وأصبح الأساس الذى يطالب يوحنا بموجبه ملكية المدينة (١) .

وهكذا تأزم الموقف بين يوحنا وبين ريموند خاصة وأن الامبراطور طالب أن يتم تسليم المدينة فى حضوره ، وهنا تدخل جوسلين كونت الرها وأشار إلى أن مثل هذا الأمر يتطلب الرجوع فيه إلى النبلاء الصليبيين فى المدينة . فوافق الامبراطور على ذلك وترك جوسلين للاتصال بهم ، فى الوقت الذى احتجز فيه إلى جواره ريموند شبه أسير (٢) . وكان فى ذلك فرصة وكسبا للوقت الذى استغله جوسلين وتمكن من إثارة أهالى المدينة ضد الامبراطور وطلباته ، وقاموا بثورة عارمة حملوا فيها السلاح ودارت مجزرة رهيبة بين القوات الصليبية والقوات البيزنطية التى كانت بداخل أنطاكية وضرد الصليبيون البيزنطيين إلى حيث يقيم الامبراطور ومعه ريموند ، وقد انزعج يوحنا لهذه الأحداث واستدعى ريموند والنبلاء وأبلغهم أنه عدل عن استلام المدينة وطلب منهم العمل على تهدئة الصليبيين . وترك الأمور على ما هى عليه ووعد بالرحيل عن المدينة فى اليوم التالى . وهكذا اضطر يوحنا للرحيل والجلء عن أنطاكية بقلب جريح فى الوقت الذى ظن فيه أنه أصبح سيدا للمدينة . (٣)

رلم يكن يوحنا هو الرجل الذى تخدعه مثل هذه التمثيلية . وفى الوقت نفسه أحس ريموند وجوسلين بغضب الامبراطور فقاموا بتمثيلية أخرى وأرسلوا مندوبين عنهما إلى الامبراطور الذى كان لا يزال معسكره مضروبا حول أسوار المدينة وقدموا له ولاء الأمير ريموند ورغبته فى تسليم المدينة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ط ص ٥٩١ .

William of Tyre, op. cit., II, pp. 100—101.

(٢)

Brehier, op. cit., p. 325.

(٣)

والقلعة، ولكن يوحنا - رغل كل ما حدث - لم يكن راغباً في اعلان القطيعة بينه وبين الصليبيين لذلك قبل يوحنا العرض المقدم منهم ولكنه اعتذر عن دخول المدينة وتعلل ببعض الأمور الداخلية في الامبراطورية ، وعاد إلى بلاده بعد أن أصبحت مسألة أنطاكية شغله الشاغل . وقد حانت له الفرصة مرة أخرى على أثر رسالة عاجلة أتت اليه من ريموند وشعب أنطاكية تطالبه بالحضور إلى المدينة (١) . وربما ترجع أسباب استدعاء الامبراطور إلى الهزيمة التي أنزلتها قوات زنكي بقوات أنطاكية على ضفاف نهر العاصي في عام ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م (٢) ، أما المؤرخ البيزنطي نيكيتاس فيشير إلى أن يوحنا قد تحرك من تلقاء نفسه إلى أنطاكية لاختضاعها لنفوذه وأن ظهوره في الشام كان مفاجأة للصليبيين (٣) ولكن الأحداث التالية تشير بوضوح إلى أن استدعاء يوحنا كان بسبب مساعدتهم ضد المسلمين .

على أية حال فقد سار يوحنا على رأس قوات ضخمة إلى الجنوب في العام نفسه وعطف على تل باشر - وكانت تتبع أمير الرها في ذلك الوقت - فاندحش جوسلين لوصول مثل هذه القوات وطلب الامبراطور منه بعض الرهائن ، فاضطر جوسلين إلى ارسال ابنته ايزابيلا Isabella ، وأتجه يوحنا بعد ذلك وعسكر عند قلعة بغراس Gaston الواقعة شمال أنطاكية والتي كان يسيطر عليها الفرسان الداوية ، ومن هناك أرسل إلى ريموند أمير أنطاكية يطالبه بتسليم المدينة لاتخاذها قاعدة عسكرية لقواته حتى يتمكن من مهاجمة المدن

William of Tyre, op. cit., II, pp. 102, 123; Campbell, The Crusades, (١) p. 176.

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ ، أبوشامة : الروضتين ج ١ ص ٣٤ .
(٣) Nicetas, op. cit., p. 52.

المجاورة التابعة للمسلمين (١) . ووجد ريموند نفسه في حرج شديد وراوغ مرة أخرى واستدعى كبار النبلاء ورجال الدين الذين قرروا في النهاية عدم الموافقة على طلب الأمبراطور ، وعندما أبلغ السفراء هذا القرار إلى يوحنا غضب ، ولكنه كان يتوقع مثل هذا الرفض فهو أمر له سوابقه في العلاقات الصليبية البيزنطية ، كما أن دخول المدينة وهي ثائرة من طلبات الامبراطور أصبح من الصعب تحقيقه (٢) ، لذلك فضل يوحنا الانسحاب المؤقت وارجاء عملياته العسكرية حتى ينتهى شتاء عام ١١٤٢ م وحلول فصل الربيع في انعام التالى (٣) .

وإن كان هذا هو موقف ريموند أمير أنطاكية من الأمبراطور فان يوحنا رأى أن يسبر أغوار فولك ملك مملكة بيت المقدس (٤) هذا من جانب . ومن جانب آخر فان يوحنا حاول أن ينظاها بالود إلى الجانب الصليبي . لذلك نجده يقوم بارسال سفارة على مستوى عال من النبلاء البيزنطيين إلى الملك فولك ليعلن رغبته في زيارة الأراضي المقدسة وتقديم المساعدة العسكرية للملك ضد المسلمين (٥) ، ورغم أن المسلمين كانوا قد أنزلوا هزيمة قاسية بقوات فولك عند عسقلان عام ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م (٦) ، فان الملك لم يكن راغب على

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 124.

وتدل هذه العبارة أن الغرض من استدعاء يوحنا هذه المرة هو مساعدة ريموند في محاربة المسلمين . أنظر :

Archer & Kingsford, The Crusades, p. 192.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 124—125.

A.S.C., P. 276 see also, Strogorskey, op. cit., p. 337;

Michaud, History of the Crusades., I, p. 313; Ludlow, The Age of the Crusades, p. 152.

William of Tyre, op. cit., II, p. 126.

(٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٧٣ .

الاطلاق في قدوم القوات البيزنطية إلى أراضيها ، لذلك أرسل إلى الامبرطور انسلم Anselm أسقف بيت لحم ومعه رسالة فحواها أن مملكة بيت المقدس ذات موارد محدودة ولا يمكنها تموين الجيش البيزنطي الكبير وأنه يخشى من حدوث مجاعة بالبلاد ، وأشار أنه يرحب بقدوم الامبراطور ومعه عشرة آلاف من رجاله فقط لزيارة الأراضي المقدسة (١) ، ومن هذه المراوغة نستطيع القول أن يوحنا تأكد من موقف فولك تجاه الامبراطورية البيزنطية وأنه غير راض عن وجود القوات البيزنطية في الشام وعن امتلاك يوحنا لأنطاكية أيضا . وشعر الامبراطور بخيبة أمل كبيرة من موقف ريمونوفولك وخطط لقضاء الربيع في قيليقية كعادته والعودة مرة أخرى في الربيع التالي لتأديب الصليبيين ولكنه مات هناك في الوقت الذي أصبح فيه الصراع سافرا بين البيزنطيين والصليبيين (٢) ، دون أن يحقق غرضه الكبير الذي غادر من أجله العاصمة هذه المرة وهو اقامة امارة لأبنه المفضل مانويل تضم أرمينيا وأنطاكية وقبرص (٣) أو يضم حتى أنطاكية وهو العمل الذي جاهد طويلا من أجل تحقيقه (٤) .

تعرضنا في المباحث السابقة للعلاقات بين بيزنطة والسلاجقة والأرمن والصليبيين ، ونبينا في هذا المبحث العلاقات بين بيزنطة والدول والامارات الاسلامية في مصر والشام . وفي الواقع لقد كان الصراع بين بيزنطة والدولة الفاطمية ملموسا عندما كانت حدود الدولتين متاخمة ، فاذا تتبعنا العلاقات

William of Tyre, Ibid.

(١)

Setton, A history of The Crusades, I, p. 530.

(٢)

Cinnamus, op. cit., p. 23.

(٣)

Odo of Deuil, op. cit., p. 71 ; Conder, The latin Kingdom of

(٤)

Jerusalem, p. 99.

بين بيزنطة ومصر نجد أنه في عهد الحاكم ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٧ - ١٠٢١ م حيث كانت مدينة بيت المقدس في حوزة مصر ، نلاحظ أن أباطرة بيزنطة كانوا لا يجرؤون على زيارة الأراضي المقدسة علانية ، ولكن الخليفة الفاطمي الحاكم - رغم ما عرف عنه بالشذوذ أرسل إلى الامبراطور البيزنطي يقول «كن آمنا فان أقصدك بسوء» ولكن الحاكم ما لبث أن خرب المدينة عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٩ م ، وقد ظلت خربه أكثر من ربع قرن من الزمان (١) . وفي عام ١٠٣٧ م / ٤٢٩ هـ ، قامت بيزنطة بإرسال كثير من الهدايا وضمت الصلح والشفاعة واطلاق سراح خمسة آلاف أسير من جانبها مقابل أن يؤذن لها باصلاح كنيسة القيامة (٢) . وهذا يوضح لنا مدى قوة الدولة الفاطمية في هذه الفترة لدرجة أن الامبراطورية البيزنطية كانت تخطب ودها . ويسو أن هذه العلاقة الودية ظلت فترة من الزمان حتى أنه تم الاتفاق مع بيزنطة على امداد مصر بالغلل عندما وقعت بها المجاعة (٣) ، وعلى طلب بيزنطة مساعدة مصر إذ تعرضت أراضيها للهجوم من جانب أعدائها ، ولكن هذه العلاقات توترت بعد ذلك ودار بعض المعارك البرية والبحرية بين الطرفين كان النصر فيها لبيزنطة . وانتهى الأمر بتجديد الهدنة بين الطرفين عام ٤٣٩ م / ١٠٤٧ م ، وتبديات الهدايا بينهما ، ولكن محاولة الامبراطورية البيزنطية التقرب إلى السلاجقة على حساب الدولة الفاطمية أفسد العلاقات بعد ذلك (٤)

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٣٦ .

(٢) أبو الفداء : المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٦ - ٧ .

(٤) أبو الفداء : المصدر السابق ص ١٦٧ ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها

في مصر - التاريخ السياسي - ص ١٥٢ - ١٥٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٣٥ .

كما أن تحرك السلاجقة وما تبعه من تغير في الحدود السياسية بين الدولتين كان له أثره الواضح في العلاقات البيزنطية الفاطمية ، فظهور السلاجقة وتقدمهم في الأراضي البيزنطية وفي الشام واستقرارهم في هذه البقاع أصبح يمثل مناطق حاجزة بين الحدود البيزنطية والفاطمية ، بذلك زال الصدام المباشر بينهما واتشغلت كل من بيزنطة ومصر بالصراع ضد التقدم السلجوقي وظل هذا الوضع قائما حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى التي غيرت من موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي (١) . وحاولت بيزنطة الاستفادة من القوى الجديدة التي ظهرت في المنطقة ولكن هذا التقارب الظاهري ما لبث أن تكشف وأصبح العداء واضحا بين بيزنطة والصليبيين يسانداهم الغرب الأوربي . والذي نود أن نوضحه هنا أن العلاقات بين مصر وبيزنطة لم تكن علاقات مباشرة وإنما علاقات يحكمها العداء أو الصفاء الذي يسرد الجسور البيزنطية الصليبية من ناحية والصليبية والاسلامى من ناحية أخرى .

ومن ذلك ما رواه المؤرخ تودبودوس أن الامبراطور البيزنطي الكيسوس قد أشار على الصليبيين بالعمل على التحالف مع الدولة الفاطمية في مصر ، وأنهم فعلا أرسلوا مبعوثين إلى مصر عندما كانوا يحاصرون مدينة نيقية (٢) ولعل ما دفع الامبراطور إلى اسداء هذه النصيحة — أن صححت هذه الرواية — هو علمه بالانقسام الذى يسود العالم الاسلامى في هذه الفترة خاصة بين حكام مصر الشيعة وحكام الشام السنيين ، وأن في هذا التحالف ولاشك ضربة للسلاجقة الذين أراد الامبراطور بهذه النصيحة أن يطعنهم من الخلف . وفي

(١) جوزيف نسم يوسف : الوحدة وحركات القطة ص ١٢ - ١٣ .

(٢) Tudebodus, Historia Peregrinorum, Cf., R.H.C. Occ. Vol III, p. 181.

الواقع لا تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بالمزيد عن مشروع التحالف مع الدولة الفاطمية إلا أنه يمكن أن نستنتج أن الكسيوس تناول الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأدنى الاسلامي مع القادة الصليبيين وقد ظهر في حديثه ولاشك عدائه الصريح للسلاجقة بخلاف الحال مع الدولة الفاطمية الأمر الذي اعتبره القادة ومنهم بوهمند أن الامبراطور متعاطف مع الدولة الفاطمية . ولذلك عندما قامت الدولة الفاطمية بالتحرك العسكري ضد الصليبيين في جنوب الشام ، اعتبر بوهمند أن ذلك ناتج عن اتصال الامبراطور البيزنطي بالدولة الفاطمية وهو الذي جعل المؤرخ رينه جروسيه يؤكد هذا الاتصال الأمر الذي دفع بوهمند إلى اعتباره غدرا بهم من قبل الامبراطور . ولما كان بوهمند يتحين الفرص للتوصل من الوعد الذي قطعه على نفسه . لذلك قام بوهمند على الفور بعزل البطريق الارثوذكسي البيزنطي يوحنا الرابع وتعيين البطريك الكاثوليكي برنارد أف فالنس Bernad of Valence أسقف مدينة ارتاح بدلا منه (١) ، وانساق رانسبان وراء هذه الدعاية التي روج لها الصليبيون لتكون ذريعة لهم في عدم الوفاء بعهدهم قبل بيزنطة وأشار إلى وجود مثل هذه الاتصالات ، وليس ذلك فحسب بل أضاف أن خطابات الكسيوس قد وقعت في يد الصليبيين ، ولكنه ذكر أيضا أن الفاطميين كتبوا إلى الامبراطور الكسيوس يستفسرون منه عن ابعاد الغزو الجديد وهو الحركة الصليبية ومدى موقفه من هذه الحركة ولكن الامبراطور نفى صلته بالصليبيين (٢) وهنا نود أن نشير إلى ملاحظة هامة وهي اذا كان هناك اتصال حثا بين مصر وبيزنطة بشأن الصليبيين ، فلماذا تقوم مصر بالاتصال بالامبراطور

Grousset, Histoire des Croisades, I, p. 114.

Runciman, op. cit., I, pp. 272—3.

(١)

(٢)

البيزنطى الكسيوس للاستفسار عن أبعاد الحركة الصليبية ومدى اتصاله بهذه الحركة ؟ . وإن كان هذا ما رواه المؤرخون الغربيون ، فإن المؤرخة البيزنطية انا كونيئا مؤرخة هذه الفترة قد صحتت حول هذا الاتصال الأمر الذى يجعل الباحث لا يقطع برأى حول هذا الموضوع . ولكن أنا كومينا أشارت فى موضع آخر تعاطف والدها الامبراطور الكسيوس مع القائد الصليبي ولیم جوردان William Jordan ابن خالة ريموند كونت تولوز ، فعندما كان ولیم يقوم بحصار طرابلس ، وهى المدينة التى كان الفاطميون يحاولون استعادتها لسلطانهم ، نجد الامبراطور البيزنطى يكتب إلى حاكم قبرص البيزنطى يوماتيوس فيلو كالس Eumathuis Philocales يطلب منه ارسال أحد رجاله وهو نيكيتاس شالينتز Nicetas Chalintze و معه مبلغ كبير من المال لمساعدة ولیم فى حصار طرابلس ، وامداده أيضا بالسفن الحربية اللازمة (١) . حقيقة أن فخر الملك بن عمار لم يكن راغبا فى السيادة الفاطمية واستبسل فى الدفاع عن المدينة وتمكن من أسر إحدى السفن البيزنطية واقتادها إلى ميناء طرابلس (٢) ، ولكنه عندما غادر المدينة إلى دمشق لطلب النجدة ، أرسل أهل طرابلس إلى الوزير الفاطمى الأفضل يلتمسون منه المساعدة ، ولكن هذه المساعدة وصلت بعد فوات الأوان وسقطت المدينة فى أيدي الصليبيين (٣) . ومن هذه الرواية يتضح مساعدة البيزنطيين للصليبيين فى الاستيلاء على مدينة طرابلس ، حسب الروايات البيزنطية والاسلامية فى الوقت

Anna Comnena, op. cit., pp. 357, 441.

(١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤١٢ .

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٦٠ - ١٦٣ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص

التي صممت فيه المصادر الصليبية عن امدادنا بأية معلومات حول هذه المساعدة البيزنطية ، ومن ذلك يتضح لنا إلى أى مدى حاولت المصادر الصليبية اتهام الامبراطور الكيسوس بالحياة والغدر بهم ليكونوا في حل من الوعود التي قطعوها على أنفسهم وينفردوا بحكم الامارات الصليبية .

ولم تمددنا المصادر المتاحة لنا بعد سقوط طرابلس عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م . بالمزيد من التفاصيل حول العلاقات البيزنطية الفاطمية سواء أكانت هذه العلاقات مباشرة أو غير مباشرة ، فالامبراطورية البيزنطية قد شغلها الصراع مع السلاجقة والأرمن والصليبيين في الجانب الشرقى بالإضافة إلى صراعها مع الغرب ، وفي الوقت نفسه نجد الخلافة الفاطمية بدأت تمر بمرحلة من التدهور لم تلبث بعدها طويلا .

أما عن العلاقات السياسية بين بيزنطة والحكام المسلمين في الشام فإن هذه العلاقات كان يؤثر فيها استنجد الصليبيين بالامبراطورية البيزنطية لمساعدتهم ضد الخطر الاسلامي الذي كان يهددهم من وقت لآخر ، وفي الواقع لم يكن الخطر الاسلامي ملموسا طالما وجدت الفرقة بين الحكام المسلمين في الشام . ولكن هذا الخطر أصبح واضحا بظهور عماد الدين زنكي الذي ترتبط به حركة البعث الاسلامي في هذه الفترة .

ويرجع عهد عماد الدين زنكي بالمنطقة عندما تولى حكم الموصل والجزيرة في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، وقد كان زنكي يؤمن بضرورة توحيد القوى الاسلامية في الشام حتى يتمكن من مواجهة القوى الصليبية ، فبعد أن نظم أموره في الموصل استولى على نصيبين من الاراقطة ، ثم اتجه إلى حران التي كانت دائما تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات

المتكررة من الرها وسروج والبيرة (١) ، ثم استولى في العام التالي على حلب (٢) التي كانت عرضة للهجمات الصليبية من وقت لآخر ، كما دأب له أمراء بني منقذ في شيزر بالولاء (٣) ، ومع نهاية عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م كان عماد الدين يعمل على أملاك حمص . وبذلك تمكن من إخضاع شمال الشام لسلطانه في الوقت الذي كان تاج الملوك بوري يحكم دمشق في صراع مع عماد الدين ، والمهم أن عدم وفاق حاكم دمشق مع عماد الدين لم يكن عقبة في سبيل تحقيق أهدافه . ففي الوقت نفسه كان يعمل على توحيد الشام وكان في صراع دائم مع الصليبيين . وقد أحس القادة الصليبيون بقوة عماد الدين زنكي خاصة عندما قامت أليس Alice ، أرملة بوهمند الثاني أمير أنطاكية وابنة الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في عام ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ ، بمراسلة عماد الدين زنكي لمساعدتها في الانفراج بحكم أنطاكية ومناصرتها على الأمراء الصليبيين في تحقيق أهدافها (٤) ، ذلك مقابل الدخول في طاعته (٥) .

ورغم عدم وصول الرسالة إلى عماد الدين زنكي إلا أن مثل هذا الأمر يوضح لنا مدى ما كان لزنكي من نفوذ في المنطقة ، وهو ما جعل بلدوين الثاني يسرع إلى أنطاكية عندما سمع هذه الأخبار السيئة حسب تعبير المؤرخ ولیم الصوري ويدخل المدينة ويضعها تحت وصايته ، وقد ظل هذا الوضع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٤ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) ابن القلانسي ، المصدر السابق ص ٢٣٩ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 44.

(٤)

Runciman, op. cit., II, p. 183.

(٥)

حتى مات بلدوين في سنة ١١٣١ م ، وانتقلت الوصاية من بعده بعد صراع إلى فولك
الانجوى ملك مملكة بيت المقدس أيضا (١) .

ولإذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين
لمساندتها ووقوعها في صراع مع والدها والنبلاء الآخرين بدلا من انفرادها
بحكم أنطاكية ، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى وهى الاتصال بالامبراطور
البيزنطى يوحنا تعرض عليه زواج أبنها الأميرة كونستاس من أبنه مانويل (٢)
ولاشك أن مثل هذا العرض قد لقي قبولا حسنا من قبل الامبراطور . لأن
ذلك يعنى دخول أنطاكية فى تبعية بيزنطة وهى ما تسعى اليه جاهدة منذ
الحملة الأولى وهو الأمر الذى لا يقره بقية الزعماء الصليبيين ، لذلك صارعوا
بتزويج كونستاس من ريموند أف بواتيه . وقد غضب يوحنا من هذا الزواج
الذى تم دون استشارته باعتبار أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية وبذلك بات
الصدام وشيكا بين يوحنا وريموند ونزل يوحنا إلى الشام بجيشه مهددا أنطاكية
ولكن ريموند عمل على استرضاء يوحنا وقدم له يمين الولاء وتم الاتفاق بينهما
وفى هذا الاتفاق تجلت أطماع الامبراطورية البيزنطية فى أملاك المسلمين بالشام
وفى هذا الاتفاق أيضا تم تحالف بيزنطى صليبي ضد المسلمين بغرض الاستيلاء
على حلب وشيزر وكل المناطق المجاورة لها لتكون ملكا للامبراطور البيزنطى
الذى يقوم بدوره بتسليمها إلى ريموند أف بواتيه مقابل تسليم الأخير مدينة
أنطاكية للامبراطور وأتفقا على انجاز هذا العمل فى صيف العام التالى ١١٣٨ م (٣)
ويبدو أن هذا الاتفاق قد تسربت أخباره إلى أهالى حلب الذين شرعوا

(١)

William of Tyre, op. cit., II, pp. 53—4.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٤٣ .

(٣) أنظر ما سبق ص ٧٧ .

في تحصين المدينة وحفر خنادقها ، كما أن الأمير سوار حاكم حلب من قبل عماد الدين قام بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية وظفر «بسرية وافرة العدد من عسكره ، فقتل وأسر ، ودخل بهم إلى حلب» (١) ورغم ما كان يضمه يوحنا من سوء النية وما كان يبيت من هجوم على حلب في العام التالي ، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين وأرسل إليه رسولا فأكرمه عماد الدين وردده «ومعه هدية إلى ملك الروم فهوذ وبزاه وصقور» مع حاجبه حسن ، وقد أخبر الإمبراطور البيزنطي يوحنا رسول عماد الدين بأنه ذاهب لقتال الأرمن (٢) ، وبهذه الطريقة أراد يوحنا خداع عماد الدين حتى يطمئن إليه .

ومن العوامل التي ساعدت على التقارب البيزنطي الصليبي في هذه المرحلة أن عماد الدين حاصر قلعة بعين عام ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م ، وشدد الحصار على سكانها حتى أكلوا الدواب ، «فذلت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم والافرنج مستنصرين على المسلمين» (٣) وربما يكون ذلك من الأسباب التي جعلت يوحنا يتفق مع ريموند لمحاربة المسلمين لا من أجل امتلاك أراضيهم ولكن من أجل إرضاء عامة الصليبيين بعد ما استنجدوا به وبعد احساسه بأنه حامى الممتلكات الصليبية في الشام ، لذلك اتفق مع ريموند بأف يسلمه ما يفتحه من بلاد المسلمين مقابل الحصول على أنطاكية .

ومع بداية عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م ، قام الإمبراطور بارسال مبعوثيه إلى ريموند وجوسلين للاستعداد للقتال لتنفيذ اتفاق عام ١١٣٧ م ، وكان ممنا

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) العظيبي : المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٥ .

فعله الصليبيون حتى تسير عملياتهم في سرية تامة أن قاموا بالقبض على «التجار بأنطاكية والسفار من هل حلب» (١) حتى لا تتسرب أنباء القتال والحشود العسكرية عن طريق هؤلاء التجار إلى القادة المسلمين (٢) . وفي أول أبريل ١١٣٨ م / ١٨ رجب ٥٣٢ هـ غادر يوحنا قيليقية في الطريق إلى الشام حسب ما ذكره ولیم الصوري ولكنه لم يشر إلى مكان تجمع القوات المتحالفة (٣) والواضح أن السرية التي أحاطت بها القوات المتحالفة تحركاتها العسكرية قد نجحت فقد «ظهر ملك الروم بغته من طريق مدينة البلاط وأتخذ طريقه إلى مدينة بزاعة التي حاصرتها القوات المتحالفة سبعة أيام حتى سلمت المدينة بالأمان ولكنهم غدروا بأهلها (٤) ، وأسروا ستة آلاف أو يزيد عن ذلك (٥) وعهد يوحنا هؤلاء الأسرى إلى أحد القادة البيزنطيين ويدعى توماس Thomas (٦) كما سلم الإمبراطور المدينة نفسها إلى جوسلين كونت الرها (٧) . وهنا نتساءل عن تسليم المدينة إلى جوسلين وليس إلى ريموند رغم وجوده في أرض المعركة ، وفي الواقع لم يشر المؤرخ ولیم الصوري ، المعاصر لتلك الأحداث ، عن حصار هذه المدينة مما يزيد المشكلة تعقيدا ، وربما نجد مخرجا لذلك إذا كان المؤرخ البيزنطي كيناموس قد خلط بين ريموند وجوسلين . وعلى أية حال فبعد الانتهاء من هذه الأعمال العسكرية اتجه المتحالفان إلى مدينة حلب ونصب الإمبراطور خيمته عند نهر قويق وبدأ القتال يوم الثلاثاء ١١ شعبان

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٨٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 94.

(٤) المغلي : المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٥) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) Nicetas, op. cit., pp. 36—7.

(٧) C'innamus, op. cit., p. 19.

٥٣٢ هـ / ٢٤ أبريل ١١٣٨ م ، ولما كانت المدينة قد استعدت للقتال ، فقد رفع يوحنا الحصار عنها بعد يوم واحد عندما تبين له حصانة المدينة (١) .

وفي اليوم التالي اتجهت القوات المتحالفة إلى الأثارب ومعهم أسرى بزاعه فانزح أهالي مدينة الأثارب «واحرقوا خزائنها» (٢) ، فاستولى المتحالفون على المدينة بعد انسحاب الحامية الإسلامية وأقاموا عليها حامية بقيادة القائد البيزنطي توماس أيضا (٣) واتخذت القوات الرئيسية المتحالفة طريقها بعد ذلك إلى معرة النعمان ، وعلمنا علم الأمير سيف الدين سوار حاكم حلب برحيلهم حمل على الأثارب ونجح في تخلص معظم الأسرى منتزعا فرصة انتشار الحامية البيزنطية في المدينة (٤) ولالشك أن أعمال حاكم حلب قد رفعت من الروح المعنوية لقوات المسلمين وهو ما عبر عنه ابن القلانسي بقوله «سر أهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما» (٥) أما الامبراطور يوحنا فقد اتخذ طريقه إلى شيزر بعد ما استولى على كفر طاب واستراح في جسر الحديد بعد ما هجرها أهلها (٦) ويروى ابن الأثير أن سبب توجه الامبراطور إلى شيزر «أنها ليست لاتابك» زنكي فلا يهتم بحفظها فقد كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن منقذ (٧) . والواقع أن يوحنا لم يعمل على مهاجمة أملاك زنكي فقط بل كان يعمل على تنفيذ اتفاق عام ١١٣٧ م الذي يشمل حلب وشيزر والأراضي المجاورة .

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) المقليبي : المصدر السابق ص ٤١٥ .

(٣)

Cinnamus, Ibid.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦ .

(٦) المقليبي : المصدر السابق ص ٤١٥ ، Nicetas, op. cit., p. 38

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٥ .

انجيه يوحنا والقوات المتحالفة إلى شيزر في ١٦ شعبان ٥٣٢ / ٢٩ أبريل ١١٣٨ م ، وهي المدينة ذات الحصانة الطبيعية ، فاستنجد ابن منقذ بعماد الدين زنگي (١) ، وأتم يوحنا حصار المدينة وبدأ في ضربها بالمنجانيقات ، وظل أهل المدينة الواثقين من حصانتها يدافعون عنها ببسالة واستمر القتال يسير بضراوة طوال عشرة أيام قام خلالها الامبراطور يوحنا بنشاط ملحوظ ، فقد ظهر وسط القوات وعلى رأسه خوذة من الذهب يجمع بعض القوات ويشجع البعض الآخر ، ويشير حمية فريق ثالث ويلهب حماس الرجان في اعداد آلات القتال وقد أشار إلى ذلك بوضوح ولیم الصوري المعروف بعذائه الامبراطور يوحنا (٢) . كما أن عماد الدين قام هو الآخر بدور كبير في —
مناوشة المتحالفين وأخذت عساكره تتخطف العساكر البيزنطية والصليبية التي تخرج لطلب المؤن أو للقيام بأعمال النهب (٣) . ولما يئس المتحالفون من الاستيلاء على المدينة رفعوا الحصار بعد ما أحرقوا بعض آلاتهم وتركوا البعض الآخر وقد نقله المسلمون بعد ذلك إلى حلب (٤) .

بعد هذا العرض الموجز لهذه العمليات العسكرية يهمننا أن نوضح أسباب فشل هذه الحملة ، ومن هذه العوامل تراخي الأمراء الصليبيين في مساندة الامبراطور يوحنا وهو ما سبق أن أوضحناه (٥) . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحملة وإن كانت تشتمل على قوات بيزنطة صليبية إلا أن العبء الأكبر

(١) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٢ ، البني : فقد الجمان ج ١٦ لوحة ٩٩ .

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 95.

(٣) ابن الأثير : نفس المرجع والصفحة .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٥) أنظر ما سبق ص ٧٩ .

وليس العبء كله على سبيل التحفظ ، وقع على كاهل القوات البيزنطية (١).

وإذا كان التحالف بين الامبراطور وريموند هو ما جعلنا نطلق عليه
التحالف البيزنطي الصليبي في الواقع يمكن اعتبارها من الناحية الفعلية حملة
بيزنطية.

وعامل آخر يضاف إلى ذلك وهو النجدات الاسلامية ، فقد قام عماد
الدين بطلب النجدة العاجلة من الخليفة العباسي ولكن الخليفة رفض في أول
الأمر ثم وافق على ذلك على كره منه ، ومن هذه المعلومة التاريخية نستنتج
أن قوات عماد الدين لم تكن كافية لمواجهة القوات الصليبية والبيزنطية ، وحتى
تأتي إليه النجدات التي لم يكن يعلم ما يدور بأمرها قام بعمل آخر يمكن أن
نطلق عليه نوعا من الحرب النفسية ان جازت هذه التسمية في هذه الفترة من
الزمان . ذلك أن عماد الدين راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند
مدينة شيزر يقول لهم «أنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى
الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم
بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها ... فأشار الفرنج بالنزول إليه وقتاله»
ولكن الامبراطور يوحنا خاف وأجاب «أتظنون أنه ليس له من العسكر الا
ما ترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء اليه من نجدات المسلمين ما لأحد
عليه» وفي الوقت نفسه كان يرسل الامبراطور يوحنا يخوفه من الصليبيين
والحال ونفسه مع الصليبيين ويقول لهم أن الامبراطور «ان ملك بالشام حصنا
واحدا ملك بلادكم جميعا ، فأستشعر كل من صاحبه» (٢). ولقد تحققت

Nicetas, op. cit., 39.

(١)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ .

مخاوف يوحنا من النجيدات الإسلامية عندما بلغه أن قرا أرسلان بن داود بن سكرمان صاحب حصن كيفا قد عبر الفرات في جموع عظيمة لذلك أحرق المتحالفون «آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر» (١) .

ومن العوامل التي أدت إلى رفع الحصار عن شيزر ما قام به ابن منقذ . عندما رأى أمارته تتعرض لمثل هذا الخطر ، فراسل الامبراطور سراو عرض عليه تعويضات مجزية عن نفقات الحرب ولكن هذا العرض الذي رفضه الامبراطور أكثر من مرة في أول الامر (٢) ، عاد وقبله بعد ما تبين أنه عدم إهتمام الصليبيين وتقصيرهم في مساعدته لتحقيق مشروعاته (٣) .

وتممة عامل آخر يمكن اضافته إلى هذه العوامل وهو أن يوحنا خرج بجيشه من أجل العمل على ضم أنطاكية إلى أملاك بيزنطة لا من أجل فقدان بعض أملاك الأمبراطورية ، فقد انتهز مسعود سلطان سلاجقة الأروم فرصة تواجد يوحنا بعيدا عن الامبراطورية وانشغاله بأمر الصليبيين وعمد الدين زنكي وقام بمهاجمة مدينة أدنة ، ولاشك أن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الامبراطور وحملته على فك الحصار والشروع في العودة إلى أراضي الامبراطور لحمايتها من السلاجقة (٤) .

ويضاف إلى ذلك الدور المريب الذي لعبه جوسلين كونت الرها في هذه المرحلة ، فقد كان يخشى أن يصبح ريموند بعد ذلك قوة يخشى بأسها على

(١) العنبري : المصدر السابق ص ٤١٦ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٨ .

القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦ ، عمر كان توفيق : منكة بيت المقدس ص ١٤٦ .

(٢) Nicetas, op. cit., p. 40; Cinnamus, op. cit., pp. 18—20.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 96—7; Vitry, op. cit., p. 24.

(٤) أنظر ما سبق ص ٥٦-٥٧ .

ممتلكاته وحاول الايقاع بين الامبراطور يوحنا وبين ريموند، وقد أنت هذه السياسة أكلها عندما انسحب يوحنا من شيزر وعاد ليطالب بأنطاكية وقلعها (١).

هذه العوامل مجتمعة وهي عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور ، وخوفه من القوات الاسلامية وما تصل اليها من نجدات ، والدور الذي لعبه عماد الدين زنكي من إرهاب الامبراطور وايقاع الخلاف بينه وبين حلفائه الصليبيين ، والأموال التي بذلها ابن منقذ ، ومهاجمة مسعود أملاك الامبراطورية ، انسحب يوحنا من أمام شيزر ، وتمكن المسلمون بعد ذلك من استرداد جميع الأراضي التي فتحها يوحنا . وعاد إلى أنطاكية لمحاولة ضمها إلى أملاك الامبراطورية . وبعد فشله عاد إلى أرمينية التي أمكن السيطرة عليها واخضاعها لسلطانه ، ولما كانت أنطاكية شغله الشاغل طوال حياته فقد عاد إليها مرة أخرى عام ١١٤٢ م ولكنه فشل أيضا هذه المرة فانسحب إلى قبليقية ليستعد لمهاجمتها في ربيع العام التالي ولكنه مات هناك وخلفه ابنه ما نويل الأول (٢) .

William of Tyre, op. cit., II, p. 97.

(١)

Michel le Syrian, op. cit., pp. 338—9.

(٢)

الفصل الثاني

جهود مانويل للمحافظة على النفوذ البيزنطى
منذ توليته العرش حتى نهاية الحملة الصليبية الثانية

(١١٤٣ - ١١٤٨ م / ٥٣٧ - ٥٤٣ هـ)

- ١ - مانويل الأول : الظروف التى تولى فيها عرش الامبراطورية ، صفاته .
- ٢ - تمرد ريموند أف بواتيه على السيادة البيزنطية .
- ٣ - هروب الأمير ثوروس واعادة تأسيس الامارة الأرمينية .
- ٤ - حروب مانويل مع الأتراك السلاجقة .
- ٥ - سقوط الرها وموقف مانويل من الامارة .
- ٦ - قيام الحملة الصليبية الثانية وموقف مانويل من المشروع .
- ٧ - موقف مانويل من الملك كونراد .
- ٨ - موقف مانويل من الملك لويس .
- ٩ - فشل الحملة .
- ١٠ - نتائج فشل الحملة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية .

عندما لفظ يوحنا كومنينوس أنفاسه الأخيرة آل عرش الأمبراطورية البيزنطية إلى ابنه الأصغر مانويل الأول كومنينوس ، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك حوالى عشرين عاما (١) . ويستحسن فى هذا الموضع من البحث التعرف على الظروف التى تولى فيها مانويل حكم الامبراطورية والتعرف أيضا على شخصية الامبراطور الذى حكم الامبراطورية طوال سبعة وثلاثين عاما وهى الفترة موضوع هذه الدراسة :

كان مانويل الابن الرابع للامبراطور يوحنا ، فكان الأول الكيسوس وهو الذى عهد له والده بولاية العرش قبل وفاته ببضع سنوات ، ولكن الكيسوس هذا مات فى أضاليا عام ١١٤٢ م أثناء تقدم والده فى حملته على أنطاكية ، والابن الثانى هو أندرونيكوس وقد مات هو الآخر على ظهر السفينة التى كانت تقل جثمان أخيه فى طريقها إلى العاصمة فقد كان مرافقا للجثمان ، والابن الثالث هو اسحق وكان على ظهر السفينة ذاتها وعاد إلى القسطنطينية وظل بها حتى علم بنهاية أبيه (٢) . وبذلك أصبح اسحق صاحب الحق الشرعى فى عرش الأمبراطورية .

ظروف تولى مانويل العرش

ولكن ظروف تولى مانويل العرش ترجع إلى أنه ظل مرافقا لوالبده فى حملته على أنطاكية ، وعندما عاد يوحنا إلى قيليقية — لقضاء الشتاء والاستعداد لاسير إلى أنطاكية مرة أخرى مع حلول ربيع عام ١١٤٣ م — كان يمارس هوايته المفضلة وهى الصيد . وحدث أن جرح نفسه بسهم مسموم (٣) ،

(١) Cinnamus, op. cit., p. 21, William of Tyre; op. cit., II, P. 123;

Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 109—110.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 51; Cinnamus, op. cit., p. 24; William of Tyre,

op. cit., II, pp. 123, 128; Chalandon, op. cit., p. 183.

Otto of Freising, op. cit., 438.

(٣)

فاضطر إلى العودة إلى معسكره وتبين له أنه هالك لا محالة . وقد نصحه الأباطء ببيت ذراعه ولكنه فضل الموت على الحياة بذراع واحد . وفي هذا الوقت فكر في عرش الأباطورية ومن يخلفه على هذا العرش فلم يبق غير اسحق وهو الأحق بالعرش ، والابن الأصغر وهو مانويل المفضل عنده المرافق له في هذه المحنة . ولما كان يوحنا يتوسم في ابنه مانويل خيرا ويتنبأ له بأن يصبح رجلا عظيما يستطيع أن يتحمل مسئولية الامبراطورية ، يضاف إلى ذلك أن مانويل كان محبوبا من كل رجال جيش الامبراطورية ، لذلك أُنْتَاب الامبراطور المختصر عدة أفكار حول موضوع وراثة العرش ، وانتهى الأمر بأن عين مانويل خليفة له وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة في أبريل ١١٤٣ م / رمضان شوال ٥٣٧ هـ في مدينة المصيصة (١) .

ولم يكن إعتلاء مانويل للعرش على هذه الصورة بالأمر الميسور خاصة وأنه لا يستحق وراثة العرش من الوجهة الشرعية ، يضاف إلى ذلك وجوده بعيدا عن العاصمة التي يوجد بها أخيه اسحق ، كما أنه كان يخشى عدم موافقة الشعب البيزنطى على اختياره إمبراطورا وأن يلعب كل من عمه اسحق كومنينوس وأخيه اسحق أيضا دورا في هذه المرحلة للاستيلاء على العرش (٢) . ولما كان على مانويل أن يتصرف بسرعة قبل وصول خبر وفاة والده إلى العاصمة . لذلك اكلف أكسيوخوس Axouchos — التركي الأصل — صديق والده والوزير الأول في الامبراطورية ، الذى كان موجودا معه

William of Tyre, op. cit., II, pp. 128—9; Odo of Deuil op. cit., p. 71; (١)

Jesephe ben Joshua, op. cit., I, pp. 109—110, Otto of Freising,

op. cit., p. 438, Norwich, The Kingdom in the Sun, pp. 113—114.

Cinnamus, op. cit., p. 32.

(٢)

بالتوجه إلى العاصمة على الفور قبل وصول خبر الوفاة ، وخول له من السلطات ما يمنع أية محاولة لاغتصاب العرش (١) ، والوقت نفسه ظل مانويل في قيليقية حيث أعد مراسم جنازة والده وأقام ديرا في المكان الذي مات فيه ، وما لبث أن شحن الجثمان وأخذ طريقه نحو العاصمة بعد مضي شهر تقريبا (٢).

نجح اكسوخوس في تنفيذ المهمة الموكولة اليه ودخل العاصمة قبل أن يتسرب إليها خبر الوفاة وألقي القبض على اسحق شقيق الامبراطور مانويل وسجنه في أحد الأديرة ، كما اعتقل أيضا اسحق عم الامبراطور - الذي سبق أن ثار على أخيه يوحنا وانضم إلى السلاجقة لبعض الوقت - وبذلك ضمن اكسوخوس

عدم إثارة الفتنة من جانبها ، ولكن فتنة أخرى جاءت من قبل يوحنا روجر زوج شقيقة John Roger - النورمانى الأصل - زوج الأميرة ماريا Maria شقيقة

مانويل ، ولكن هذه الفتنة كانت محدودة وتمكن اكسوخوس من القضاء عليها بسهولة خاصة أن الأميرة ماريا ساندت أخيها مانويل (٣) .

وما لبث أن وصل مانويل إلى العاصمة ووجد أن الظروف كلها قد

تهأت لتقبله امبراطورا للعرش البيزنطى . ولكي يدعم مانويل من مركزه كامبراطور قام بشغل منصب بطريك القسطنطينية الذى خلا بموت ليونستيبس Leonstypes وعين ميخائيل كوركوس Michael Kourkous خلفا

له ، وأعد على الفور احتفالات التتويج للحصول على اللقب الامبراطورى وفى هذه الاحتفالات قام مانويل بتوزيع الأموال على كافة طوائف الشعب سواء كانوا من رجال الدين و الجيش أم العامة لكسب رضائهم. ويبدو أن

Nicetas, op. cit., p. 66.

(١)

Cinnamus, op. cit., pp. 29—31.

(٢)

Chalandon, op. cit., p. 189; Finlay, op. cit., p. 146.

(٣)

مانويل شعر أثناء هذه الاحتفالات بقوة مركزه فقام بأطلاق سراح عمه وأخيه اللذين شاركاه حفل التتويج (١).

صفات شخصية مانويل

هذا ما كان بشأن الظروف التي تولى فيها الامبراطور مانويل عرش الامبراطورية أما مانويل نفسه فقد كان ذو شخصية جذابة طويل القامة فحى اللون له هيبة ووقار (٢)، قوى البنية محبا للفروسية والصيد وذو كفاءة عالية في تسديد الرماح كما كان يتميز بالصبر والجلد في الحروب (٣). يضاف إلى ذلك أنه كان مثقفا ذوقا للآداب كثير الاطلاع واهتم بدراسة الجغرافيا والعلوم الطبيعية والفنون (٤)، وكانت المناقشات الفلسفية واللاهوتية من أحب الأمور إليه، وكان يشكل حلقات وندوات لمناقشة بعض النقاط المذهبية والفلسفية يشترك فيها بنفسه داخل القصر ويدعو إليها رجال الدين ومن ذلك استثناءه القسيسين الأرمنيين جريجوار بهلافوني Gregoire Bahlavouni

ونرسيس سكنور هالي Nerses Schnorhali في عام ١١٦٥ م / ٥٦٠ — ٥٦١ هـ وطلب منهما شرح العقيدة الأرمنية، ودارت مناقشات عديدة كان مانويل يقصد من وراءها اقناع الأرمن باتباع المذهب الأرثوذكسى وتوحيد الكنيستين (٥)، كما كتب أيضا إلى المؤرخ ميخائيل السريانى بهدف توحيد المذهب السريانى والأرثوذكسى (٦). ويروى عن مانويل أنه منع الكنيسة

Cinnamus, op. cit., p. 33; Nicetas, op. cit., p. 70. (١)

Schlumberger, Sceaux byzantins Inedits, Cf. R.E.G. (1900) t. XIII (٢)
p. 479.

Prodromus, The., Poemata Seletions, Cf. R.H.C. Grecs. Vol. II, (٣)
pp. 193—4.

Cinnamus, op. cit., p. 290. (٤)

Vatran le Grand, Abrege d'Histoire, p. 435. (٥)

Michal le Syrien, op. cit., p. 366. (٦)

البيزنطية من لعنة إله محمد (صلعم) وأكتفى بلعن محمد ومبادئه (١) . وإذا كان هذا هو مسلك الامبراطور في بداية حكمه إلا أنه اختلف عن هذه الصورة في آخريات حياته ، فكثيرا ما كان يستعمل سلطته في المناقشة وأنه كان ينزل الأذى بمعارضيه (٢) ، ومن الضروري أن تترك هذه السياسة أثرها في نفوس رجال الدين الذين كانوا يشكلون قوة لها وزنها في المجتمع البيزنطي .

اعتقاد منسيه

وإلى جانب ذلك كان مانويل يعتقد في التنجيم ويرى عنه أنه عند عودته من قيليقية مرافقا لجثمان والده في طريقه إلى العاصمة من مدينة خونية Chonae حيث تنبأ له مطران المدينة بمسقبله ، كما أنه عندما حضرته الوفاة لم يصدق احتمال موته لأن المنجمين تنبأوا له بأنه سيعيش أربعة عشر سنة أخرى ولذلك لم يتخذ أي قرار لتنظيم أمور دولته (٣) ، والأهم من ذلك أنه كان يعتقد في قول المنجمين عند دخول المعارك الحربية ، وكان لا يدخل معركة إلا إذا أشار عليه المنجمون بالتقدم ، وهو اعتقاد سار عليه والده من قبل (٤) ، وكان لمثل هذه الأمور أثرها الواضح على سياسة الامبراطورية داخلية وخارجية .

كذلك كان الامبراطور مانويل على معرفة ببعض الأمور الطبية ، ومن ذلك رعايته لكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا ١١٣٨ — ١١٥٢ م / ٥٣٣ — ٥٤٧ هـ عندما سقط مريضا في مدينة افسوس Ephesus أثناء تقدمه في آسيا الصغرى مع الحملة الصليبية الثانية (٥) ، وكذلك ما قام به من الرعاية

Finlay, op. cit., III, pp. 149—150. (١)

Nicetas, op. cit., p. 280; Adeney, The Greek and Eastern Churches, (٢)
p. 247.

Nicetas, op. cit., pp. 284—6. (٣)

Nicetas op. cit., p. 199. (٤)

Conrad III, Letter to Wibald, Cf. R.H.G.F.XV, p. 533. (٥)

الطبية لبلدوين الثالث Baldwin III ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ -

١١٦٢ م / ٥٣٩ - ٥٥٨ هـ) عندما سقط من على فرسه وكسرت ذراعه أثناء

احدى رحلات الصيد بأنطاكية (١) ، ولاشك أن مثل هذه الرعاية قد تركت

أثرها الواضح في علاقة مانويل بكل من كونراد وبلدوين كما سيتضح فيما بعد.

عجائب التاريخ

كما كان مانويل يكن اعجابا خاصا بالحضارة الغربية التي أصبحت متفوقة

في هذا الوقت إلى حد ما على الحضارة البيزنطية ، وقد عرفت بعض جوانب

الحضارة الغربية عن طريق الاتصال باللأتين انذين كانوا في خدمة الامبراطورية

وكان يحلو للامبراطور أن يحيط نفسه بهم ، كما أسند اليهم بعض الأعمال الخدانة

مثل قيادة الوحدات العسكرية وتولى المناصب الرئيسية في الدولة ورسائل

بعضهم في مهام دبلوماسية للدول الأخرى ، يضاف إلى ذلك ما أسنده إلى بعضهم

من أعمال الترجمة . والشواهد على ذلك كثيرة منها أن الكونت الايطالى

الكسندر أف جرافينا Alexandre of Gravina كان قائدا لاحدى

الوحدات العسكرية (٢) وأن قنسطنطين كولمان Constantine Colman

وهو هنغارى كان حاكما على اقليم قيليقية (٣) وأن ميشيل أف اوترانتو

Micheal of Otranto وهو ايطالى كان مبعوثا للامبراطور لندى

الصليبيين ومعه الكسندر أف جرافينا (٤) . يضاف إلى ذلك أحد الايطاليين أيضا

وهو ثيوفيلاكس Theophylacte الذى كان يشغل وظيفة رئيس المترجمين

بالبلط البيزنطى (٥) . وأخيرا بلدوين الانطاكى الذى كان يعمل بالقوات

William of Tyre, op. cit., II, p. 280; King, The Knights Hospitallers, (١)
p. 190.

Chalandon, op. cit., pp. 226—7. (٢)

Cinnamos, op. cit., p. 247. (٣)

William of Tyre, op. cit., p. 347. (٤)

Cinnamos, op. cit., p. 208. (٥)

البيزنطية . ولقد كان لتوغل هؤلاء الأجانب في الحكومة البيزنطية أسوأ النتائج على الامبراطورية التي ستظهر آثارها بعد حكم مانويل .

والحقيقة أن ما أوضحته عن احاطة مانويل نفسه بالعناصر اللاتينية هو الجانب المعروف في حياة مانويل وأشارت إلى المراجع الحديثة ولكن هناك جانباً غير معروف عن الامبراطور البيزنطي وهو أنه عين بعض الأتراك لقيادة بعض القوات البيزنطية؛ كما أنه كان معجباً بالفروسية والشهامة العربية . وشاهدنا على ذلك أن الامبراطور مانويل عين قائداً من أصل تركي يدعى برسق Bursuk لقيادة القوات البرية التي هاجمت أنطاكية في عام ١١٤٣ م بعد ما تمرد ريموند أف بواتيه على النفوذ البيزنطي ، كما أن برسق هذا أرسل من قبل الامبراطور مانويل لمقابلة الملك كونراد أثناء قدومه على رأس قواته في الحملة الصليبية الثانية (١) ، أما إعجاب الامبراطور بالفروسية والشهامة العربية فترجع إلى نور الدين اختلف مع أخيه نصرة الدين (أمير أميران) فلجأ نصرة الدين إلى الامبراطور مانويل (٢) ، الذي أكرم وفادته وعين بعض رجاله لخدمته فشقى ذلك على بعض الأمراء البيزنطيين واشتكوا للامبراطور ، فلما بلغ ذلك نصرة الدين طالب بمبارزة من تكلم في حقه وتم الاتفاق على ذلك ولكن نصرة الدين عدل عن هذه الفكرة عندما علم من التقاليد البيزنطية أن المنتصر في مثل هذه المبارزات يأخذ زوجة المهزوم وجميع ما يملكه من

(١) أنظر ما يلي ص ١١٠ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) المجلد السادس لوحة ١٥ أ وقد أوردها في أحداث عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م ، ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ١٥٧ ، وقد سجلها في أحداث عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م عند ذكر وفاته .

مال وسلاح . ولما كانت المباراة قد تقرر وأعدت الترتيبات اللازمة لها فقد أصبح لا مفر منها . وفي اليوم المحدد خرج الجميع لمشاهدة المباراة وحضر نصره الدين بملابسه العادية . فلما شاهد ذلك الامبراطور مانويل طلب منه ارتداء زى المباراة ولكن نصره الدين رفض ذلك في الوقت الذي ارتدى فيه الأمير البيزنطي لباس المباراة . ولا أظيل في التفاصيل فقد انتهت المباراة بفوز نصره الدين وحملت إليه زوجة الأمير البيزنطي ومتاعه ولكن نصره الدين رفض قبول ذلك فعظم أمره عند مانويل ، وكان ذلك سببا في مزيد من حقد الأمراء البيزنطيين عليه ، واشتكوا إلى الامبراطور وخبروه بين نصره الدين وبينهم ، فلما علم نصره الدين بذلك طلب من مانويل عهدا بالأمان وأن يغادر العاصمة البيزنطية فوافق مانويل وأمهده ببعض الأموال . ولما كان نصره الدين قد شاهد جامع القسطنطينية مخربا (١) فقد طلب من الامبراطور إعادة عمارته فوافق مانويل على طلبه وتم فرشته بالحصير وعلقت به القناديل . كما أن نصره الدين قد لاحظ وجود تمثال في القسطنطينية صنعه البيزنطيون وشبهوه بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان المواطنون البيزنطيون يسخرون منه ويستهزؤون به . فطلب نصره الدين من الامبراطور إزالة التمثال فوافق مانويل على طلبه أيضا (٢) .

(١) يلاحظ أنه كان يوجد في هذا الوقت مسجدان بالقسطنطينية تم بناء الأول عام ٧١٧ م والثاني أقيم في عهد الامبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م) أنظر :

Rice, T. Everyday life in Byzantium, p. 83.

(٢) ابن القرات : المصدر السابق ، نفس المجلد لوحة ٢٨ أ - ٢٨ ب وهو انصهر الوحيد الذي انفرد بذكر هذه المعلومات ، وعلى ما يبدو أن نصره الدين لجأ بعد خروجه من القسطنطينية إلى السلطان السلجوق «قلج ارسلان» وأن السلطان اصطحبه معه في عام ١١٦٢ م عندما زار القسطنطينية أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

وانتهى الأمر بأن عفى عنه نور الدين أنظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٦ .

وقد يكون وراء ذلك بعض الدوافع السياسية ولكنها توضح لنا جانباً من شخصية الامبراطور مانويل . *زواج مانويل*

ومما يعرف عن مانويل أيضاً أنه تزوج مرتين ، ويرجع الزواج الأول إلى والده الذي أراد أن يدعم روابط الامبراطورية مع المانيا ضد النورمان في جنوب ايطاليا إعداء الأمبراطورية، واقترح زواج ابنه مانويل من برتا أف سالزباخ Bertha of Salzbach شقيقة زوجة كونراد الثالث ملك ألمانيا. وقد أعدت الترتيبات الأولى عام ١١٤٢ وقد تأخر الزواج بعض الوقت لأن مانويل كان لا يميل إليها ، ونظراً لبعض الدوافع السياسية وتحت تأثيرها تم هذا الزواج في عام ١١٤٦ م ، وحملت برتا اسم الامبراطورة ايرين Irene ، ورغم جمالها الطبيعي إلا أنها كانت لا تعنى بزينتها ، وربما كان ذلك من أسباب انصراف مانويل عنها (١) . حتى أنه ملأ القرن الثاني عشر بمغامراته الشهيرة كان أهمها وأسوأها علاقته الآثمة بأبنة أخيه الأميرة ثيودورا Theodora. ولقد كان لسلوك مانويل هذا أثره على سلوك رجال البلاط الذين ساروا على نهجه في علاقاتهم الغرامية، يضاف إلى ذلك اعتماد مانويل على الوزير السكير يوحنا كامراتوس John Kameronos وهو المهرج الذي دبر أمور الدولة لبعض الوقت (٢) .

ولكنه يمكن القول رغم هذا أن مانويل كان ذكياً محبوباً كريماً، كما كان متعلماً مثقفاً وكانت له خصائص الفارس الغربي ، كما كان محباً للحياة والترف وسياسياً نشطاً طموحاً (٣) وأنه اعتمد على بعض العناصر الغربية والشرقية في

Nicetas, op. cit., p. 266.

(١)

Hutton, Constantinople, p. 99.

(٢)

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٤ - ١٣٥ .

إدارة دولته، كما أنه كان معجبا بالحضارة الغربية ويقدر الفروسية والشهامة العربية حق قدرها .

فى الوقت الذى كان مانويل مشغولا فيه بأعداد جيشان والده فى المنصبة ليتخذ طريقه إلى العاصمة ليجلس على عرش الامبراطورية . قام ريموند أف بواتيه بالتوصل من العهود التى قطعها على نفسه مع يوحنا وهاجم بعض القلاع البيزنطية فى قيليقية . ولما كان هذا يمثل تهديدا خطيرا لمركز مانويل الذى لم يكن توج بعد ، لذلك كان على مانويل أن يتصرف بسرعة لكى يدعم مركزه وليدعم النفوذ البيزنطى فى الشرق ، فقام بأعداد قوة برية وأخرى بحرية لتأديب ريموند أمير أنطاكية . وتولى قيادة القوات البرية قائد من أصل تركى هو برستى Bursuk يعاونه الاخوان Kontostephanos . وتوت هذه القوة مطاردة ريموند وقواته من قيليقية وتبعتها حتى مدينة أنطاكية وألقت الحصار عليها وضربتها بالمنجانيق، ولم تغلح محاولات ريموند فى دفع القوات البيزنطية ، أما القوات البحرية فقد نولى قيادتها ديمتريوس براناس Demetrius Branas وأقلعت حيث رست على شواطئ أنطاكية دون مقاومة وأحرقت الزوارق التى وجدت على الساحل، وأسرت عددا كبيرا من السكان ونهبت المدينة فى الوقت الذى كان فيه ريموند مشغولا بأمر القوات البرية. وطلب الأسطول البيزنطى حوالى عشرة أيام على هذه الصورة ، وبعد أن حصل على المؤن المطلوبة لقواته من المدينة أبحر إلى جزيرة قبرص فى الوقت الذى عادت فيه القوات البرية إلى الشمال (١) . ويبدو أن هذه القوات كانت مكلفة فقط

Cinnamus, op. cit., p. 33—35.

(١) أنظر :

وهو الوحيد الذى أشار إلى هذه المعلومة التاريخية ولم يتعرض لها المؤرخ البيزنطى المعاصر له وهو نيكيتاس كما لم يشر اليها المؤرخ الصليبي ولیم الصوري ، وما يجعلنا نميل إلى الأخذ بها =

بأعمال المطاردة والردع لا عملية الغزو الشامل ، لأن ما كان يشغل بال مانويل في هذا الوقت هو الحصول على العرش البيزنطي ، وهذا ما جعله يحجم عن عملية الاستيلاء التام على مدينة أنطاكية ، فقد كان عليه أن يعود بسرعة إلى العاصمة البيزنطية للسيطرة على الموقف هناك اعلمه بوجود طامعين في العرش . وربما وجد مانويل أن عملية الاستيلاء التام على أنطاكية ستجلب له المتاعب من قبل الامارات الصليبية الأخرى وهو ما كان يخشاه قبل الحصول على التاج الامبراطوري . ولعل عماد الدين زنكي ارتاح لمثل هذا التردد الذي قام به ريموند أف بواتيه وعملية التأديب التي قامت بها القوات البيزنطية لامسار أنطاكية . فقد اطمأن إلى عدم تقارب وجه النظر البيزنطية والصليبية على الأقل في هذه الفترة وحتى لا يكون هدفا لتحالف صليبي بيزنطي كما حدث عام ١١٣٨ م .

ومن القلائل التي واجهت الامبراطور مانويل هو إعادة تأسيس الإمارة الأرمنية في قيليقية مرة أخرى على يد ثوروس الثاني Thoros II ١١٤٤ — ١١٦٧ م / ٥٣٩ — ٥٦٣ هـ ، ومعلوماتنا عن هذه الأحداث التاريخية مستقاة من المصادر الأرمنية المعاصرة والمتأخرة زمنيا ، ولكنها في الواقع وردت موجزة ومبعثرة ومختلطة بالأساطير التي أضفت على الأمير ثوروس نوعا من البطولة . فقد روى المؤرخ سمباد في أحداث عام ٥٩٠ من السنة الأرمنية (١٤ فبراير ١١٤١ — ١٣ فبراير ١١٤٢ م / ٥٣٥ — ٥٣٦ هـ) أي قبل وفاة الامبراطور يوحنا ، أن ثوروس استطاع أن يهرب من سجنه في القسطنطينية وتمكن من الوصول إلى مدينة فاهجه متخفيا واستطاع أن يجمع حوله بعض

= هو ما الملح به المؤرخ أودو أف ديل عن هذه الحملة عندما تعرض للولاء الذي قدمه ريموند أف بواتيه للامبراطور مانويل بعد ذلك أنظر :

Odo of Deuil, op. cit., pp. 70 n. 22 & 71.

كبار الشخصيات الأرمنية الدينية والعلمانية، ثم ما لبث أن استولى على المدينة وبعض القلاع الأخرى (١). كما سجل فاهرام الرهاوى أن ثوروس كان مع الأمبراطور يوحنا في قيليقية أثناء حملته على أنطاكية، وقد انتهر فرصة موت الأمبراطور وهرب عن طريق البحر حتى وصل إلى مدينة أنطاكية ومنها اتخذ طريقه إلى قيليقية ثم ما لبث أن تقابل مع أخيه إستيفاني وتمكن من حشد جهودهما واستولا على بعض القلاع، ثم عاد المؤرخ نفسه ليقص نفسه ويسجل أن مما ساعد ثوروس على الهرب هو أنه أثناء إقامته في العاصمة البيزنطية كان على علاقة بأحدى الأميرات البيزنطيات التي ساعدته بنقل الكثير الذى حمله معه عند عودته إلى أرمينية. واستطرد بعد ذلك ليشرح أن ثوروس بعد عودته إلى قيليقية تقابل مع أحد القساوسة وأخبره بغيره. ولما كان الأرمن فى هذا الوقت يعانون من مساوئ الحكم البيزنطى فقد رحب الأرمن بقلومه وساعدوه حتى تمكن من الاستيلاء على مدينة فاهجه (٢).

وأوجز كل من المؤرخ صموئيل الآفى والمؤرخ جريججوار أحداث هروب ثوروس فقد سجل الأول أن ثوروس استطاع أن يهرب من الأسر بعد وفاة أبيه ولجأ إلى البطريك السريانى أثناسيوس الثامن Athanasius VIII

(١١٣٨ - ١١٦٧ م / ٥٣٣ - ٥٦٢ هـ) فى مدينة عين زربة : وقد ساعده البطريك وأعطاه حصانة وعشرة رجال وسار به ليلا متخفيا حتى أوصله إلى قلعة أمودا Amouda (٣)، ثم ما لبث ثوروس أن استعاد بلاده (٤). أما

Sempad, op. cit., p. 618.

(١)

Vahram d'Edesse, op. cit., pp. 503-4.

(٢)

(٣) أمودا : كانت هذه القلعة عند مخاضة العلوى التى تقع على نهر سيحان فى قيليقية لحماية المخاضة وكانت تحتوى على أربعة طوابق وبالطابق السفلى خزان للمياه يملأ بمياه الأمطار عن طريق مواسير تمر عبر الأسوار. أنظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٣ .

Fedden, R. and Thomson, J., Crusaders Castles, pp. 36, 44.

Samuel d' Ani, Chronographie, pp.452-3.

(٤)

المؤرخ جريجوار فقد روى أن الأمير ثوروس عاد إلى بلاده ولم يتمكن من استعادة أملاك أجداده فحسب بل استطاع أن يعيد أيضا بلاد وقلاع عظيمة لم تكن في حوزة أجداده من قبل (١) .

وفيما يتعلق بالمعلومات التي أوردها المؤرخ ميخائيل السرياني فقد أورد أن ثوروس عاد إلى بلاده بعد ما نجا من الأسر بعد وفاة أبيه واتجه إلى البطريك اثناسيوس الذي أعطاه حصانة واثنى عشر رجلا وأدخله ليلا إلى قلعة أمودا ، وفي صباح اليوم التالي رفع ثوروس علمه الخاص به ووضع على أسوار القلعة فلما شاهد السكان هذا العلم اطمئنوا وفرحوا بعودة أميرهم ، ثم ما لبث أن انتشر خبر عودته إلى كافة الجهات المحيطة ثم تمكن بمعاونة المواطنين الأرم من إعادة كل المنطقة إلى ملكه. وإلى هنا تبدو رواية ميخائيل السرياني مقبولة إلى حد كبير ولكنه عاد وسجل ما يشبه الأساطير وأورد أن الأمير ثوروس عند عودته من رعبان : الذي يبدو أنه كان على علاقة طيبة بصاحبها الأمير النصليبي سيمون Simon : على رأس كوكبة من الفرسان عدها اثني عشر فارسا اشتبك مع الأتراك السلاجقة في معركة وقتل منهم ثلاثة آلاف . ثم أغار بعد ذلك على إقليم كبادوكيا الذي كان تحت حكم آل دانيشمند وعاد بكثير من الأسرى (٢) .

ومن الصعب تحديد تاريخ معين لعودة ثوروس إلى بلاده ، إلا أنه يمكن القول أن هروب ثوروس من القسطنطينية جاء في أعقاب وفاة الإمبراطور يوحنا وانشغال السلطات البيزنطية بأمر العرش ، كما نود أن نوضح أن عودة

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 167.

(١)

Michel le Syrien, op. cit., pp. 341—5.

(٢)

ثوروس إلى قيليقية لم تتسم بثورة عامة قام بها الأرمن ضد الحكم البيزنطي ، فقد ظل بعض الأمراء الأرمن يفضلون العمل تحت لواء الامبراطورية البيزنطية على العمل تحت حكم ثوروس ، وظلوا لفترة طويلة من الاتباع المخلصين — للامبراطورية ، والدليل على ذلك ما نشهده من وجود عدد كبير من الزعماء والرؤساء الأرمن في صفوف الجيش البيزنطي الذي حارب ثوروس في وقت لاحق (١) ويؤكد ذلك أن المصادر لم تشر إلى أى عمل عسكري من جانب الامبراطور مانويل ضد ثوروس في هذه الفترة بما يدل على أن هروب — ثوروس وعودته إلى بلاده كان لا يشكل أية خطورة على الكيان البيزنطي في أرمينية في هذا الوقت على الأقل . ومن الواضح أيضا أن الأتراك السلاجقة وآل دانيشمند لم يرحبوا بعودة ثوروس إلى أرمينية ليقم فيها دولة ربما يخشى منها فيما بعد ، بدليل ما نجده من حروب بينه وبينهم مع بداية عودته إلى أرمينية (٢) . وإذا كان هذا هو الحال مع السلاجقة وآل دانيشمند ، فيمكن القول أنه كان على العكس مع ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية الذي وجد في عادة تأسيس امارة الأرمن وهي العدو القديمة للامبراطورية البيزنطية ما يجعلها دولة حاجزة بينه وبين القسطنطينية التي تحاول من وقت لآخر بسط النفوذ البيزنطي على الامارة .

عودة الأمير ثوروس

أما فيما يتعلق بعودة الأمير ثوروس وشروعه في تكوين الامارة الأرمينية مرة أخرى وأثر ذلك على امارة حلب وصاحبها عماد الدين زنكي . فسنرى أن قيام مثل هذه الامارة يجعل امارة حلب في مأمن إلى حد ما من هجوم سريع للقوات البيزنطية ، وتعطى لعماد الدين بعض الوقت للتعامل مع

Sempad, op. cit., p. 619.

Michel le Syrien, op. cit., pp. 342—344.

(١)

(٢)

القوات الصليبية بالشام خاصة مع اماره الرها و اماره أنطاكية أيضا - الذى تمرد أميرها من وقت ليس ببعيد على السيادة البيزنطية - وهما الامارتان اللتان سبق لهما التحالف مع الامبراطور يوحنا .

وإذا كان مانويل أكتفى بتأديب ريموند أف بواتيه ولم يلق بالآلا بعودة ثوروس إلى بلاده، فإن تحركات الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى جرت الامبراطور وأدخلته فى صراع حرنى مع القوات السلجوقية ، وقد ساعد على ذلك تغير الموقف الخاص بالمسلمين فى آسيا الصغرى ، فقد توفي الأمير محمد ابن غازى بن دانشمند صاحب ملطية فى عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م (١) . ولم ينعم ابنه ذوالنون بالحكم بعد أبيه ، فقد نازعه عمه باغى أرسلان (٢) ، ونتج عن ذلك نشوب الصراعات الداخلية فى اماره آل دانشمند التى انتهت بتقسيم الامارة إلى ثلاثة أقسام ، وحكم محمد ذوالنون قيصرية ، وسيطر باغى أرسلان على سيواس ، واستقر عين الدولة بن غازى فى ملطية (٣) ولاشك أن هذه الصراعات قد فتت فى عضد الامارة وأرهقت قواتها ومواردها ، وكانت فرصة استغلها مسعود سلطان قونية لمحاولة السيطرة عليها وادخلها تحت سلطانه حتى يوسع حدود أملاكه ويصل بجلودها الشرقية إلى نهر الفرات (٤) .

ومن الواضح أن بداية الأعمال العسكرية التى قام بها السلاجقة ضد آل دانشمند كانت فى أعقاب موت الامبراطور يوحنا كومنينوس ، وكان أول ما قام به السلطان مسعود هو حصار مدينة ملطية فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ -

(١) العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ١٣٤ ، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٥ .

(٢) العظمى : المصدر السابق ص ٤٢١ .

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 351 ; Gegoire le Pretre, op. cit., p. 176

زامباور : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

Chalandon, op. cit., p. 244.

(٤)

١١٤٤ م ، وحاول أمراء آل دانشمند الاتحاد معا لصدد أخطار السلاجقة .
واكنهم كانوا يدركون أنهم غير قادرين على صد قوات السلطان مسعود ، لذلك
لجأوا إلى التحالف مع الامبراطور البيزنطي مانويل للدفاع عن أنفسهم (١) .
وبهذا التحالف وقعت سلطنة قونية بين شقي الرعي ، واتسمت بداية حكم
مانويل بالتحالف مع الأمراء الدانشمندان وتفرغه لمهاجمة الأتراك السلاجقة .
كما أن الامبراطور البيزنطي قد ضمن بقيام هذا التحالف وجود بعض —
التسهيلات في وادي الفرات (٢) ، والعمل على مواصلة سياسة أبيه في ضرب
السلاجقة وتقليص نفوذهم في آسيا الصغرى (٣) .

والذا كانت الظروف الخارجية قد هيأت الفرصة للامبراطور مانويل
اضرب السلاجقة ، فان الظروف الداخلية لم تساعد في الوقت نفسه على القيام
بهذا العمل ، فقد أخرجت المتاعب الداخلية للامبراطورية اعداد القوات
البيزنطية لبعض الوقت . ولكن مانويل ما لبث أن تفرغ منها حتى انتهز فرصة
تقديم السلاجقة في اقليم ملاجنة Milagna وهي مناطق الرعي الواقعة في
الاقليم البيزنطي خاصة في فصل الربيع ، وهي نفس مناطق الرعي لحبوب
الامبراطورية ، حتى استعد مانويل لمهاجمة السلاجقة ، وكانت حملته الأولى
على ما يبدو في ربيع عام ١١٤٥ م / ٥٣٩ هـ ، والواضح أن هذه الحملة لم تعد
مطاردة السلاجقة من مناطق الرعي بدليل أن الامبراطور عاد إلى العاصمة
بسرعة ولم تتعد قواته هذه المناطق . ويرجع سبب عودته بهذه السرعة ما
لمرض ألم به أو بسبب تدهور الحالة الصحية لأخته ماريا التي كانت مريضة

Cinnamus, op. cit., pp. 39—40.

Runciman, op. cit., II, p. 264.

Deihl, op. cit., p. 149.

(١)

(٢)

(٣)

سأفح السابف ففماف

ف فف الفف (١) . وفف فرفب على فف الففسحاب السرفف عفة ففاففماف؁
 أن السلافقة ربماف ففسوا بأن مانوفل لفس على اسفعاف للءفول ف ففرب
 طوفلة معفم؁ أو ربماف ففروا أن فف الففسحاب فررعب إلى قفام بعض
 الاضطراباف ف فافل العاصمة لذلك فشفعوا على مهاجمة الامبراطورفة .
 ومن العوامل الفف شففعفم على الاقدام على فف العمل هو ازفاف نففوذ
 المسلمفف فف الشام على حساب الصلففف؁ واسفعاف مفةة الرها قبل ذلك بقلفل (٢) .

③ كان ففام السلافقة فف ثلاثة أقسام اففف كل قسم منها منطفة؁ فاسفرفف
 الأولى المنطفة الشافلة الغربفة من أسفا الصغرى هف منطفة وافى نهر سانفارفوس
 Sangarios والففام فف مفةة بففكاس Pithekas الواقعة بفن مفةة
 نفقة ومفةة ملاجنة؁ أما القسم الفاف فكان هفمف المنطفة الغربفة والاسفلاء
 على مفةة براكانا Prakana . أما القسم الفاف فاففه إلى السافل الغربف
 لآسفا الصغرى وهافم المفةة السافلفة افسوس (٣) . ولاشك أن ففرك السلافقة
 وانفشارهم فف ربوع أسفا الصغرى قد أثار فزع الامبراطور الذى بدأ فسفعف
 لفففعهم .

ولم فكن مانوفل على اسفعاف لففزفع قوافه فف أسفا الصغرى لموافهة
 القواف السلفوقفة؁ وففضل فجمع قوافه فف المنطفة الواقعة غرب نهر سانفارفوس
 ومطاردة القواف السلفوقفة المنشرة فف فف المنطفة . وففكر الامبراطور فف
 مهاجمة مفةة قونفة العاصمة فف فضطر السلافقة إلى سعب قوافهم المنشرة
 فف الأراضف البفزنففة للففاف عن العاصمة؁ وبدأ مانوفل وهو الفارس المفرور

(١) Nicetas, op. cit., p. 71; Cinnamus, op. cit., p. 36.

(٢) أنظر مافلف ص ١٢٦ وما بمفها .

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 38; Nicetas, Ibid..

بنفسه، وبما تحت يده من قوات وأرسل إلى السلطان مسعود يعلن تحديه للسلاجقة .
وقد قبل مسعود التحدي وتحدت منطقة فيلوميلون ميدانا للمعركة المقبلة (١).
وربما يرجع السبب في اختيار هذه المنطقة إلى أنها أصبحت خالية من السكان
بعد ما هجرها أهلها من كثرة الحروب التي دارت بين السلاجقة والبيزنطيين
من قبل (٢) .

وفي ربيع عام ١١٤٦ م / ٥٤١ هـ استعد مانويل للمعركة واتخذ طريقه إلى
فيلوميلون عبر مدينة ضروليوم ، والحقيقة أن المصادر البيزنطية وهي مصدر
الوحيدة التي تمدنا بالمعلومات التاريخية عن الصراع البيزنطي السلجوقي في هذه
الفترة ، قد أفاضت في تصوير أنواعا من البطولة والفروسية الشخصية
للامبراطور مانويل أكثر من امدادنا بالتفاصيل التاريخية التي تهمن في هذا
الموضع ، إلا أننا يمكن أن نستشف منها أن السلاجقة حاولوا إيقاع جيش
البيزنطي في بعض الكائن أثناء مروره في المناطق الوعرة، ولكن مثل هذه
المحاولات باءت بالفشل ونتج عنها قتل بعض القوات السلجوقية. ثم انسحب
السلاجقة إلى عاصمتهم قونية حتى تعيد تنظيم قواتها مرة أخرى استعدادا
لمواجهة أخرى مع القوات البيزنطية (٣) .

ولاشك أن انسحاب السلاجقة أمام القوات البيزنطية قد أعطى الفرصة
لقوات مانويل أن تتقدم دون صعوبات تذكر حتى وصلت إلى قونية . وفي
الوقت نفسه قام السلطان مسعود بتقسيم قواته إلى أربع مجموعات ، الأولى
واختصت بحماية العاصمة ، والثانية اتخذت مواقعها في شمالي العاصمة جنوب

Cinnamus, op. cit., pp. 40—41.

Finlay, op. cit., III, p. 188.

Cinnamus, op. cit., p. 42.

(١)

(٢)

(٣)

بحيرة تاتا (١) Tatta ، ويبدو أنها اختصت بعمل الكمان خلف خطوط العدو ، والثالثة فقد عسكرت في ضواحي المدينة ، وأما الرابعة فقد أرسلت لملاقاة الجيش البيزنطي أثناء تقدمه إلى العاصمة ومناوشة القوات البيزنطية في الوقت الذي تولت فيه المجموعة الثانية الهجوم على مؤخرة الجيش البيزنطي ، والواضح أن القوات السلجوقية انزلت خسائر جسيمة بالقوات البيزنطية ، ولم يجد مانويل بدا من الخروج من هذا المأزق وتلك الكارثة التي حلت بقواته إلا أن يأمر أحد فرسانه ليعلن وفوق مسعود أسيرا في أيدي القوات البيزنطية ، ولاشك أن مثل هذا الخبر قد فت في عضد القوات السلجوقية فانسحبت بكاملها داخل أسوار العاصمة قونية (٢) .

وهكذا تمكنت القوات البيزنطية بعد ذلك من تطويق العاصمة والقيام بأعمال السلب في ضواحي المدينة ولم يكن بوسع القوات السلجوقية الا مناوشة الجيش البيزنطي عبر أسوار المدينة . ولم تتمكن القوات البيزنطية من النيل من العاصمة ، وطال أمد الحصار فأمر مانويل رجاله بالاستعداد للانسحاب . وبرجع ذلك إلى أن الامبراطور أصدر أوامره بالتراجع لأنه تلقى معلومات تفيد بتحريك حملة صليبية إلى الشرق (٣) . ويرى شالندون عدم الأخذ بهذا السبب لأن الحملة تقرر في الحادي والثلاثين من مارس ١١٤٦ م ولم يكن هناك وقت كاف ليصل إلى مسامع مانويل خبر الحملة (٤) ، والحقيقة أن الحملة تقرر فعلا في نهاية مارس في اجتماع فيزلاي Vezely ، ولكن فكرة الحملة ذاتها أعلنت في أول ديسمبر عام ١١٤٥ م ، ولم يكن اجتماع

Nicetas, op. cit., p. 72.

Cinnamus, op. cit., pp. 42—44.

Cinnamus, op. cit., pp. 45—46.

Chalandon, op. cit., p. 254.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

فيزلاى إلا للدعاية للحملة واعداد الترتيبات والاستعداد لقيامها (١) . وفى
تصورى أن المدة من أول ديسمبر ١١٤٥ م حتى تحرك مانويل فى ربيع عام
١١٤٦ م ، يضاف إلى ذلك فترة الحرب ذاتها كانت كافية لوصول خبر
الحملة إلى مانويل ، ومن الجائز أيضا أن خبر الحملة وصل إلى مانويل أثناء
المعارك وليس قبلها لأنه لو علم بأمر الحملة قبل المعركة لانسحب عائدا إلى
العاصمة .

سلاخندار مانويل والقوات البيزنطية ضواحي قونية وقتل عائدا إلى بلادهم
وأجتاز فى طريق عودته بعض الممرات الوعرة لذلك كانت مسيرة الجيش
البيزنطى بطيئة وغير منتظمة ، وكان فى ذلك المأزق فرصة للقوات السلجوقية
التي تجيد حروب الممرات فانقضت على القوات البيزنطية وأنزلت خسائر
ملموسة فى القوات التي كانت تحت قيادة كريتوبولس Kritopolos
الذى كان يتولى قيادة الجزء الأوسط من الجيش البيزنطى ، ولاشك أن هذه
الضربة قد قسمت الجيش البيزنطى إلى قسمين وسيبت حالة من الذعر والفوضى
والارتباك فى مؤخرة القوات البيزنطية وأحدوا أنهم هالكين لا محالة . فانتشرت
هذه القوات فى شكل فوضى للبحث عن الملاجئ التي تحميها من السلاجقة .
ولم يجدوا غير أمتعتهم يتخذونها ستارا لهم (٢) ، وحاول مانويل إعادة تجميع
قواته مرة أخرى ولكنه فشل فى إعادة القوات إلى مواقعها بسبب كثافة
الغارات التي شنتها القوات السلجوقية مستغلة حالة الفوضى التي انتشرت فى
صفوف الجيش البيزنطى ، ولم ينجح مانويل فى صد الغارات السلجوقية إلا

Odo of Deuil, op. cit., p. 7; William of Tyre, op. cit., II, p. 164 n. 33; (١)

أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٠ .

Cinnamus, op. cit., pp. 44—47.

(٢)

بصعوبة بالغة وبعد أن تكبد خسائر فادحة في صفوف قواته (١) .

ويبدو أن الإمبراطور مانويل وهو الفارس الذي تألق من قبل في حروبه مع السلاجقة أثناء انسحابهم إلى قونية ، قد رأى عدم الانسحاب بهذه الصورة المهينة وأراد أن يرفع من روح قواته المعنوية ويحافظ على هيئته وسط القادة البيزنطيين ، فأرسل إلى مسعود يعلن التحدي واستعداده للحرب مرة أخرى ، ويوجه إليه اللوم على مهاجمة الكمان لقواته وأنه لم يجرؤ على الدخول مع القوات البيزنطية في معركة منظمة ، وحدد ربيع عام ١١٤٧ م / ٥٤١ هـ موعداً للقتال (٢) .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان مانويل وهو الفارس الذي شبهته المصادر البيزنطية بالرجل الأسطورة الذي يدخل المعركة بمفرده ضد مجموعة من القوات المعادية ويتغلب عليها (٣) ، نراه يلقي اللوم على السلطان مسعود لأن القوات السلجوقية هاجمت القوات البيزنطية عند انسحابها عن طريق الكمان وليس عن طريق الصفوف المنظمة ، وهنا أود أن أسجل أن مانويل نفسه لجأ إلى إعلان خبر وفاة مسعود ، وهو أمر لم يحدث إنما أراد بذلك أن ينزل الارتباك في صفوف السلاجقة الذين تغلبوا على قواته - في حرب منظمة كما أراد - وهو نوع من السلوك الذي لا يجب أن يتحلى به الفرسان والباطرة إلا إذا كانت الحرب خدعة فلتكن خدعة للطرفين .

وتعليقاً آخر على رغبة مانويل للقتال وتحديد ربيع عام ١١٤٧ م موعداً للحرب ، نقول أن مانويل انسحب من أمام قونية عندما بلغه نبأ قدوم حملة

Cinnamus, op. cit., p. 57.

(١)

Cinnamus, op. cit., p. 58.

(٢)

Cinnamus, op. cit., 40; Prodromus, op. cit., p. 749.

(٣)

صليبية (١) ، إذا فالامبراطور مانويل لم يتمكن من مواصلة القتال عندما علم بأخبار الحملة ، وبالتالي فهو لا يستطيع محاربة السلاجقة إلا بعد أن يحدد موقفه من الحملة ، فإذا تكشف الأمر عن موقف عدائي فلا قبل له بالحملة والسلاجقة معا ، وعلى ذلك يكون الامبراطور مانويل قد خطط مسبقا لقيادة الحملة بالتحالف مع قادتها أو استغلالها لحرب السلاجقة في العام التالي . ولعلنا نجد تفسيراً لذلك من الخطاب الذي أرسله مانويل إلى البابا يوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣ م) في صيف عام ١١٤٦ م أى أثناء وجود مانويل في آسيا الصغرى أو عقب عودته إلى العاصمة مباشرة يعلن فيه رغبته في تشریف الصليبيين له كما سبق أن شرفوا جدة الكسيوس من قبل (٢) ولعل في هذه العبارة ما يفيد إلى أى مدى كان الامبراطور مانويل يحاول استغلال حمته لصالحه في منطقة الشرق الأدنى الاسلامى أو في آسيا الصغرى على الأقل مثل جدة الكسيوس . وإذا كان ذلك كله اجتهدا من جانب الباحث لموقف مانويل من الحملة قبل قدومها ، فان علاقة الامبراطور بالحملة ذاتها وما صاحب من أحداث ستحدد موقف الامبراطور بوضوح .

والمهم أن السلطان مسعود بعد ما تلقى رغبة مانويل للحرب في ربيع عام ١١٤٧ تمهل بعض الوقت في الرد على الامبراطور حتى تتكشف له الأمور . وفي الوقت نفسه أصدر الامبراطور البيزنطى أوامره لقواته بالراحة لبعض الوقت من عناء الحرب . ولكنها لم تكد تخلد إلى الراحة حتى ظهرت بعض القبائل السلجوقية الرعاة التى أغارت على الأراضى البيزنطية في وادى نهر

(١) أنظر ما سبق ص ١١٩ .

(٢) Maneul, letter to the Pope Eugenius III dated 1146, cf., R.H.G.F.,

XV, pp. 440—441.

المياندر (١) ، وقد وجد مانويل في غارة هؤلاء الرعاة فرصة لاستعادة هيئته وتأكيده سلطاته على أراضيه ، فقام مانويل بمطاردتهم حتى أجلاهم عن المنطقة ، ولكنه ما لبث أن اتخذ طريقه بعد ذلك مباشرة إلى عاصمته ، ولعله كان يخشى من ظهور قوات سلجوقية تعترض طريقه فتتال من قواته وهي في حالة من الازهاق ، أو ربما يكون ذلك مرجعه إلى أنه رأى تدبير أموره مع الحملة القادمة . وقد نجح مانويل في الوصول إلى عاصمته عن طريق الساحل الغربي لآسيا الصغرى آمنًا بعد أن تلقى عرضًا بالصلح من السلطان مسعود أثناء عودته إلى القسطنطينية (٢) . ولعل ما دفع مسعود إلى طلب الصلح هو أخبار قيام الحملة الصليبية ، فقد روى المؤرخ ولیم الصوري بعد حوالي سنة ونصف من هذه الأحداث أن سلطان قونية كان على علم بقدوم الحملة منذ وقت طويل (٣) ، وربما يكون طلب مسعود للصلح هو خوفه من تحالف يزنطى صليبي كما حدث في الحملة الأولى ، فأراد بهذه الهدنة أن تتاح له فرصة اعداد قواته لمواجهة القوات الصليبية القادمة سواء انضمت إليها القوات البيزنطية أم لا .

قبل مانويل عرض الصلح الذى قدمه السلطان مسعود ، وكان لأخبار قدوم الحملة الصليبية أثرها الواضح في موافقة مانويل على ذلك (٤) . وهناك سبب آخر يمكن اضافته لموافقة مانويل على عرض السلطان ، وهو أن الأمراطور مانويل كان عليه أن يعود إلى العاصمة بسرعة ، فانه كان لا يطمئن إلى موقف عمه اسحق منه وكان الأخير يتمنى أن يلتقى مانويل مصرعه أثناء حروبه مع السلاجقة . وبالفعل فعندما سرت شائعة عن موت مانويل ، أسرع اسحق إلى

Nicetas, op. cit., pp. 59—61.

(١)

Cinnamus, op. cit. p. 59.

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 166.

(٣)

Cinnamus, op. cit., p. 59.

(٤)

خيمة الإمبراطور ليتولى زمام السلطة ، ولكن أمله خاب عندما وجد
الإمبراطور مانويل يدخل خيمته (١) . ولم يتصرف مانويل في حينه بل كتم
ما في نفسه حتى نهاية المعارك ، لذلك نجده يقوم بعد عودته إلى العاصمة بأقالة
البطريك كوزموس Kosmos المساند لعمه ، وذلك بهدف إضعاف قوة
الآخر (٢) .

غير أن من جهة أخرى...

وربما كان من العوامل التي شجعت مانويل على عقد الهدنة . ذلك المعار
الذي ألحقه السلاجقة بالمدن البيزنطية ، فقد ترك لنا المؤرخ الفرنسي معصر
أودو أف ديل الذي صاحب الحملة الصليبية الثانية وصفا للخراب الذي حو
بمدينة نيقومديا من جراء الغارات السلجوقية (٣) وهي المدينة ذات الوضع
الاستراتيجي باعتبارها من المدن القريبة من العاصمة البيزنطية والتي لا تبعد
كثيرا عن بحر مرمرة والبحر الأسود .

لهذا كله عقدت الهدنة بين بيزنطة والسلاجقة وأُتفق على أن يقوم السلاجقة
بإعادة مدينة براكانا وسائر المدن البيزنطية التي فتحها السلاجقة في حروبهم
الآخيرة (٤) ، ولم تمدنا المصادر البيزنطية عمدة الهدنة وإنما أشار اليها مؤرخ
أودو أف ديل وذكر أن مدتها اثني عشر سنة (٥) ، وهو المصدر الوحيد
الذي أشار إليها ، والواقع أن ما يجعلنا نطمئن إلى ذلك أن الهدنة عقدت في
صيف عام ١١٤٦ م (٦) وأن الحرب بين السلاجقة والبيزنطيين لم تتجدد إلا

Cinnamus, op. cit., p. 53. (١)

Chalandon, op. cit., p. 257 (٢)

Odo of Deuil, op. cit., p. 89. (٣)

Runciman, op. cit., II, p. 266. (٤)

Odo of Deuil, op. cit., p. 55. (٥)

(٦) أرسل مانويل في خطابه إلى لويس المؤرخ بعام ١١٤٦ م أنه في هدنة مع السلاجقة أُنظر :

في عام ١١٥٨ م / ٥٥٤ هـ . وهكذا انتهت المراحل الأولى من الحروب البيزنطية السلجوقية في عهد الإمبراطور مانويل وانتظرت الإمبراطورية البيزنطية وجميع دول الشرق في خوف أو أمل قدوم الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (١) .

وإذ كانت بداية حكم الإمبراطور مانويل تميز بتمرد ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وهروب ثوروس من الأسر ومحاولته إعادة تأسيس إمارة أرمينية ، يضاف إلى ذلك الحروب التي دارت بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة ، فقد تميزت بداية حكم مانويل بضعف الإمارات الصليبية بشكل ملحوظ ، فقد مات فولك الانجوى في العاشر من نوفمبر ١١٤٣ م / آخر ربيع ثاني ٥٣٨ هـ . وخلفه ابنه بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣ - ١١٦٢ م / ٥٣٨ - ٥٥٨ هـ) . ولما كان بلدوين في الثالثة عشر من عمره فقد تولت أمه مليسند Melisend أمر الوصاية على المملكة (٢) . أما إمارة الرها فقد حكمها جوسلين الثاني وهو الذي ورث عن أبيه الثروة والجاه ولكنه ما لبث أن أسلم نفسه لشهواته وأهمل أمر الدفاع عن الإمارة (٣) . وترانجي في دفع مرتبات الجنود وطابت له الإقامة في تل باشر (٤) ، يضاف إلى ذلك عدم الوفاق بين الصليبيين عامة ، وهم الذين أصبح كثيرون منهم لا يهتمون بأمر الحركة الصليبية على العكس من الصليبيين الأوائل (٥) ، وبين جوسلين —

Setton, op. cit., I, p. 514. (١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 135 & n. 31. (٢)

Vitry, op. cit., p. 93. (٣)

Fabri, The Book of Wandering, II, Part I, p. 323; (٤)

Michaud, History of the Crusades, I, p. 321.

Woodhouse, The Millitary Religious Order of the Middle Ages, (٥)

pp. 33—4.

وريموند أف بواتيه بصفة خاصة (١)، وهما أميران أنطاكية والزها اللذان يتوليا

أمر حماية الامارات الصليبية من الشمال .
 حماد الدين زنكي

أخذ عماد الدين زنكي يرقب هذا الموقف بعد ما أراحه موت الإمبراطور البيزنطي يوحنا وهو الذي كان من أشد أعدائه بأساً وقوة (٢) . وانشغال الإمبراطور الجديد مانويل بأمر العرش وصراعه مع أمير أنطاكية . يضاف إلى ذلك موقف الإمبراطور مانويل من الأمير الأرمني ثوروس . فلقد هرب ثوروس وشرع في إقامة الامارة الأرمنية في الوقت الذي وقف منه مانويل موقفاً سلبياً ولم يقيم بأي عمل لمقاومة ثوروس ، ومن ناحية أخرى فإن قيام الامارة الأرمنية المعادية للإمبراطورية البيزنطية أصبح بمثابة خط دفاع ممي عن الممتلكات الاسلامية في الشام .

لكل هذه العوامل مجتمعة خطط عماد الدين زنكي لضرب الامارات الصليبية في الشام واتخذ مدينة الزها هدفاً له ، ويرجع اختيار زنكي هذه المدينة لعاملين مباشرين : أولهما أن زنكي كان في هذا الوقت في صراع مع الارائقة واستولى على بعض حصونهم ، لذلك لجأ الارائقة إلى طلب النجدة من جوسلين وسلموه مقابل ذلك قلعة بابولا Babule التي تقع قرب جرجر Garger ، واستعد جوسلين فعلاً لمساعدتهم ضد زنكي (٣) ، وثانيهما أن السلطان مسعود السلجوقي ٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ١١٣٢ - ١١٥٢ م في بغداد كان في نزاع مع عماد الدين ، فلما استقر الأمر بينهما ، طلب السلطان مسعود من عماد الدين زنكي أن يحضر إلى بغداد ليكون في خدمته ، ولم يكن زنكي

William of Tyre, op. cit., II, p. 140.

Runciman, op. cit., II, 255.

A.S.C., p. 280.

(١)

(٢)

(٣)

الرها

راغبا في ذلك فاعتذر للسلطان عن تلبية طلبه وعلل عذره بانشغاله بأمر الصليبيين المتأخين لممتلكاته، فقبل مسعود عذره وشرط عليه فتح الرها» (١). وفي الواقع لم يكن عماد الدين زنكي في حاجة إلى شرط السلطان مسعود لفتح الرها فقد كان «ها طالبا وفي تملكها راغبا ولانتهاز الفرصة منها متزقبا لا يرجح ذكرها» (٢)، وبدأ يخطط لمهاجمة المدينة، ولكي يوهم الصليبيين بأنه سوف لا يقصد بلادهم في القريب العاجل حتى يطمئنوا إلى جانبه، شغل نفسه بالحرب مع الأراقة. ولم يدخل معهم في حرب بالمعنى المفهوم، وهو القائد الحنك الذي لا يرهق قواته قبل الدخول في معركة كبرى. وإذا كان عماد الدين قصد بلاد الأراقة «فهو يخطبها وعلى غير ما يحوم ويطلبها وسواها يروم» (٣). كما أن عماد الدين كان يعلم أن جوسلين أمير الرها يفضل الإقامة في تل باشر حيث تروق له الحياة هناك وينصرف لشهواته (٤)، لذلك خصص له بعضا من رجاله على رأسهم فضل الله بن جعفر نائبه على حران لمراقبة تحركاته. واتخذ جوسلين بحيلة عماد الدين ووطن أنه «لا فراع له اليه وأنه لا يمكنه الاقدام عليه» (٥). فغادر الرها إلى تل باشر كعادته، فجاءت «عيون اتابك اليه فأخبرته» (٦)، ويبدو أن زنكي أراد أن يؤمن ظهره في هذه الفترة ويريح نفسه من الأراقة ويتفرغ للعمل الخطير المقدم عليه فعقد الهدنة مع بني أرتق (٧)،

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٥ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ٦٧ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٣٧ أنظر أيضا العيني :

المصدر السابق ج ١٦ لوحة ١٤١ - ١٤٣ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, pp. 140—1.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٩٨ .

A.S.C., p. 280.

(٧)

ثم ما لبث أن نادى العسكر بالرحيل ، فتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا «عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا» (١)، وألقى الحصار على المدينة ، وكان زنكى لما شاهد الرها ورآها تجمع بين «الحصانة والحسن» راسل أهلها ليسلموا إليه المدينة سلما ، مقابل ما بذل لهم من الأمن والأمان ولكمهم رفضوا فأمر زنكى بنصب المنجانيقات ونقب الأسوار (٢)، ويلاحظ أن زنكى كان يعمل للاستيلاء على المدينة في أقصر وقت ممكن قبل أن تصل انسجيدات إليها. لذلك كانت قواته تعمل طوال النهار وتراقب بالليل ولم تعط لأهل المدينة فرصة للراحة (٣). وحاول جوسلين وبعض قواته دخول المدينة ، ولكن شدة الحصار لم تمكنه من بلوغ هدفه ، وظل زنكى محاصرا للمدينة ولم تتجح — المحاولات المستميتة التي بذلها أهل المدينة من الأرمن والسريان ونصبيين في حفظ المدينة. وانتهى الأمر بأن استولى عليها زنكى وعلى قلعتها عنوة بعد ثمانية وعشرين يوما وسقطت في الثامن والعشرين من جمادى الآخر ٥٣٩ هـ / الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٤ م (٤).

وكان جوسلين قد راسل ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية يتضرع إليه لمساعدته في محنته، وأن يتقدم بقواته لمساندته في إنقاذ الرها. ولكن ريموند اعتذر عن تلبية طلبه (٥) ، وربما يكون ذلك بسبب عدم الوفاق بين الأميرين أو خوف ريموند من تحول عماد الدين إليه بعد الرها . وكل ما قامت به الامارات

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٨ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٣) Jeseoph ben Woshua, op. cit., I, p. 111.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, pp. 144—5 & n. 15.

الصليبية لمساعدة جوسلين جاء من قبل مليسند الوصية على مملكة بيت المقدس ،
فعندما علمت بذلك طلبت من بعض القادة الصليبيين التقدم لانقاذ الرها ،
ولكن هذه النجدة وصلت بعد فوات الأوان (١) . وضاعت الرها واستعادها
المسلمون ولقد « كان فتحا عظيما » (٢) واستحق كما يرى المؤرخ ابن الأثير
أن ينسب فتحها « فتح الفتوح » (٣) .

وأفاضت المصادر الغربية والصليبية واليهودية في الأعمال الوحشية التي
أنزلها رجال زنكي بالمدينة (٤) ، وتناسوا أن زنكي لما دخل الرها أمر بإعادة
ما أخذ من السبايا والأموال وأنه أعاد المدينة إلى ما كانت عليه (٥) ، وأنه
أحسن إلى الرعية « وكتب إلى النصارى امانا » (٦) ، حقيقة أن زنكي خرب
الكنائس الثلاثة التي كان يستعملها الصليبيون الكاثوليك واستخدم حجارها
في اصلاح سور المدينة ، أما باقي الكنائس التي تتعلق ببقية الطوائف الأخرى
فقد قام باصلاحها ، كما أصلح المسجد الذي كان يتخذة أسقف المدينة مقرا
له (٧) ، كما أن زنكي أحاط جميع سكان المدينة بعطفه ورعايته وأنه صرح
لأهالي المدينة الذين غادروها تحت تأثير الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له
من قبل الصليبيين الكاثوليك ، صرح لهم بالعودة إلى المدينة . يضاف إلى ذلك

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 111.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٧ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 143; Roger of Hovenden, op. cit.,
II, 249; Otto of Freising, op. cit., pp. 439—440; Joseph ben Joshua,
op. cit., I, 111.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٦) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٥ .

A.S.C., pp. 289.

(٧)

الغزو الذي عمر به زنكي رجال قلعة المدينة الذين ظلوا يقاوموا حتى النهاية. وبذلك كسب زنكي محبة أهل المدينة واطمأنوا على مصائيرهم (١) وليس أدل على ذلك مما رواه المؤرخ السرياني المجهول وهو من أهل المدينة أن نور الدين زنكي قام بزيارة المدينة بعد سنة من سقوطها للاستفسار عن حاجة أهل المدينة فخرجت إليه كل طوائف أهل المدينة لاستقباله . كما أن نور الدين عندما علم بممرض مطران المدينة بادر بالاستفسار عن صحته (٢) .

نتائج استرداد الرها (٣)
ترتب على استرداد الرها عدة نتائج ، منها أنها كانت أول هزيمة عملية ضد أول إمارة أقامها الصليبيون في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي . وإزالة الخطر الذي يهدد طريق القوافل الاسلامية التي تمر عبرها إلى شتى البقاع . وشجع المسلمين في الانقضاض على بقية إمارة الرها (٣) . وليس ذلك فحسب فان سقوط مدينة الرها قد غير موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي ، «فقد صارت عقود الفرنج في ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقبتها تفرع وعقائلها تفرغ» (٤) ومن ذلك أن زنكي أتيه إلى سروج في الشهر التالي لسقوط الرها ، وهي من القلاع الصليبية الحصينة الواقعة في شرق نهر الفرات واستولى عليها ، ثم تقدم إلى البيرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام ومن أمنع الحصون الصليبية التابعة لجوسلين وضيق عليها الحصار وأشرف على فتحها ، ولكن خبر مقتل نصير الدين نائبه في الموصل أضطره لرفع الحصار

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٢)

A.S.C., Ibid.

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٣٤ .

(٤) الأصفهاني : المصدر السابق ص ٢٠٥ .

والعودة إلى الموصل . وبعد رحيل زنكى خاف أهل البيرة — من الصليبيين — عودته مرة أخرى فسلموا المدينة إلى حسام الدين تمرتاس بن ابلغارى صاحب ماردن (١) .

وهكذا ضاعت البيرة سلماً بعد أن ضاعت الرها حرباً وبقي من الامارة سميساط ومرعش وذلوك وقورس وجرجر وعين تاب والرواندان وهنسى وحصن منصور وقلعة الروم (هرو مجلا) وتل باشر الذى اتخذها جوسلين الثانى مقراً له (٢) .

ورغم الخطر الذى بات يهدد الصليبيين فلم يظهروا شيئاً من التعاون فيما بينهم ، يضاف إلى ذلك أن جوسلين لم يغفر لأمر أنطاكية ريموند عدم تعاونه معه أثناء القتال على الرها وفى الوقت نفسه رفض ريموند الوفاق مع جوسلين (٣) بعكس الحال مع مملكة بيت المقدس التى أظهرت تعاطفها والوقوف إلى جانب جوسلين .

وأدرك ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وهى الامارة المتأخضة لأملاك عماد الدين مدى الخطر الذى بات يهدده بعد سقوط الرها ، وخاصة بعد ما لمس حالة الضعف التى أنتابت الامارات الصليبية يضاف ، إلى ذلك احساسه بتباعد الأمراء الصليبيين عنه بعد موقفه من جوسلين . وتلفت حوله ليجد سنداً له فى امارته ، فلم يجد غير الامبراطورية البيزنطية التى تمرد عليها بالأمس ليتوجه اليها ذليلاً يطلب المساعدة : لذلك قرر ريموند أن يذهب للعاصمة البيزنطية

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ - ٧١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠ -

٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٩ .

A.S.C., p. 342.

(٢)

Runciman, op. cit., II, p. 238.

(٣)

متوسلا يلتبس الحماية والمساعدة ، وتوجه في عام ١١٤٥ م / ٥٣٩-٥٤٠ هـ إلى الامبراطور البيزنطي مانويل ، ولكن الامبراطور لم ينس مواقف ريموند من والده الامبراطور يوحنا في عام ١١٣٧ م ، وعام ١١٣٨ م . وعام ١١٤٢ م ، لذلك طلب من الأمير ريموند التوجه أولا لزيارة قبر والده في دير بانتوكراتور Pantokrator - الموجود في العاصمة والذي بناه يوحنا بنفسه - للترحم عليه ويسأله العفو على انتهاكه للعهد التي قطعها معه . وقام ريموند بعمل ما أشار به مانويل ، وعاد إلى الامبراطور ليقدم له فروض الولاء والطاعة وليقسم له باعتباره أميراً لأنطاكية أن يكون تابعاً وموالياً للامبراطورية البيزنطية ، وبعد هذه المواقف المهيمنة والمذلة للأمير ريموند تمخض هذا كله عن وعد من قبل الامبراطور بالحضور فيما بعد إلى الشام لتقديم المساعدة للصليبيين (١) .

وفي الواقع لم يكن مانويل يستطيع مغادرة العاصمة وخلفه جيش الامبراطورية ويتوجه إلى الشام لمساعدة الصليبيين في هذه الفترة بالذات . فإنه كان قد تحالف مع آل دا نشمند ضد سلاجقة قونية ، ويستعد منازلة السلاجقة ، كما كان مشغولاً بأمر زواجه من برتا أف سألزباخ وما سترتب على هذا الزواج من تحالف مع كونراد الثالث ملك ألمانيا ضد روجر الثاني ملك صقلية ١١٢٧-١١٥٤ م / ٥٢١-٥٤٩ هـ . لذلك لم يكن من المعقول أن يترك مانويل العاصمة ويذهب إلى الشام لمساعدة الصليبيين ضد زنكي

(١) Cinnamus, op. cit., 35; Odo of Deuil, op. cit., p. 71.

أنظر أيضاً : عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٩ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ١ ص ٥٩٢ . ولم يشر المؤرخ ولم يصرح إلى خضوع ريموند للامبراطور البيزنطي مانويل .

تاريخاً دولته فريسة للسلاجقة والنورمان ، الذين يتربصون بالامبراطورية البيزنطية ، في هذه الفترة بالذات والطامعون في العرش البيزنطي يحومون حوله .
والحقيقة أن الصليبيين كانوا يكرهون الامبراطورية البيزنطية وتدخلها في أمورهم ، ولم يلجأوا اليها إلا في أوقات المحن والأزمات ، وحقيقة أخرى هي أن الصليبيين تذكروا أن الامبراطور يوحنا كان يعتبر الرها - مثل أنطاكية - من أراضي الامبراطورية ولقد بدأ هذا واضحاً من تصرفات يوحنا مع جوسلين أثناء حملة الامبراطور ضد شيزر وحلب في عام ١١٣٨ م ، وذلك عندما أرسل يوحنا إلى كل من ريموند وجوسلين يأمرهما باعداد القوات والآلات الحربية استعداداً لمهاجمة زنكي ولم يكن بوسع جوسلين سوى تنفيذ ما طلبه الامبراطور (١) ، يضاف إلى ذلك أن الامبراطور يوحنا عندما استولى على مدينة بزاعة من المسلمين في هذا الوقت سلمها لكونت الرها جوسلين وليس إلى الأمير ريموند حسب ما ألتفق عليه من قبل (٢) ، وأخيراً ما قام به الامبراطور عندما تقدم إلى أنطاكية في سبتمبر عام ١١٤٢م وعسكر عند تل باشر وطلب من جوسلين تقديم بعض الرهائن . وامتثل جوسلين وأرسل اليه أبنته ايزابيلا ، وقد روى وليم الصوري تفسيراً لذلك فقال أن السبب الوحيد لأعمال الامبراطور هذه هو العمل على احتواء جوسلين بقدر ما يستطيع وأن يجعله أكثر اخلاصاً في تنفيذ أوامر الامبراطور (٣) .

عادت هذه الأحداث إلى أذهان الصليبيين . وهي الأحداث التي كرهوها بالأمس ونددوا بالامبراطور يوحنا من أجلها ، لتكون وثيقة لديهم بعد سقوط

William of Tyre, op. cit., II, p. 94.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 37.

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 124.

(٣)

الرها - أى فى محتهم - يطالبوا الامبراطور البيزنطى بموجها الحضور إلى الشام على الفور ومحاربة زنكى ، وأن عدم حضوره يعتبر جريمة فى حق الصليبيين بصفة عامة وفى حق امارة الرها بصفة خاصة ، وكان يجب عليه التدخل لانقاذها قبل أن تسقط تماما فى أيدي الصليبيين (١) ، ولعلنا نشعر فى قصيدة الشاعر الأرمينى سانت نرسيس - التى كتبها عن سقوط الرها زفرة أسى واضحة لما أصاب مدينة الرها ولتخلي الامبراطور البيزنطى مانويل عن مساعدتها وانقاذها من أيدي المسلمين (٢) .

محاولة بوسليم استعادة مدينة الرها
ورغم كل هذه الظروف فقد حاول جوسلين استعادة مدينة الرها . وانتهز فرصة مقتل عماد الدين زنكى وهو يحاصر قلعة جعبر ، وراسل من بالمدينة من الأرمن الذين يميلون اليه لكون أمه أرمينية «ووعدهم يوما بعينه يصل انهم (٣) . وفى السادس عشر من جمادى الأولى ٥٤٠ هـ / الخامس من نوفمبر ١١٤٥ م تجمع جوسلين ومعه تابعه بلدوين صاحب مرعش وكيسون وقواتهم فى دلك واتجهوا إلى المدينة وتمكنوا من دخولها . وحاصروا قلعة المدينة بمن فيها وبدأوا فى قتالهم ، ولما بلغ نور الدين - الذى خلف والده فى حلب - هرع إلى المدينة ، فلما علم جوسلين بوصوله فر إلى سميساط (٤) فدخلى نور الدين المدينة وقضى على هذه المحاولة وقتل بلدوين (٥) . وانتقم نور الدين من أهل

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 208.

(٢) Saint Nerses, op. cit., p. 230 & n. I.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ن ١ ص ١٩١ - ١٩٢ : أنظر أيضا : ابن القلانسي :

المصدر السابق ص ٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١١٤ .

(٤) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

(٥) Le Doctor Basil, Oraison Funebre de Baudouin, cf. R.H.C. Arm., I, p. 204.

المدينة لغدرهم به ، وفي هذه المرة لم تفرق القوات الاسلامية بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين المحليين والأرمن والسريان ، وانما أعملوا السيف في الرجال وساقوا النساء والأطفال إلى حلب وبذلك خلت مدينة الرها من أهلها ولم يبق منهم إلا القليل (١) .

وإذا كان سقوط الرها لم يدفع الامبراطور البيزنطي مانويل إلى القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في الشام . فمما لاشك فيه أن سقوط المدينة كان له رد فعل عنيف في الامارات الصليبية ، وليس ذلك فحسب بل لقد سقط سقوط الصاعقة على رأس العالم الغربي (٢) . لأن امارة الرها كانت أول امارة لاتينية يؤسسها الأجانب الدخلاء في الأراضي المقدسة وأول امارة يستردها المسلمون ، فجاء سقوط هذه الدعامة إيذاناً بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجح الصليبيون الأوائل في اقامته بالشرق . ولم يغب عن بال الغرب الأوربي الخطورة التي ترتبت على ضياع الرها ، لذلك حاول زعماء الغرب الأوربي الاسراع إلى ترميم ذلك البناء وسنده وهبوا لنجدة الامارات الصليبية بالشام حتى لا تقع غنيمة باردة في يد القوة الجديدة بقيادة نور الدين زنكي الذي أخذ على عاتقه مهمة توحيد المسلمين للقضاء على الصليبيين وتنقية الشرق الأدنى الاسلامي من الدخلاء (٣) .

كان سقوط الرها السبب المباشر في قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لمساندة الصليبيين في الشام ، والامبراطورية البيزنطية لها أطماع في الامارات

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦١٣ - ٦١٤ .

(٢) Addison, C., The History of the Knights Templars, p. 38.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢١ .

الصليبية خاصة في أنطاكية ، لذلك كان على الامبراطور البيزنطى مانويل أن يرنو ويفكر في أمر هذه الحملة ليرى ما ستفعله وأثرها على النفوذ البيزنطى المراد دعمه في أنطاكية بالذات . وهنا تجدر الإشارة إلى أن الباحث سوف لا يتناول أحداث الحملة بكافة تفاصيلها وسيكتفى بالتركيز على الأحداث التى تتعلق بجوانب هذا البحث وموقف الامبراطور مانويل من الحملة حتى لا يكون هناك استطراد أو خروجاً على محور البحث .

وأقدم نص في المصادر المتاحة لنا يتعلق بالرغبة في قيام هذه الحملة هو خطاب البابا يوجين الثالث الذى وجهه إلى لويس السابع ملك فرنسا في أول ديسمبر ١١٤٥ م / الثالث عشر من جمادى الآخرة ٥٤٠ هـ (١) . فقد تناول البابا في رسالته هذه ذكر سقوط الرها وماله من أسوأ الأثر على الكيان الصليبي في الشام ، وأبدى رغبته في ارسال حملة صليبية إلى الشرق ، ولم يرد في النص ما يفيد أنه طلب من الملك لويس قيادة الحملة (٢) . وربما يرجع اختيار البابا للملك الشاب الذى يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً . أن لويس نذر القيام بحملة صليبية إلى الشرق كنوع من الندم والتوبة على ما اقترفت يدها في حق مدينة فترى Vitry ، وهى المدينة الخشبية التى أضرم فيها النار أثناء صراعه مع كونت شامباني وأحرقها بما فيها من الأحياء وعدتهم ثلاثة عشر ألف نسمة سنة ١١٤١ م / ٥٣٥ - ٥٣٦ هـ (٣) .

(١) عن النص الكامل لخطاب البابا أنظر :

Eugenius III, letter to louis VII, Cf.R.H.G.F.,XV, pp. 429—430.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر : Otto of Freising, The deeds of

Frederick Barbarossa, pp. 71—73; Brundage, J., Crusades, A Documentary Survey, pp. 86—88.

Tout, T., The Empire and the Papacy, p. 284.,

(٣)

وعندما تسلم لويس خطاب البابا أعلن في الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٥ م الثامن من رجب ٥٤٠ هـ عزمه على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضي المقدسة ، ولكن هذه الرغبة قوبلت بالفتور في دوائر البلاط الفرنسي كما عارضها سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس Denis ، ولكن رغبة الملك ومساندة البابا أثبتت إلى اجتماع فيزلاي لإعلان الحملة والدعاية لها ، وهو ماتولاه بعض رجال الدين وعلى رأسهم برنارد Bernard رئيس رهبان دير كليرفو Clairvaux (١) . وانتشر خبر قيام الحملة في الآفاق ونادى البعض في غمرة هذه الأحداث بثلاث حملات ، أحدهما للعمل في الأندلس والثانية ضد الوثنيين في شمال نهر الألب ، والثالثة إلى بيت المقدس (٢) . وما يهمننا أن برنارد نجح بعدما بذل جهدا كبيرا في اقناع كونراد الثالث ملك ألمانيا (٣) بالتوجه إلى الأراضي المقدسة (٤) .

الاستعداد للحملات

بدأ الاستعداد لقيام الحملة ، وأرسل لويس من جانبه خطابين أحدهما إلى روجر ملك صقلية والآخر إلى الامبراطور مانويل يخبرهما بالحملة المزمع قيامها ليعرف من كل منهما مدى المساعدة التي يمكن تقديمها للحملة . وبالنسبة لروجر ملك صقلية فقد أجاب معلنا رغبته الشديدة ورغبة نبلاته للمساهمة في هذا المشروع ، وأرسل سفراء من لدنه إلى الملك لويس لترتيب أمر نقل

Odo of Deuil, op. cit., p.p. 7—9.

(١)

Otto of Freising, op. cit., p. 74.

(٢)

(٣) اتخذ كونراد لنفسه لقب امبراطور خاصة في مراسلاته مع الأباطرة البيزنطيين حتى يكون ندا لهم ويبدو أن ذلك هو السبب في اصفاء لقب امبراطور على كونراد ، والواقع أن كونراد مات في ١٥ فبراير ١١٥٢ م وهو في طريقه إلى روما للحصول على التاج الأمبراطوري أنظر :

Folzy, R., The Concept of The Empire, p. 105. Otto of Fresing, (٤)
op. cit. p. 75.

الصلبيين بالطريق البحري ودراسة الاحتياجات الأخرى التي يمكن المساهمة بها ، ووعد بأن يذهب بنفسه أو يرسل ابنه مع قوات الحملة (١) ، ولكي يقنع الملك لويس بوجهة نظره فقد ندد بالامبراطورية البيزنطية وركز على خيانة الأباطرة البيزنطيين للحركة الصليبية التي ورثوها عن الامبراطور الكيسوس (٢).

وفي الحقيقة كان النورمان يملكون أسطولا كبيرا يمكنه الاسهام بنجاح في نقل القوات الصليبية ، ولكن روجر كان يهدف من وراء تقديم هذه المساعدة إلى تحقيق هدف آخر ، فقد كان روجر يطالب بأنطاكية باعتباره وريثا ليوهند الأول . وبذلك أصبح قدومه إلى الشرق يثير مشكلة مع ريموند أف بواتيه صاحب أنطاكية ، ولما كان ريموند هذا خال الملكة إليانور Eleanor زوجة لويس ، فقد أصبح الأمر واضحا في عدم قبول أيتمساعدة من روجر حتى لا تكون زريعة له للتدخل في إمارة أنطاكية . حتى لو كان انضمام روجر هو العامل الأول في انجاح الحملة (٣) . يضاف إلى ذلك أن روجر كان في حالة عداء مع كونراد ومع مانويل وهما اللذان أصبحا حليفان في هذه الفترة . وعلى ذلك فإن قدوم روجر يثير المشكل مع كونراد أثناء سير الحملة بحرا ومع مانويل إذا ما قدمت بعض القوات عن طريق البر عبر القسطنطينية ، وحتى إذا نقلت الحملة كلها عبر البحر فإن مشكلة قائمة نظرا لادعاء مانويل السيادة على أنطاكية . وبذلك أصبحت مشكلة أنطاكية تسير في ثلاثة اتجاهات : اتجاه روجر في وراثته أنطاكية واتجاه مانويل في فرض سيادته على أنطاكية ، وثالثا رغبة ريموند في دعم استقلاله التام بالامارة

Odo of Deuil, op. cit., p. 11.

Ludlow, J.M., op. cit., p. 168.

Belloc, The Crusade p. 242, Runciman, op. cit., II, p.p. 251—2.

(١)

(٢)

(٣)

شخص
انطاكية

روجر
مانويل
ريموند

بعيدا عن مانويل وروجر، ويبقى بعد ذلك موقف لويس الذى سيصبح جرجا للغاية باعتباره طالبا المساعدة من روجر وصهرا للأمبر ريموند .

وهنا نتساءل وكل هذه الأمور كانت معروفة لجميع القيادات فى أوروبا والشرق فى ذلك الوقت ، لما أرسل لويس إلى روجر يطلب منه المساعدة ؟ والواقع أن لويس ربما قصد الوقوف على رغبة روجر الحقيقية من وراء هذه المساعدة ، أو ربما قصد لويس من وراء ذلك ممارسة نوعا من الضغط على مانويل حتى يحصل منه على أكبر قدر من التسهيلات عند مرور الحملة غير أراضى الامبراطورية، وهو الطريق البرى الوحيد البديل للطريق البحرى . والباحث ميل إلى الأخذ بالرأى الثانى خاصة وأن لويس أرسل فى الوقت نفسه خطابه إلى الامبراطور مانويل أثناء حروب الأخير مع السلاجقة فى صيف عام ١١٤٦ م (١) .

ويبدو أن مانويل كان يعلم بأمر الاتصال مع روجر - لأن مانويل كان بإمكانه التعلل بحروبه مع السلاجقة ويطالب بارجاء الحملة أو عدم إمكانه تقديم المساعدة للحملة - لذلك أرسل مانويل رده إلى لويس متضمنة أسلوبا رقيقا وخاطبه مخاطبة الاخوة وقدم له وعودا مشجعة فى الوقت الذى تحفظ مانويل فى خطابه وأشار أنه عقد الهدنة مع السلاجقة وأنه لا يستطيع المساهمة بقواته التى يدخرها خشية أن يقوم السلاجقة بتخريب الهدنة (٢) ، كما أرسل الامبراطور مانويل إلى البابا يوجين خطابا فى أغسطس ١١٤٦ م / صفر - ربيع أول ٥٤١ هـ يعلن فيه استعدادده لاستقبال الصليبيين وتشريفهم اياه كما سبق أن شرفوا جده الكسيوس من قبل (٣) .

Odo of Deuil. op. cit., p. 11.

(١)

Manuel, Letter to Louis VII, Cf., R.H.F.G., XV p. 9.

(٢)

Manuel, Letter to The Pope Eugenius, Cf., R.H.G.F. XV, p.p.

(٣)

ولعل في خطاب مانويل إلى البابا إشارة واضحة إلى الولاء الذي قدمه القادة الصليبيون إلى الامبراطور الكسيوس من قبل ، وبالتالي فهو يطالب بالولاء نفسه خاصة وأنه لم يطلب مساعدة من الغرب الأوربي . ولست أدري لماذا لم تتنبه القيادات في أوروبا إلى مثل هذه الإشارة ، أو ربما فطنت إليها ووجدت أن قيادة الحملة في هذه المرة ، وهي التي تضم لويس وكونراد تختلف عن قيادة الأمراء للحملة الأولى ، فالقيادة الآن مساوية لمركز الامبراطور وأن ذلك يغير الموقف ، أو لعلها وجدت أن ذلك أخف ضررا من اشتراك روجر في الحملة ، وترجيح آخر وهو أن البابا أخفى أمر هذه العبارة على لويس وكونراد وهو ، أمر خطير لأن ذلك يعني أن البابا يود أن تقوم الحملة ويسجل له ذلك الجهد ، أما أن تنجح أو تفشل فهو أمر تقع مسؤوليته على كاهل — القيادات وليس على كاهله .

سعى أية حال اتخذت الحملة قرارها بالسير برا عبر القسطنطينية بعد أن نبذت مشروع روجر الذي غضب لهذا التصرف وقام في خريف عام ١١٤٧م منتصف ٥٤٢ هـ — أي قبل وصول أية قوات صليبية إلى العاصمة البيزنطية — وهاجم الامبراطورية البيزنطية واستولى على جزيرة كورفو Corfu وبعض المدن الصناعية الأخرى ونقل عمالها إلى بالرمو Palermo في صقلية . مما كان له أسوأ الأثر على الاقتصاد البيزنطي (١) ، وليس ذلك فحسب فالأهم أن الامبراطور مانويل قد أنهى الحرب مع السلاجقة بعقد الهدنة حتى يتفرغ للحملة وربما كان يرى قيادتها أو استغلالها لتحقيق بعض أطماعه في الشرق ،

Heyd, Histoire du Commerce du Levant, pp. 198—9; Brown, H.F., (١)

Studies in the History of Venice, p. 74.

أنظر أيضا : ابن الفرات : تاريخ الأمم والملوك (مخطوط) ج ٥ لوحة ٢٦ ب .

أما الآن وبعد مهاجمة روجر للأمبراطورية فيبدو أن موقف مانويل قد تبدد بعد ما انشغل بأمر هذا الخطر الجديد. فهل كان عليه أن ينقض يده من الحملة حتى يتفرغ إلى الخطر النورمانى أم لا يلحق بالآلى الخطر النورمانى ويهتم بأمر الحملة ؟ ، هذا ما ستوضحه لنا الأحداث التالية .

نعود إلى الحملة التى تحدد لها الخامس عشر من يونية ١١٤٧ م / السادس عشر من المحرم ٥٤٢ هـ موعدا للرحيل (١) وتقدم كونراد على رأس قواته التى بلغت ما يقرب من سبعين ألفا من الفرسان بالإضافة إلى المشاة، ويلاحظ أن قواته لم تسرع مع القوات الفرنسية فى وقت واحد للتغلب على مشاكل التكوين هذه الأعداد الضخمة (٢) . وعندما بدأت القوات الألمانية تصل إلى مشارف الحدود البيزنطية فى أوربا ، انزعج مانويل الذى كان يترب أخبار الحملة من هذه الأعداد الضخمة، وشرع فى تحصين العاصمة، وبدأ فى الاتصالات الدبلوماسية للتعرف على نوايا الحملة تجاه الامبراطورية، وأرسل سفارة مكونة من ديمتريوس Demetrius ومايروس Mairus ، وطالبت السفارة الملك كونراد - رغم كونه حليفا للأمبراطور - أن يقسم بالعمل على مراعاة مصالح الامبراطورية فأقسم كونراد ، وبذلك تأكد المبعوثان من حسن نية الملك الألماني ووعده بالمساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية (٣) وبدأت الأمور تسير سيرا طبيعيا .

بدراسة جنابك

ولكن المتاعب بدأت عندما قامت القوات الألمانية بنهب القرى بعد ما عبروا مدينة صوفيا Sofia ، وعندما اشتكى المواطنون البيزنطيون للملك

Odo of Deuil, op. cit., p. 15.

Roger of Wendover, op. cit., I, p. 449.

Cinnamus, op. cit., pp. 66—9.

(١)

(٢)

(٣)

أجاب بأنه ليس بوسعهم أن يحكم هؤلاء الرعايا ، يضاف إلى ذلك المذبحة التي قام بها الألمان في أهالي مدينة فيليبوبولس Philippolis وإضرارهم النار في ضواحي المدينة التي أغلقت أسوارها ، ولا يمكن وصف ذلك إلا بأنه عمل بربري ارتكبه القوات الألمانية المثلة في حق المواطنين البيزنطيين (١) ، وسيكون لهذه المعاملة أسوأ الأثر في معاملة المواطنين للصليبيين في المراحل المقبلة (٢) . ولما علم مانويل بهذه الحوادث أرسل على الفور قائده برسق التركي ومعه بعض القوات لاصطحاب الصليبيين لمنع الصدام بين المواطنين والصليبيين وقد نجح برسق في مهمته ، والواضح أن مانويل رأى عدم قنوم القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعد ما قاموا بهذه الأحداث ، لذلك أرسل إلى كونراد وهو في مدينة أديانوبول Adrianople ، يعرض عليه أن يتخذ طريقه إلى آسيا الصغرى عبر مدينة سيستوس Sestos التي تقع على بوزغاز الدردنيل ، ولكن كونراد رفض ذلك واتخذ طريقه إلى القسطنطينية (٣) .

عنه مانويل
من المذبحة

ولما وصل كونراد العاصمة في العاشر من سبتمبر ١١٤٧ م / الثاني عشر من ربيع ثاني ٥٥٤٢ هـ أكرم مانويل ضيافته — دون أن يتقابلا — ثم توترت العلاقات مرة أخرى عندما قام الأمان بأعمال العنف ضد المواطنين البيزنطيين في الوقت الذي لم يأخذ فيه كونراد أى إجراء لوقف هذه الأعمال . وعندما طالبه مانويل بالتدخل للسيطرة على الموقف غضب وهدد بالعودة في العام التالي للمهاجمة القسطنطينية وتأزم الموقف بين العاهلين . ولم تنفرج الأزمة إلا بعد ما تدخلت زوجة مانويل ونجحت في التوفيق بين زوجها وبين زوج

وصول كونراد
إلى العاصمة
في الثاني عشر من ربيع الثاني
٥٥٤٢ هـ

تأزم الموقف
لما تدخلت زوجة مانويل

Odo of Deuil, op. cit., 43—47.

(١)

Oman, op. cit., I, p. 25; Finly, op. cit., III, p. 165.

(٢)

Cinamus, op. cit., pp. 69—74; Odo of Deuil, op. cit., p. 47, 49.

(٣)

أختها . ومالبث أن تخلص مانويل من كونراد وقواته عندما وصلت طلائع القوات الفرنسية الصليبية ووقعت بعض المصادمات والشغب بين القوات الألمانية والفرنسية ، الأمر الذى دفع كونراد إلى عبور البسفور بقواته منعالمزيد من الصدام (١) وبعد عبور القوات الألمانية اتجهت إلى خلقدونية ، ويبدو أن العلاقات بين مانويل وكونراد قد تحسنت فى هذه المرحلة بدليل ما قدمه الامبراطور مانويل من الهدايا إلى الملك الألمانى ، ويبدو أيضا أن مانويل حاول تقوية الروابط مع الحملة فى هذه المرحلة أيضا ، فعرض على كونراد استبقاء بعض القوات الألمانية فى العاصمة مقابل ما يقدمه مانويل من قوات بيزنطية لضفوف الحملة ولكن كونراد رفض هذا العرض (٢) . ولعل مانويل قصد من وراء هذا العرض عدم عزل الامبراطورية البيزنطية عن مساندة الحركة الصليبية سواء أكان جادا فى عرضه أم لا ، وربما أراد بضم بعض قواته لقوات الحملة أن ينسب للامبراطورية البيزنطية جزء من النجاح الذى توقعه للحملة نظرا لاعدادها الضخمة ، وتظل على الأقل ادعاءات السيادة البيزنطية على أنطاكية باقية ، وإذا كان المؤرخ فازيليف يرى أن مانويل كان يعمل على قيادة الحملة (٣) ، فالرد على ذلك أن مانويل لم يكن يجرؤ على ترك العاصمة البيزنطية بعد ما هاجم روجر أراضى الامبراطورية منذ قليل ، يضاف إلى ذلك أن مانويل لو أراد ذلك لما طلب من كونراد الابتعاد عن العاصمة نهائيا والعبور إلى آسيا الصغرى بجيشه عن طريق الدردنيل . أما عن رفض كونراد لعرض الامبراطور مانويل فقد جانب كونراد الصواب فى ذلك ، لأن كونراد إذا كان قد ترك عددا من القوات مساويا للقوات البيزنطية لكى

Odo of Deuil, op. cit., pp. 49—51; Cinnamus, op. cit., 79.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 87; Cinnamus, op. cit., p. 82.

(٢)

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, II, 71.

(٣)

تنضم إلى صفوف الحملة ، فلاشك أن ذلك كان في صالحه لأن القوات البيزنطية تعلم المسالك والطرق إلى الشام ومتمرسه على القتال ضد السلاجقة ومسلمي الشام بعكس القوات الألمانية ، والحقيقة أن كونراد أعتقد في نجاح القوات الألمانية بمفردها - حتى بدون القوات الفرنسية - وهذا ما دفعه إلى الإسراع في التوجه إلى الشام قبل أن يلحق به لويس وقواته (١) . لذلك رفض العرض البيزنطي حتى ينسب له بمفرده دون أية قيادة أخرى ما تحققه الحملة من نجاح .

استعد كونراد للتوجه إلى الشام وكان كل ما طلبه من مانويل امداده ببعض المرشدين ليصحبوه في الطريق عبر الأناضول ، فقدم إليه مانويل المرشدين ، وفي الوقت نفسه نصح الامبراطور الملك كونراد بأن يتخذ الطريق الساحلي الغربي لآسيا الصغرى ثم الساحل الجنوبي ليصل إلى أضايا (٢) . وهي الطريق التي تقع تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية ، كما أشار عليه أيضا بإعادة كافة الصليبيين الزائدين على الحاجة إلى أوطانهم حتى لا يتمسبوا في ارباك صفوف ، الحملة ولا يكونوا عبئاعلها في اعاشتهم أو غير ذلك (٣) .

ولكن كونراد لم يأخذ بهذه النصائح الهامة التي قدمها له الامبراطور واصطحب كافة القوات واختار أقصر الطرق ليصل إلى الشام (٤) ، وهو الطريق الذي يستغرق حوالي ثلاثة أسابيع والذي تقع عنده العاصمة السلجوقية قونية على بعد مسيرة اثنا عشر يوما من خلقدونية (٥) ، ولم يكن يدرى أنه

Finlay, op. cit., p. 166.

Odo of Deuil, op. cit., p. 51.

Odo of Deuil, op. cit., p. 53.

Setton, op. cit., I, p. 495; Finlay, op. cit., III, p. 166.

Anderson, J., Road System of Eastern Asia Minor Cf., The

Journal of Hellenic Studies, Vol. XVII, 1879, pp. 39-40.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

بأختياره لهذا الطريق قد خطط لفشل الحملة (١). وأتجه كونراد حتى وصل إلى مدينة نيقية وهناك أعاد النظر في خط سير الحملة فقسم جيشه إلى قسمين ، أحدهما وهو القسم الرئيسى وتولى كونراد قيادته بنفسه عبر الطريق الذى اختاره من قبل ، أما القسم الآخر وهو غير المسلح فقد عهد به إلى أوتو أف فراينج وأختار له الطريق الأوسط وهو الذى يمر بمنطقة فلاديفيا ولاودكيا الغربية ثم إلى أضاليا (٢)، وبعد ما زود كونراد جيشه بالمؤن التى تكفيه لمدة ثمانية أيام فقط ، أصدر أوامره لقواته بالتقدم ، وكانت الرحلة شاقة ومرهقة وما أن أشرف اليوم الثالث حتى كان الضيق قد لحق بهم من وعورة الطريق عبر الممرات والجبال (٣) ، وفى هذه المرحلة يسجل المؤرخ البيزنطى نيكيتاس أن هناك من يقول أن الأمبراطور أمر بخلط مايباع من الدقيق بالجير ، وأن المواطنين البيزنطيين تعاملوا مع الألمان بعملة أقل وزنا من الوزن المعتاد وأن الأمبراطور أثار الأتراك السلاجقة ضد القوات الألمانية ، وأنه طلب من المرشدين تضليل الحملة والحرب. ويضيف المؤرخ نفسه أنه لا يدرى عما إذا كان ذلك صحيحا أم لا (٤) . ويروى المؤرخ الفرنسى أودواف ديل أن الصليبيين كانوا تواقين لليوم الذى يصلوا فيه إلى قونية قبل أن يهلك الجيش الألمانى ، وفى اليوم الرابع لمغادرتهم نيقية اكتشفوا هروب الدليل عند مطلع الفجر ، واكتشف ذلك حاملوا أعلام الملك الذين كانوا على علاقة سيئة بالدليل ، وفجأة تبين للصليبيين أن السلاجقة منتشرون على قمم الجبال المحيطة بهم ، وأن الألمان قد أصابهم اليأس لأن الدليل البيزنطى قد هرب قبل ما

Strogorsky. op. cit., p. 339.

(١)

Cinnamus, op. cit., pp. 80—81.

(٢)

Odo of Deuil, op. cit., p. 91.

(٣)

Nicetas, op. cit., pp. 88—89.

(٤)

ينال ما يستحقه على جريمته (١) . أما وليم الصوري قد روى أن المرشدين اختاروا الطريق للحملة وهو الطريق الذي أصبحت فيه تحت رحمة السلاجقة وقد أتاب الحملة مزيدا من الصعاب ، لذلك استدعى الملك كونراد المرشدين ليسألمهم عن الموعد الذي سيصلون فيه إلى قونية ، وأجاب المرشدون بأن ذلك على مسيرة ثلاثة أيام من مواقعهم ثم ما لبث أن هرب المرشدون في الليلة نفسها وبدون المرشدين وجد كونراد جيشه في ضياع وأشار بعض القادة الصليبيين بالعودة والبعض الآخر بالتقدم في الوقت الذي عانى فيه الصليبيون من نقص الامدادات فأكلوا الدواب ثم ما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب ، وأضاف أن ذلك كله مرجعه إلى خيانة البيزنطيين (٢) .

وحول ما رواه نيكتاس رغم تحفظه أصبح الآن مرفوضا وهو ما لم تشر إليه المصادر المعاصرة للإمبراطور مانويل . وقد يخسم هذا الأمر كله الخطاب الذي أرسله كونراد إلى ويبالد أسقف كورفرى Corvery . وفيه يجعل كونراد أنه اختار هذا الطريق بنفسه ليصل إلى الشام بأسرع وقت . وأنه قد حصل على المؤن الكافية قبل رحيل قواته من نيقية . كما أنه لم يعلق على المرشدين أهمية تذكر ، ولم يشر إلى خيانتهم كما أنه لم يربط بين هروب المرشدين وبين ظهور الأتراك السلاجقة (٣) . ويمكن القول أيضا أن مؤن القوات الصليبية الألمانية قد نفذت عند فيلوميلوم Philomelium . وهي النقطة التي بدأ فيها السلاجقة في مهاجمة الصليبيين بعد ما قطعوا الطريق عليهم ، وعندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعا في بلاد يجهلون بها أتهموا المرشدين بالخيانة . ولم

Odo of Deuil, op. cit., pp. 91—93.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 168—172.

Conrad III, letter to Wibald, Cf., R.H.G.F., XV, p. 533.

(١)

(٢)

(٣)

ينتظر المرشدون خوفا من التهديد فهربوا ثم وقعوا في أيدي السلاجقة ، وقد عرف منهم السلطان مسعود الحالة السيئة التي يمر بها الصليبيون ، لذلك سقط الجيش الألماني غنيمة باردة في يد السلاجقة (١) .

وهكذا ارتبك الصليبيون واختلت القيادة وحاولوا الاحتماء في شغاب الجبال ولكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلا من السهام ، يساعدهم في ذلك حركاتهم السريعة على ظهور الجياد في الوقت الذي لم يتمكن فيه الصليبيون من امتطاء خيولهم لما أصابها من الضعف بسبب قلة الطعام ، وعندما رأى السلاجقة أن الصليبيين لا يحملون أقواسا انقضوا على المؤخرة والمقدمة والوسط وسادت الفوضى جميع الصفوف الصليبية مما ساعد على أنزال خسائر فادحة في صفوف الألمان ، حتى يمكن القول بأن هذه المعركة كانت مذبحة قتل فيها تسعة أعشار الجيش الألماني وأصيب كونراد نفسه بجرحين أحدهما في رأسه (٢) . ولا شك أن سقوط الملك القائد جريحا وسط قواته وهي في هذه الحالة قد ساعد على مزيد من الفوضى والاضطراب في صفوف القوات الألمانية .

وحاول كونراد أن يعيد تنظيم فلول قواته وهو جريح ولكنه فشل في ذلك ، وكل ما كان بوسعه أن يفعله هو الانسحاب بأسرع وقت إلى نيقية ، وكان انسحابا اتسم بالفوضى فأستغله السلاجقة في إضافة المزيد من الخسائر إلى القوات الألمانية الهاربة ، وبهذه الكارثة نستطيع القول أن الجيش الألماني الصليبي قد إنتهى أمره وكانت رحلته عبر آسيا الصغرى وبالا عليه (٣) مما سيكون له أسوأ الأثر على نتائج الحملة بأكملها .

Oman, op. cit., I, p. 245.

(١)

Odo of Deuil, op. cit., pp. 94 n. 14,95.

(٢)

(٣) عمر كال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٥٦ .

هذا ما كان من أمر القوات الرئيسية التي قادها كونراد ، أما القسم الآخر الذى تولى قيادته أوتو أف فرايزنج الذى اتخذ طريقه إلى لاودكيا الغربية فقد تعرض هو الآخر لهجمات مماثلة من السلاجقة ، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من القوات. يضاف إلى ذلك ما تعرض له من المجاعة بسبب نقص الامدادات ، وقد وصلت البقية الباقية إلى أضاليا وهى فى حالة من الأعياء الشديد (١) .

ومن الملاحظ أن المؤرخين لم يتحدثوا عما فعله المرشدون مع هذه المجموعة أو ينسبوا الكارثة التى حلت بهم أيضا إلى مانويل أو البيزنطيين على وجه العموم . وفى تصورى أن الأدلاء ظلوا مع هذه المجموعة حتى النهاية ، لأنه لو تركوها مثلما حدث مع الجيش الرئيسى لأشار إلى ذلك المؤرخون بكل وضوح ، ومع ذلك فقد تعرض هذا القسم أيضا لهجوم السلاجقة ، إذ فالمسألة لا تتعلق بهروب المرشدين فالنتيجة كما رأينا كانت واحدة سواء هرب المرشدون أم لا ، ذلك لأن السلاجقة يعلمون بالنتائج التى حلت بهم من قوات الحملة الأولى وتحالفهم مع البيزنطيين ، ويعلمون أن القوات الصليبية ذاهبة لقتال أخوانهم فى الشام ، ورغم عدم وجود تحالف بين السلاجقة ومسلمى الشام ، فالسلاجقة يدركون أن هذه القوات أتت إلى الشرق بسبب استرداد المسلمين للرها وأنها ستعمل على استعادتها وعلى دعم الوجود الصليبي فى الشام . والرها تقع خلف الممتلكات السلجوقية فإذا ترك السلاجقة هذه القوات الضخمة تتجه إلى الشام سليمة وكاملة لقضت على القوات الاسلامية هناك وتمكن من طعنهم من الخلف بعد ذلك ، وستكون الكارثة أعم إذا ما اتحدت هذه القوات مع القوات البيزنطية والشواهد على ذلك كثيرة ، وبذلك يقعون

بين شقي الرحي . وعلى ذلك يتضح أن السلاجقة حاولوا إنزال أقصى أنواع الضربات وألحاق أكبر الخسائر بالقوات الصليبية مهما كانت الظروف دون حاجة إلى إنتظار أوامر الامبراطور مانويل .

أما القوات الفرنسية وعلى رأسها لويس السابع فقد خرجت متأخرة حوالى الشهر من رحيل الملك كونراد . كانت القوات الفرنسية مساوية تقريبا في اعدادها للجيش الألماني واصطحب لويس معه زوجته اليانور وريثة مقاطعة اكويتين Aquitaine ، وكانت القوات الفرنسية أيضا أكثر تنظيمًا من الجيش الألماني (١) . ورغم ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات مع المواطنين البيزنطيين في المقاطعات التي مروا بها ، وكما فعل مانويل مع كونراد فقد أرسل مانويل أيضا إلى لويس السفيرين اللذين سبق أن أرسلهما إلى الملك كونراد وتقابلوا مع لويس عند مدينة راتسبون Ratisbon ولكن الأمر اختلف مع لويس ، فقد طلب منه المبعوثان أن يؤكد لهما أنه سيتصرف كصديق للامبراطور البيزنطي أثناء مروره عبر الأراضي البيزنطية ، والأهم من ذلك أنهما طلبا من الملك لويس أن يتعهد لهما بأن يعيد إلى الامبراطور مانويل جميع الأراضي التي استولى عليها السلاجقة والتي كانت تابعة من قبل للبيزنطيين ، وبعد جدل طويل بين الملك لويس وباروناته ، أقسم بعضهم نيابة عن الملك على الشرط الأول ، أما الشرط الثاني فأرجىء أمره حتى يتقابل الملك لويس مع الامبراطور مانويل (٢) . وهنا يمكن القول أن مانويل حاول استغلال القوات الفرنسية لصالحه دون أن يبذل أى جهد من جانبه وأن يوسع

(١) عن تنظيم الجيش والنصائح التي قدمها البابا للملك لويس حول تسليح الجيش انظر :

Eugenius III, letter to louis, cf., R.H.G.F., XV, p. 430.

Odo of Deuil, op. cit., pp. 25—29.

حدود ممتلكاته في آسيا الصغرى : دون أن يعرض قواته لأخطار الحرب .

تأزم الموقف بين مانويل ولويس ، وأتخذ الأخير الطريق الذي اتخذه كونراد من قبل وكان لذلك أثرين على الجيش الفرنسى ، أولهما أن القوات الفرنسية استفادت بالمنشآت التى أقامها كونراد خاصة الكبارى ، وثانيهما أن مواطنى المقاطعات البيزنطية عاملوا القوات الفرنسية بكل حذر بعد ما تلقوا دروسا قاسيا على أيدي قوات كونراد (١). وعندما وصل لويس إلى مدينة ادريانوبل أرسل اليه مانويل يشير عليه بعبور الدردنيل عند مدينة سيستوس ولكن لويس رفض طلب الامبراطور (٢) . وهنا تجدر الإشارة إلى أن مسألة إعادة القوات الفرنسية للأراضى التى استولى عليها السلاجقة قد أرجأت حتى يتقابل الملك لويس مع الامبراطور مانويل ، وأن عرض مانويل بعبور لويس وقواته للدردنيل يعنى أن مانويل ولويس سوف لا يتقابلان . ولعل مانويل قد أقنع عن فكرة استغلال القوات الفرنسية، ولمزيد من الدقة فى تحليل موقف مانويل من الملك لويس نترك هذه النقطة مؤقتا وستفسرها لنا الأحداث التالية .

بعد ما رفض لويس عبور الدردنيل واصل مسيرته فى طريقه إلى القسطنطينية ليضع مانويل أمام الأمر الواقع مثلما فعل كونراد ، ووصلت طلائع القوات الفرنسية إلى العاصمة البيزنطية ولحقوا ببعض القوات الألمانية التى لم تكن عبرت البسفور حتى ذلك الوقت، ونتج عن ذلك بعض المناوشات بين القوتين (٣) . وقد وصل لويس نفسه فى الرابع من أكتوبر ١١٤٧ م /

Odo of Deuil, op. cit., p. 33.

Odo of Deuil, op. cit., p. 47.

Odo of Deuil, op. cit., p. 47—49.

(١)

(٢)

(٣)

السابع من جمادى الأولى ٥٤٢ هـ . وهناك لاحظ طلائع قواته وقد انتهبا الضيق أثر سماعها أخبار الهدنة التي سبق أن عقدها مانويل مع السلاجقة . وقد استغل ذلك بعض رجاله الساخطين على الامبراطورية البيزنطية وأشاروا على الملك بالتحالف مع روجر ضد مانويل ، ولكن لويس لم يستمع اليهم . ولعل في حين استقبال مانويل للملك لويس في العاصمة واصطحابه لزيارة معالم القسطنطينية قد طمأن لويس إلى حد كبير . ولما كان مانويل لا يحيد بقاء القوات الفرنسية حول العاصمة فقد طلب من لويس الاسراع في نقل القوات الفرنسية عبر البسفور إلى خلقدونية ولكن لويس عارض هذه الفكرة وتعلل بأنه في انتظار القوات الصليبية القادمة من إيطاليا - التي رست بهم السفن في مدينة دورازو (١) .

وفي هذا الوقت سرت شائعة تفيد أن الصليبيين الألمان حققوا نصرا كبيرا على السلاجقة في آسيا الصغرى وأنهم قتلوا ما يقرب من أربعة عشر ألفا من السلاجقة دون خسارة من جانبهم ، ويتهم بعض المؤرخين الامبراطور مانويل بأنه مصدر هذه الشائعة التي نتج عنها إثارة حمية الفرنسيين ونادوا بالعبور إلى آسيا الصغرى لعلهم يفوزون بجانب من هذا النصر ، وطالبوا الملك لويس باللاحاق بجيش كونراد ، وقد أذعن لويس لهذا الرأي وظل هو بالعاصمة البيزنطية لبعض الوقت (٢) . والباحث يرجح أن يكون الامبراطور مانويل مصدرا لهذه الشائعة خاصة وأنه لم تكن لديه سوى رغبة واحدة وهي أن يتخلص بسرعة من القوات الفرنسية حتى لا يتخرج موقفه إذا تغلب الرأي

Odo of Deuil, op. cit., p. 73.

(١)

Ibid.

(٢)

الذى يطالب بالتحالف مع الملك روجر ضده ، أو إذا أدت أى حادثة غير متوقعة إلى صدام بين الفرنسيين والبيزنطيين (١) هذا إلى جانب أن الإمبراطور البيزنطى كان يتشكك فى نوايا لويس الذى سبق له الاتصال بالملك روجر ودخل معه فى مفاوضات بشأن نقل الحملة بالطريق البحرى (٢) ، بالإضافة إلى رفض لويس التعهد برد الأراضى التى يفتحها وكانت من قبل تابعة للإمبراطورية البيزنطية .

المسألة الثانية

ومهما يكن من أمر فقد تخلص مانويل من القوات الفرنسية التى أُنْجِثَتْ إلى خلقيدونية ، وهناك حدث ما كان يحشاه مانويل فبدأت حوادث السطو على مناضد الصرافين وما يصاحبها من أعمال العنف فهرب المواطنون البيزنطيون للنجاة بأرواحهم ، والحقيقة أن الملك لويس لم يرض عن هذه الأعمال فأمر بعقاب المسئولين وإعادة كافة المسروقات إلى أصحابها . ويبدو أنه لم يتمكن إلا من إعادة جانب قليل منها ، لذلك تحملت خزانة الملك الجزء الأكبر من قيمة هذه المسروقات (٣) . ورغم بساطة هذه الحادثة بالمقارنة بما حدث من قبل ، إلا أن الإمبراطور مانويل غضب غضبا شديدا رغم ما قام به لويس من رد اعتبار المواطنين البيزنطيين ، وأمر بالغاء الأسواق التى تمد الفرنسيين بالمؤن . وكان رد الفعل الطبيعى أن يقوم الفرنسيون بنهب المنطقة ، وعلى الفور أرسل لويس إلى مانويل يطلب منه إعادة إقامة الأسواق لتجنب هذه الأحداث ، ولكن مانويل اشترط لذلك بعض الشروط يهمنها منها ، أن يحضر الملك لويس بنفسه إلى قصر الإمبراطور وأن يقسم بارونات الملك بيمين الولاء والطاعة

Chalandon, op. cit., pp. 298—9.

Vasiliev, op. cit., II, p. 72.

Odo of Deuil, op. cit., p. 75.

(١)

(٢)

(٣)

للأمبراطور، مقابل أن يتعهد مانويل باعادة اقامة الأسواق وامداد الفرنسيين بالمرشدين اللازمين يضاف إلى ذلك شرطاً في غاية الأهمية بالنسبة لموضوع البحث وهو أن يكون من حق القوات الفرنسية نهب البلاد البيزنطية التي ترفض أن تقدم لهم الامدادات أو ما شابه ذلك من سبل الاعاشة بشرط عدم احتلال هذه المدن ، هذا إلى جانب ما وعد به الأمبراطور مانويل من الهدايا لكبار الشخصيات الفرنسية (١) . وهنا تجدر الإشارة إلى أن مانويل لم يتعرض في هذه الشروط أو بعد ذلك إلى مسألة اعادة القوات الفرنسية للأراضي التي تستولى عليها من السلاجقة والتي كانت من قبل تابعة للأمبراطورية ، مما يشير إلى أن مانويل قد أقلع عن هذه الفكرة (٢) أو أن هذه الرواية باطلة من أساسها لعدم وجود ما يساندها في المصادر الأخرى .

وبالبحث المدقق في هذه الشروط يستنتج منها أنها كانت في صالح الصليبيين أكثر مما هي في صالح الأمبراطورية البيزنطية ، ففي الواقع أن كلها مزايا للفرنسيين عدا أن يقسم الأمراء يمين الولاء للأمبراطور وهو أمر أصبح شكلياً بعدما تعهد لويس — والأمراء تابعين له — أن يتصرف كصديق أثناء عبوره الأراضي البيزنطية. ورغم هذا ثار بعض المعارضين ، ولكن البعض الآخر وجد أنه لا يوجد في مطالب الامبراطور ما يدعو للثورة . وبينما تدور المناقشات حول مطالب مانويل وصلت بقية القوات الصليبية التي رست في دورازو إلى القسطنطينية فأكرم مانويل وفادتها وسهل لها عملية العبور للحاق باخوانهم ، وكان لذلك تأثيراً واضحاً على سير المناقشات التي مالت إلى جانب

Odo of Deuil, op. cit., pp. 77—79.

(١)

(٢) أنظر ما سبق ص ١٤٩ .

مطالب مانويل فأتجه، لويس وباروناته إلى الإمبراطور البيزنطي حيث اجتمعوا به وأقسم النبلاء الفرنسيون للإمبراطور بحين الولاء وتم الاتفاق على الشروط التي وضعها مانويل (١) . ولعل في عرض الإمبراطور البيزنطي الذي أباح للقوات الفرنسية نهب المدن التي لا تقدم الامدادات للقوات الصليبية رد مسبق على أي اتهام يوجه للإمبراطور يتعلق بقلة المؤن التي قدمها مانويل للصليبيين الفرنسيين .

ومع بدايات شهر نوفمبر ١١٤٧ م / بدايات جمادى الآخرة ٥٤٢ هـ وبينما كانت القوات الفرنسية تستعد للرحيل علموا بالكارثة التي حلت بالقوات الألمانية فقد وصل فريدرىك أف سوابيا (٢) Frederick of Suabia ابن عم كونراد الذي كان يصاحبه في الحملة — يطالب مقابلة الملك لويس ليلبغه بالكارثة (٣) ، وأسرع لويس إلى كونراد بناء على طلبه لمواساته ومساعدته ، وفي هذه المقابلة تم الاتفاق بين الملكين على أن يسلكا الطريق الساحلى — الذى سبق أن أشار به مانويل على كونراد قبل الكارثة — وتقدم لويس بقواته على أمل أن يلحق به كونراد بعد إعادة تنظيم قواته . وفي الوقت نفسه أيضا عادت بعض القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعد ما قاست من محن (٤) . ولحق كونراد وقواته بجيش لويس ، ومن الملاحظ أن القوات

Odo of Deuil, op. cit., p. 79—83.

(١)

(٢) هو ابن الإمبراطور فريدرىك بارباروسا ١١٥٢ — ١١٩٠ م ، وقد قدم مع والد إلى الشرق مع جنود الحملة الصليبية الثالثة وتولى قيادة القوات الألمانية بعد ما غرق والده في أحد الأنهار الصغيرة في بلبقية . أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : انصدر السابق ج ٢ ص

٨٥٠ — ٨٥١ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 173.

(٣)

Odo of Deuil, op. cit., p. 91.

(٤)

الفرنسية لم تكن على وفاق مع القوات الألمانية الذين تعرضوا للسخرية من جانب قوات الملك لويس (١) .

ويبدو أن الملك كونراد لم يعد يحتمل أكثر من ذلك وهو الملك المتطلع إلى اللقب الامبراطوري وسليل الامبراطورية الرومانية ، فما أن وصلت القوات مدينة أفسوس حتى اعتلت صحته ولم يتمكن من مواصلة الرحلة . والواقع أن الامبراطور مانويل كان على اتصال دائم بالقوات الصليبية . فعندما علم بمرض الملك كونراد أرسل إليه الهدايا واستدعاه للعاصمة وأولاه اهتماما بالغاً وقيام مانويل بنفسه بعلاج الملك كونراد (٢) . وانتظر لويس عودة الملك الألماني ، ولما طال غيبته عزم على مواصلة الرحلة . ومما هو جدير بالذكر أن الامبراطور مانويل أبلغ الملك لويس وهو في مدينة أفسوس بوجود بعض القوات السلجوقية على مقربة منه ونصحه بالتزام السير بمحاذاة الساحل وبعدم الاشتباك مع السلاجقة كلما أمكن ذلك . وأضاف مانويل إلى نصائحه أنه من الصعب كبح جماح المواطنين البيزنطيين إذا ما تعرضوا للأذى من قبل الصليبيين (٣) . ولعل في ذلك ما يوضح أن الامبراطور مانويل لم يكن متحالفاً مع السلاجقة ضد الصليبيين يضاف إلى ذلك أن مانويل قد راعى المصالح الصليبية إلى حد كبير .

وإذا هذه النصائح طلب لويس من قواته أن تظل متقاربة من بعضها البعض وفي حالة من التيقظ ، وتقدمت القوات حتى وصلت إلى غربي مدينة أنطاكية - بسديا في أول يناير ١١٤٨ م / السابع من شعبان ٥٤٢ هـ ، وهنا

Cinnamus, op. cit., p. 84.

Jeseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 133—134.

Odo of Deuil, op. cit., pp. 103—105.

(١)

(٢)

(٣)

ظهر السلاجقة وقاموا بمناوشة القوات الصليبية ولكنهم ردوا على أعقابهم. وتقدم الصليبيون حتى وصلوا إلى مدينة لاودكيا الغربية الواقعة على أحد روافد المياندر فوجدوها خالية من السكان الذين هجروها خشية أن ينهبها الصليبيون ، لذلك تعذر عليهم الحصول على المؤن ، وكان على الملك لويس مواصلة المسيرة إلى أضايا رغم افتقاره إلى الأقوات في أشق مرحلة من الرحلة نظرا لوعورة الطريق وظروف الشتاء القاسية ، يضاف إلى ذلك عامل هام وهو رؤية القوات الفرنسية لجثث القوات الألمانية التي كان يقودها أوتو أف فريزانج متناثرة على الطريق وهو مشهد يوحى بما ينتظرهم من مصير ، لذلك أصدر لويس عدة تعليمات لحفظ النظام (١) . وكعادة الفرنسيين وضع لويس الجنود الأشداء في المقدمة والمؤخرة (٢) ، وتولى لويس بنفسه قيادة المؤخرة كما تولى عم الملك الكونت مايورين Maurienne والبارون جوفري أف رانكسون Geoffery of Rancon قيادة المقدمة التي عهد لها بحماية مخارج إحدى الممرات في منطقة جبلية ترتفع حوالى ثلاثة آلاف وثمانمائة قدم (٣) ، ولكن عم الملك أثر الراحة في هذا اليوم فأهمل ما عهد به إليه وحذا حذوة القادة الآخرين فنزلوا إلى الوادى (٤) . وفى وسط هذه الظروف أنقض السلاجقة على القوات الصليبية وأمطروهم وابلا من السهام فدبت الفوضى في صفوفهم ، وتهاوت الخيول المصابة بمن عليها إلى سفوح الجبال جارقة معها بعض الخيول الأخرى بفرسانها وما فى طريقها من الأمتعة والمشاة . وتشجع السلاجقة

Odo of Deuil, op. cit., pp. 111—115.

(١)

Roger of Wondover, op. cit., I, 501.

(٢)

Oman, op. cit., I, pp. 246—7.

(٣)

(٤) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

Walker, G. H., Eleanor of Aquitaine & The Disaster at Cadoms, Cf. American Historical Review, July 1950, pp. 857—861.

وأنزلوا مزيدا من الخسائر في صفوف الصليبيين ، ثم إستداروا إلى المؤخرة ، وقد أفاض المؤرخ أودو أف ديل في وصف هذه المعارك ، والخلاصة أن الملك لويس تعرض للموت والأسر أكثر من مرة ولم ينقذ حياته إلا حلول الظلام ، وانسحاب السلاجقة بعض ما كبلوا الصليبيين خسائر فادحة ، وقد عقد لويس النية على محاكمة المسؤولين الذين تسببوا في هذه الكارثة ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لأن عم الملك كان أول المسؤولين (١) .

لم يتم الفرنسيون هذه الليلة ومع حلول الصباح بدأ الملك لويس في إعادة تنظيم قواته لمواصلة الزحف إلى مدينة أضايا ، وساعده في قيادة القوات ايفرارد أف بارس Everard of Barres رئيس الفرسان الداوية الذي كان يرافق الحملة ، ووضعت تعليمات صارمة للحفاظ على ترابط القوات في هذه الظروف السيئة (٢) . يضاف إلى ذلك عامل الجوف فقد كان تحرك القوات في وقت الشتاء والأمطار تسقط بغزارة والتلوج تغطي قمم الجبال (٣) . وقد تغلب القادة على نقص المؤن بذبح الخيول التي عجزت عن السير ، وترك الصليبيون بعض أمتعتهم وحرقوا بعضا آخر ، وواصلوا مسيرتهم ، وأثناء زحفهم تعرضوا أيضا لغارات يومية من السلاجقة ولكنها لم تكن بالغارات القوية وبلغوا أضايا في العشرين من يناير ١١٤٨ م / السابع من شعبان ٥٤٢ هـ (٤) . وعندما وصل لويس وقواته إلى أضايا وجدوا في انتظارهم لاندولف

Odo of Deuil, op. cit., pp. 115—123. (١)

أرسل لويس إلى سوجر عن هذه الأحداث عندما وصل بعد ذلك إلى أنطاكية وأبلغه أن سبب هذه الكارثة ترجع إلى أخطاء الصليبيين وإلى خيانة الامبراطور مانويل أنظر :

Louis VII, letter to Suger, Cf., R.H.G.F., XV, p. 496.

Odo of Deuil, op. cit., p. 125. (٢)

Oman, op. cit., I, p. 251. (٣)

Louis, letter to Suger, Ibid. (٤)

Landolph حاكم المدينة ، وهناك حصل الصليبيون في أول الأمر على المؤن اللازمة لهم بأسعار مرتفعة حتى اضطروا لبيع بعض الدواب للحصول على أثمنها ، وعلى حد قول أودو أف ديل أن ذلك كان بسبب جذب المنطقة وتعرضها منذ وقت قريب لغارات السلاجقة يضاف ، إلى ذلك الأعداد الضخمة للقوات الفرنسية ومن كان في انتظارها من القوات الألمانية التي قادوها أوتو أف فريزانج ، وأضاف المؤرخ نفسه أن البيزنطيين لما شابهوا سوء الحالة الاقتصادية للقوات الصليبية باعوا لهم ما يحتاجون دون الحصول على أرباح وفي الوقت نفسه اشترى البيزنطيون ما باعه الصليبيون بأثمان مرتفعة (١). ولعل في عبارة المؤرخ أن المنطقة تعرضت منذ وقت لغارات السلاجقة الرد الكافي على الذين زعموا أن الإمبراطور مانويل تحالف مع السلاجقة ضد الصليبيين ، فلو كان هناك مثل هذا التحالف لما تعرضت منطقة بيزنطية لغارات السلاجقة. يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين أبلغوا الصليبيين في بداية وصولهم إلى أضايا وعندما فكروا في استكمال الرحلة عن طريق البر ، أبلغوهم أن الطريق صعب وشاق وأنه يحتاج إلى مسيرة طولها أربعين يوما تتخللها أراضى مجدية ليس بها مؤن وسيطر عليها السلاجقة (٢) ، وهي نصيحة أخرى تدل على حرص البيزنطيين على المصالح الصليبية ، ولو كان البيزنطيون يعملون على تخطيم الحملة تركوا الصليبيين يقعون وهم في طريقهم البرى إلى الشام فريسة للقوات السلجوقية خاصة بعدما بلغ بهم الأرهاق ذروته .

لذلك قرر لويس اكمال الرحلة عبر الطريق ، البحري وساعده حاكم المدينة في تدبير بعض السفن لنقل القوات وقدم له سفينة لنقله وحاشيته دون مقابل .

Odo of Deuil, op. cit., pp. 133—135.

(١)

Odo of Deuil, op. cit., p. 131.

(٢)

أما باقى القوات التى أبحرت على السفن التى أمكن تدبيرها ، فكان ذلك نظير أربعة مراكات (١) عن كل فرد . ولما كانت السفن غير كافية لنقل جميع القوات فقد أبحر البعض وظل البعض الآخر فى أضاليا لتدبير أمر نقله إلى أنطاكية (٢) . أبحر الملك لويس بعد ما ظل فى أضاليا ما يقرب من خمسة أسابيع تعرضت قواته خلالها لبعض الغارات السلجوقية فوصل ميناء السويدية فى التاسع عشر من مارس ١١٤٨ م / الخامس والعشرين من شوال ٥٤٢ هـ . وقد ظلت القوات الباقية فى أضاليا تحت رحمة القوات السلجوقية وتمكن حاكم المدينة من تدبير بعض السفن الأخرى التى أبحر عليها كبار الصليبيين ، وتركوا الباقين تحت رحمة السلاجقة الذين هاجموا المدينة بما فيها من البيزنطيين الصليبيين وأنزلوا خسائر فادحة بالقوتين ، وساعدهم على ذلك انخفاض أسوار المدينة (٣) وتنفى هذه الحادثة بشكل قاطع مزاعم المؤرخين الذين أشاروا إلى أن الامبراطور مانول تحالف مع السلاجقة لضرب القوات الصليبية ، ومعنى آخر أن مانويل عمل على القضاء على الحملة حتى لا يزداد النفوذ الصليبي فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى وتظل المنطقة منطقة نفوذ للامبراطورية البيزنطية .

بقيت القوات الصليبية التى ظلت فى أضاليا تموت جوعا فضلا عن غارات السلاجقة المتكررة وانتشار الأمراض نتيجة وجود الجثث المتعفنة

(١) المارك : كان هناك نوعان من عملة المارك ، احدهما من الذهب والآخر من الفضة وكل مارك ذهبى ترواح قيمته من ثمانية إلى عشرة مراكات فضية التى يزن الواحد منها ٢,٣ جرام وبذلك تصبح قيمة المارك الذهبى على أقل تقدير ما يساوى ١٨,٤ جرام ، وعلى أقصى تقدير ما يساوى ٢٣ جرام من الفضة . أنظر الجمعية التاريخية : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ترجمة توفيق اسكندر ص ٢١ وحاشية (٣) وص ٢٥ وحاشية (٢) .

Odo of Deuil, op. cit., p. 137.

Odo of Deuil, op. cit., pp. 137—141.

حولهم ونفاذ مواردهم ، لذلك فكر الصليبيون في السير برا بدلا من هذا الانتظار المميت فساروا عبر طرسوس وهناك ، قطعهم السلاجقة أربا ودخل بعضهم في خدمة البيزنطيين أو في خدمة السلاجقة. ولم يصل منهم إلى أنطاكية إلا النصف تقريبا ، وقد قدرهم بعض المؤرخين بحوالى ثمانية آلاف (١) . أما الملك كونراد فقد ظل في العاصمة البيزنطية وأشرف الامبراطور مانويل على رعايته الطيبة طوال فترة الشتاء ، ومع حلول ربيع عام ١١٤٨ م أستعد للرحيل ومن معه بعد ما قدم له مانويل الهدايا له ولحاشيته وأبحر بعد ما أعده له الامبراطور البيزنطى السفن اللازمة فوصل إلى عكا ومنها توجه إلى بيت المقدس حيث وصلها في الأسبوع الثانى من أبريل من العام نفسه / السابع عشر - الثالث والعشرين من ذى القعدة ٥٤٢ هـ (٢) .

١١٤٨
وصل كونراد
إلى عكا

أما لويس السابع فقد هبط في ميناء السويدية بعد ما يقرب من ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر من سقوط الرها وبعد ما تمكن نور الدين من انتزاع عدة حصون أخرى شرقى نهر العاص . وقد أستقبله ريموند أف بواتيه بالأفراح والاحتفالات الرائعة ، فقد كان يأمل في تسخير الحملة لصالحه بحكم روابط الصلة العائلية مع الملك لويس ويرى أن تقوم الحملة بمهاجمة حلب والقضاء على نور الدين باعتباره خليفة القوة التى استولت على الرها والمهددة لأوضاع الصليبيين في أنطاكية (٣) ولم يكن ريموند أف بواتيه وحده هو الذى حاول استغلال الحملة لصالحه ، بل رأى كل واحد من الأمراء الصليبيين في حملة لويس وكونراد فرصة يمكن إستغلالها لصالحه . وكان جوسلين يعتقد أن

Oman, op. cit., I, p. 248; Campbell, op. cit., pp. 223—4; op. cit., p. 44 (١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 181; Runciman, S., Byzantine Civilisation, p. 237. (٢)

William of Tyre, op. cit., I, pp. 179—180. (٣)

سقوط الرها هو الدافع الأول لقيام الحملة ، وعلى ذلك فإن المهمة الأساسية للحملة هي استرداد الرها ، أما ريموند الثانى أمير طرابلس الذى أراد أن يستغل الرابطة التى تربطه بالملك الفرنسى عن طريق أمه الفرنسية فى تسخير الحملة لاسترداد قلعة بارين (١) التى أستولى عليها المسلمون عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ - ١١٤٠ م (٢) .

وهكذا وجد لويس نفسه فى وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم تطحنهم الأهواء المتعارضة . وفى الوقت نفسه كره الإقامة فى أنطاكية لما أشيع عن العلاقة المشينة بين زوجته وبين خالها الأمير ريموند ، فأعلن أنه لا يمكنه القيام بأى عمل عسكري قبل التوجه إلى بيت المقدس ، وساعده على ذلك وصول فوشيه Fulcher أسقف بيت المقدس — بعد وصول كونراد إلى بيت المقدس مباشرة — مبعوثا من قبل النبلاء لدعوته إلى بيت المقدس قبل أن يستغله ريموند لصالحه (٣) ، فأتجه لويس حيث دعوة وتقابل مع كونراد ، وعقد مجلس ضم العاهلين وبلادوين ملك مملكة بيت المقدس وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية (٤) . ولم يحضر ريموند أف بواتيه الذى غضب لرحيل الملك لويس ، ولعل موقفه هذا يرجع إلى اعتمادة على مساندة الامبراطور مانويل بعد ما قدم له الولاء والمساعدة التى وعد بها الامبراطور . كما لم يحضر أيضا هذا المؤتمر ريموند الثانى كونت طرابلس بسبب غضبه من اتهامه بقتل الفونس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٢٩ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 182.

(٤) عن الشخصيات التى حضرت هذا الاجتماع أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 184—185; Roger of Wondover, op. cit., I, p. 500, Vitry, op. cit., p. 22; La Mont., The Lord of Caesarea, Cf. Speculum, Vol., XXII, 1947, p. 148.

Alphonse كونت تولوز ، بينما ظل جوسلين في تل ، باشر وربما بسبب غضبه أيضا من تصرفات لويس ، وكان الأولى به أن يكون أول المجتَمعين . ومن الملاحظ أن الأمراء الذين تخلفوا عن حضور هذا المؤتمر أو مجلس الحرب هذا هم أمراء الامارات الصليبية الثلاث التي كانت مهددة تهديدا مباشرا بخطر نور الدين (١) .

وفي هذا المؤتمر طرحت آراء عديدة حول مهمة الحملة ، وفي النهاية اتفق المجتَمعون على مهاجمة دمشق (٢) والواقع أن اختيار دمشق هدفا للحملة جاء تحت تأثير أمراء مملكة بيت المقدس . ولم يكن بوسع معين الدين أتر حاكم دمشق أمام هذا الخطر الذي لم يتوقعه : سوى طلب النجدة من نور الدين . كما كان اختيار مدينة دمشق أيضا هدفا للهجوم وما اتبعه الصليبيون من خطط لاسقاط المدينة خطأ يضاف إلى أخطاء الحملة ففشلت جهود الصليبيين في الاستيلاء على دمشق بعد ما عانوا وتحملوا الكثير (٣) وهكذا يمكن القول أنه إذا كانت الحملة قد أدت إلى الشرق لاسترداد مدينة الرها ، وتثبيت دعائم الامارات الصليبية في الشام والحد من نفوذ المسلمين ، فأما في النهاية قد فشلت

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٦٣١ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 186.

(٣) عن حصار دمشق أنظر : باخرمه . قلادة النحر ج ٤ ورقة ٢٢٠ - ٢٢١ ، العيني المصدر السابق ج ١٦ لوحة ١٧٧ - ١٨٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٢٩ ، التاريخ الباهر ص ٨٨ - ٨٩ ، ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ٢٠١ ، ابن منقذ : المصدر السابق ص ٧٠ - ٧١ ، ابن أبيك كنز الدرر وجامع الغور ج ٦ (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية) ص ٥٤٩ - ٥٥٠ ، ابن منقذ المصدر السابق ص ٧٠ - ٧١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٥٢ ، أبو الفدا المصدر السابق ج ٣ ص ٢١ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٨٢ . أنظر أيضا :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 187-193; Vitry, op. cit., p. 24; Roger of Wendover, op. cit., I, 501.

فشلا زريعا، ولم تحقق هدفا واحدا من أهدافها ، بل أدت إلى نتائج عكسية أدت إلى إخطاط هبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازدياد نفوذ المسلمين بشكل ملحوظ مما سيكون له أبلغ الأثر في تاريخ الحركة الصليبية كلها (١).

هذا ما كان من أمر نتائج الحملة بصفة عامة ، أما فيما يتعلق بموقف الأمبراطور مانويل فيمكن القول بأن البيزنطيين اغتبطوا لفشل الحملة (٢). ومرجع ذلك أن الأمبراطورية البيزنطية كانت ترى أن دعم الوجود الصليبي في الشام سيكون على حساب ما تدعيه بيزنطة من نفوذ في المنطقة خاصة في أنطاكية ، بل لعل أهم من ذلك أن الأمبراطور مانويل كان يرى أن مصر — التي كانت ضمن أملاك الأمبراطورية فيما مضى — يجب أن تعود إلى السيادة البيزنطية مرة أخرى وقد حاول مانويل العمل على تحقيق ذلك عندما تحالف مع الصليبيين وهاجما دمياط ، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في فصل لاحق

فشلت الحملة وأستعد ما بقي من القوات للرحيل ، وعاد كونراد عن طريق القسطنطينية حيث قابله الأمبراطور مانويل بكل حفاوة واستطاع — اجتذابه إلى جانبه وتحالف معه ضد الملك روجر (٣) ، وفي الوقت نفسه أبحر لويس من الشام في طريقه إلى أوروبا وقد تعرض أثناء عودته لبعض المتاعب من قبل الأسطول البيزنطي (٤).

ولما كان لويس يعتقد أن مانويل مسئول عن فشل الحملة ، وأن شعوب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٣٥ — ٦٣٦ .

(٢) عمر كمال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦١ .

(٣) Ostrogorsky, op. cit., p. 340.

(٤) Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 140—141.

غرب أوروبا تطالب بالانتقام من الأباطورية البيزنطية بسبب النتائج الفاشلة التي وصلت إليها الحملة ، لذلك أتيق لوييس وروجر على اعداد حملة صليبية ضد بيزنطة . والواضح أن روجر كان يرحب بمثل هذا العمل خاصة وأن مانويل بعد ما فرغ من أمر الحملة تمكن من استعادة مدينة كروفر ونقل الحرب إلى إيطاليا واحتل مدينة انكونا Ancona (١) . وقد تحمس بعض رجال الدين لهذه الحملة . ولكن البابا يوجين عارضها ، كما أن كونراد الثالث حليف مانويل لم يوافق عليها أيضا . لذلك أحبط هذا المشروع (٢) . يضاف إلى ذلك ما كان من أمر البنادقة الذين مالوا إلى جانب مانويل أيضا (٣) ، وهكذا يمكن القول أن من نتائج الحملة أيضا إنشقاق الغرب الأوربي على نفسه . ومهما كان من أمر هذا الانشقاق فإن مانويل إنشغل إلى حد ما بأمر الغرب الأوربي ، يضاف إلى ذلك المتاعب التي واجهته في هذه الفترة من قبل الصرب والبغاار (٤) . ولاشك أن كل هذه الأحداث مجتمعة كان لها أثر على سياسة مانويل الشرقية التي لم يعد متفرغا لها . وفي الوقت نفسه زادت قوة المسلمين وأصبح أسمهم يلقى الرعب في صفوف الصليبيين (٥) . بعد ما قبع جوسلين في تل باشر ، وبعد ما خذل ريموند من مانويل ومن الحملة وفشل أمراء بيت المقدس في تحقيق أهدافهم بالاستيلاء على دمشق . وبرز نور الدين ليعمل على توحيد الجبهة الإسلامية والقضاء على الصليبيين بعد ما تبين له عدم جدية الغرب الأوربي في مساعدة الصليبيين وعدم قيام مانويل بمساعدتهم أو على الأقل لنجدة الرها التي كانت السياسة البيزنطية في عهد والده تعتبرها جزءا من أملاك الامبراطورية البيزنطية .

(١) عمر كال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ ، ١٤٧ .

Setton, op. cit., 1, 511.

Finlay, op. cit., III, p' I68.

Ostragorsky, Ibid.

Fabri, op. cit., Vol. 2 Part I, p. 326.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

الفصل الثالث

مرحلة (الدبلوماسية) البيزنطية وفشلها

(١١٤٩ - ١١٥٦ م / ٥٤٤ - ٥٥١ هـ)

- ١ - مشروع مانويل لترشيح زوج لكونستانس أميرة أنطاكية وفشله .
- ٢ - شراء مانويل بعض مدن وقلاع امارة الرها المنهارة .
- ٣ - استيلاء نور الدين على ما آل إلى الامبراطورية البيزنطية من امارة الرها .
- ٤ - انتصار الأمير الأرميني ثوروس على القوات البيزنطية .
- ٥ - تحالف مانويل مع السلاجقة ضد ثوروس وفشل هذا التحالف .
- ٦ - مانويل يخرض رينو أمير أنطاكية على مهاجمة ثوروس .
- ٧ - اتفاق رينو وثوروس على مهاجمة جزيرة قبرص التابعة للامبراطورية البيزنطية .

مرحلة الدبلوماسية البيزنطية في الفترة من ١١٤٩ - ١١٥٦ م / ٥٤٤ -

٥٥١ هـ ، هي مرحلة من مراحل حكم الامبراطور مانويل لعبت فيها -

الدبلوماسية البيزنطية دورا واضحا في المنطقة . وقد تميزت هذه الفترة بمحاولة ①
الامبراطور مانويل دعم السيادة البيزنطية في اماره أنطاكية وفرض هذه ②
السيادة على بعض مدن وقلاع اماره الرها المنهارة سلما ، يضاف إلى ذلك قيام ③
الامبراطور مانويل بالتحالف مع احدى قوى المنطقة أو ضمها إلى جانبه
ليضرب بها قوى أخرى في المنطقة نفسها تكون سياساتها معادية للسياسة البيزنطية ،
وبذلك يضمن مانويل انشغال القوتين معا في وقت واحد ببعضهما عن الصراع
مع الامبراطورية البيزنطية ، كما أن صراع القوتين معا يضعفهما معا في نهاية
الأمر مما يعطى للامبراطور مانويل الفرصة لدعم السيادة البيزنطية فيما بعد
سواء أكان هذا الدعم سلما أم حربا .

كان سقوط مدينة الرها علامة بارزة تشير إلى ضعف القوى الصليبية في
الشام وأوضحت موقف الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة من الامارة ، فلم تكن
استعادة هذه المدينة نهاية المطاف لآمال المسلمين الذين عملوا منذ بداية حركة
البعث الاسلامية التي وضع أساسها عماد الدين زنكي على استعادة الأراضي
الاسلامية التي اغتصبها الصليبيون . وكان لسقوط هذه المدينة وفشل الصليبيين
في استعادتها وقدم الحملة الصليبية الثانية وعودتها دون أن تحقق أى هدف
من أهدافها والموقف السلبي الذي ظهرت به الامبراطورية البيزنطية من العوامل
التي شجعت نور الدين زنكي على استكمال أهدافه في استعادة الأراضي
الاسلامية من قبضة الصليبيين .

وتميزت أعمال نور الدين بعد رحيل الحملة مباشرة بمهاجمته لامارة
أنطاكية التي كانت خاضعة من الناحية الاسمية للامبراطورية البيزنطية ، وكان

مؤلف
مكتبة
البحر

ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية الذى تمرد بالأمس على الامبراطور البيزنطى مانويل قد أذل نفسه فى عام ١١٤٥ م حين توجه إلى القسطنطينية وقدم للامبراطور مانويل فروض الولاء والطاعة أملا فى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ضد نور الدين زنكى ، ولكن الامبراطور لم يقدم له سوى وعدا بالقدوم إلى الشام فى وقت لاحق . وإذا كان ريموند أف بواتيه قد خاب أمله فى مساعدة الامبراطور مانويل فإنه استبشر خيرا بقدوم الحملة الصليبية الثانية وقد خاب أمله مرة أخرى لعدم قيام الحملة بتحقيق أهدافه أو أية أهداف أخرى ، وهكذا أضاع ريموند سنوات دون أن يحصل على أية مساعدة سواء من جانب الامبراطورية البيزنطية أم الغرب الأوروبى ، ورأى فى نهاية الأمر ألا فائدة ترجى من كليهما فى الوقت الذى بدأت فيه الأخطار المحيطة به وبامارة أنطاكية تزداد يوما بعد آخر .

وكانت بداية هذه الأخطار عندما قام نور الدين زنكى فى شهر رجب عام ٥٤٣ / أكتوبر - نوفمبر ١١٤٨ م وتوجهه على رأس قواته «إلى ناحية الأعمال الفرنجية» (١) ، ووصل إلى المكان المعروف باسم يغرى (٢) فى الوقت الذى كان فيه ريموند أف بواتيه فى مدينة جبلة الواقعة على الساحل (٣) ، واستطاع نور الدين اجراز النصر على الصليبيين فى أول الأمر وظفر «بعده وافرة من الفرنج» (٤) ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع ريموند جمع

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٢) يغرى : يصب فى بحيرة أنطاكية من الشمال ثلاثة أنهار ، النهر الأسود إلى الشرق ونهر عفرين إلى الغرب وفى الوسط نهر يغرى وتقع يغرى على النهر المعروف باسمها وهى إلى الشرق من دريساك . أنظر : لى سترانج فلسطين : فى العهد الاسلامى ص ٨٤ .

A.S.C., p. 300.

(٣)

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٥٥ .

قواته وسار معه ابن وفا (١) للدفاع عن ممتلكاته، وفاجأ قوات نور الدين - وهزمها. ويضيف المؤرخ السرياني المجهول أن الصليبيين تمكنوا من قتل حوالى ألفين من القوات الاسلامية، ولم يكن بوسع نور الدين أمام ما حل بقواته سوى الهروب إلى حلب مما أعطى الفرصة للصليبيين للاستيلاء على معسكر المسلمين، ثم ما لبث أن عاد ريموند والقوات الصليبية إلى أنطاكية ومعهم الأسرى حيث خرج أهل المدينة ليستقبلوا بالأفراح ريموند وابن وفا وكافة القوات الصليبية (٢)، أما نور الدين فقد أقام بحلب عدة أيام يعمل على إعادة تنظيم قواته ويقال أنه لم يعد إلى منزله (٣).

وحول هذه المعركة فقد روى بعض المؤرخين أن النصر تم فيها لقوات نور الدين (٤)، والباحث يميل إلى الأخذ بعكس ذلك، والدليل على أن القوات الإسلامية قد هزمت في هذه المعركة أن نور الدين بعث بعد قليل من معركة يغرى إلى معين الدين أنز (٥) - القيم بأمر مجيد الدين أبق صاحب دمشق (٦) (٥٣٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٣٩ - ١١٥٤ م) - يستنجد به ويوضح

(١) بعد مذبحة حلب التي أقامها تاج الملوك بوري (٥٠٧ - ٥١٦ هـ / ١١١٣ - ١١٢٢ م) صاحب حلب ضد الاسماعيلية فر بعضهم إلى الصليبيين. أنظر: ابن القلانسي: المصدر السابق ١٨٩ - ١٩٠، سليم حسن هشي: الاسماعيليون عبر التاريخ ص ١٠٤ - ١٠٥، ويبدو أن ابن وفا هذا من الذين فروا إلى أنطاكية ودخلوا في خدمة الصليبيين. وعن الاسماعيلية أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج ١ ص ٥٥٠ - ٥٦٠.

(٢) A.S.C., p. 300.
(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق ص ٣٠٢ - ٣٠٣، أبو شامة: نفس المصدر والجزء الصفحة.

(٤) ابن واصل: المصدر السابق ج ١ ص ١١٤ - ١١٥.

(٥) معين الدين أنز بن عبد الله مملوك طفتكين وتولى تدبير أمر مجيد الدين وتوفي عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م أنظر ابن القلانسي: المصدر السابق ٣٠٦.

(٦) عزله نور الدين زنكي عندما استولى على دمشق عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ ومنحه حمص ثم أخذها =

له ما قام به ريموند أف بواتيه صاحب أنطاكية، ويطلب من معين الدين مساندته «لكف شره» أى شر ريموند، كما أبلغ نور الدين معين الدين أن الحاجة «ماسة إلى معاضدته» ويطلب منه أن يسير بنفسه على رأس قواته لتتضم إلى القوات النورية «ليتفقا بالعسكريين «ضد ريموند». وأمام هذه الصرخة التي توضح لنا مدى ما لحق بقوات نور الدين من هزيمة على يد قوات ريموند في موقعة يغرى وخوف نور الدين من ريموند، سارع معين الدين بندب الأمير مجاهد الدين بزان — أحد مقدمي الأمراء الأكراد — واقامه على رأس عدد كبير من القوات الدمشقية وأمره بالتوجه لمساندة نور الدين (١).

وبعد ما وصل مجاهد الدين بقواته تجمعت العساكر الإسلامية وعلى رأسها نور الدين ومجاهد الدين واتجهت إلى المنطقة الخيطة بأنطاكية في أوائل شهر صفر ٥٤٤ هـ / أواسط يونية ١١٤٩ م. وبدأ نور الدين في حصار قلعة إنب (٢). وعندما وصلت أنباء تحركات القوات الإسلامية إلى ريموند أسرع بجمع الفرسان التي كانت على مقربة منه وكانت قليلة العدد. ولم يعبأ بالنصائح التي قدمها له فرسانه بعدم مهاجمة المسلمين في هذا الوقت، واعتمد على شجاعته وعلى ما أحرزه من نصر سابق على القوات الإسلامية. ولما علم

= منه وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرض بها ورحل إلى العراق وأقام ببغداد حتى توفي عام ٦٩٤ هـ ١١٦٨ م. أنظر: ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٠٨، أنظر أيضا اليافعي البقي: مرآة الجنان ج ١ ص ٢٩٥. ابن قاضي شهبه: الدر الثمين في مسيرة نور الدين (مخطوط) ورقة ٦٧ ب.

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق ٣٠٤.

(٢) إنب: حصن من أعمال عزاز (عزاز) من نواحي حلب، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٦٩.

نور الدين بقدم ريموند خشى أن يكون قد اصطحب معه جيشا كبيرا (١) فأنسحب نور الدين إلى التلال المجاورة حتى تتكشف له الأمور وانتظر ما يصل إليه من تقارير حول ريموند والقوات التي اصطحبها معه ، وما لبث أن علم نور الدين أن القوات الصليبية القادمة قليلة العدد ، كما أنها ليست في انتظار قوات أخرى تصل إليها بعد قليل (٢) • لذلك بادرنور الدين بالهجوم على ريموند وحاصر معسكره ، واشتدت هجمات المسلمين على الصليبيين وكانت من القوة حتى يمكن القول أنهم بدؤوا وكأنهم يهاجمون مدينة بأسرها. وعكسما بزغ فجر السابع عشر من صفر عام ٥٤٤ هـ / التاسع والعشرين من يونية عام ١١٤٩ م ، أيقن ريموند أنه محاصر بالقوات الاسلامية وبدأ يشعر بعد فوات الأوان بعدم فاعلية القوات التي تحت يديه ، ورغم هذا أبدى ريموند شجاعة فائقة وأخذ يحرض على القتال واستعد فرسانه للمعركة . ولكن مثل هذه القوات الصليبية القليلة العدد لم يكن بوسعها مقاومة قوات المسلمين المحيطة بهم من كل جانب ، وما أن بدأت المعركة حتى هرب من الصليبيين ما أمكنه الهرب بعد ما تبين لهم عدم جدوى القتال : أما ريموند فقد مضى في أرض المعركة مع قلة من الفرسان وظل يحارب حتى قتل في اليوم نفسه ، ولقى المصير أيضا رينو Renaud حاكم مرعش (٣) — زوج أجنس Agnes — ابنة جوسلين كونت الرها — وابن وفا وعديد من الأمراء الصليبيين (٤) ، وقاد المسلمون الأسرى وحملوا الغنائم وعادوا إلى حلب وقام نور الدين —

William of Tyre, op. cit., II, p. 197.

(١)

A.S.C., p. 301.

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, 198.

(٣)

A.S.C., p. 301.

(٤)

بارسال رأس ريموند وذراعه الأيمن إلى الخليفة العباسي في بغداد علامة على هذا الانتصار العظيم (١) .

فقد كان ريموند «عاقيا من عتاه الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك» (٢) ، ومما لاشك فيه أن هذا النصر كانت له نتائج إيجابية في بناء قوة نور الدين ، والجهة الإسلامية .

وعندما سرت أخبار مقتل ريموند وهزيمة القوات الصليبية عم الحزن جميع أنحاء الامارات الصليبية بصفة عامة وامارة أنطاكية بصفة خاصة لاسيما أن ريموند كان قد اصطحب معه معظم نبلاء المدينة ، والمهم أن ريموند خلف وراءه زوجته الشابة كونستانس Constance التي كانت تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما وأولاده القصر أكبرهم بوهمند (٣) وعمره خمس سنوات . وفي هذا الوقت العيصب برز ايمري Aimery بطريك المدينة ليتعاون في إدارة امارة أنطاكية ، وقد ساعده في ذلك ما كان لديه من ثروة طائلة مكنته من دفع رواتب القوات ، وكان على بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس الذي أصبح وصيا على إمارة أنطاكية ، أن يتوجه إلى الامارة ليتولى تدبير أمورها والدفاع عنها ضد هجمات نور الدين . ولقد كان ذلك عبئا كبيرا على الملك بلدوين ، لذلك ناشد الأميرة كونستانس الزواج من أحد الأمراء ليتحمل زوجها المقبل مسؤولية امارة أنطاكية ، ولكنها لم توافق على الزواج من أحد الذين رشحهم بلدوين ، ويضيف المؤرخ ولیم الصوري أن البطريك ايمري

(١) William of Tyre, op. cit., II, 199; Joseph ben Joshua., I, pp. 141—2.

أنظر أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٩ ، أبو الفدا : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣ .

(٣) هو بوهمند الثالث الذي تولى الحكم في امارة أنطاكية ١١٦٣ — ١٢٠١ م راجع أيضا ابن قاضي شهاب : المصدر السابق ورقة ٥٧ أ .

هو الذى شجع الأميرة كونستاس على رفض فكرة الزواج حتى لا تضعف سلطته داخل اماره أنطاكية (١). أو ربما يكون ذلك لعدم استحسان كونستاس لأحد الأمراء المرشحين، وهى الأميرة الشابة التى كان من الصعب ارضائها (٢).

غير أن كونستاس التى رفضت المرشحين الصليبيين للزواج منها نراها ترسل سفارة إلى الامبراطور البيزنطى مانويل باعتبارها تابعة له من الناحية الاسمية تطلب منه اختيار زوج لها من الأمراء البيزنطيين (٣)، وكان فى ذلك فرصة ذهبية للامبراطور مانويل إذ وجد أنه بموجب هذا التصاهر تعود اماره أنطاكية إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية تلقائيا مع مضى الوقت بعد ما ناضل الأباطرة البيزنطيون من أجلها ما يقرب من خمسين عاما. لذلك بادر مانويل بترشيح يوحنا روجر John Roger زوج أخته ماريا التى ماتت منذ قليل وكله أمل فى ضم اماره أنطاكية إلى السيادة البيزنطية. يضاف إلى ذلك أن مانويل وجد فى ذلك فرصة لتطويق الأمير الأرمينى ثوروس من الجنوب خاصة وأن نفوذ هذا الأمير بدأ يزداد فى أرمينية يوما بعد يوم على حساب السيادة البيزنطية (٤). أتجه يوحنا روجر إلى أنطاكية واعتقد مانويل أن أصل يوحنا الثورمانى يجعله مقبولا لدى كونستاس ولدى الأمراء الصليبيين بصفة عامة (٥)، ويدل ذلك على أن مانويل كان يشعر بعدم رضاء الصليبيين عن مسلك كونستاس فى التجأها إلى الامبراطورية البيزنطية، وهكذا بنى مانويل هذا الترشيح على أسس عقلية بحتة ونسى مشاعر الأميرة الشابة التى

William of Tyre, op. cit., II, pp. 199—200.

(١)

(٢) عمر كما توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦٦ .

Cinnamus, op. cit., p. 178.

(٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥٠ .

Chalandon, op. cit., p. 189.

(٥)

كان زوجها فارسا شابا ، فقد كان يوحنا يكبر كونستاس بكثير وفقد سحر الشباب وحيويته ، لذلك لم يلق هذا المرشح القبول لدى الأميرة التي طلبت منه العودة إلى القسطنطينية ، فعاد كاسف البال حزينا وهناك انخرط في سلك الرهبنة ثم ما لبث أن مات بعد قليل (١) .

وإذا كانت كونستاس قد رفضت يوحنا روجر لكبر سنه أو لأنه لم يرق في نظرها ، فأتها رفضت أميرا بيزنطيا آخر رشح للزواج منها وهو أندريكوس كومنينوس (٢) الذي كان في مقتبل العمر ويتدفق سحرا وجاذبية (٣) ويدل ذلك على أن الأرملة الشابة لم تكن لديها الرغبة الجادة في الزواج في هذه الفترة ، أو ربما يكون ذلك بسبب رغبتها في إسكات الأصوات الصليبية التي تطالبها بالزواج ، أو يكون أيضا نتيجة ادراكها أنها تسرعت في طلب الزواج من أحد الأمراء البيزنطيين وأيقنت أن هذا الزواج سيدخل أمارا أنطاكية في التبعية الكاملة للسيادة البيزنطية ، وهو مالا يرضى عند الأمراء الصليبيين وأن ذلك سيجرها إلى العديد من المشاكل التي وجدت الأميرة أنه من الأفضل الابتعاد عنها . أو ربما أنها تذكرت المذلة التي لحقت بزوجها السابق ريموند أف بواتيه عندما هرع إلى الأمبراطور مانويل بأمل طلب المساعدة ضد نور الدين بعد سقوط الرها . واحتمل آخر وهو أن كونستاس رأت بعد هذه المناقشات أن سلطتها قد رسخت في الإمارة وأنه لا داعي لأية مساعدة من الأمبراطور مانويل (٤) .

Cinnamus, op. cit., pp. 122—123, 178.

(١)

(٢) هو ابن اسحق كومينيوس عم الأمبراطور مانويل وقد تولى عرش الامبراطورية البيزنطية بعد ما عزل الأمبراطور الكسيوس الثاني بن مانويل في عام ١١٨٣ م وحكم حتى عام ١١٨٥ م .
عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر :

Bailey, A., Byzance, pp. 341 ff; Baynes, N., The Byzantine Empire, p. 56.

Schlumberger, op. cit., p. 10.

(٣)

Chalandon, op. cit., p. 427.

(٤)

وهكذا ضاعت أحلام الامبراطور مانويل في ضم امارة أنطاكية سلميا إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية، وكان عليه أن يناضل مثل ما ناضل جده وأبوه. إذا أراد اخضاع أنطاكية للنفوذ البيزنطي .

فإذا انتقلنا إلى امارة الرها وجدنا للسياسة البيزنطية موقفا منها هي الأخرى بعد ما تعرضت لهجمات كل من السلطان السلجوقي مسعود والأراقة وآل دانشمند ونور الدين . ويروي المؤرخ الأرمني جريجوار أن السلطان مسعود نزل في سبتمبر عام ١١٤٩ م / جمادى الأولى ٥٤٤ هـ بقواته واستولى على مرعش (١) بعد ما فر أهلها من أمام القوات السلجوقية (٢). أما ابن أيبك فقد روى أن مسعود استولى عليها بجند السيف (٣). والمهم أن السلطان السلجوقي اتخذ طريقه إلى تل باشر بعدما استولى على مرعش وقد تمكن أثناء زحفه من سحق القوات الصليبية التي اعترضت طريقه كما استولى على القلاع الواقعة في الطريق نفسه وهي على ما يبدو عين تاب ودلوك (٤) . وعندما بلغت القوات السلجوقية تل باشر ألقت الحصار عليها ، ولم يكن بوسع جوسلين سسوى الاحتماء داخل أسوار المدينة وقد بذل الأمير بازل - أحد القواد الأرمن الذين يدينون بالولاء للامبراطورية البيزنطية - جهدا كبيرا في الدفاع عن المدينة (٥)

(١) مرعش : مدينة في أنثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخندق ، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني ، بناه الخليفة الاموي مروان الثاني ابن محمد . انظر : ياقوت الحموي المصدر السابق ج ٤ ص ٤٩٨ ، وتبعد عن أنطاكية بمسافة ثمانية وسبعون ميلا . أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 162.

(٣) ابن أيبك : المصدر السابق ص ٥٤٤ .

(٤) عين تاب : قلعة حصينة تقع بين أنطاكية وحلب وهي على بعد مسيرة ثلاثة أيام من حلب وكان يطلق على عين تاب قديما اسم دلوك ولكنه أطلق على إحدى القرى التابعة لها . ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٣ ص ٧٥٩ .

(٥) Gregoire le Pretre, loc. cit.,

(٥)

سرى مانويل
لحقه من دقلخ اماره
الاصلي

ويدل ذلك على محاولة الإمبراطور مانويل الدفاع عن بقية إمارة الرها حتى لا تسقط في يد السلاجقة كما سقطت الرها من قبل في يد عماد الدين ثم في يد نور الدين بعد ذلك ، ويبدو أن نور الدين لم يكن راضيا عن تدخل السلاجقة في بقية إمارة الرها وما صحب ذلك من تدخل الإمبراطورية البيزنطية ، لذلك نراه يتدخل بين السلطان مسعود وجوسلين وتوسط في عقد الصلح بينهما ، وأطلق مسعود ما لديه من الأسرى الصليبيين مقابل الفدية التي قدمها جوسلين ، كما قدم جوسلين أيضا عددا من الخيول إلى نور الدين .

ولما كان نور الدين راغبا في إرضاء السلطان مسعود فقد وهب هذه الخيول إلى رجال مسعود (١) . ومن الملاحظ أنه أثناء قيام السلطان السلجوقي مسعود بمحاربة جوسلين أمير الرها ، قام بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس بمساعدة جوسلين وأرسل اليه قوة من الفرسان لمساندته ضد السلاجقة ، لذلك فانه بعدما عقد جوسلين الصلح مع السلطان مسعود وانسحاب القوات السلجوقية أتجه جوسلين إلى مدينة أنطاكية حيث تقابل مع الملك بلدوين وقدم له الشكر على مساندته للإمارة ضد الخطر السلجوقي (٢) .

ويبدو أن مهاجمة السلطان مسعود لبعض ممتلكات إمارة الرها قد شجع بعض الأمراء المسلمين على مهاجمتها أيضا . ومن ذلك أنه عقب انسحاب القوات السلجوقية قام قرا أرسلان صاحب حصن كيفا (٣) (٥٤٣-٥٥٧٤/

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ١٦ ب - ١٧ أ .

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 200.

(٣) كان بداية حكم الأرقفة في هذا الحصن عام ٤٩٥ هـ ١١٠١ م ، أما حصن كيفا فقد ذكره ياقوت الحموي بأنه بلدة وقلمة عظيمة تشرف على نهر دجلة وتحتها ريف عامر بالسواق والفنادق والمساكن الحسنة ولها رساتيق كثيرة وضياع عامرة أنظر ياقوت الحموي ج ٢ ص ٢٧٧ ، راجع أيضا : لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٤ - ١٤٥ .

١١٤٨ - ١١٧٤ م) بمهاجمة أملاك الرها وبدأ بالهجوم على مدينة جرجر الذي كان يتولى أمر الدفاع عنها الأمير بازل الذي سبق له الدفاع عن تل باشر ضد الهجمات السلجوقية، وهو الأمير الذي يدين بالولاء للإمبراطورية البيزنطية كما توضح من قبل . وقد تمكن قرا أرسلان من أسر بازل ومن معه من الفرسان الذين بلغ عددهم ما يقرب من أربعين فارسا ، وهذه إشارة أخرى إلى قيام الامبراطورية البيزنطية بمساندة جوسلين ضد الهجمات الاسلامية وأن كانت مساعدة غير مباشرة . وبعد ما استولى قرا أرسلان على مدينة جرجر استجاب لطلب أهلها لاختلاء سبيل الأسرى فوافق على ذلك نظير استلامه حصن المدينة، ثم أخلى أيضا سبيل الأمير بازل وعامله وأسرته معاملة طيبة . ثم اتخذ قرا أرسلان طريقه جنوبا إلى سميساط فوصلها بعد ما استولى على المناطق الواقعة بينها وبين جرجر (١) ، وعلى ما يبدو لم يتمكن قرا أرسلان من الاستيلاء على سميساط واكتفى بالاستيلاء على جرجر وحصن منصور وجاخته Gakhta (٢)

ويروى المؤرخ السرياني المجهول أن عين الدين بن كشتكين صاحب ملطية (٥٣٧ - ٥٤٥ هـ / ١١٤٢ - ١١٥٠ م) قام أيضا بمهاجمة أملاك جوسلين وأغار على كيسون (٣) والقرى المحيطة بها واستمرت هذه الغارة ثلاثة أيام، وقامت قوات عين الدين بأعمال السلب والنهب والتخريب وما لبثت أن عادت هذه القوات بعدما استولت على ما وقع تحت أيديها من المحاصيل

Gregoire le Pretre, pp. 162—3.

(١)

(٢) يقع حصن منصور وجاخته بالقرب من جرجر وسميساط : أنظر الخريطة رقم (٣)، ونفسب الحصن إلى منصور بن جموعة الذي تولى عمارته أيام مروان الثاني ، أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٣) تقع إلى الغرب من سميساط وإلى الجنوب الشرق من بهنسى وزستاق بهنسى هو رستاق كيسون أنظر : ياقوت الحموى ج ٤ ص ٣٣٣ .

والثروات (١). ويبدو أن هذه الغارة كانت من أجل السلب والنهب لا من أجل الاستيلاء على المدينة .

وتوضح لنا هذه الأحداث كيف أصبحت أملاك جوسلين في متناول القوى الإسلامية المحيطة بها . وأن الأمر أصبح من الصعوبة بمكان على جوسلين لكي يتولى أمر الدفاع عن بقية ممتلكاته . وكانت جولته الأخيرة مع نور الدين ، ويروى المؤرخون أن نور الدين جمع عساكره وأتجه إلى أرض جوسلين في مطلع عام ٥٤٥ هـ / أبريل ١١٥٠ م ، ولكن جوسلين استطاع إحراز النصر في أول الأمر على قوات نور الدين وأسر بعض قواته وكان من ضمن الأسرى سلاح دار (٢) نور الدين ، فأخذ جوسلين سلاح نور الدين وأرسله إلى صهره السلطان مسعود ، فعظم ذلك على نور الدين وهجر الراجة حتى يأخذ بثأره وظل يفكر في حيلة يَحْتال بها على جوسلين لأنه كان يعلم باحتواء جوسلين داخل حصونه ، لذلك أتبع معه الحيلة نفسها التي أتبعها والده عماد الدين عندما فكر في استعادة مدينة الرها ، فأحضر بعض عساكره «وبذل لهم الرغائب أن ظفروا بجوسلين» ، فظلوا يراقبونه حتى خرج للصيد كعادته فقبضوا عليه ، وحاول جوسلين أن يفدى نفسه بالمال فوافقت العساكر ولكن الخبر تسرب إلى مجد الدين بن الداية نائب نور الدين في حلب فأرسل على الفور قوة اقتادت جوسلين إلى حلب (٣) . وحول أمر أسر جوسلين

(١) A.S.C., p. 299.

(٢) سلاح دار : أى مسك أو صاحب سلاح السلطان وله الاشراف على دار السلاح ويختار عادة من الأمراء المقدمين . أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) البغدادى : عيون أخبار الأعيان (مخطوط) ج ٢ لوحة ٣٧٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١

ص ١٥٤ - ١٥٥ ، التاريخ الباهر ص ١٠١ - ١٠٣ ، ابن العبري المصدر السابق ص =

يروى أيضا المؤرخ السرياني المجهول أن جوسلين رأى أنه يتجه إلى أنطاكية ليتولى أمرها بعدما فقدت أميرها ريموند أفبواتيه فأتجه من عزاز قاصدا أنطاكية، وفي الطريق برزت له عساكر نور الدين من بين الأشجار وقبضوا عليه دون أن يعرفوه، وقد عرض عليهم جوسلين أن يخلوا سبيله ويتركوه يعود إلى عزاز نظير مبلغ من المال، وتم الاتفاق على ستين ديناراً ، (١) وبينما تدور هذه المناقشات مر أحد اليهود الذي تعرف على جوسلين وأبلغ عساكر نور الدين بأمره لذلك اقتادوه إلى حلب (٢) .

وما يهمني أنه بعد ما وقع جوسلين في الأسر في السادس من محرم عام ٥٤٥ هـ / الخامس من مايو ١١٥٠ م ، أن امارة الرها فقدت أميرها مثلما فقدت أنطاكية أميرها من قبل . وإذا كانت القوى الإسلامية قد تشجعت على مهاجمة أملاك جوسلين بعد سقوط مدينة الرها ، فلا شك أن المسلمين قد ازدادوا تشجعا على مهاجمة بقية امارة الرها بعد أسر جوسلين . ففي الثاني والعشرين من المحرم من نفس العام / الثاني والعشرين من مايو من العام نفسه

٣٦٠ - ٣٦١ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٢ أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤ .

(١) الدينار : كان من الذهب وبعضه حقيقة وبعضه اسمي كالدينار الجيوشي . وكانت قيمته لا تلبث على حال والعبرة في وزنه بالمثقال وضابطه أن كل سبعة مثاقيل تساوي ٢٤ قيراطا وكل قيراط وزن ٧٢ حبة شعير وسط باتفاق العلماء خلافا لابن حزم فإنه قدره بأربع وثمانين حبة وهذا يعني أن الدينار يساوي ١٧٢٨ حبة من الشعير المتوسط الحجم أو ٢٠١٦ حبة تقديرا لابن حزم . أنظر : القلقشندي ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤٣ . وقد قدرت قيمته بحوالى ستون قرشا في عام ١٩٣٤ . أنظر جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبي على مصر ص ٢٣٢ حاشية (٧) A.S.C., p. 301; Michel le Syrien, p. 342. (٢)

وعن أسر جوسلين أنظر أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠ ، William of Tyre, op. cit., II, p. 201.

أيضا وصل السلطان مسعود بقواته إلى مدينة كيسون ، وعلى ما يبدو أن القوات السلجوقية كانت كثيرة العدد لذلك دب الرعب في سكان المدينة واستسلموا على الفور بعدما حصلوا على الأمان ثم أُنجه مسعود بعد ذلك إلى بهنسى التي استسلمت له في أول صفر / الثلاثين من مايو . ثم واصل زحفه إلى رعبان التي خضعت له في الخامس من صفر / الثالث من يونية ، وأخيرا أُنجه مسعود إلى تل باشر وظل محاصرا لها مدة طويلة ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها فقد دافع عنها أهلها بكل شجاعة رغم ما قام به مسعود وقواته من جهود لاسقاط المدينة (١) ، وفي النهاية عاد مسعود إلى بلاده بعد ما ترك البلاد التي فتحها وهي كيسون و بهنسى ورعبان تحت قيادة أبنه عز الدين قلعج أرسلان (٢) ، وهكذا ضاع جانب من امارة الرها وآل إلى السلاجقة . ولم تشر المصادر التي تحت أيدينا إلى أية مساعدة سواء كانت صليبية أم بيزنطية قدمت لجوسلين في هذه المحنة .

١- السجلات التاريخية

وإذا كان نور الدين قد تدخل من قبل للتوسط في الصلح بين السلطان مسعود وجوسلين عندما هاجم مسعود بقية امارة الرها ، فإنه بعد أسرجوسلين وقيام مسعود بمهاجمة بقية امارة الرها نلاحظ عدم تدخل نور الدين للصلح . بل تدخل بقواته بعد انسحاب مسعود ، وقام في شهر رجب عام ٥٤٥ هـ / أكتوبر - نوفمبر ١١٥٠ م بجمع قواته ليحصل على ما يمكن الحصول عليه بقية امارة الرها . وهاجم الصليبيين بالقرب من تل باشر وانتصر عليهم انتصارا

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠ - ٣١١ ، أنظر أيضا :

Gregoire le Pretre, pp. 164-5.

(٢) أبو الدم الحموي : التاريخ المظفرى (مخطوط) ورقة ١٩٥ .

ساحقا (١) ، ثم ما لبث أن اتجه إلى تل باشر نفسها ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وذلك بسبب ما قامت به بياتريس Beatrice زوجة جوسلين وما حولها من رجال زوجها المخلصين في الدفاع عن المدينة (٢) ، وما لبث أن رفع الحصار عن تل باشر وأتجه إلى تل خالد (٣) واستولى عليه (٤) .

كما قام الأرائقة أيضا بمهاجمة بقية امارة الرها ، وإذا كان قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قام بالهجوم قبل أسر جوسلين فمن الملاحظ في هذا الوقت أن الأرائقة في ماردين هم الذين قاموا بالتدخل في أملاك الرها ، ويشير ابن الأزرقي الفارقي أن حسام الدين تمرناش أمير ماردين (٥١٦-٥٤٧ هـ / ١١٢٢ - ١١٥٢ م) ملك مدينة سميساط (٥) ، وعلى ما يبدو أن حسام الدين امتلك هذه المدينة لفترة قصيرة أو ربما هاجمها فقط ، فقد كانت سميساط من المدن التي سلمتها زوجة جوسلين إلى الامبراطور البيزنطي مانويل بعد قليل (٦) . ورغم هذا فما رواه ابن الأزرقي ربما يشير إلى ما كان يتطلع اليه حسام الدين في الحصول على بعض أملاك جوسلين .

وهكذا وقعت بعض ممتلكات بقية امارة الرها في قبضة الدول الاسلامية المحيطة بالامارة بعد ما استولى قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على جرجر وحصن منصور ، وجاخنة واستولى السلطان مسعود السلجوقي على كيسون وبهنسي ورعبان ، واستولى نور الدين على تل خالد بالإضافة إلى مدينة الرها

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) Cahen, op. cit., p. 387.

(٣) تل خالد وهو أحد القلاع القريبة من حلب . ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٨٦٧

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٢ .

(٥) ابن الأزرقي الفارقي : تاريخ ميافارقين (ميكروفيل) أحداث عام ٥٤٥ هـ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 209.

(٦)

نفسها . والمهم أنه في هذه المرحلة التي بدأت فيها القوى الإسلامية تهاجم ممتلكات الرها من كل جانب ، نجد أن ياغى أرسلان صاحب سيواس وحليف الامبراطور البيزنطى مانويل قد بدأ يتخلى في هذا الوقت عن سياسة التقارب إلى الامبراطورية البيزنطية ، بعدما وجد تكاتف الحكام المسلمين لتصفية ممتلكات الرها . ومما يشير إلى ذلك ما رواه المؤرخ البيزنطى كيناموس من أن ياغى أرسلان قام بمهاجمة أملاك الامبراطورية البيزنطية (١) ، ولكنه لم يوضح لنا متى تم ذلك وموقف الامبراطور مانويل من هذا الهجوم ، وعلى ما يبدو أن ياغى أرسلان قام بهذا العمل في هذا الوقت حتى لا يعزل نفسه عن بقية أخوانه المسلمين ، أو ربما وجد أن في هذا الهجوم تقريرا إلى السلطان مسعود الذى زاد نفوذه في هذا الوقت بعدما ضم إليه بعض مدن امارة الرها المهارة وازدياد روابط الصلة بين مسعود ونور الدين بعدما تم التصاهر بينهما .

وبذلك يتضح لنا مدى الخطورة التي باتت تهدد الممتلكات الصليبية في شمال الشام بأكمله إذا أضفنا إلى ذلك أحوال امارة أنطاكية بعد مقتل ريموند وهو الأمر الذى أثار مخاوف الملك بلدوين الثالث بعدما وقع على كاهله حماية ما تبقى من امارة الرها ، وبعد قيامه بالوصاية على امارة أنطاكية . وحوالى ذلك الوقت أى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ ، وعندما أصبح الملك بلدوين عاجزا عن حماية بقية امارة الرها ، بدأت ملامح التدخل من قبل الامبراطورية البيزنطية في الشرق ، ويتضح ذلك عندما أرسل الامبراطور مانويل أحد قواده وهو على ما يبدو توماس — أحد قواد والده الامبراطور يوحنا في الهجوم على بزاعة عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م حاكم قيليقية في هذا الوقت (٢) ، أرسله

Cinnamus, op. cit., p. 101.

Sempad, op. cit., p. 619.

(١)

(٢)

مانويل ومعه قوة كبيرة من الفرسان إلى بياتريس زوجة جوسلين . وقد دخل توماس مع بياتريس في محادثات تمهيدية بغرض شراء ما تبقى تحت يديها من مدن وقلاع امارة الرها نظير معاش سنوى ، وقد أوضح توماس للأميرة أن بوسع الامبراطورية البيزنطية أن تحافظ على هذه المناطق بفضل ما لديها من قوات ، وأن وضع هذه الأراضي تحت السيادة البيزنطية يجعلها في مأمن من الهجمات المتكررة التي يشنها المسلمون . وأوضح المبعوث البيزنطى أن الامبراطورية البيزنطية بوسعها أيضا بعد أن تستقر في بقية امارة الرها أن تستولى على الأراضي التي استعادها المسلمون (١) . وتوضح هذه العبارة إلى أى مدى كان يطمع الأميراطور مانويل في إعادة امارة الرها إلى ما كانت عليه قبل سقوط مدينة الرها ذاتها وادخالها تحت الحكم البيزنطى ومواجهة يقظة الحكام المسلمين الذين بدأوا يعملون على استعادة أراضيهم . والمهم أنه ازاء ما عرضه المبعوث البيزنطى توماس على الأميرة بياتريس من المسال والحماية واستعادة الأراضي ، لم يكن أمام الأميرة الا استحسان ما عرضه الأميراطور مانويل على لسان مبعوثه توماس (٢) . كما لم يكن بوسع بياتريس أن تنصرف بمفردها حول هذا العرض الذى يتعلق بمصير أملاكها لذلك طلبت من توماس عرض الأمر على الملك بلدوين باعتباره وصيا على بقية ممتلكات امارة الرها .

وكان الملك بلدوين قد وصل إلى أنطاكية فى الوقت الذى دارت فيه المفاوضات بين المبعوث البيزنطى والأميرة . لذلك توجه توماس إلى أنطاكية لمقابلة بلدوين . وفى أنطاكية دار جدل كثير فى عدة اجتماعات حضرها

William of Tyre, op. cit., II, p. 208.

(١)

Jose ph ben Joshua, op. cit., I, p. 142.

(٢)

مبعوث الإمبراطور مانويل ، . وقد شرح توماس وجهة نظر الإمبراطور مانويل في بقية امارة الرها . وانقسم الرأي الصليبي حول عرض مانويل ، فقد رأى البعض عدم الموافقة على طلب الإمبراطور البيزنطي وعلل هذا الفريق وجهة نظره بأن الأمر لم يصل من الخطورة إلى الحد الذي يتنازل فيه الصليبيون عن أملاكهم ، أما البعض الآخر فقد وافق على العرض البيزنطي وأيد وجهة نظره بأن ما تبقى من أملاك الرها لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام هجمات المسلمين ، وأنه من الأفضل تسليمه للإمبراطور مانويل قبل أن يسقط تماما في أيدي القوات الإسلامية ، وانضم الملك بلدوين إلى جانب الفريق الذي يؤيد تسليم الأراضي للإمبراطور البيزنطي ، وأضاف بلدوين أنه لا يستطيع أن يتنقل بين مملكة بيت المقدس وأنطاكية والرها ليتولى أمرهما كما أن القوات التي تحت يديه لا تستطيع الدفاع عن كل هذه الأراضي وأن بقاءها على هذا الحال يمكن المسلمين من الاستيلاء عليها ان أجلا أو عاجلا . ثم ما لبث أن اقتنع الجميع بوجهة نظره وأنه من الأفضل تسليم أملاك بياتريس إلى الإمبراطور مانويل ، وهو الأمر الذي اعتبره الصليبيون في نظرهم أهون الشرين بدلا من سقوطها في يد المسلمين ، وحتى يتحمل الإمبراطور البيزنطي مسؤولية حماية هذه الأراضي وما يترتب على ذلك من نتائج . وانتهى الأمر بموافقة الملك بلدوين والأمراء الصليبيين والأميرة بياتريس على العرض البيزنطي الذي يعيد إلى الإمبراطورية البيزنطية هذه الأراضي التي فقدتها الإمبراطورية من قبل على حد ما رواه المؤرخ الصليبي ولیم الصوري (١) .

والواقع أن هذه القضية كشفت عن عدة حقائق هامة ، أولها أن الصليبيين سلموا بعد أكثر من خمسين سنة بأن الرها وتوابعها كانت ضمن الأراضي التي كانت خاضعة للنفوذ البيزنطي قبل قدوم الحملة الأولى بقليل ، وهم الذين أنكروا أى حق للامبراطورية فى أى أرض فتحها الصليبيون ، وتذر عوا بكافة الحجج حتى لا يسلموها للامبراطور البيزنطي . وثانيا ، أن الصليبيين سجلوا على أنفسهم أنهم أصبحوا عاجزين عن حماية ما تحت أيديهم من أراضي أمام القوات الاسلامية . وثالثا ، أن بوسع المسلمين الاستيلاء على ما تبقى من امارة الرها . ورابعا ، أن الصليبيين أيقنوا أنهم يناقشون قضية خاسرة وأن الأفضل لهم عدم تحمل مسؤولية ما تبقى من امارة الرها والقاء هذه المهمة على كاهل الامبراطورية البيزنطية والانكماش داخل حدود بقية الامارات الصليبية — بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس — التي ظنوا أن بوسعهم حمايتها ولكن إلى حين .

والمهم أنه تم الاتفاق على تسليم ما تبقى من امارة الرها إلى مبعوث الأمبراطور البيزنطي عدا قلعة الروم (١) ، فقد طلبت بياتريس من البطريرك الارمني جريجوار الثالث Gregoire III ، المعروف باسم جريجوار باهلافوني Bahlavouni الحضور لاستلام القلعة والاقامة بها على أمل أن يعود أبنا (٢) — الذى يحمل أيضا اسم جوسلين — فيما بعد لاستلام القلعة ، وأشارت إليه أنه فى حالة عدم عودة أبنا فيما بعد لاستلام القلعة فالأفضل أن

(١) قلعة الروم : من القلاع الحصينة التى لا ترام وتقع على الشاطئ الغربى لنهر الفرات وإلى الشمال من البيرة . لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٤٤٤ .

(٢) Vartan le Grand, p. 434.

(٢)

تظل القلعة تحت سيطرته بدلا من وقوعها في أيدي البيزنطيين أو الصليبيين ، وقد قبل البطريرك دعوة الأميرة وتسلم القلعة (١) والواضح أن ما دفع بياتريس إلى القيام بهذا العمل هو حبها لبني جنسها من الأرمن .

أما بقية مدن وقلاع إمارة الرها فاتفق على قيام الملك بلدوين الثالث والتوجه إلى تل باشر لتسليمها إلى المندوب البيزنطي (٢) ، وقد اصطحب الملك معه ريموند الثاني كونت طرابلس (١١٣٧ - ١١٥٢ م / ٥٣٢ - ٥٤٧هـ) وبعض أمراء مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية والمبعوث البيزنطي ومن معه من المسؤولين البيزنطيين ، وهناك أخذ بلدوين الأميرة بياتريس وأولادها ووضعهم تحت رعايته وحمايته وقام بتسليم نواب الإمبراطور البيزنطي بقيادة توماس ما تبقى من إمارة الرها ، وقد ذكر ولیم الصوري أن نواب الإمبراطور تسلموا تل باشر وعين تاب والرواندان ودلوك والبيرة وسديساط (٣) .

وعندما بلغ نور الدين نبأ استلام نواب الإمبراطور البيزنطي لبقية إمارة الرها وأن العمل قائم على تهجير السكان الذين رغبوا في الرحيل وعدم البقاء تحت السيادة البيزنطية ، وما يتبع ذلك من الأحوال التي أحاطت بالصليبيين عامة والسكان الراحلين بصفة خاصة وما سيطر عليهم من الشعور بالخوف على أرواحهم ، قام نور الدين بجمع قواته وأتجه إلى هذه المناطق لمتابعة الموقف عن قرب ، وعندما وصل نور الدين وقواته إلى قرب عين تاب كان الملك

(١) Michel le Syrien, p. 343; Sempad, op. cit., p. 618.

وظلت قلعة الروم مقر البطارقة الأرمن حتى استولى عليها الاشراف خليل بن قلاوون عام ١٢٩٢ م . أنظر أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) Smail, R.C., Crusading Warfare, p. 160.

(٣) William of Tyre, op. cit., p. 209.

بلدوين والمسيرة الصليبية قد وصلوا إليها أيضا وخلدوا إلى الراحة، ويروى المؤرخ وليم الصوري أن بعض الأمراء الصليبيين وعلى رأسهم روبرت أف سورديفال Robert of Sourdival أحد أمراء أنطاكية ، أشاروا على الملك بأن يسلمهم عين تاب وأن بوسعهم الدفاع عنها، ولكن بلدوين رأى أن يتم تنفيذ الاتفاق كاملا مع الإمبراطور البيزنطي وأن يتم تسليم عين تاب أيضا إلى نواب الإمبراطور، وبالفعل سلمت المدينة للمبعوثين البيزنطيين، وواصل الملك بلدوين مسيرته والقوات الإسلامية تسير على مقربة منه حتى دخلت المسيرة الصليبية والمهاجرين إلى الأراضي الصليبية (١) التابعة لامارة أنطاكية .

وإذا كان الإمبراطور البيزنطي مانويل قد فرح بالاستيلاء على هذه المدن والقلاع، وظن أن هذه المراكز ستمكنه من إعادة النفوذ البيزنطي في تلك الأطراف الشرقية وأحياء امارة الرها لتكون امارة بيزنطية لا صليبية ، فان فرحته لم تدم طويلا، إذ سرعان ما اتضح له أن حماية هذه المناطق يحتاج إلى جهد كبير لبعدها عن القسطنطينية ووقوعها وسط أراضي المسلمين، خاصة وأن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعاني في هذا الوقت من مشاكلها الغربية خاصة من جانب النورمان في صقاية (٢) . يضاف إلى ذلك عنصر في غاية الأهمية وهو مشاعر سكان المدن والقلاع التي أصبحت في حيازة الإمبراطورية البيزنطية . وقد سبق أن أبدى بعض السكان عدم رغبتهم في البقاء تحت الحكم البيزنطي وهاجروا إلى الجانب الصليبي ، أما بقية السكان الذين ظلوا في ديارهم

William of Tyre, op. cit., pp. 210—212.

(١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤٣ - ٦٤٤ ولزبد من التفصيل عن حروب مانويل في الغرب الأوربي في هذه الفترة أنظر : عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٤٢ - ١٤٣ .

واختبروا الحكم البيزنطى — وهم الذين اختبروا الحكم الاسلامى والصليبي من قبل — فضلوا بعد كل هذه التجارب الدخول تحت الحكم الاسلامى. ويعتبر تفضيل هؤلاء السكان غير المسلمين للحكم الاسلامى فى مثل هذا العصر الذى يسميه المؤرخون عصر الايمان أو عصر التعصب الدينى أمر له دلالة، فأبسط ما يدل عليه هو سماحة الاسلام وعدالته .

لم يرغب سكان هذه المدن والقلاع البقاء تحت الحكم البيزنطى . وتفاصيل ذلك أن المواطنين الأرمن وهم الغالبية على ما يبدو فى مدينة تل باشر (١) — التى تعتبر حاضرة امارة الرها بعد مدينة الرها ذاتها — فضلوا الدخول تحت الحكم الاسلامى ، لذلك قام نواب سكان تل باشر بمكاتبة نور الدين وأبدوا رغبتهم فى تسليمه المدينة . ولما كان نور الدين مشغولا فى هذا الوقت بحصار دمشق فقد طلب من حسان صاحب منهج التوجه إلى تل باشر لاستلامها استجابة لرغبة أهلها، وقد تسلمها حسان فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥٤٦ هـ / الثانى عشر من يولية عام ١١٥١ م (٢) .

وكان ما قام به سكان تل باشر مثلا لسكان المدن والقلاع الأخرى التى وقعت تحت الحكم البيزنطى فكاتبوا أيضا نور الدين لتسليم مدنهم وقلاعهم بالأمان . وبدأ نور الدين فى استلام عين تاب (٣) والراوندان والبيرة (٤) وهى المدن

(١) يتضح ذلك من إشارة المؤرخ الأرمينى جريجوار إلى مدينة تل باشر بكلمة «مدينتنا» أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 166.

(٢) ابن القلائسى : المصدر السابق ص ٣١٥ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ ،

Gregoire le Pretre, loc. cit.

(٣) ابن القرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ٣٥ ب .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٤ .

التي كان يغلب عليها الطابع الأرمني مثل تل باشر بعد انسحاب الصليبيين منها في العام السابق . ولا بد أن مثل هذه الأحداث قد أزعجت الأمبراطور مانويل بعدما أصبح مسئولاً عن هذه المدن والقلاع أمام الرأي العام الصليبي ، لذلك تقدمت القوات البيزنطية - وهي على ما يبدو قوات الحاميات في هذه المناطق - لمنع نور الدين ، ونوابه من استلام المدن والقلاع (١) ، وكان اللقاء على ما يبدو في دلوك وقد نجح نور الدين في انزال هزيمة ساحقة بالقسوات البيزنطية (٢) . ولقد كان في هزيمة البيزنطيين أمام أعين السكان خير شاهد على حسن ظن الأهالي بالقوات الإسلامية وبما توسمه في الحكم الإسلامي من الأمن والطمأنينة . وعلى أية حال لم يكن أمام القوات البيزنطية سوى التراجع وإخلاء هذه الأماكن النائية ونجح نور الدين في الاستيلاء على دلوك وغيرها من المدن والقلاع التي كانت في حيازة البيزنطيين ، واستطاع نور الدين بعد عام تقريبا من استعادة كافة الأراضي التي تنازلت عنها بياتريس زوجة جوسلين للامبراطورية البيزنطية (٣) ، وهكذا فشل الأمبراطور مانويل في إقامة إمارة الرها البيزنطية بعد ما فشل في حماية إمارة الرها الصليبية .

وفي الوقت الذي كان المسلمون يعملون على انتزاع المناطق التي آلت إلى الامبراطورية البيزنطية من بقية إمارة الرها ، كان الأمير ثوروس يقود ثورة أرمنية على ما تبقى للنفوذ البيزنطي في منطقة قيليقية ، وعلى ما يبدو أن

William of Tyre, op. cit., II, p. 212.

(١)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٤ . وقد ذكر أن اللقاء كان مع الفرنج والحقيقة أنه كان من البيزنطيين فقد كانت دلوك آلت إلى الحكم البيزنطي في هذا الوقت . أنظر ما سبق

ص ١٤٩ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 212; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 143. (٣)

الأمير ثوروس قد تشجع للثورة بعدما لحقت الهزائم بالحاميات البيزنطية على يد نور الدين وقواته . قام ثوروس في عام ١١٥١ م / ٥٤٦ هـ وشن هجوماً على القوات البيزنطية الموجودة في قيليقية وتمكن من هزيمتها وأسر توماس حاكم المنطقة، ثم ما لبث أن استولى على مدينتي طرسوس والمصيصة (١) . ولاشك أن مثل هذه المعركة وما ترتب عليها من نتائج تشير بوضوح إلى ازدياد نفوذ ثوروس في منطقة قيليقية . وكان على الإمبراطور مانويل أن يقوم بعمل إيجابي ضد الأمير الأرمني للحفاظ على هيبة الإمبراطورية في الشرق خاصة بعد فشله في تزويج كونستاس أرملة ريموند من أحد الأمراء البيزنطيين وضياع الأراضي التي آلت إليه من بقية إمارة الرها .

وربما يكون الأمر غير خطير على الإمبراطورية البيزنطية إلى حد كبير إذا ما ضعف نفوذها في أنطاكية أوضاعاً ببقية أقاليم الرها ، ولكن الأمر يصبح في منتهى الخطورة إذا تعلق بمنطقة استراتيجية مثل قيليقية التي تتحكم في المعابر البرية من وإلى منطقة الشام . يضاف إلى ذلك أنها تعتبر خط الدفاع الأمامي عن الإمبراطورية من ناحية الجنوب الشرقي ، لذلك اختار مانويل ابن عمه أندرونيكوس معتقداً أن هذا الأمير هو القائد الكفء الذي يجتمع فيه الخصاص العسكرية والدبلوماسية التي تؤهله لهذه المهمة وعينه حاكماً على قيليقية (٢) ، وهذا يوضح لنا أن قيليقية كانت لا تزال تحت الحكم البيزنطي حتى هذه المرحلة . والمهم أن الإمبراطور زود قائده أندرونيكوس بالقوات البيزنطية اللازمة وقد بلغ عددها ما يقرب من اثني عشر ألفاً على حد تقدير

Sempad, op. cit., p. 619.

Cinnamus, op. cit., pp. 121—121 ; Vahram d'Edesse, op. cit., p. 503. (٢)

المؤرخ الأرمني سمباد (١) . وزحف أندرونيكوس وقواته على قليليه للقضاء على ثوروس ، وهناك انضم إلى القائد البيزنطي بعض الزعماء الأرمن الذين كانوا يدينون بالولاء للأباطورية البيزنطية ، ومنهم الأمير بازل الذي قام بتزويد أندرونيكوس ببعض القوات الأرمنية نظرا لما يكنه هذا الأمير من عداوة تجاه ثوروس الذي انتزع منه قلعة برسيرت . Partzerpert (٢) .

ونجح أندرونيكوس في احراز بعض النصر في أول الأمر على قوات ثوروس وتمكن من محاصرته في مدينة المصيصة . وعلى ما يبدو أن ثوروس عندما وجد نفسه محاصرا طلب عقد الصلح مع القائد البيزنطي اندرونيكوس ، وأن الأخير طلب من ثوروس الاعتراف بالسيادة البيزنطية على ما وقع تحت يديه من الأراضي شأنه في ذلك شأن بقية الزعماء الأرمن الذين يخدمون تحت إمرة القيادة البيزنطية . وفي هذا الصدد يروي المؤرخ الأرمني جريجوار أن ثوروس كان يخاطب أندرونيكوس من أعلى أسوار المصيصة قائلا له : « لا تغضب أنا خادم سيدك » (٣) . ولم تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بمزيد من التفاصيل حول بقية رغبة الأمير ثوروس في الصلح ولكنه يمكن القول أن شروط الصلح التي قدمها أندرونيكوس أو ثوروس لم تلق الموافقة من الجانب الآخر ، أو أن يكون في عبارة ثوروس هذه نوعا من المراوغة حتى تحين له الفرصة للانقضاض على القوات البيزنطية . والواضح أن أندرونيكوس كان

Sempad, op. cit., p. 619.

(١)

Le Doctor Basil, op. cit., p. 204 n. I.

(٢)

برسيرت : أو برس برت : حصن متبع على جبل عال وهو من أعظم ممالك الأرمن وبه خزائنه ومصيفه ويقع على بعد مرحلة إلى الشمال من مدينة سيس (sis) أنظر : أبو الفدا :

تقويم البلدان ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

Gregoire le Pretre, op. cit., 168.

(٣)

مغترا بما تحت يديه من قوات وما انضم اليه من القوات الأرمنية (١)، وبدأ في التهمك والسخرية من الأمير ثوروس وأبلغه أن السلاسل التي استعملت في قيد والده ليو - عندما قبض عليه الامبراطور يوحنا وأرسله مكبلا إلى القسطنطينية سوف تستخدم مرة أخرى في قيد ثوروس وتسلمه أسيرا إلى العاصمة البيزنطية. ويتضح من سير الحوادث أن الأمير لم يحتمل مثل هذه الالهانة وأيقن عدم جدوى المفاوضات مع القائد البيزنطي وبدأ يخطط للالتحام مع القوات البيزنطية ، لذلك أمر ثوروس قواته بفتح ثغرة في سور المدينة عند بعض الأماكن الخافية عن أعين القوات البيزنطية، واستطاعت قوات ثوروس التسلل من هذه الثغرة أثناء الليل وظلت كامنة حتى طلوع الفجر وانقضت على أندرونيكوس وقواته وألحقت بها هزيمة ساحقة وسقط من الجانب البيزنطي ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل (٣). واستولت قوات ثوروس على ما في المعسكر البيزنطي من أسلاب وقتل في هذه المعركة ثيودور كونتوستفانوس (٤) أحد قواد الجيش البيزنطي البري الذي قام بتأديب ريموند أمير أنطاكية عام ١١٤٣ م. وعلى أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالقوات البيزنطية وما انضم إليها من القوات الأرمنية (٥) ، فر أندرونيكوس إلى القسطنطينية ليلقي اللوم على الزعماء الأرمن الذين كانوا يعملون تحت أمرته ويتهمهم بأنهم السبب فيما لحق بقواته من هزيمة (٦) كما سقط في هذه المعركة أيضا العديد من الزعماء الأرمن

Guiragos de Kantzag, Histoire d'Armenie, Cf. R.H.C.Doc Arm., I, p. (١)

414.

Sempad, op. cit., p. 619.

Michel le Syrien, op. cit., p. 344.

Cinnamus, op. cit., p. 126.

Vahram d'Edesse, op. cit., p. 505.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 169.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

أسرى في أيدي قوات ثوروس، وكان من بينهم سمباد حاكم مدينة باربارون Barbaron ، وبازل الحاكم السابق لقلعة برسيرت وأخيه تيجران (١)، واسكين Ocshin حاكم مدينة لامبرون Lampron (٢) ، يضاف إلى ذلك العديد من القوات البيزنطية (٣) .

وقد كان لهذه المعركة نتائج مادية وسياسية ، وعن النتائج المادية فقد استولى ثوروس على ما في المعسكر البيزنطي من الذهب والفضة وكثير من المعدات الحربية والخيول والبغال (٤) ، أما فيما يتعلق بالأسرى البيزنطيين فقد أطلق ثوروس سراحهم مقابل دفع الفدية وبالنسبة للزعماء الأرمن عدداً أوسكين فقد أطلق ثوروس سراحهم بعدما أرتبطوا معه بمعاهدات الصداقة والتحالف ضد البيزنطيين (٥) ، أما أوسكين فقد طلب منه ثوروس فدية قدرها أربعون ألف تاهجان ، وربما يرجع ذلك إلى ما كان يتمتع به أوسكين من ثروة ونفوذ ، ولقد تمكن أوسكين من دفع نصف الفدية وترك أبنه هيثوم Hethoum رهينة لدى الأمير ثوروس حتى يدفع بقية الفدية ، ثم ما لبث أن استطاع هيثوم من اكتساب محبة الأمير ثوروس وقد شجع ذلك أوسكين على اقتراح زواج أبنه هيثوم من ابنة ثوروس وعقد تحالف بينهما فوافق ثوروس وتنازل عن بقية الفدية ورحل هيثوم وعروسه إلى لامبرون (٦) . وهكذا نجح ثوروس في الحصول على المال والصداقة من الزعماء الأرمن وتمكن من بسط نفوذه على

Sempad, op. cit., p. 619.

(١)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 170.

(٢)

Vahram d'Edesse, op. cit., p. 506.

(٣)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 169.

(٤)

Vahram d'Edesse, loc. cit.,

(٥)

Sempad, op. cit., pp. 619—620.

(٦)

منطقة قيليقية بأكملها (١) وأما النتائج السياسية التي عادت على الإمبراطورية البيزنطية فيمكن القول أن النفوذ البيزنطي قد انحسر عن منطقة قيليقية في ذلك الوقت وسطع نجم ثوروس كزعيم وقائد ثورة ضد الحكم البيزنطي في قيليقية.

وبعد هزيمة القوات البيزنطية وفرار أندرونيكوس إلى القسطنطينية— وخروج منطقة قيليقية من دائرة النفوذ البيزنطي في العام نفسه الذي ضاعت فيه بقية إمارة الرها من بزنطة وآلت إلى نور الدين . نرى الإمبراطور البيزنطي مانويل يتبع سياسة جديدة في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي لفترة من الزمن . وكانت هذه السياسة نوعا من الدبلوماسية الماكرة سار على نهجها الإمبراطور . وتهدف هذه السياسة إلى قيام مانويل بالتحالف مع إحدى قوى المنطقة أو ضمها إلى جانبه ليضرب بها قوى أخرى في المنطقة نفسها تكون سياستها معادية للسياسة البيزنطية وبذلك يضمن مانويل انشغال القوتين معا في وقت واحد ببعضهما عن الصراع مع الإمبراطورية البيزنطية ذاتها وفي الوقت نفسه فإن صراع القوتين معا يضعفهما معا في نهاية الأمر مما يعطي الفرصة للإمبراطور مانويل لدعم نفوذ الإمبراطورية فيما بعد سواء أكان هذا الدعم سياسيا أم عسكريا .

وقد حانت الفرصة الأولى للإمبراطور مانويل لتطبيق هذه السياسة بالتحالف مع السلطان مسعود ضد الأمير ثوروس . فقد حدث بعد وفاة عين الدولة صاحب ملطية أن تولى ابنه القاصر ذو القرنين حكم ملطية (٥٤٥ هـ — ٥٥٦ هـ — ١١٥٠ — ١١٦١ م) وتولت أمه الوصاية عليه ودخل في طاعة السلطان مسعود . وعلى ما يبدو قام ثوروس في عام ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ متشجعا

بالنصر الذي سبق أن أحرزه على القوات البيزنطية وعدم قيام الامبراطور بعمل إيجابي ضد قيليقية، ومتشجعا أيضا بدخول الزعماء الأرمن في طاعته ومستخفا بالحاكم القاصر، قام بمهاجمة ملطية وعاد محملا بالأسرى والغنائم (١) واستغل مانويل هذه الحادثة وأرسل إلى السلطان يعرض عليه الأموال والهدايا ويشجعه على مهاجمة ثوروس. ولما كان مسعود مهيا للانتقام من الأمير الأرمني فقد حشد قواته وتقدم بها عبر بلاده في طريقه إلى قيليقية معتمدا على الدعم البيزنطي. وعلى سمعة القوات السلجوقية التي كانت تلقى الرعب في نفوس الأرمن (٢). ويروي المؤرخ ميخائيل السرياني أن ثوروس عندما علم بقدم القوات السلجوقية أمر قواته بنصب الكهائن في الممرات الجبلية الواقعة على الحدود بين الممتلكات السلجوقية وإمارة قيليقية مما أدى إلى فشل القوات السلجوقية في النفاذ إلى قيليقية، ثم ما لبث السلطان مسعود أن عاد بقواته إلى بلاده (٣). أما المؤرخ الأرمني جريجوار فيروي أن القوات السلجوقية، والقوات الأرمنية تقابلت عند الحدود الواقعة بينهما وعسكرت كل قوة في أراضيها يفصل بينهما مرتفعات الجبال، وظلت القوات الأرمنية مستعدة للقتال ولم تخش القوات السلجوقية، ثم ينتقل المؤرخ نفسه فجأة بعد هذا الاستعداد ليضيف أن السلطان مسعود أرسل مندوبين من لدنة إلى الأمير ثوروس ليلغوه أن مسعود لم يحضر بقواته لتخريب البلاد الأرمنية ولكنه أتى يطلب بعودة الأراضي التي في حوزته إلى الامبراطورية البيزنطية، ويطلب أيضا باعتراف ثوروس بسيادة السلطان مسعود عليه. وقد فرح الأرمن وثوروس بوصول

Michel le-Syrien, op. cit., p. 345.

(١)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 170.

(٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 345.

(٣)

مندوبى مسعود لأنهم أيقنوا أن ذلك دليلا على عدم رغبة السلطان مسعود -
الذى يسميه المؤرخ بالطاغية - فى الحرب ، وقد ظل المبعوثون بضعة أيام
طرف ثوروس ثم أعادهم مرة أخرى ليخبروا السلطان مسعود أن ثوروس وافق
على الخضوع للسيادة السلجوقية عن طيب خاطر لأن السلطان مسعود لا يضمر
شرا للأرمن. وأضاف المؤرخ أن ثوروس لا يوافق عسى ما يتعلق بإعادة
الأراضى التى تحت يديه للإمبراطورية البيزنطية وقد وافق السلطان السلجوقى
على ذلك وتم عقد معاهدة صلح وتعاون بين الطرفين وقد أيد كل من السلطان
مسعود وثوروس هذه المعاهدة بالقسم على شروطها ثم ما لبث أن عاد مسعود
وقواته إلى بلاده ، دون أى اشتباك بين السلاجقة والأرمن (١) .

وحول ما رواه جريجوار المؤرخ نود الإشارة إلى أن العرض الذى قدمه
السلطان مسعود يبدو متناقضا مع نفسه : فكيف يعيد ثوروس الأراضى
التي يحكمها إلى الإمبراطورية البيزنطية . ويظل بدون أرض يحكمها فى الوقت
نفسه يظل خاضعا للسيادة السلجوقية بعدما أصبح لا يملك أرضا يحكمها .
وقد نجد مخرجا لذلك إذا اعتبرنا أن المقصود هو إعادة الأراضى التى استولى
عليها ثوروس حديثا بعد هزيمة توماس وأندرونيكوس . وحول النتائج التى
أوردها كل من ميخائيل السريانى وجريجوار وهى عودة السلطان مسعود إلى
بلاده وهى التى تبدو متفقة مع بعضها يوضح الباحث أن هذه النتائج لم تحقق
أى هدف من الأهداف التى قامت من أجلها القوات السلجوقية لصالح
الإمبراطور مانويل بل يمكن القول أنها عادت بالضرر على الإمبراطورية
البيزنطية فقد خذل مسعود الإمبراطور مانويل وظل ثوروس فى امارته آمنا
جانب السلاجقة بعد ما وقع معهم معاهدة الصلح .

ومع ذلك فلم يستسلم مانويل لهذه النتائج التي تقضى بضياخ النفوذ البيزنطي في قيليقية ، ويبدو أنه أحس أن ما قدمه من هدايا وأموال لم تكن كافية للمهمة التي عهد بها إلى السلطان مسعود ، لذلك عاود الاتصال مرة أخرى بالسلطان السلجوقي عندما كان موجودا في وادي الفرات (١) في عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م ، وأن ذلك دليل على مدى خطورة الموقف حتى يرسل الأمير اطور مانويل السلطان مسعود في وادي الفرات بدلا من انتظار عودته إلى عاصمته ، والمهم أن مانويل أرسل إلى مسعود خطابا وهدايا قيمة من الذهب والقضبة أكثر من الهدايا التي سبق أن أرسلها إليه في العام السابق ليحرضه على الانتقام من الأمير ثوروس بصفة خاصة ، ومن الأرمن بصفة عامة ويحثه على مهاجمة إقليم قيليقية وتدمير القلاع وحرق الكنائس وأن يجعل من البلاد الأرمنية كلها طعمة للنيران (٢) .

ولعل في ذلك مبالغة من المؤرخ ، والمهم أن مسعود وافق على رغبة الأمير اطور مانويل وعاد إلى عاصمته قونية ليقوم بجمع جيش كبير وأتخذ طريقه إلى أرمينية عبر جبال الأمانوس ثم اتجهت القوات السلجوقية إلى عين زربة والمصيصة ، وعلى ما يبدو أن السلاجقة فاجأوا السكان على حين غفلة منهم الا أنهم تمكنوا من الاحتواء داخل أسوار المدينتين ، ثم ما لبث أن قام ثوروس بحشد قواته واستعد لمنازلة السلاجقة. والواضح أن السلاجقة فشلوا في

Michel le Syrien, op. cit., p. 347.

(١)

وربما كان مسعود في وادي الفرات لتدبير أمور البلاد التي استولى عليها من إمارة الرها وكان يتولى أمرها ابنه قلع أرسلان .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 171.

(٢)

اقتحام أسوار غير زربة والمنصبة فاتجهوا إلى تل حمدون (١) فوصلتها القوات السلجوقية في الحادى عشر من ربيع الأول عام ٥٤٩ هـ / السابع والعشرين من مايو عام ١١٥٤ م وألقت الحصار عليها ، وفى الوقت نفسه أرسل مسعود أحد قواده ويدعى يعقوب ومعه ثلاثة آلاف مقاتل للتوغل جنوبا فى اتجاه أنطاكية (٢) . وربما أراد مسعود بهذه القوة أن يقوم بأعمال السلب والنهب فى اماره أنطاكية وسبر أغوار قوتها تمهيدا للتقدم إليها إذا ما نجح فى هزيمة ثوروس ، وبذلك يكون قد أعاد قيلية إلى مانويل ويستأثر هو بأنطاكية كما أستولى صهره نور الدين على اماره الرها ، أو ربما أراد أن تقوم هذه القوات بحركة التفاف حول القوات الأرمينية وتهاجمها من الخلف وبذلك تقع قوات ثوروس بين شقى الرعى .

وعلى أية حال فعندما كان يعقوب ومن معه من القوات يجتازون ممر بورتلا Portella - وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيلية وأنطاكية (٣) انقض عليه ستيفانى شقيق ثوروس والفرسان الداوية (٤) الذين انضموا إليه

(١) تل حمدون : من المدن الأرمينية وتحصيناتها قوية وذات أسوار منيعة وتقع على قمة تل مرتفع بها الضواحي والبساتين ويمر بغيرها نهر جيحان الذى يروى أرضها الحصية . أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 171, 175.

(٣) يطلق عليه المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم باب الاسكندرونة . أنظر : أبو الفدا : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٤) الداوية : جماعة من الافرنج أسسها هيودى باينز Hugh de Payenes وجودفرى أن سانت أومر Geodffrey of St. Omar فى سنة ١١١٨ - ١١١٩ م ، وكان لها الصفة العسكرية والدينية ووضعت أنظمتها وقواعدها فى مؤتمر تروى Troyes فى فرنسا عام ١١٢٨ م . أنظر محمود سعيد عمران : حملة جان دى برين الصليبية على مصر ص ١٠٢ ح ١ .

من قلعة جاستون (١) وأنزلوا هزيمة ساحقة بالقوات السلجوقية وقتل قائدهم ومقوب (٢) ، أما القوات السلجوقية الأخرى التي كانت تحت قيادة مسعود وتقوم بحصار تل حمدون فقد فشلت هي الأخرى في النيل من المدينة . ويرجع ذلك إلى قيام عاصفة شديدة أدت إلى اقتلاع الأشجار يضاف إلى ذلك سقوط الثلوج رغم أن الجو كان صيفا (٣) وأن القوات السلجوقية لم تكن مستعدة لهذه الاحتمالات فضلا عن انتشار الوباء في القوات السلجوقية (٤) الذي ربما يرجع إلى تقلبات الجو في هذه الفترة . لذلك اضطر مسعود لرفع الحصار عن تل حمدون واستعد للعودة إلى بلاده (٥) . وقد انقلب تقهقر السلاجقة إلى كارثة ، فقد وضع ثوروس بعض قواته في طريق عوده القوات السلجوقية وهاجم الأرمن السلاجقة في ممرات الجبال دون رحمة مما اضطر الكثير منهم إلى التخلي عن خيولهم وأسلحتهم والفرار إلى شعاب الجبال على أقدامهم . وقد سهلت هذه الفوضى من مهمة القوات الأرمينية فسقط عدد كبير من السلاجقة قتلى وسط الجبال ولم يكتف ثوروس بالهزيمة التي أنزلها بالقوات السلجوقية فقد أمر بعض قواته بالتسلل إلى إقليم كبادوكيا حيث قامت بأعمال السلب والنهب ولم يعلم مسعود بذلك إلا عندما عاد إلى بلاده (٦) . لم يعيش مسعود بعد ذلك كثيرا فما لبث أن توفي في أوائل عام ٥٥٠ هـ /

(١) جاستون : هي قلعة بغراس وتقع على طريق الثغور بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلا وعن الاسكندرونة بنفس المسافة وتقع على الجبل المطل على عمق حارم . أبو الفدا : المصدر السابق

ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 171—172. (٢)

Sempad, op. cit., p. 621. (٣)

Vahram d'Edessa, op. cit., p. 507. (٤)

Sempad, loc. cit., (٥)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 173; Vahram d'Edessa, loc. cit. (٦)

ربيع ١١٥٥ م (١) دون أن يحقق أية فائدة من تحالفه مع الإمبراطور مانويل ،
أو بمعنى آخر من الحرب لصالح أو لحساب الإمبراطور مانويل ، سواء أكانت
هذه الفائدة للسلاجقة أم للإمبراطورية البيزنطية ، بل على العكس نجد أن محاربة
السلطان مسعود للأمير ثوروس قد عادت ببعض النتائج السيئة على السلاجقة .
ومن ذلك أنه بعد وفاة مسعود تولى ابنه قلعج أرسلان الثاني (٥٥٠ — ٥٨٨ هـ /
١١٥٥ — ١١٩٢ م) عرش السلاجقة في آسيا الصغرى بموافقة رجال البلاط
السلجوقي (٢) ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بين أولاد مسعود (٣) . ويرى
المؤرخ الأرمني جريجوار أن شاهنشاه بن مسعود خاف من بطش أخيه قلعج
أرسلان ففر من قونية ولجأ إلى جانجرس وهي المدينة التي كان والده قد ولاه
حكمها مع مدينة أنقرة قبل وفاته (٤) .

وقد ساند ياغي أرسلان (٥٥٠ — ٥٦٢ هـ / ١١٥٥ — ١١٦٧ م) حاكم
سيواس الأمير شاهنشاه ضد أخيه قلعج أرسلان ، وانتهز ياغي أرسلان فرصة
قيام قلعج أرسلان بطرد بعض رجال بلاط أبيه وكون جبهة معارضة ضد
قلعج أرسلان ، وتمكن من حشد جمعاً كبيراً من القوات وزحف إلى الممتلكات

(١) اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة السلطان مسعود . والأقرب إلى الصواب أن السلطان
مسعود توفي بعد عودته من حرب ثوروس بحوالى عشرة أشهر أنظر . Sempad, p. 621 .
ولما كانت العاصفة حدثت في ٥ يونية ١١٥٤ م التي سببها ولأسباب أخرى فكر السلطان
في العودة إلى بلاده فبذلك يكون ما أوردناه في المتن هو الأرجح . راجع . Gregoire, p. 175 .
ونستنتج من ابن القلانسي ص ٣٣٢ وأبو الفدا ج ٣ ص ٣١ والمبني ج ١٦ لوحة ٢٥٨ أن
الوفاة كانت عام ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م أما ابن الأثير فقد أوردنا في عام ٥٥١ هـ ١١٥٦ م .
(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 175 .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٢ .

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 346 .

السلجوقية وهاجم مدينة ليكاندوس Lycandos . ولكن كبار رجال الدولتين تدخلوا بين قلعج أرسلان وياغى أرسلان وعقدوا الصلح بينهما (١) . كما كان لنور الدين دورا في هذا الصلح فقد كان يرى أن هذا الخلاف من شأنه أن يقوى الصليبيين والبيزنطيين على المسلمين ويدفعهم إلى الطمع في المعازل الإسلامية «وبالغ في ذلك بأحسن توسط وبذل التحف والملاطفات وصلحت بينهم الأحوال» (٢) . والواضح أن هذا الصلح كان شكليا فما لبث ياغى أرسلان أن هاجم الممتلكات السلجوقية مرة أخرى وعاد محملا بالأسرى والغنائم ولم يتمكن قلعج أرسلان في دفع قوات ياغى أرسلان ، فقد وصلت القوات السلجوقية بعد فوات الأوان وبعدها سلك ياغى أرسلان وقواته طريقا آخر أثناء عودته إلى بلاده (٣) . وأعاد ياغى أرسلان الكرة مرة أخرى وهاجم السلاجقة ولكن العلماء وكبار رجال الدولتين تدخلوا مرة أخرى وعقدوا الصلح بين الطرفين (٤) ، وعلى ما يبدو كان لتحرك القوات الأرمنية دخل كبير في أمهاء الخلاف بينهما .

وكان في هذا الصراع الذي أثناب السلاجقة وآل دانيشمنند فرصة للأمير ثوروس للانتقام من السلاجقة الذين هاجموا أمارته مرتين في أواخر حكم السلطان مسعود الذي تحالف مع الإمبراطور البيزنطي مانويل . والواضح أن ثوروس لم يتقدم بنفسه لمحاربة السلاجقة فربما كان يخشى تقدم القوات

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 177.

(١)

(٢) ابن القلانسي : نفس المصدر والصفحة .

(٣) يبدو أن انسحاب أو عودة ياغى أرسلان بهذه الصورة هي التي دفعت ابن القلانسي إلى ذكر أن قلعج أرسلان أحرز النصر على أولاد دانيشمنند في شعبان ٥٥٠ هـ - أكتوبر ١١٥٥ م .

أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٣ .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 178.

(٤)

البيزنطية إلى قيليقية، فقام أخوه ستيفاني بهذه المهمة . ومن الملاحظ أن القوات الأرمنية لم تهاجم الممتلكات الأصلية لسلطان قونية بل قامت بمهاجمة كيسون وبهنسى ومرعش (١) ، وهى البلاد التى آلت إلى السلاجقة حديثا من بقية امارة الرها ، ولعل ما دفع الأرمن إلى مهاجمة هذه المدن هو أن كيسون وبهنسى ومرعش ضاعت من زوجة جوسلين الأرمنية وبذلك يكون لهم الحق من وجهة نظرهم كأرمن فى استردادها . قام ستيفاني أولا بمهاجمة مدينة كيسون وأنزل فيها السلب والنهب والتخريب وقام بأسر بعض السكان من المسلمين والمسيحيين على السواء، ثم أطلق سراحهم مقابل دفع الفدية، ثم أتجه بعد ذلك إلى بهنسى ومرعش ولكنه لم يتمكن من النيل من هاتين المدينتين وانتهت حملة ستيفاني باستيلائه على قلعة برتونك Pertounk ثم عاد إلى بلاده (٢) .

ويتوغل الأرمن فى الممتلكات السلجوقية أدرك الامبراطور مانويل عدم جدوى دفع السلاجقة لمحاربة ثورس وأحس بفشل أول مرحلة من مراحل سياسته التى أتبعها فى هذا الوقت التى تهدف إلى ضرب قوى المناطق الشرقية ببعضها، وبدأ يتجه إلى حليف آخرو هو رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon (أرناط) أمير أنطاكية .

ويفضل الباحث فى هذا الموضوع من البحث وقبل الدخول فى تفاصيل

(١) Michel le Syrien, op. cit., pp. 349—350.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., 178—180; Michel le Syrien, op. cit., p. 350.

وعن حصن برتونك فيطلق عليه أيضا برتوس Pertous أو برتوسد Pertousd وهو

يقع على الحافة الجنوبية لكنيسة السوداء بالقرب من حدود المصبصة . أنظر

R.H.C. Doc. Arm. I, p. 826. ، أنظر أيضا لى سترانج: فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٤٦٠ .

التحالف البيزنطى مع رينو أن يشير اشارة سريعة إلى الطريقة التى تولى بها رينو حكم أنطاكية، كيف تمكن من دعم نفوذه فى الامارة لما لهذه الشخصية من أثر كبير على تطور الأحداث فى الشرق ، خاصة المتعلقة منها بهذا البحث كانت الأميرة كونستاس صاحبة أنطاكية قد رفضت الزواج من الأمراء الصليبيين والبيزنطيين الذين رشحوا للزواج ومرت فترة من الوقت أصبح من الصعب اقتناع هذه الأميرة الشابة بالزواج بعد مقتل زوجها ريموند (١) . وحدث بعد ذلك أن اختارت كونستاس فارسا عاديا من الفرسان — الذين قدموا مع لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية وظل فى الشام مجهولا حتى هذا الوقت — وهو رينو دى شاتيون المعروف فى المصادر العربية بأسم أرناط (٢) ويروى المؤرخ وليم الصورى أن كونستانس تزوجت سرا من رينو ولم يعرف أمر هذا الزواج إلا فى مايو عام ١١٥٣ م / صفر ٥٤٨ هـ عندما هرع رينو إلى بلدوين ملك بيت المقدس والوصى على اماراة أنطاكية عندما كان يحاصر مدينة عسقلان (٣) يطلب منه الاذن بالزواج من كونستانس باعتبار رينو من أتباع الملك . ولما كان بلدوين يرغب منذ مقتل ريموند فى تزويج الأميرة حتى يتحمل زوجها مسئولية الدفاع عن أنطاكية وتدبير أمورها ، لذلك وافق على الزواج دون تردد (٤) . وعاد رينو إلى أنطاكية

(١) عمر كمال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٦٤٩ .

(٣) عن حصار عسقلان وسقوطها فى يد الصليبية أنظر : ابن الحزرى : ملخص تاريخ الاسلام (مخطوط) ورقة ٥٦٥ ، ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ٦٣ ب ، ٦٤ أ ، باخرمه قلادة التحر ج ٤ ورقة ٢٢٣ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ابن القلانسى المصدر السابق ص ٣٢١ - ٣٢٢ ، ابن واصل : ج ١ ص ١٢٦ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٩٤ ، ابن قاضى شعبة : المصدر السابق ورقة ٦٥ أ .

Cambell, The Gwsades, p. 236.

(٤)

ليزف إلى الأميرة هذه البشرى وليستعد هو لحكم الامارة .

عارض ايمرى بطريك المدينة هذا الزواج وشاركه كافة رجال الدين في الامارة الشعور بنفسه (١) ، وربما يكون شعور ايمرى بذلك مرجعه إلى أن زواج كونستاس من رينو يفقده السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها البطريك في حكم أنطاكية طوال أربع سنوات تقريبا ، لذلك ناصب رينو البطريك العداء وظل يشك في كل تصرفات ايمرى ونواياه . وقد استغل البعض هذه العلاقة السيئة وزادوا في الوقعة بين الطرفين حتى انتهى الأمر بقيام رينو بالقبض على ايمرى وأنزل به أشد أنواع العذاب ، وعندما بلغت هذه الأخبار الملك بلدوين أرسل على الفور سفارة على رأسها فريدريك Frederick أسقف عكا إلى أنطاكية ومعه خطابا من الملك يطلب فيه من رينو الافراج عن البطريك ولم يكن بوسع رينو سوى تنفيذ رغبة الملك واطلاق سراح ايمرى الذي غادر امارة أنطاكية وأتجه إلى بيت المقدس حيث رحبت به كافة الدوائر الدينية والعلمانية (٢) .

أصبح رينو حاكما على أنطاكية دون منازع بعدما صنفى له الجو برحيل البطريك ايمرى ، بأعتبره زوجا للأميرة كونستاس على أنه يمارس السلطة حتى يبلغ أنها بوهمند سن الرشد (٣) . وإذا كان الملك بلدوين قد وافق على زواج كونستاس من رينو ، فإن الامبراطور مانويل باعتباره السيد الاسمي

Rey, E.G., Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche, cf. R.O.L. (١)

Vol. IV. p. 369; Campbell, The Crusades, p. 236.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 335—6. (٢)

(٣) العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٢٥٤ ، ابن الأثير : المصدر السابق ص ٩٩ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٤ .

للامارة لم يكن راضيا عن هذا الزواج الذى تم دون موافقته ، وفى الوقت نفسه كان رينو يشعر أنه ضايق الأمبراطور مانويل لزواجه من كونستانس دون موافقته لذلك كان يسعى إلى مصالحة الامبراطور للحصول على رضائه (١)

وقد استغل مانويل فرصة تودد رينو إليه فى هذه الفترة لضرب الأمير ثوروس بعد ما فشل السلاجقة فى تنفيذ هذه المهمة وبعدها ازداد نفوذه فى قيليقية ، لذلك كلف مانويل أحد كبار دولته وهو الكسيوس جيفارد Alexius Giffard بالتوجه إلى أنطاكية ومعه خطاب من الامبراطور يطلب فيه من رينو التقدم بقواته لمحاربة ثوروس وطرده من الأراضى التى يحتلها ، وهى الأراضى التى يعتبرها مانويل من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٢) . وقد وعد الامبراطور بامداد رينو بالأموال اللازمة لنفقات هذه الحملة ووافق رينو على طلب الأمبراطور مانويل حتى يكسب رضائه (٣) .

وكان على رينو أن يقدم من الأسباب ما يجعل اعتدائه على الأرمن مقبولا عند الصليبيين بعدما كان له من تصرفات غير مقبولة تجاه البطريك ايمرى ، لذلك بدأ رينو بمطالبة ثوروس باعادة قلعة جاستون إلى الفرسان الدراوية باعتبار أن هذه الطائفة تعمل من أجل مناصرة الحركة الصليبية (٤) ، ولكن ثوروس لم يستجب لمطالب رينو . وفى تصورى أن اعلان مثل هذا السبب لمهاجمة ثوروس أمر له دلالة ومغزاه فان مناصرة الفرسان الدلاوية وهى الطائفة الدينية ذات الثقل والنفوذ داخل الامارات الصليبية قد أظهر رينو

Cinnamus, op. cit., p. 178, see Also Brehier, op. cit., p. 259. (١)

Schlumberger, op. cit., p. 49; Rey, op. cit., p. 376. (٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 254. (٣)

Michel le Syrien, op. cit., p. 348. (٤)

بمظهر حامى الحركة الصليبية وعلى الصليبيين، أن يباركوا ما يقوم به من هجوم على ثوروس وعلى الداوية أن تنهض لمساعدته فى الهجوم المقبل .

وحول الهجوم الذى شنّه رينو على ثوروس فى عام ١١٥٥ م / ٥٥٠ هـ يروى لنا ولیم الصورى أن رينو بعد ما وافق على طلب الامبراطور البيزنطى مانويل استدعى قوات كبيرة من الفرسان وتقدم إلى قيليقية حيث تقابل مع القوات الأرمينية وتمكن من هزيمة الأمير ثوروس وأنزل بالأرمن خسائر فادحة (١) . أما ميخائيل السريانى فقد ذكر أن رينو وقواته تقابلوا مع ثوروس وما تحت يديه من القوات الأرمينية حيث نشبت معركة قرب الاسكندرونة، وفى هذه المعركة هزم رينو وسقط عدد كبير من قواته فى أرض المعركة مما اضطره إلى الانسحاب إلى أنطاكية ، أما ثوروس فقد قام بعد ذلك بتسليم قلعة جاستون وما حولها إلى الفرسان الداوية بعدما تعهدوا له بمساعدة الأرمن إذا اقتضت الحاجة (٢) .

ومهما كانت النتائج العسكرية التى تمخضت عنها هذه المعارك فإنه ما يهمنى فى هذا البحث هو النتائج التى عادت على الامبراطورية البيزنطية باعتبارها صاحبة المصلحة فى اندلاع هذه الحرب بأمل القضاء على الشائى الأرمينى ثوروس . وحول هذه النتائج تطالعنا بعض المراجع بأن رينو ما لبث أن انقلب على الامبراطور البيزنطى (٣) . وربما يكون ذلك لعدم وفاء الامبراطور بتقديم الأموال التى وعد بها رينو (٤) . والواقع أن رينو وما

William of Tyre, loc. cit.,

(١)

Michel le Syrien, op. cit., p. 347.

(٢)

Schlumberger, op. cit., 54.

(٣)

William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

(٤)

عرف عنه لم يكن في حاجة إلى الاطلاق لتبرير ما يفعله فسجل حياته زانخر بنقضه للعهود والمواثيق . والمهم أن رينو ما لبث أن انضم إلى الأمير ثورس وظلت القوات الأرمنية والأنطاكية تهاجم الممتلكات البيزنطية — المتأخرة للأرمن في أطراف آسيا الصغرى — لعدة أسابيع متواصلة (١) . وليس ذلك فحسب بل أن رينو وثورس وهما الأميران الطامحان اللذان أصبحا لا يباليان بالقوة البيزنطية في هذه الفترة بعد أن خرجا على طاعة الامبراطور وهاجما أملاكه (٢) قد أتفقا على مهاجمة جزيرة قبرص التابعة للامبراطورية البيزنطية (٣)

ولعل اختيار جزيرة قبرص بالذات يرجع لكونها من أغنى الأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية (٤) فقد استطاعت بحكم موقعها وسط البحر أن تتحاشى لسنوات طوال كل أنواع الحروب والدمار والكوارث وأعمال السلب والنهب التي اجتاحت منطقة الشام وآسيا الصغرى منذ بداية الحروب الصليبية على الأقل ولذلك احتفظت الجزيرة بمبانيها وكنائسها التي تحوى العديد من الكنوز (٥) ، يضاف إلى ذلك أن الامبراطورية الامبراطورية البيزنطية لم تكن تولى أمر الدفاع عن الجزيرة اهتماما كبيرا (٦) ، فلقد رأت عدم تعرض الجزيرة للأخطار منذ وقت ليس بقصير . وفي الوقت نفسه كانت الامبراطورية محتاجة إلى قواتها لصدهجمات السلاجقة وإيقاف تقدم الأرمن

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٢ .

Vasiliev, op. cit., II, p. 78.

(٣)

Daniel, The Russian Abbot, The Pilgrimage in the holy land, cf. (٤)

P.P.T.S. Vol. IV, pp. 7—8.

Schlumberger, op. cit., p. 54—55.

(٥)

Wilbrandi de Oldenburg, Ex. A Journal of Pilgrimage, Cf. Cobham, (٦)

Materials for A History of Cyprus, pp. 13—14.

والقضاء على الثورات التي يقوم بها زعمائهم ضد النفوذ البيزنطي أو استغلالها ضد مسلمي الشام فضلا عن احتياجها لقواتها في الغرب الأوربي (١). ولقد كان ثراء الجزيرة وخلوها من القوات الكافية للدفاع عنها هو ما جعل رينو وثوروس يتفقان على اختيارها هدفا للهجوم (٢).

وإذا كان ذلك هو السبب الاقتصادي والعسكري في مهاجمة جزيرة قبرص فإن الأسباب السياسية يمكن ارجاعها فيما يتعلق بجانب الأمير ثوروس إلى العداء التقليدي بين الأرمن والبيزنطيين وإلى ما قام به الإمبراطور مانويل في هذه الفترة من العمل على هدم الكيان الأرمني الذي يعمل ثوروس على إعادة بنائه مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالأمير رينو فيشير وليم الصوري أن الإمبراطور مانويل قد وعد أمير أنطاكية بدفع نفقات الحملة التي حرضه على القيام بها ضد ثوروس ولكن الإمبراطور البيزنطي لم يف بما وعده ولم يقيم بدفع الأموال المطلوبة عندما طالب بها رينو ، وكان هناك نوعا من التسويف ، والمماطلة في دفع هذه المبالغ (٣).

وإذا كان ذلك هو السبب الحقيقي الذي دفع رينو للتحالف مع ثوروس لمهاجمة جزيرة قبرص فإنه قدم اعتذارا أخرى كعادته لتبرير هجومه على قبرص إذ ادعى رينو على حد قول المؤرخ ميخائيل السرياني أن أهل الجزيرة من البيزنطيين يعذبون اللاتين الذين يقيمون معهم في الجزيرة وليس ذلك

(١) Baynes & Moss, Byzantium, p. 31.

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

فحسب ، بل ادعى أيضا أن سكان الجزيرة البيزنطيين يحرضون السلاجقة على قتال الأرمن (١) . وتشير العبارة الأخيرة إلى مدى التقارب بين رينو وثوروس وأن رينو بهذه العبارة قد نصب نفسه حاميا للأرمن .

ولكى ينفذ رينو عملية الهجوم على جزيرة قبرص قام أولا بجمع بعض المعلومات الكافية عن الجزيرة من البحارة والتجار الصليبيين الذين كانوا يرتادون الجزيرة ، وكانت هذه المعلومات تتعلق دون شك بالقوات البيزنطية الموجودة بالجزيرة من حيث عددها ونوع أسلحتها وأماكن تواجدها وما شابه ذلك من المعلومات العسكرية التى تفيد فى عملية الهجوم وكذلك بيان عن الثروات الموجودة فى الجزيرة وأماكنها (٢) .

وإذا كان ذلك ما قام به رينو بشأن عملية الهجوم على قبرص أو السطو على الجزيرة إذا صح هذا التعبير ، فإنه فيما يتعلق بموقف ثوروس يروى لنا المؤرخ ميخائيل السريانى أن ثوروس ألتقى مع رينو وساعده للهجوم على جزيرة قبرص (٣) . أما المؤرخ الأرمينى سمباد فقد أشار إلى التعاون بين ثوروس ورينو (٤) وأشار المؤرخ جريجوار إلى أن ثوروس حرص رينو على مهاجمة جزيرة قبرص وأن ثوروس قدم القوات الأرمينية التى أعدها لهذا الغرض (٥) . وعلى ذلك يمكن القول أن ثوروس أمد رينو بالقوات الأرمينية التى أخذت طريقها إلى أنطاكية لتنضم إلى قوات رينو ، وظل ثوروس فى قيليقية . وعلى ما يبدو أن الاتفاق تم على قيام ثوروس بالدفاع عن قيليقية وأنطاكية —

Michel le Syrien, op. cit., p. 349.

(١)

Schlumberger, op. cit., p. 55.

(٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 350.

(٣)

Sempad, op. cit., p. 621.

(٤)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

(٥)

أثناء قيام رينو بمهاجمة قبرص - إذا ما تعرض الأرمن للهجوم من قبل القوات البيزنطية برا كما هو مألوف لأن حدود قيليقية تتاخم حدود الامبراطورية البيزنطية، وأن الامارة الأرمنية تتعرض قبل امارة أنطاكية لهجمات الجيش الهينظي، لذلك يكون قيام ثوروس بمهمة الدفاع عن قيليقية وأنطاكية أجدى وأصوب من الناحية العسكرية من قيامه بقيادة عملية الهجوم على قبرص .

وبعدما أعد رينو وثوروس كافة الترتيبات اللازمة للهجوم والدفاع قاد رينو القوات الأنطاكية الصليبية وما انضم إليها من القوات الأرمنية وأبحر إلى قبرص على ظهر السفن التي جمعها رينو لهذا الغرض ، وسرعان ما رست الحملة على شاطئ الجزيرة (١) . وفي الوقت نفسه كانت أنباء هذه الحملة قد وصلت إلى مسامع سكان الجزيرة والقائمين على أمرها عن طريق بعض الصليبيين من أهالي أنطاكية (٢) . وعلى ما يبدو أن أخبار الحملة وصلت إلى المستولين عن الجزيرة قبل وصول رينو بوقت قصير . ويروى لنا المؤرخ البيزنطي كيناموس أنه في لحظة رسو رينو وقواته كان يحكم جزيرة قبرص جان كومنينوس ابن أخى الامبراطور مانويل، ويتولى ميخائيل باراناس قيادة القوات البيزنطية في الجزيرة ، وقد قاما الاثنان بالاستعداد لمقاومة القوات المهاجمة وجمعا كافة القوات البيزنطية التي بالجزيرة، وأتجه ميخائيل باراناس

(١) لم تشر المصادر العربية إلى هذه الحملة واختلف المؤرخون حول تاريخ احداث هذا الهجوم فقد سجلها المؤرخ الأرميني جريجوار في أحداث عام ١١٥٩ - ١١٦٠ م كإرواح ميخائيل السرياني في عام ١١٥٥ - ١١٥٦ م وأشار اليها المؤرخ سباد في عام ١١٥٤ - ١١٥٥ م أما وليم الصوري فقد بين أحداثها في عام ١١٥٥ م . والأرجح على ضوء الأحداث السابقة واللاحقة أن هذا الهجوم وقع في ربيع عام ١١٥٦ م أنظر :

Runciman, op. cit., II, p. 347.

William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

لملاقاة رينو بينما ظلت بعض القوات البيزنطية في العاصمة نيقوسيا Nicosia تحت إمرة جان كومنينوس. وعندما اشتبكت القوات البيزنطية مع قوات رينو انتصرت القوات البيزنطية في بادئ الأمر ولكن القوات الصليبية الأرمينية ما لبثت أن انتصرت على القوات البيزنطية ووقع ميخائيل في الأسر (١). وعلى ما يبدو لم يكن انتصار القوات البيزنطية انتصارا بالمعنى المفهوم فقد كان لا يتعدى عملية عرقلة انزال القوات الصليبية الأرمينية إلى شاطئ الجزيرة فقد كانت القوات البيزنطية من القلة لمواجهة رينو وقواته (٢)، والمهم أنه بعد ما علم جان كومنينوس بوقوع ميخائيل في الأسر أسرع من نيقوسيا للتصدي لقوات رينو إلا أنه فشل في هذه المهمة ووقع هو الآخر في الأسر وانضم إلى ميخائيل باراناس (٣). وتشير هذه الرواية إلى النصر السريع الذي أحرزه رينو على القوات البيزنطية ووقوع حاكم الجزيرة وقائد قواتها في الأسر. ويؤيد هذا النصر ما رواه لنا ولیم الصوري من أن القوات البيزنطية تجمعت لمقاومة رينو وقواته ولكن القوات الصليبية تمكنت من احراز النصر وشتت القوات البيزنطية تماما ولم يجرؤ أحد بالجزيرة على مقاومة القوات الصليبية التي اجتاحت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها دون مقاومة أو معارضة، وقاموا بتخريب المدن والقلاع وهاجموا أيضا أديرة الرهبان والراهبات واعتلوا على الراهبات وسطوا على ما بالأديرة من الذهب والفضة وما حوته من كنوز، وظلوا يهبون الجزيرة لعدة أيام متشجيعين بعدم وجود أية مقاومة بالجزيرة. وتميزت أعمالهم بالعنف

Cinnamus, op. cit., p. 179.

(١)

Schlumberger, op. cit., p. 60.

(٢)

Cinnamus, Ibid, Rey, op. cit., p. 371.

(٣)

والشراسة دون رحمة ودون تفرقة في السن أو الجنس وسلبوا كل ما وقع تحت أيديهم وبصرم (١) .

ويفسر لنا المؤرخ الأرمني سمباد بعض أعمال العنف التي قام بها رينو فذكر أن الصليبيين اجتاجوا جزيرة قبرص ونهبوا القرى واستولوا على ما بها من الماشية والأغنام، كما قاموا بالقبض على العديد من سكان الجزيرة سواء أكانوا من رجال الدين أو العلمانيين وصلموا آذانهم وجدعوا أنوفهم (٢) كما سجل لنا ميخائيل السرياني أن الصليبيين نهبوا الجزيرة وأجبروا الأهالي على دفع الفدية عن أنفسهم وعن دوابهم كما احتجزت القوات الصليبية بعض النبلاء ورجال الدين حتى يتم دفع الفدية التي قررها رينو عليهم (٣) . أما المؤرخ جريجوار فقد روى أن رينو فاجأ سكان الجزيرة العزل من السلاح وعاملهم معاملة المسلمين - أي معاملة الأعداء - ودمر مدنهم وقراهم وطردهم من منازلهم واستولى على ثرواتهم وجدع أنوف وصلم آذان رجال الدين (٤) .

ولعل فيما رواه المؤرخون تصوير واضح للأعمال البربرية التي قام بها رينو والقوات التي أبحرت معه لمدة ثلاثة أسابيع (٥) . ولم يغادروها إلا بعدما أصبح كل شيء بالجزيرة منهوبا ومحرقا، ولعل ما دفع رينو إلى التعجل بالعودة إلى أنطاكية خوفا من وصول بعض قطع الأسطول البيزنطي لنجدة الجزيرة واغاثتها . عاد رينو إلى امارته ومعه جان كومنينوس وميخائيل باراناس وعدد

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 254; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 147.

Sempad, op. cit., p. 620.

Michel le Syrien, op. cit., p. 349.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 168.

Runciman, op. cit., II, p. 187.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

كبير من الرهائن معظمهم من رجال الدين وكبار الموظفين البيزنطيين والقضاة وكبار الملاك وأثرياء الجزيرة؛ يضاف إلى ذلك كميات وافرة من الغنائم التي اشتملت على الذهب والفضة والأفشة الثمينة والأغنام والماشية ومحاصيل الجزيرة؛ وبمعنى آخر كافة ثروات الجزيرة الأثرية والتجارية والزراعية والصناعية، أما بالنسبة للأسرى والرهائن فلم يطلق رينوسراحهم إلا بعد حصوله على الفدية، كما أرسل رينو بعض المشوهين من أهل قبرص إلى الامبراطور مانويل على سبيل السخرية والاستهزاء (١).

ولقد كانت حملة رينو على جزيرة قبرص موضع استنكار الصليبيين بصفة عامة (٢)، وسيكون لها عدة نتائج ستظهر آثارها فيما بعد (٣) فلقد كان الامبراطور البيزنطي مانويل مشغولاً في هذا الوقت بالصراع ضد روجر الثاني ملك صقلية في محاولة لاعادة النفوذ البيزنطي على إيطاليا مرة أخرى، وكذلك ضد البنادقة الذين انضموا إلى روجر (٤)، فعندما علم بأمر الحملة التي قادها رينو بالتعاون مع ثوروس على قبرص وأعمال السلب والنهب والتخريب التي ألحقها بالجزيرة والسكان غضب غضباً شديداً ولم يكن يوسعه الانتقام من ثوروس ورنيو في هذا الوقت (٥)، وأرجأ عملية الانتقام لوقت مناسب.

لم تنتعش جزيرة قبرص لفترة من الزمن بعد التخريب الذي أحدثته قوات رينو والقوات الأرمنية المتحالفة معه؛ وأكتمل هذا التخريب بما وقع

Schlumberger, op. cit., 62.

(١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥١، قبرص والحروب الصليبية ص ٢٢

(٣) أنظر مايل ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٤) عمر كمال توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٢-١٤٤.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 186; Sempad, op. cit., p. 620.

(٥)

لها من زلزال في عام ١١٥٧ م / ٥٥٢ هـ (١) . وهناك نتيجة أخرى لحملة رينو على جزيرة قبرص ، وهي أن استخفاف الأمير رينو بالامبراطورية البيزنطية وتجروءه على مهاجمة الجزيرة وتمكنه من انزال أفدح الخسائر بالقوات البيزنطية وعدم امكان الامبراطور البيزنطي مانويل التصدي لهذه الأعمال في حينه قد شجع بعض القوات الفاطمية على مهاجمة الجزيرة . ويروي ابن ميسر في احداث عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م أن بعض العساكر الفاطمية هاجمت جزيرة قبرص وعادت بكثير من الأسرى وامتلأت الأيدي بالغنائم وكان من بين الأسرى أحد الأمراء البيزنطيين الذي أكرمه الوزير الفاطمي طلائع ابن رزديك (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وأعادته إلى القسطنطينية (٢) . وإذا كان في إعادة الوزير الفاطمي للأمير البيزنطي إلى العاصمة البيزنطية ما يشير إلى عدم رضا القائمين بأمر مصر على ما قامت به العساكر الفاطمية بالاغارة على جزيرة قبرص (٣) . فان ذلك يشير لنا أيضا إلى أي مدى كان الاستخفاف بالامبراطورية البيزنطية حتى تهاجمها العساكر المصرية دون تعليمات من قيادتها .

وبهذه الأحداث تنتهي مرحلة من مراحل السياسة البيزنطية في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي وهي الدبلوماسية التي أتبعها الامبراطور مانويل لضرب قوى المنطقة ببعضها دون تدخل عسكري من جانبه . ويتضح لنا مدى الفشل الذريع الذي أصيبت به الامبراطورية البيزنطية عندما حارب السلاجقة لحساب الامبراطورية ، وعجزهم عن القضاء على الأمير الأرمني ثوروس ، وما شهدناه من انقلاب رينو أمير أنطاكية على الامبراطور مانويل وقيام رينو بالتعاون

Runciman, op. cit., II, p. 248.

(١)

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٨ .

Runciman, op. cit., II, p. 348.

(٣)

أو بالتحالف مع ثوروس — الذى كان يحاربه رينو بتحريض من الإمبراطور البيزنطى — ويتفقان على مهاجمة الممتلكات البيزنطية حيث كانت جزيرة قبرص وما أصابها ونهب ثرواتها ثمنا للصدقة (١) التى تمت بين رينو وثوروس . وإذا كانت هذه الفترة من حكم مانويل قد تميزت بعدم التدخل العسكرى البيزنطى وتقلص النفوذ البيزنطى فى الشرق فإن المرحلة المقبلة تميزت بالتدخل العسكرى للقوات البيزنطية وازدياد النفوذ البيزنطى حتى بلغ أوج قمته فى تلك الفترة التالية من عهد الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول .

سجده الباحث عماد أمير ونسقه وفخرسه جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

(١) عندما استعد الصليبيون وعلى رأسهم بلدوين ورينو لمهاجمة المسلمين فى رمضان عام ٥٥٢ هـ أكتوبر ١١٥٧ م «أرسلوا إلى الأمير ثوروس يدعونه بأسم الصداقة للانضمام إلى جانبهم لمحاربة نور الدين وقد حضر ثوروس وانضم ومن معه من القوات الأرمينية إلى الصليبيين وقاموا بالهجوم على شيزر . أنظر : William of Tyre, op. cit., II, p.p. 265—268. راجع أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٤٩ — ٣٥٠ ، ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ورقة ٧٢ أ .

الفصل الرابع

الى ١٧٠

ذروة النفوذ البيزنطى فى الشرق

(١١٥٨ - ١١٦٢ م / ٥٥٣ - ٥٥٧ هـ)

- ١- مصاهرة الملك بلدوين للامبراطور مانويل .
- ٢- معاهدة الامبراطور مانويل للسلاجقة .
- ٣- مهاجمة القوات البيزنطية اقليم قيليقية وهروب ثوروس .
- ٤- خضوع رينو أمير أنطاكية للامبراطور مانويل .
- ٥- خضوع ثوروس للامبراطور مانويل .
- ٦- دخول مانويل مدينة أنطاكية .
- ٧- استعداد القوات البيزنطية والصليبية لقتال المسلمين .
- ٨- عقد الهدنة بين مانويل ونور الدين .
- ٩- حروب مانويل مع السلاجقة وانتصار القوات البيزنطية .
- ١٠- زواج مانويل من الأميرة ماريا الأنطاكية .
- ١- زيارة السلطان قلیج أرسلان للقسطنطينية .

في الوقت الذي كان فيه الأمير رينو صاحب أنطاكية يتناصب الامبراطور البيزنطي مانويل العداء ، حدث تحول كبير في السياسة الصليبية بصفة عامة تجاه الامبراطورية البيزنطية . فقد أدرك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن الصليبيين لا يستطيعون مقاومة القوات الاسلامية بسبب ضعف القوى الصليبية وانشقاق الأمراء الصليبيين على أنفسهم ، كما أيقن بلدوين أنه لا بد من قوى خارجية تساند الصليبيين وتشد أزهم ضد نور الدين الذي ازداد نفوذه يوما بعد يوم (١) . و يروى ولیم الصوري أن الملك بلدوين والصليبيين بصفة عامة تطلعوا إلى الامبراطورية البيزنطية باعتبارها أغنى دول العالم في هذا الوقت وأن بوسع الامبراطورية انقاذ الامارات الصليبية من حالة اليأس واليؤس التي تسيطر على الصليبيين ، يضاف إلى ذلك أن الأمن والسلام لا يتحققان للامارات الصليبية إلا بالتحالف مع الامبراطورية البيزنطية (٢) . ويتضح من ذلك أن الصليبيين حاولوا الاستفادة من ثروات الامبراطورية البيزنطية في دعم الكيان الصليبي والاستعانة بالقوى البيزنطية في حروبهم ضد المسلمين ، وهذا يدل على ضعف الموارد الاقتصادية والعسكرية الصليبية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية وكذلك بالنسبة للمسلمين . وهذا أمر طبيعي ونتيجة حتمية للكيان الصليبي الدخيل الذي استطاع أن يفرض نفسه على المنطقة بقوة السلاح ، وكان على القادة الصليبيين أن يدركوا هذه الحقيقة ان أجلا أو عاجلا . ولعل ما جعل الصليبيون يشعرون بهذه الحقيقة في هذا الوقت هو أن الغرب الأوربي الذي يساند الوجود الصليبي — أصبح مشغولا بمشاكله الداخلية عن الاستجابة لنداء الصليبيين (٣) ، لامتدادهم بالمسال والسلاح ، وحتى إذا استجاب الغرب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٢ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 265.

(٢)

Setton, op. cit., I, p. 542.

(٣)

الأوربي جزئيا إلى طلبات الصليبيين، فإن هذه المساعدات أصبحت محدودة الأثر بعد النهاية الفاشلة للحملة الصليبية الثانية .

وعلى هذا الأساس كان التحول في السياسة الصليبية تجاه الامبراطورية البيزنطية والعمل على التقرب إليها ، بدلا من سياسة العداء التي سار عليها الصليبيون منذ أن وطأت أقدامهم الأراضي المقدسة . ولقد كان إدراك الملك بلدوين لهذه الحقيقة واحساسه بواقع الأمر هو ما جعله غير راضى عن تصرفات رينو أمير أنطاكية عندما هاجم جزيرة قبرص ، وعدم موافقة الملك أيضا على ضم مدينة شيزر لامارة أنطاكية عندما دخلها الصليبيون في أكتوبر عام ١١٥٧ م / رمضان ٥٥٢ هـ . فقد كان بلدوين يرى منحها إلى ثيرى كونت فلاندر Thierry Count Flander ، وتكون المدينة تابعة لمملكة بيت المقدس ، وكان انسحاب الصليبيين من مدينة شيزر وتركها على حالها للمسلمين نتيجة الخلاف بين الملك والأمير (١) وتوضح لنا هذه الحادثة ما كان من أثر انشقاق الصليبيين على أنفسهم ، كما أوضحت للملك بلدوين أن الأمير رينو لا يعمل إلا لمصلحته الشخصية ، وأن من أهداف مسعى بلدوين للتقرب من الامبراطورية البيزنطية الحد من أطماع رينو أمير أنطاكية والاشارة إلى الامبراطور مانويل بعدم الرضا عما قام به رينو تجاه جزيرة قبرص (٢) وهنا يبدو واضحا أن الملك بلدوين قد شعر بالندم وأحس بأنه أخطأ عندما

(١) عن ذلك ولزيد من التفاصيل أنظر : ابن انقلانى : المصدر السابق ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٦ ،

William of Tyre, op. cit., II, pp. 265—8; A.S.C., P. 302.

(٢) حول هذه الفكرة راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٢٢ -

وافق على زواج الأميرة كوندستاس من رينو ليحكم بموجب هذا الزواج إمارة أنطاكية ويجلب له كل هذه المتاعب .

ولكل هذه الاعتبارات وبعدها تبودلت فكرة تقارب أو تحالف الصليبيين مع الإمبراطورية البيزنطية (١) ، اتخذ الملك بلدوين قراره بالزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات باعتبار ذلك من أحسن الوسائل لربط الإمارات الصليبية بالإمبراطورية البيزنطية . وقد التفت الأمراء الصليبيين حول اتجاه الملك بلدوين لمصاهرة الإمبراطور مانويل وتم الاتفاق على إرسال سفارة إلى القسطنطينية على رأسها أتارد Attard أسقف الناصرة ، ويصحبه في هذه المهمة هفري أف تورون Humphrey of Toron ، وجوسلين بيسلوس Joscelin Pisellus ووليم أف باريس William of Barris ، لتجمل إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل رغبة الملك بلدوين ، وقد زودت هذه السفارة بالصلاحيات اللازمة لإنجاز هذه المهمة واستعدت للإبحار في سبتمبر عام ١١٥٧ م (٢) .

وصلت السفارة إلى العاصمة البيزنطية ونزلت في ضيافة الإمبراطور مانويل ، وحدث أن مات الأسقف أتارد في القسطنطينية وتولت بقية السفارة العمل على إنجاز المهمة التي كلفت بها . وبعد مفاوضات طويلة حول هذا المشروع وافق الإمبراطور مانويل على فكرة الزواج التي تمهد سبل التحالف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية ، وما يتبع ذلك من النتائج التي

Archer & Kingsford, The Crusades, p. 228.

(١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 265.

(٢)

تنسحب بدورها على بقية الامارات الصليبية، وتمكن الامبراطور مانويل من تحقيق أطماعه في أنطاكية (١) .

رشح الامبراطور مانويل ثيودورا Theodora ، ابنة أخيه اسحق -
المكتملة الأنوثة رغم أنها كانت في الثالثة عشر من عمرها ، للزواج من الملك
بلدوين ، وأتفق على أن تكون بائنة العروس مائة ألف هيربر (٢) Hyperpere
من الوزن المعتاد بالإضافة إلى عشرة آلاف هيربر أخرى كمصاريف للزواج ،
يضاف إلى ذلك أربعة عشر ألف هيربر تكاليف جهاز العروس كالتياب
والجواهر ولوزم السفر وما شابه ذلك ، كما أرسل الملك بلدوين ضمانا بخط
يده للامبراطور يمنح فيه العروس بموجبه مدينة عكا والمناطق المحاورة لها في
حالة وفاته (٣) ، ويكون لها الحق في التمتع بها مدى حياتها ، وعلى ذلك أعدت
الترتيبات اللازمة من كلا الجانبين لاتمام الزواج (٤) .

٨٠٨ \ و وصلت العروس إلى مدينة صور في شهر سبتمبر ١١٥٨ م / شعبان ٥٥٣هـ

- (١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٨٥ .
(٢) هيربر : أو نوميسما Nomisma أو صلدي Solidi وكان يضرب من الذهب ويزن
حوالي ٤,٥ جرام أو من نوع يغلب فيه البرنز ويعدل ٢/٣ الهيربر الذهبى ، ويلاحظ أنه لم
تضرب عملة ذهبية في عهد الامبراطور مانويل . أنظر : C.M.H., Vol., IV, p. 348.
Runciman, The Byzantine Civilization, pp. 174—5.
ولمزيد من التفاصيل عن العملة البيزنطية في هذه الفترة أنظر :
Hendy, M., Coinage and Money in the Byzantine Empire 1081—1261,
cf. Dumbarton Oaks papers 1969. 111—130.
(٣) لم تنجب ثيودورا أطفالا من بلدوين وبعد وفاته عام ١١٦٢ م ارتبطت بعلاقة غير شرعية
مع ابن عمها أندرونيق كومنين وغادرت عكا وقد أثمرت هذه العلاقة عن ولد يدعى الكسيوس
وينت تدعى ايرين . أنظر : Rey, E., Les Seigneurs de Barut, cf. R.O.L.,
Vol. IV, p. 12 ff.
William of Tyre, op. cit., II, p. 274. (٤)

ثم ما لبثت أن توجت بعد أيام ملكة على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتولى
إيمرى بطريك أنطاكية المطرود القيام بمراسم زواج بلدوين وثيودورا نظرا
لعدم إستلام بطريك بيت المقدس الحديد مهام منصبه حتى ذلك الوقت (١) ،
ولعل في التعجل بقيام البطريك إيمرى بمراسم الزواج والتتويج ما يشير إلى
تكريم هذا البطريك الذى سبق أن عذبه رينو أمير أنطاكية وأيضا الإشارة إلى
عدم رضا بلدوين عن تصرفات أمير أنطاكية ، ومن جهة أخرى ترضية
واضحة للأمبراطور مانويل .

سابع زواج بلدوين

ولقد ترتب على هذا الزواج عدة نتائج ، أن النفوذ البيزنطى الذى كان
متأرجحا بين القوة والضعف فى اماره أنطاكية ثم ما لبث أن تلاشى بعدما
تولى رينو حكم الامارة وهاجم جزيرة قبرص (٢) ، عاد هذا النفوذ مرة
أخرى ليظهر بصورة أوضح عما كان عليه فى اماره أنطاكية ، وليظهر فى مملكة
بيت المقدس ، أكبر الامارات الصليبية بالشام ، برضاء تام من الملك والنبلاء
لا بقوة السلاح والتهديد كما كان هو الحال فى اماره أنطاكية ، يضاف إلى (٣)
ذلك أن الصليبيين بصفة عامة اطمأنوا إلى مساعدة الامبراطورية البيزنطية
للامارات الصليبية وهى الفكرة التى قام على أساسها مصاهرة الامبراطور
مانويل ويؤكد ذلك ما رواه المؤرخ جريجوار من أن الامبراطور مانويل وعد
الملك الصليبي بلدوين بالتقدم إلى الشام لمساعدة الصليبيين (٣) وهو ما قام به
مانويل بعد ذلك بقليل ، يضاف إلى ذلك انزعال رينو عن بقية الأمراء
الصليبيين وترقبه فى خوف ما قد يحدث نتيجة لهذا التحالف .

William of Tyre, op. cit., II, p. 272.

(١)

Brook, A History of Europe, p. 481.

(٢)

Gregoire le Pretre, op. cit., 186.

(٣)

كان طلب الملك بلديون لمصاهرة الامبراطور مانويل قد وصل في الوقت المناسب ، إذ كان مانويل قد انتهى من مشاكله في الغرب الأوربي بعدما عقد الهدنة مع وليم الأول William I ملك صقلية وفرض الصلح على هنفاريا (١) وأخذ يفكر في العودة مرة أخرى إلى الاهتمام بأمور الشرق وأن يثار من جيرانه الذين طالما اعتدوا على حقوق الامبراطورية ، وكانت مصاهرة الملك بلديون من شأنها مساعدة الامبراطور مانويل على تحقيق أهدافه (٢) . وإذا كان طلب الزواج قد وصل للامبراطور في سبتمبر عام ١١٥٧م ولم يتم الزواج إلا في سبتمبر عام ١١٥٨ م ، فإن هذا العام كان فترة دراسة ومتابعة للأحداث التي جرت في الشرق واستعدادا من جانب الامبراطور مانويل حتى تحن الفرصة المناسبة للامبراطورية البيزنطية لتحقيق أهدافها .

الهدف من مانويل

كانت أهداف الامبراطور مانويل تتركز في هذه الفترة في إخضاع الأمير الأرمني ثوروس الذي بسط نفوذه على قيليقية ، وإخضاع رينو أمير أنطاكية الذي تمرد على الامبراطورية البيزنطية وهاجم أملاكها . وكان على الامبراطور مانويل مراقبة تحركات السلاجقة في هذا الوقت بعدما أوشكت الهدنة المعقودة بينهما على الانتهاء (٣) وكان عليه تجنب تجدد القتال مع السلاجقة حتى يتمكن من تحقيق أهدافه . وبدأت الأخطار تلوح في الأفق عندما قام الأمير ثوروس بإعادة قلعة برتونك إلى السلاجقة في أخريات عام ١١٥٧ م بهدف الحصول على رضى السلطان قلیج أرسلان (٤) ، وقد أثار التقارب بين السلاجقة

Diehl, Histoire de L'Empire Byzantin, pp. 152, 154.

(١)

Chalandon, op. cit., p. 441.

(٢)

(٣) عقدت الهدنة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة في عام ١١٤٦ م لمدة اثني عشر عاما

تنتهى في عام ١١٥٨ م .

Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 181—2.

(٤)

والأرمن مخاوف الأمبراطور مانويل ولعله رأى أن الأمير ثوروس قام بالتودد إلى السلاجقة لعلهم بالمفاوضات الدائرة بشأن زواج الملك بلدوين، وأن ثوروس يقصد من وراء ذلك التحالف مع السلاجقة ضد الأمبراطورية البيزنطية . ولقد تحققت مخاوف الأمبراطور مانويل في العام التالي ولكنها لم تكن من جانب السلاجقة والأرمن بل كانت من جانب السلاجقة وآل دانشمند، فقد انتهى أجل الهدنة المعقودة بين السلاجقة والأمبراطورية البيزنطية وبدأت القوات السلجوقية تستعد للاغارة على الممتلكات البيزنطية، وشارك آل دانشمند السلاجقة الشعور نفسه . وعلى ما يبدو أن المشاكل بين السلاجقة وآل دانشمند قد نجمت في هذا الوقت، والأرجح أن الصلح ان تم بينهما . ولقد كان هذا الصلح على حساب الامبراطورية البيزنطية، ويروى لنا المؤرخ البيزنطي كيناموس أن قلعج أرسلان انتزع في هذا الوقت مدينتي سليوقية ولارنندا الواقعتين في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى بينما، استطاع ياغي أرسلان حاكم سيواس التوسع في الاقليم الشمالي الشرقي في الوقت نفسه أيضا واستولى على مدينتي يونه Unieh وبافرا Bafra الواقعتين في اقليم بنطس (١) . ولما كان الامبراطور مانويل يعمل على عدم محاربة السلاجقة في هذا الوقت ليتفرغ لاختضاع ثوروس ورينو بعد وقت قريب، لذلك نراه يرسل الكسيوس جيفارد إلى قلعج أرسلان وياغي أرسلان بهدف عقد الصلح معهما . وقد وفق الكسيوس في مسعاه وأعاد السلاجقة وآل دانشمند المدن التي استولوا عليها وتم عقد الهدنة بينهم ، ولاشك أن الأمبراطور مانويل قد ضحى ببعض الأموال والهدايا لارضاء السلاجقة وآل دانشمند (٢) ليغتم الفرصة التي كان ينتظرها منذ سنوات .

Cinnamus, op. cit., p. 176.

(١)

Chalandon, op. cit., p. 435.

(٢)

وبعد ما عقدت الهدنة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة وآل دانيشمنند
التي على ما يبدو تمت في صيف عام ١١٥٨ م، واطمأن مانويل من ناحية قلعج
أرسلان وباغى أرسلان بدأ يستعد لتنفيذ ما خطط له لاختضاع ثوروس وريينو
والتقدم بقواته مع القوات الصليبية لمحاربة المسلمين معتمدا على التحالف الذي
تم بينه وبين بلدوين ملك مملكة بيت المقدس .
(٢) ^{مراجعة ما سبق في تاريخ بلدوين وريينو}
كان أول ما قام به الامبراطور البيزنطي مانويل . بعد مهادنة السلاجقة
وآل دانيشمنند واتمام مراسم زواج ثيودورامن بلدوين ، هو الاستعداد للزحف على
قيليقية (١) ، ولقد كان للامبراطور مانويل تجارب عديدة مع الأمير ثوروس
فقد قام ثوروس بأسر توماس حاكم قيليقية كما نجح أيضا في هزيمة القائد
البيزنطي أندرونيكوس ومن معه من القوات البيزنطية والقوات الأرمنية التي
انضمت إليه ، كما فشل مانويل في استغلال السلاجقة وريينو أمير أنطاكية—
للانتقام من ثوروس ، كما استطاع ثوروس أن يضم رينو إلى جانبه ويتفقا
على مهاجمة الأملاك البيزنطية . وكان على الامبراطور مانويل أن يسلك
سبيلا ملتويا سياسيا وعسكريا حتى يتمكن من دخول قيليقية والقضاء على
الأمير ثوروس ، لذلك لجأ مانويل إلى عنصر المفاجأة . ولكي يحقق مانويل
فكرته هذه أشاع أن القوات البيزنطية متقدمة في آسيا الصغرى لقتال
السلاجقة (٢) ، حتى يطمئن إلى حد كبير لعدم استعداد ثوروس لمواجهة مثل
هذه الظروف .

تحركت القوات البيزنطية بقيادة الامبراطور مانويل في طريقها إلى

Michel le Syrien, op. cit., p. 352.

(١)

Cinnamus, op. cit., p. 179.

(٢)

قيليقية (١). واختلفت الروايات التاريخية حول تاريخ خروج الامبراطور مانويل بقواته من العاصمة البيزنطية . ويروى ولیم الصوري أن مانويل ظهر على رأس قواته في أرمينية في بداية ديسمبر عام ١١٥٨ م / الثامن من ذي القعدة عام ٥٥٣ هـ تقريبا (٢)، ويستشف مما رواه المؤرخ جريجوار أن مانويل وصل إلى قيليقية في سبتمبر من العام نفسه / الرابع من شعبان - الخامس من رمضان من نفس العام الهجري (٣) ، وذكر ابن القلانسي أن خروج مانويل من القسطنطينية كان في شهر ذي الحجة عام ٥٥٣ هـ / الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١١٥٨ م - الثاني والعشرين من يناير ١١٥٩ م (٤) ، والباحث يعيل إلى الأخذ برواية المؤرخ جريجوار باعتباره معاصرا للأحداث وشاهد عيان وأرميني الأصل واهتم بأحداث قيليقية ، يضاف إلى ذلك أن العادة جرت أن تتحرك القوات البيزنطية في الخريف لتحسن الجو في هذه الفترة وليس في الشتاء خاصة وأن مانويل مقبل على عمل عسكري ضخم ويجب عليه اختيار المناخ المناسب لتحرك القوات البيزنطية حتى تحتفظ بكفاءتها القتالية ، وعلى ذلك يكون من الأرجح أن الامبراطور تحرك من القسطنطينية في سبتمبر عام ١١٥٨ م وفي أعقاب اخار ثيودورا وحاشيتها إلى صور .

ولكى ينفذ مانويل خطته ويموه على أهداف الحملة أنجه إلى فريجيه ليتظاهر بمحاربة السلاجقة ، وعلى ما يبدو أن ظهور مانويل في هذه المنطقة كان

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ٧ ب .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 275.

(٣) يروى المؤرخ جريجوار أن مانويل ظل في قيليقية سبعة أشهر ثم توجه بعد ذلك إلى أنطاكية

فدخلها في أبريل عام ١١٥٩ م . أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 191.

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، أنظر أيضا أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص

بأتفاق مسبق مع قلعج أرسلان تضمنته الهدنة التي عقدها الكسيوس جيفارد منذ قليل، وأن كان ذلك لا يمنع وقوع بعض المناوشات مع بعض القبائل السلجوقية المتنقلة التي تجوب الاقليم . ولم يكثرث مانويل لمثل هذه المناوشات فلم يكن أمامه سوى التقدم بأسرع وقت ممكن لمفاجأة ثوروس (١)، واستكمالاً لخطّة الامبراطور مانويل التي اعتمدت على السرية والمفاجأة اتخذت القوات البيزنطية طريقها من فريجية إلى أضاليا ، ومن هناك أرسل مانويل سرا إلى الكسيوس كاسيانوس Alexuis Kassianos حاكم مدينة سلوقية يطلب منه اعداد قواته لتكون على أهبة الاستعداد للقتال ، وفي الوقت نفسه ترك مانويل معظم قواته في أضاليا وتحرك بالقلّة للباقية إلى سلوقية، وعندما وصل إلى هناك لم يجد القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة مستعدة للقتال (٢). وعلى ما يبدو كان وصول مانويل ومن معه من القوات أسرع من قيام حاكم مدينة سلوقية بتنفيذ أوامر الامبراطور وإعداد القوات للقتال .

كانت المراحل الأخيرة من خطة مانويل لمهاجمة ثوروس ، تجنب تحريك القوات البيزنطية بقدر المستطاع عندما اقترب من قيليقية ، لذلك ترك معظم القوات البيزنطية في أضاليا واعتمد في قتاله المقبل مع ثوروس على القوات البيزنطية الموجودة في سلوقية . ولكنه عندما وصل إلى سلوقية لم يجد القوات البيزنطية مستعدة للقتال وكان على مانويل أن يتصرف بسرعة قبل أن تتسرب أخبار الحملة إلى ثوروس . لذلك أخذ معه الكسيوس كاسيانوس وما تحت يديه من القوات البيزنطية المستعدة للقتال وأتجه إلى قيليقية ، وفي الوقت نفسه أرسل إلى بقية القوات البيزنطية التي تركها في أضاليا يطلب منها

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

(١)

Cinnamus, op. cit., p. 179.

(٢)

اللاحق به . ويروى ولیم الصوری أن الامبراطور البيزنطي مانويل دخل قيليقيّة فجأة وبطريقة لا يمكن تصديقها وأن السرعة التي وصل بها مانويل ومن معه من القوات قد أذهلت الجميع (١) . ولقد قدر المؤرخ جريجوار هجوم القوات البيزنطية التي دخلت قيليقيّة في هذا الوقت بحوالي خمسمائة ألف مقاتل (٢) . وما لاشك فيه أن المبالغة واضحة بصورة صارخة في تقدير مثل هذا العدد ، وعلى أية حال فإن ذلك يشير إلى كثرة القوات البيزنطية التي تدفقت على قيليقيّة .

ورغم السرية التي أحاطت الحملة لضرب ثوروس في عقر داره في — طرسوس مقر إقامة الزعيم الأرمني ، فإن تحركات القوات البيزنطية قد وصلت إلى مسامع ثوروس في اللحظات الأخيرة وتمكن من الإفلات بأعجوبة من أيدي القوات البيزنطية (٣) ويروى المؤرخ البيزنطي كيناموس أن ثوروس علم في اللحظات الأخيرة بوصول القوات وعلى رأسها الامبراطور مانويل فقد أبلغه أحد الصليبيين الذين يأتون لزيارة الأراضي المقدسة سيرا على الأقدام بقدم الحملة وأن هذا الحاج الصليبي قد مر على قيليقيّة وتعرف على ثوروس ثم ما لبث أن غادر طرسوس في طريقه إلى القسطنطينية، ولما شاهد تجمع القوات البيزنطية لم يسر في طريقه بل عاد ليخبر الأمير ثوروس بما رآه (٤) . وعلى ما يبدو كان الأمير ثوروس يستضيف هؤلاء الحجاج الأوربيين وكان ذلك ما يساعده على التعرف منهم على أخبار الدول التي يمرون خلال أراضيها

William of Tyre, op. cit., II, p. 275.

(١)

Grgoire le Pretre, op. cit., p. 185.

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 276.

(٣)

Cinnamus, op. cit., p. 179.

(٤)

خاصة أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وربما ذهب إلى أبعد من ذلك واستعمل بعضهم كعيون على الامبراطورية البيزنطية بوجه خاص .

لم يكن دخول مانويل والقوات البيزنطية أرض قيليقية بالأمر الهين على الأمير ثوروس خاصة وأن اقامته في طرسوس تجعله في مواجهة الجيش البيزنطي القادم من سلوقية ، يضاف إلى ذلك أن الخطة التي أتبعها مانويل في مفاجأة ثوروس نجحت تماما وأصبح ثوروس على وشك الوقوع في قبضة مانويل. ولم يكن بوسع الأمير الأرمني سوى الفرار من أمام القوات البيزنطية التي تسلت بأعداد كبيرة إلى أرمينية (١) ، وعلى الفور جمع ثوروس كل أمواله وثرواته واصطحب معه زوجته وأولاده واثنان من أخلص أصدقائه هما توماس (٢) وجورجي Gorgy ولاذ بالفرار . وقد استطاع بعض فرسانه من اللحاق به ، ويضيف المؤرخ أن الجميع لجأوا إلى صحرة تسمى دادجيج (٣) Dadjig ، وهي من الأماكن المهجورة التي لم يطرقها أحد منذ وقت بعيد ، ولكن ثوروس ومن معه من الفرسان لم يتخذوا من هذا المكان مقرا دائما لاقامتهم ، بل ظل ينتقل ومن معه من الفرسان من مكان آخر حتى لا تتعرف القوات البيزنطية على مكانه فهام على وجهه في شعاب الجبال والغابات حتى تنكشف له الأمور مؤمنا بعدم قدرته على مواجهة القوات البيزنطية (٤) .

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 279.

(٢) ربما يكون توماس هذا هو ابن أخت ثوروس الذي تولى الوصاية على رويان بن ثوروس بعد وفاة الأخير عام ١١٦٨ م . أنظر : Sempad, op. cit., 622.

(٣) دادجيج : جبل في نواحي مدينة طرسوس في قيليقية . أنظر :

R.H.C. Doc. Arm. I, p. 815.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

(٤)

لم يعد الأمر صعباً على القوات البيزنطية في السيطرة على أرمينية بعد فرار الأمير ثوروس ، ولم يحاول الامبراطور مانويل اضاعة الوقت في تعقب ثوروس والبحث عنه ، بل جعل هدفه الأول السيطرة على الأماكن الهامة التي يحتمل أن تشكل نوعاً من المقاومة ضد القوات البيزنطية وكان أول ما سقط في أيدي القوات البيزنطية قلعة كاسترون Kastron الحصينة الواقعة في مدينة لاموس Lamos التي استسلمت بدون مقاومة ، كما عهد مانويل إلى قائده ثيودور فاتازس Theodore Vatazes باقتحام مدينة طرسوس ، وعندما وصل ثيودور إليها انزعجت حاميتها وظنوا أن الامبراطور قد أتى بنفسه لمهاجمتهم ولم يحاولوا الدفاع عن المدينة رغم حصانها ، ثم ما لبثت القوات البيزنطية أن انتشرت في قيليقية واستولت على مدنها الهامة مثل تل حملدون وعين زربة والمصيصة (١). وقد نجحت القوات البيزنطية في أسر الحاميات الأرمينية التي كانت تحمي البلاد بعد ما عجزوا عن التصدي للقوات البيزنطية التي فاجأتهم بالحصار ، وخلال شهرين تقريباً كانت القوات البيزنطية تسيطر تماماً على إقليم قيليقية . والواضح أن الامبراطور مانويل وقواته لم يجدوا أية مقاومة فعالة من قبل المواطنين الأرمن ، فلقد كان لعنصر المفاجأة وكبر حجم القوات البيزنطية وتولى الامبراطور بنفسه أمر قيادة الجيش البيزنطي يضاف إلى ذلك فرار ثوروس الذي كان له أبلغ الأثر في نجاح القوات البيزنطية في اجتياح إقليم قيليقية والسيطرة عليه دون صعوبة تذكر (٢) . ورغم ما كان يكنسه الامبراطور مانويل من كره للأمير ثوروس فإن ذلك لم ينعكس على الأرمن بصفة عامة ، ويروي المؤرخ جريجوار أن الامبراطور مانويل عامل المواطنين

Cinnamus, op. cit., pp. 180—181.

(١)

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٢ .

الأرمن مغامرة طيبة وأنه لم يلحق بالمواطنين أى ضرر أو أذى (١) ، وعلى أية حال فبعد هذا الاجتياح السريع التى قامت به القوات البيزنطية لاقليم قيليقية أقام الامبراطور مانويل معسكره عند مدينة المصيصة (٢) فى أوائل نوفمبر عام ١١٥٨ م / السابع من شوال عام ٥٥٣ هـ (٣) .

لم تكن السيطرة على قيليقية نهاية المطاف بالنسبة لأهداف الامبراطور مانويل ، فقد كان ثوروس لا يزال حرا طليقا وربما يحاول جمع قواته ومنازلة أو مفاجأة الامبراطور مانويل فى معسكره ، لذلك فان بقاء مانويل فى المصيصة كان يعنى أن الأمر لم ينته بالنسبة للأمير ثوروس . والواضح أن القوات البيزنطية كانت على أهبة الاستعداد لما عساه أن يحدث من قبل ثوروس . يضاف إلى ذلك أن الامبراطور مانويل ظل فى معسكره بالمصيصة ليخطط أيضا لعاقبة الأمير رينو على ما ارتكبه فى حق الأمبراطورية البيزنطية عندما خرج على طاعة الامبراطور مانويل وهاجم الأراضى البيزنطية وعلى ما اقترفت يده من جرائم فى حق سكان جزيرة قبرص . كما كان لبقاء مانويل فى قيليقية أهداف عسكرية أخرى ، ذلك أن مانويل على ما يبدو قد تعلم من والسده يوحنا عدم القيام بأية عمليات عسكرية فى نواحي الشام فى فصل الشتاء والانتظار حتى حلول الربيع ، وفى الوقت نفسه فان وجود القوات البيزنطية عند

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187. (١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 276. (٢)

وتروى المصادر العربية أن الامبراطور مانويل أقام معسكره فى مرج الديباج . أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ٧ ب . وتقع مرج الديباج على بعد عشرة أميال من المصيصة أنظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥١ .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187. (٣)

المصيصة وهي المدينة التي لا تبعد كثيرا عن أنطاكية كان من شأنه أن ينزل العرب في نفس رينو أمير أنطاكية، وكان على هذا الأمير أن ينتظر في فرع ما سيلحق به في الغد القريب .

وإذا كان تواجد الامبراطور مانويل وقواته في المصيصة جعل الأمير ثوروس عاجزا عن القيام بأي عمل عسكري ضد القوات البيزنطية يضاف إلى ذلك انزعاج الأمير رينو من المصير الذي ينتظره : فإنه قد أحيا الأمل في نفوس بعض الساخطين على رينو وعلى رأسهم إمري بطريك أنطاكية المطرود وبلدوين ملك مملكة بيت المقدس . ولقد استغل بلدوين الحقد الدفين الذي يكنه إمري للأمير رينو ووافق على طلب البطريك للتوجه لمقابلة الامبراطور مانويل . ولاشك أن بلدوين كان يعلم بنوايا البطريك وما عساه أن يطلبه من الامبراطور البيزنطي . توجه إمري إلى معسكر مانويل في المصيصة وعرض عليه أن يسلمه الأمير رينو (١) ولكن مانويل لم يوافق على طلب البطريك، ويرجع ذلك إلى نواح سياسية أكثر منها إلى نواح انسانية ، فلم يكن الامبراطور مانويل مشفقا على الأمير رينو إلى هذا الحد ، ولكن مانويل كان يعلم بما عساه أن يكون بعد ابتعاد أو عزل رينو عن إمارة أنطاكية وأغلب الظن أن الامبراطور البيزنطي مانويل فضل أن يبقى رينو أميرا لأنطاكية، وبلدوين وملكاً على مملكة بيت المقدس بدلا من أن يرى بلدوين ملكا على مملكة بيت المقدس وأميرا لأنطاكية (٢). ومعنى ذلك أن الامبراطور مانويل كان يرى في انشقاق الصليبيين على أنفسهم فرصة لدعم النفوذ البيزنطي في الإمارات الصليبية

نواحي سياسية
تتعلق بـ
السياسة
الديبلوماسية
البيزنطية

Cinnamus, op. cit., p. 182.

(١)

Chalandon, op. cit., p. 444.

(٢)

بالشام وأن من مصلحة الامبراطورية البيزنطية أن يظل هذا الخلاف قائما بين

الأمراء الصليبيين ^{عصوغ رينو} ^{عصوغ رينو}

وعلى ما يبدو أن الأمير رينو والأمير ثوروس قد حاولا دفع بعض
الأمراء البيزنطيين الذين اصطحبوا الامبراطور للتوسط في الصلح بينهما وبين
الامبراطور، ولكن مانويل رفض بشدة مثل هذه الطلبات. والواضح أن الأمر
لم يكن بهذه السهولة حتى يوافق مانويل على العفو عن رينو وثوروس حتى
لو كان لديه نية العفو فيما بعد وكان لابد أن يرفض مانويل وساطة العفو في
أول الأمر على الأقل امعانا في اذلال رينو وثوروس. ولما كان رينو يعلم
بنوايا الملك بلدوين نحوه لذلك كان يخشى وساطته عند الامبراطور مانويل (١).
لذلك قرر رينو أن يحل مشكلته بنفسه مع الامبراطور مهما كلفه ذلك من ثمن
فأرسل إلى مانويل يعرض عليه تسليم قلعة مدينة أنطاكية (٢). وقد رفض
مانويل هذا العرض أيضا الذي لا يتناسب اطلاقا مع ما قام به رينو من جرائم
في حق الامبراطورية. وقد سبب هذا الرفض مزيدا من الرعب للأمير رينو
خاصة وهو يرى القوات البيزنطية محتشدة على مقربة من امارة أنطاكية (٣).

وكان على الأمير رينو أن يتصرف بسرعة انقاذا لحياته بعدما تبين له
صلابة موقف الامبراطور وعدم تقبل فكرة العفو عنه، فقد كان الخطر ماثلا
أمامه وأنه ينتظر بين لحظة وأخرى وصول القوات البيزنطية إلى أنطاكية لتفتك
به في الوقت الذي كان يدرك فيه تماما عدم مقدرته على مقاومة القوات —
البيزنطية الضخمة التي تصاحب الامبراطور مانويل، ولقد كان في فهم

William of Tyre, op. cit., II, p. 276.

Cinnamus, op. cit., pp. 182—3.

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 148.

(١)

(٢)

(٣)

الأمير رينو لهذه الحقائق انقاذاً لحياته : والفرصة لازالت سانحة أمامه للقيام بأى عمل لارضاء غرور الامبراطور البيزنطى وأن الشروط التى تفرض عليه مهما كانت نتائجها تعتبر أهون من الشروط التى تفرض عليه إذ لحقت به الهزيمة على أبدى القوات البيزنطية (١) : أن بقى على قيد الحياة .

وفى خضم هذه الحوادث والأفكار التى ألتابت الأمير رينو جميع أعوانه وأنصاره وعرض عليهم الأمر بكافة جوانبه. وبعد دراسة الموقف من جميع الوجوه استمع رينو إلى جيرار Girard أسقف اللاذقية الذى أشار بتوجه رينو بنفسه إلى الامبراطور والعمل على استرضائه وطلب العفو منه : وقد استجاب رينو لرأى أسقف اللاذقية وأعد عدته واصطحب معه وفداً على مستوى عال فى مقدمتهم جيرار واتجهوا إلى معسكر مانويل فى المصيصة . وهناك تمكن رينو من الحصول على إذن من الامبراطور لمقابلته ، ولاشك أن ذلك قد تم بصعوبة بالغة وعلى مراحل متعددة ، وبعدما توسط بعض أعضاء رجال البلاط البيزنطى لدى الامبراطور مانويل . ولكى يظهر رينو ندمه وتوبته ومذلة للامبراطور مانويل سار عبر معسكر الامبراطور حاسر الرأس حافى القدمين مرتدياً قميصاً من الصوف قصير الأكمام حتى المرفقين واضعاً حول رقبته جبلاً وممسكاً بسن سيفه ليقدّم قبضته للامبراطور ، وصحب رينو فى هذه المسيرة المهينة والمذلة إلى أبعد حدود الاذلال حشد من الرهبان حفاه الأقدام حاسرى الرؤوس ، واستمر هذا المشهد حتى خيمة الأميراطور (٢) . ويروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أن الامبراطور مانويل كان جالساً على منصة عالية والتفت حوله حاشيته على شكل دائرة وكان يجلس مع الامبراطور

Runciman, op. cit., II, p. 252.

(١)

William of Tyre, op. cit., II, pp. 276—7; Cinnamus, op. cit., p. 182. (٢)

أمراء من مختلف بلدان الشرق وإماراته وقد عبدها المؤرخ وبلغ عددهم أحد عشر وفدا : يهنا منهم السلاجقة وآل دانشمند والأرمن وأتباع نور الدين (١). وقد يبدو الأمر واضحا بالنسبة للسلاجقة وآل دانشمند بعدما تعاونوا بالأمس مع الامبراطور مانويل . أما الأرمن فكان الأمير ثوروس لا يزال مخفيا عن أعين الامبراطور وأغلب الظن أن الأمراء الذين جلسوا إلى جانب الامبراطور هم الذين كانوا على ولاء سابق للامبراطورية البيزنطية وأكرههم ثوروس على الدخول في طاعته بعد أسر توماس الذي كان يشغل منصب حاكم قيليقية ، وهزيمة القائد البيزنطي اندرونيكوس الذي أرسله الامبراطور مانويل للانتقام لما حل بالأمير توماس ، أو الذين جلسوا مكرهين بعد ما اجتاحت القسوات البيزنطية بلادهم . أما اتباع نور الدين فقد يبدو الأمر غير مقبول إلى حد كبير فالمصادر التي تحت أيدينا لم تشر إلى أى اتصال بين الامبراطور مانويل ونور الدين حتى هذا الموقف ، وأن ما تم من اتصال بينهما أثناء إقامة الامبراطور في المصيصة كان في وقت لاحق وقبل رحيل مانويل إلى أنطاكية بوقت قليل (٢). وعلى ذلك لم يكن اتباع نور الدين من بين الأمراء الذين اجتمعوا لمشاهدة خضوع الأمير رينو .

وعلى أية حال فقد حدث أمام الامبراطور والحشد الهائل من الأمراء الذي حلا للمؤرخ البيزنطي أن يصوره ليشير إلى عظمة الامبراطورية وماها من نفوذ ، أن ارتقى رينو على الأرض تحت قدمي الامبراطور مانويل وغير وجهه في التراب والتمس من الامبراطور العفو والعطف والرحمة ، وفي الوقت نفسه كانت الحاشية التي تتبعه ترفع أكفها تطلب الصفح والغفران من

Cinnamus, op. cit., p. 183.

(١)

(٢) أنظر مايل ص ٢٤٦-٢٤٧.

الامبراطور . وقد حلا للامبراطور مانويل أن يطيل هذا المشهد — الذى يعتبر غاية فى الازلال للأمير رينو — حتى شعر جميع الحاضرين بالاشمئزاز ، وفى النهاية وافق الامبراطور مانويل العفو عن رينو (١) . وعلى ما يبدو كان ظهور رينو أمير أنطاكية بهذه الصورة باتفاق مسبق مع الامبراطور مانويل الذى حشد هذا الجمع من الأمراء ليروا بأنفسهم مذلة الأمير رينو ، وليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حقوق الامبراطورية البيزنطية وأراضيها .

سنة العفو

كان عفو الامبراطور مانويل عن الأمير رينو مقترنا بثلاثة شروط ، وهى أن يقوم رينو بتسليم قلعة أنطاكية للقوات البيزنطية عندما يطلب منه ذلك ، وأن تقدم امارة أنطاكية عهدا من الوحدات العسكرية إلى الامبراطور مانويل عند الحاجة اليها وأخيرا أن يكون بطريك أنطاكية من البطاركة البيزنطيين الأرثوذكس وليس من اللاتين الكاثوليك (٢) . ولم يشر المؤرخون الصليبيون إلى هذه الشروط وما يجعلنا نميل إلى الأخذ بها أن الشرطين الثانى والثالث قد نفذتا بعد ذلك (٣) ، والمهم أن فان مثل هذه الشروط تعنى أن الامبراطور مانويل قد حقق السيادة الدينية والدنيوية على امارة أنطاكية (٤) . بعد صراع مع حكامها الصليبيين استمر ما يقرب من ستين عاما . وعلى أية حال فهذا الخضوع والاذلال من قبل الأمير رينو والعفو الذى ناله من الامبراطور

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 277.

والمصدر العربى الوحيد الذى أشار إلى خضوع رينو هو ابن القرات ، فقد ذكر أن أمير أنطاكية دخل فى خدمة الامبراطور وهو بالمصيصة ووطىء بساطه فأخلع عليه الامبراطور ورده إلى أنطاكية . أنظر : ابن القرات ج ٥ لوحة ٧ ب .

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 182—3, 199.

(٣) أنظر ما يلى ص ٢١٢ ، ٢٣٣ .

(٤) Ostrogosky, op. cit., p. 343.

مانويل ، أضع رينو الفرصة على البطريك اميرى والملك بلدوين لينالا منه
وينتزع امارة أنطاكية .

وحوالى ذلك الوقت كان الملك بلدوين قد وصل إلى أنطاكية بهدف
اعداد الترتيبات اللازمة لمقابلة الامبراطور . وحول هذه الأحداث يروى
المؤرخ وليم الصورى أن الملك بلدوين عندما علم بوصول الامبراطور إلى
المصيصة استعد للتوجه إليه واصطحب معه شقيقه عمورى (١) Amaury
كونت يافا وعسقلان وحامية من النبلاء واتجه إلى أنطاكية . ومن هناك أرسل
سفارة إلى الامبراطور مانويل لاعداد ترتيبات اللقاء وضمت السفارة جودفرى
Godfrey رئيس الفرسان الداوية بالانابة (٢) لمعرفته باللغة اليونانية وجوسلين
بيسلوس ، لمعرفته السابقة بالامبراطور فقد كان عضوا فى السفارة التى تولت
أمر زواج الملك بلدوين من ثيودورا ، وكان على هذه السفارة أن تذهب إلى
الامبراطور فى معسكره لابلاغه برغبة بلدوين فى مقابلته . ولما علم الامبراطور
مانويل بأمر هذه السفارة والهدف التى أتت من أجله وافق على طلبها ، كما
أرسل مانويل مع السفارة مندوبا من قبله ومعه خطاب يحث فيه الملك على
الاسراع فى القلموم لمقابلة الامبراطور كما أن المندوب البيزنطى أبلغ الملك
بلدوين شفاهة بأن الامبراطور يعتبر الملك ابنه المحبوب وطلب منه أيضا عدم
التأخير فى لقاء الامبراطور (٣) .

(١) تولى منصب كونت يافا عام ١١٥١ م ومنصب كونت عسقلان عام ١١٥٤ م وتولى منصب

ملك مملكة بيت المقدس باسم عمورى الأول ١١٦٢ - ١١٧٣ م .

(٢) كان رئيس فرسان الداوية الأصلى برتراند أف بلانكفورت Bertrand of Blanquefort

أسيرا فى أيدي المسلمين . أنظر مايل ص ٢٠٤ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 277.

(٣)

ويتضح من هذه الرواية أن الملك بلدوين كان متلهفا للقاء الامبراطور وكان الامبراطور يشاركه الشعور نفسه ، يضاف إلى ذلك أن ولیم الصوری لم يرد أية أخبار عن لقاء بلدوين ورينو في أنطاكية، وهذا دليل على أن أمير أنطاكية لم يكن بالمدينة عندما وصل إليها الملك بلدوين ولم يرد في هذه الرواية أيضا أية مفاوضات تمت بين النبلاء الصليبيين في أنطاكية وبين الملك بلدوين .

أما المؤرخ البيزنطي كيناموس فقد ذكر أن الملك بلدوين عندما وصل إلى أنطاكية رحب به أمراء المدينة وأحس بلدوين برضاء الأمراء عنه لذلك التمس مقابلة الامبراطور بمنحه امارة أنطاكية ، ولكن الامبراطور رفض المقابلة في أول الأمر واشترط عدم اصطحاب الملك لقوات كبيرة. وتحت الحاح بلدوين واستجابته لشرط الامبراطور وافق، مانويل على المقابلة فأتجه بلدوين إلى معسكر الامبراطور مصحوبا بالأهالي الذين اتسوا منه مصالحة الأمبراطور (١) .

وقد أضافت هذه الرواية معلومات أخرى إلى جانب معلومات ولیم الصوری، ويتضح منها أن الملك بلدوين كان طامعا فعلا في حكم أنطاكية وجعلها تحت سلطته المباشرة بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس . حقيقة أن ملك بيت المقدس كان يدعى لنفسه السيادة على سائر الامارات الصليبية ولكن هذه السيادة لم تظهر إلا حينما كان للملك من القوة ما يكفي لفرضها ، كما كان لأنطاكية وضع خاص، لأن بوهمند - أول أمير صليبي تولى حكم الامارة - لم يعترف بالسيادة للملك الصليبي وظل هذا الوضع متوارثا حتى ذلك الوقت،

وأن رينو لم يطلب الاذن من الملك بلديون للزواج من كونسنتاس، الا لأن رينو كان أحد أتباع بلديون، لذلك كان الملك بلديون يطمع في مساعدة الامبراطور مانويل في عزل رينو من اماره أنطاكية لتصبح الامارة تحت سلطة الملك المباشرة (١). وعلى أية حال فمن الواضح أن الامبراطور رفض في أول الأمر مقابلة الملك بحجة القوات التي ترافقه وأن الأمير رينو لم يكن في أنطاكية في هذا الوقت وأن الأهالي طلبوا من الملك التوسط في الصلح بينهم وبين الامبراطور باعتبارهم مشتركين في مسئولية الهجوم على قبرص.

والأرجح أن الملك بلديون وصل إلى أنطاكية في الوقت الذي كان فيه رينو يتخذ طريقه إلى الامبراطور لتقديم فروض الولاء والطاعة، أو أنه قد وصل فعلا إلى معسكر الامبراطور، ولما كان بلديون طامعا في حكم اماره أنطاكية فقد استغل رضاء أمراء وأهالي المدينة عنه ليطلب من الامبراطور مساعدته في تحقيق هذا الهدف. ولما كان الامبراطور على علم مسبق بنوايا الملك بلديون عن طريق البطريك ايمرى لذلك رفض مانويل أو أرجأ مقابلة بلديون حتى تتكشف له الأمور وما عساه أن يكون عليه الحال بعد مشول رينو أمامه. ويبدو واضحا أن الامبراطور مانويل كان سيعفو عن رينو لأنه لو كانت لديه النية في قتل رينو أو عزله لوافق على طلب البطريك ايمرى وسلم اليه رينو، ومن هنا تأخر مانويل في مقابلة بلديون حتى يعفو عن رينو ويفوت الفرصة على بلديون وما يسعى اليه من أهداف وهو حكم أنطاكية. الذي اصطحب من أجله بلديون أهالي المدينة ليكونوا بمثابة تركية له عند الامبراطور، والواضح أيضا أن رينو كان يعلم بنوايا الملك بلديون لذلك

سرع لمقابلة الامبراطور والحصول على عفوه . ومن ذلك يتضح أن الامبراطور مانويل كان يستغل الخلافات والأوضاع بين الصليبيين في تحقيق المصالح البيزنطية في الشام .

كانت مقابلة الامبراطور مانويل للملك بلدوين دون شك بعد حصول رينو على عفو الامبراطور . وعندما اطمأن مانويل أن أمور الحكم في أنطاكية ستظل على حالها وقد ترك بلدوين أخاه عمورى في أنطاكية واصطحب معه بعض فرسان الداوية (١) . وتعهد الامبراطور مانويل اصفاء مزيدا من التشریف على الملك بلدوين عند مقابلته حتى يخفف عنه وقع أخبار عفوه عن رينو ، لذلك كان في استقبال بلدوين عند مدخل مدينة المصيصة حرس الامبراطور على شكل ما نسميه بحرس الشرف ، وكان هذا الحرس على مسافات متباعدة وفي كل مسافة يقف اثنان من الحرس يليهما اثنان آخرون أعلى مرتبة وكان الحرس يقدم التحية للملك ، وفي الوقت نفسه كان يصاحب الملك مندوبوا الامبراطور مانويل وهما جان كومنينوس — حاكم قبرص السابق — والحاجب الكسيوس ابن عم الامبراطور (٢) . وعندما وصل الامبراطور إلى معسكر الامبراطور وجد الحرس الامبراطورى شاكى السلاح ، وقد ظل هذا الوضع في استقبال الملك حتى وصل بلدوين إلى النقطة التي يجب أن يترجل عندها أى ضيف مهما كانت منزلته ولا يصح لأحد أن يسير بعدها على صهوة جواده سوى الامبراطور (٣) ، ولكن بلدوين لم يكن راغبا في التخلي عن

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 277—8. &

Cinnamus, op. cit., p. 183.

(١)

(٢)

(٣)

فرسه واتباع مراسم زيارة الأمير اطور ولعله أراد أن يشعر الأمير اطور بتكافئ مكانتهما (١) .

واضطرب بلدوين للترجل في النهاية واصطحبه جان كومنينوس والحاجب الكسيوس في احترام بالغ حتى مدخل خيمة الأمير اطور حيث استقبله — الأمير اطور مانويل استقبالا حارا وقبله قبلة السلام وأجلسه إلى جواره على مقعد أقل انخفاضاً من مقعد الأمير اطور (٢). ورغم هذا التقليد البيزنطي الذي يدل على علو مكانة الأمير اطور فإن الملك بلدوين على ما يبدو شعر أنه عومل بتشريف أقل مما كان ينبغي أن يعامل به. والمهم أن الأمير اطور مانويل كان لبقاً وحكيماً في معاملة صهره ومرافقيه فقد قبلهم الأمير اطور أيضاً قبلة السلام كما استفسر عن صحة الملك وزوجته وحاشيته، وأظهر مانويل من لطف المحاملة ما جعل الملك يشعر بالابتهاج ودام ذلك حوال عشرة أيام وهي فترة بقاء بلدوين ضيفاً على الأمير اطور (٣) .

وأثناء هذه المحادثات لاحظ الملك دون شك شدة غضب الأمير اطور مانويل على الأمير ثوروس (٤) . وأن مانويل قد رفض توسلات البعض للعفو عن ثوروس . وهنا يمكن القول أن العفو عن ثوروس أصبح ممكناً بعد ما عفا الأمير اطور عن رينو الذي تحالف مع ثوروس في الهجوم على قبرص. والمهم أن الملك بلدوين لاحظ أيضاً أن الأمير اطور قد أمر قواته بالتجمع استعداداً لمهاجمة ثوروس (٥) ، وعلى ما يبدو أن الأمير اطور مانويل كان يقصد من

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٨٦ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 278; Cinnamus, op. cit., p. 183.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 278.

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 278.

وراء ذلك استعراض القوة البيزنطية أمام الملك وأنه أراد أيضا — وهو الأهم — أن يثبت الملك بلديون على طلب العفو عن ثوروس ، وبذلك يكون الامبراطور قد نفذ رغبة للملك تكون بمثابة قرصية للملك الصليبي بعدما خدعه بالعفو عن رينو . وقد تدخل بالفعل الملك بلديون وفرسان الداوية وتوسطوا في الصلح بين الامبراطور وثوروس (١) . ويروى المؤرخ جريجوار ملقيا اللوم على البيزنطيين الذين يكونون الحقد للأرمن رغم أنهم لا يستحقون كل ذلك ، وأنهم لم يؤثروا أعمالا من شأنها أن تغضب الامبراطور ، أن الملك بلديون وفرسان الداوية تدخلوا لاصلاح ما بين الامبراطور وثوروس . وعندما حضر ثوروس أمام الامبراطور طرده في أول الأمر ولكن ثوروس ما لبث أن اكتسب عطف الامبراطور بعد ما أوضح له أن الوشائات هي السبب في كل ما حدث (٢) ، ويرى المؤرخ شالندون أن الامبراطور مانويل قد فرض على ثوروس أن يظهر أمامه بالطريقة التي ظهر بها الأمير رينو وكان يتعين على ثوروس أن يضع نفسه تحت رحمة الامبراطور في رداء المتضرع المتوسل (٣) وعلى أية حال فقد عفى الامبراطور عن ثوروس وتلقى منه الولاء والطاعة وقلده حكم الأراضي التي تحت يديه (٤) ، ورغم عدم اشارة المصادر التي تحت أيدينا إلى العلاقة بين ثوروس والامبراطورية البيزنطية فإنه يمكن القول أن الامبراطور مانويل أعاد تعيين حاكم بزنطى على قيليقية ، وكان أول من تولى هذا المنصب بعد خضوع ثوروس هو أندرونيكوس كومنينوس (٥) .

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 169.

(١)

Gregoire le Pretre, op. cit., 188.

(٢)

Chalandon, op. cit., p. 450.

(٣)

William of Tyre, op. cit., II, 278.

(٤)

Michel le Syrien, op. cit., p. 356.

(٥)

ظل ثوروس في ضيافة الإمبراطور مانويل عدة أيام ثم أبدى ثوروس رغبته في العودة إلى طرسوس (١) . ولعل ما دفع ثوروس إلى عدم البقاء في المعسكر البيزنطي هو خوفه من قيام مؤامرة ضده أثناء تواجده وسط القوات البيزنطية (٢) . وعلى أية حال فقد وافق مانويل على رغبة ثوروس واشترط عليه أن يحضر على وجه السرعة في أي وقت يراه الإمبراطور وتم الاتفاق على ذلك . والواضح أن الأمير ثوروس عمل على إرضاء الإمبراطور بكافة السبل، لذلك سرعان ما عاد ثوروس إلى معسكر الإمبراطور في المصيصة ومعه قطع كبير من الخيول والأغنام والماشية، وقد وصلت هذه الامدادات في الوقت المناسب الأمر الذي أعجب به الإمبراطور مانويل فأشاد بحكمة ثوروس . وأسنع مانويل على الأمير الأرمني هدايا من الذهب والفضة والأفشة وغفر له من صميم قلبه ما اقترفه في حق الإمبراطورية البيزنطية (٣) . وهنا يمكن القول أنه بخضوع ثوروس أصبح مانويل سيدا حقيقيا على قيليقية لأول مرة منذ توليته العرش البيزنطي أي بعدما يقرب من ستة عشر عاما .

هذا ما كان من أمر ثوروس وريثه وخضوعهما للإمبراطور البيزنطي بعدما يقرب من ثلاث سنوات من الهجوم على جزيرة قبرص (٤) . والزيارة التي قام بها الملك بلدوين . والواضح أن الملك الصليبي وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه بعد ما تبددت أحلامه في حكم أنطاكية . ولكنه لم يدع الفرصة تمر دون أن يغتنمها وكان عليه أن يقوم بعمل ما من شأنه خدمة القضية الصليبية بصفة عامة، لذلك التمس من الإمبراطور مانويل تخفيف الشروط

سوق
بلدوين

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

Vahram d'Edesse, op. cit., pp. 505—6.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٤) عمر كمال توفيق : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٩٧ .

المفروضة على امارة أنطاكية وطلب تخفيض عدد الوحدات العسكرية التي
الزم الامبراطور الأمير رينو بتقديمها عند الحاجة وأن يصرف النظر عن تعيين
بطريكاً بيزنطياً على أنطاكية. وقد استجاب الامبراطور مانويل للطلب الأول.
أما فيما يتعلق بمسألة البطريك البزنطي فقد رفض الامبراطور بشدة التنازل
عن هذا الشرط (١) ، ولكنه أرجأه لوقت لاحق (٢).

وبعدما ظل بلدوين في ضيافة الامبراطور لمدة عشرة أيام استأذن في العودة
إلى بلاده ، وقد وافق مانويل على طلبه وأهداه وأهدى مرافقيه هدايا قيمة ،
وكان ما تلقاه بلدوين بمفرده اثنين وعشرين ألف هيبير وثلثة آلاف ماركا
من الفضة فضلاً عن الأثواب الحريرية والأواني الثمينة . وعندما وصل بلدوين
إلى أنطاكية وجد في انتظاره أخيه عموري الذي أبدى رغبته في زيارة
الامبراطور لعله يفوز بتصيب من هدايا الامبراطور ، وقد توجه إلى معسكر
مانويل حيث استقبله الامبراطور بالترحاب على عادته. وفي ختام زيارته أسبغ
عليه الامبراطور مانويل هدايا قيمة ثم ما لبث أن عاد إلى أنطاكية مسروراً
بكرم الامبراطور وعطاياه (٣) .

لقد نجح بلدوين في عقد الصلح بين الامبراطور مانويل والأمير

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 185—6.

(٢) يتضح ذلك من أن الامبراطور مانويل لم يعين بطريك يوناني في هذا الوقت ، وأول من عين
بطريكاً تنفيذاً لهذا الشرط هو البطريك أثناميوس في عام ١١٦٤ م أنظر :

Michel le Syrien, op. cit., p. 360.

أنظر أيضاً : أسد رستم : كنيسة مدينة الله وأنطاكية العظمى ج ٢ ص ٢٧٢ ،

Neale & Others, A History of the Holy Eastern Church - The Patriarchate
of Antioch, p. 174.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 278—9; Joseph ben Joshua, op. cit., (٣)

p. 169.

ثوروس (١) وتخفيف بعض الشروط المفروضة على امارة أنطاكية. وإذا كان مانويل قد فرض على رينو امداده ببعض الوحدات العسكرية ، وأنه طلب من ثوروس الحضور إليه عند طلبه ، وأن العادات البيزنطية جرت على تقديم الهدايا للحلفاء (٢) فان ذلك يعنى أن ثوروس وبلدوين أصبحا حلفاء للامبراطورية ، فالواقع أن المصادر التى تحت أيدينا لم تشر إلى أية مفاوضات تمت بين الامبراطور البيزنطى والملك الصليبي حول محاربة المسلمين ، وهو الهدف الذى تم من أجله مصاهرة الملك بلدوين للامبراطور مانويل . كما وأن الاعتقاد قد ساد الصليبيين فى هذا الوقت بأن الامبراطور مانويل قد جاء بقواته لمحاربة نور الدين . وقد نجد مخرجاً لهذا الغموض إذا علمنا أن الامبراطور مانويل أرسل من معسكره فى المصيصة رسولا من قبله إلى نور الدين ومعه هدية من أثواب الديباج وما شابه ذلك يضاف إليها بعض البغال وخطاب من الامبراطور ، وقد تقبل نور الدين هذه الهدايا وأعاد الرسول البيزنطى فى أواخر صفر عام ٥٥٤ هـ / حوالى الثانى والعشرين من مارس عام ١١٥٩ م بعد ما حملته هدايا ماثلة (٣). ويضيف أبو شامة أن المهادنة تمت بين الطرفين (٤) .

ومن الملاحظ أن الامبراطور مانويل قضى عيد القيامة (الثانى عشر من أبريل / الحادى والعشرين من ربيع أول) فى المصيصة ثم رحل بعد ذلك إلى أنطاكية (٥) ، أى أن اتصاله بنور الدين كان فى أواخر أيام اقامته فى قيليقية أى بعد خضوع رينو وثوروس لأن الملك بلدوين هرع لمقابلة الامبراطور

Vahram d'Edesse, op. cit., p. 505.

(١)

Chalandon, op. cit., p. 450.

(٢)

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٣ ، أنظر ما يلى ص ٢٤٩ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 279.

(٥)

مانويل عندما علم بوصوله إلى المصيصة . وأغلب الظن أن نور الدين علم بما دار في معسكر الامبراطور من المندوب البيزنطى . وعلى ذلك يمكن القول أن اتفاق مانويل مع بلديون على قتال المسلمين عندما تم التصاهر بينهما كان خدعة من الامبراطور مانويل ليستغل الملك الصليبي إلى أكبر قدر مستطاع في عقاب رينو وثوروس ، وبعدهما تحققت أهداف الامبراطور مانويل وتم اخضاع رينو وثوروس وجد مانويل أنه لا داعى لقتال المسلمين ، فراسل نور الدين بالهدايا ليشعره بحسن نية الامبراطور تجاه المسلمين ، وعلى أية حال ستفسر لنا الأحداث التالية الكثير من سياسة مانويل في منطقة الشام .

وبعدما احتفل الامبراطور بعيد القيامة في معسكره بالمصيصة ، أتجه بعد عدة أيام إلى أنطاكية بعدما قضى حوالى سبعة أشهر في قيليقية (١) لو كان مانويل قد أرسل أحد رجاله وهو يوحنا كاماتروس John Kamateros إلى المدينة ليعلم قدوم الامبراطور ويتفقد الروح السائدة في أنطاكية قبل وصول الأمبراطور (٢) . والواضح أن مانويل اتخذ هذا الاجراء لما عرف عن موقف أهل أنطاكية من قبل مع والده يوحنا ، ولقد تحقق ما كان يحول في خاطر الامبراطور ، فقد كان بعض أهالى المدينة غير راغبين في دخول مانويل إلى أنطاكية وأعدوا عدتهم على ما يبدو للقيام بتمثيله مشابهة لتى قاموا بها عندما دخل يوحنا المدينة عام ١١٣٨ م . ولما كان الامبراطور مانويل عازما على دخول المدينة فقد طلب تسليمه بعض الرهائن (٣) ، ولم يكن بوسع رينو أو بلديون مخالفة أمر الامبراطور فوافقا على تقديم الرهائن وتقدمت القوات البيزنطية وعلى رأسها مانويل حتى وصلت إلى أنطاكية .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 191.

(١)

Cinnamus, op. cit., pp. 186—7.

(٢)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 189.

(٣)

ولقد أفاضت المصادر التاريخية في وصف الموكب الذي دخل به
الامبراطور مانويل المدينة : فقد صاحب دخول الامبراطور احتفال عظيم
للتدليل على عظمة الامبراطورية البيزنطية ومدى النصر الذي أحرزه مانويل
على الصليبيين . فقد ظهر الامبراطور البيزنطي مانويل ممتطيا جواده وعلى
رأسه التاج الامبراطوري ومرتديا العباة الامبراطورية الارجوانية المرصعة
بالجواهر ممسكا في يده الصولجان وشارات الامبراطورية ، وفي الوقت نفسه
سار الأمير رينو — إلى جانب جواد الامبراطور — على قدميه ممسكا بلجام
جواده، بينما سار الملك بلدوين وجميع الأمراء خلف الامبراطور بدون سلاح .
وفي مقدمة الموكب الامبراطوري سار رجال الدين حاملين الأناجيل في أيديهم .
وسار الموكب داخل المدينة على أصوات الطبول والتراتيم الدينية وسط جمهور
المشاهدين حتى وصل الركب إلى كنيسة المدينة وهي كنيسة القديس بطرس
حيث أدى الامبراطور صلاة الشكر ثم إتجه بعد ذلك إلى قصر أنطاكية تصحبه
حراسة وحامية المدينة حيث قام الامبراطور بتوزيع الأموال على أهالي المدينة (١) .
وبهذا المشهد يكون الامبراطور مانويل قد غسل العار الذي لحق به من
جلاء مهاجمة رينو لجزيرة قبرص وتمرده على السيادة البيزنطية (٢) .

وأثناء إقامة الامبراطور في قصر المدينة أقيمت الاحتفالات لمدة ثمانية
أيام متواصلة اشتملت على مهرجانات السباق والمبارزة والفروسية . وقد
اشترك الامبراطور بنفسه في هذه المبارزات . وبعدما انتهى أمر هذه الاحتفالات
بدأت رحلات الصيد ، وفي إحدى هذه الرحلات سقط الملك بلدوين وكان

William of Tyre, op. cit., II, p. 279; Cinnamus, op. cit., p. 187. (١)

Michaud, op. cit., I, p. 404. (٢)

ذلك في يوم عيد الصعود (١) (الثاني والعشرين من مايو ١١٥٩ / الثاني من جمادى الأولى ٥٥٤ هـ) سقط من على فرسه وكسرت ذراعه وتولى الامبراطور مانويل بنفسه الاشراف على علاج الملك (٢) .

وبعد شفاء الملك حدث تطور كبير في الأحداث فقد أعلن الامبراطور مانويل الاستعداد لمهاجمة حلب (٣) ، والواضح أن ما طرأ من أحداث يرجع على ما يبدو إلى الحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الاسلامية التي يقودها نور الدين الذي كان يعمل في هذا الوقت على تقوية نفوذه في الشام وأصبح يشكل خطرا كبيرا على الامارات الصليبية (٤) ، فبالأمس القريب تهادن مانويل مع نور الدين وتبذلت الهدايا بينهما . وعلى أية حال فإن نور الدين لم يتخذ بمثل هذه الهدايا ، فمن التجربة التي مرت بوالده عماد الدين مع الامبراطور يوحنا قد أحسن بإمكان غدر البيزنطيين به ، لذلك نجد نور الدين ينهض لتعبئة القوات الاسلامية عندما بلغه عزم الامبراطور على التوجه إلى أنطاكية . وسار نور الدين إلى حمص وحماه وشيزر «لانياس أهلها من شر الروم والفرنج» ثم وصل إلى حلب في الثامن عشر من ربيع أول ٥٥٤ هـ / التاسع من أبريل عام ١١٥٩ م (٥) . ومعنى ذلك أن عيون نور الدين كانت ترقب تحركات الامبراطور مانويل وأنها كانت على درجة عالية من الكفاءة حتى تعلم بعزم الامبراطور على الاتجاه إلى أنطاكية استعدادا

(١) يأتي عيد الصعود Ascension بعد عيد القيامة بأربعين يوما أنظر : Ency. Brit., Vol. 2 p. 561.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(٣) Ibid.

(٤) عمر كان توفيق : المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

لقتال المسلمين، قبل أن تبدأ مسيرة القوات البيزنطية بعدة أيام ، يضاف إلى ذلك أن وجود نور الدين في حلب وليس في دمشق يعنى أن الأخبار وصلته أيضا عن نية البيزنطيين والصليبيين لمهاجمة حلب وهو ما خططت له القيادة المتحالفة . وعلى أية حال فبعد ما تفقد نور الدين أحوال قواته وأعد الممدن الرئيسية للدفاع عن نفسها أرسل في طلب النجدة من جيرانه المسلمين . فاجتمعت لديه قوات عظيمة منها عسكر الموصل بقيادة أخيه قطب الدين و عساكر ماردين بقيادة نجم الدين بن تمرناش ، و عسكر اربل بقيادة زين الدين على كوجك، و عسكر آمد مع قرا أرسلان بن داود وغير ذلك من العساكر الاسلامية (١) .

خرج الامبراطور مانويل ومملك مملكة بيت المقدس ورينو صاحب أنطاكية، وريما يكون ثوروس قد انضم اليهم وحشد هائل من القوات البيزنطية الصليبية في احتفال مهيب من مدينة أنطاكية لقتال المسلمين ، وتقدمت القوات المتحالفة على دقات طبول الحرب وأصوات الأبواق والأجراس لتأخذ طريقها إلى حلب (٢) . وتفاعل الصليبيون خيرا بهذا الزحف الهائل وأيقنوا أن بوسعهم القضاء على نور الدين وقواته بسهولة . ومما لاشك فيه أن مثل هذه الحشود المتحالفة قد سببت فزع في المسلمين (٣) . وظلت القوات في مسيرتها حتى وصلت إلى حوض نهر العاصي حيث أمر الامبراطور مانويل جميع القوات بالتوقف بعد ما أصبحت مدينة حلب على مسيرة بضعة ساعات (٤) .

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ١٣ ب .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٤) Rey, Resume d'L'Histoire de Princes d'Antioche, cf., R.O.L., IV, p. (٤)

وفي هذا المكان حدث تطور كبير في خطة القوات المتحالفة، وهو تطور يعتبر في تصوري مفاجأة مذهلة للقوات الصليبية أكثر منها للقوات الإسلامية . وحول هذه الأحداث يروى ولیم الصوري أن الأمبراطور أرسل إلى نور الدين في حلب للتفاوض بشأن تحرير الأسرى الصليبيين (١) . أما المصادر العربية فقد أعطت لنا صورة واضحة عن حالة الفرع التي انتابت المسلمين من الحشود البيزنطية الصليبية التي اجتمعت لمهاجمة المعقل الإسلامية والاستيلاء عليها ، ولكن صائب الرأي وحسن التدبير من قبل نور الدين أدى إلى توقيع الهدنة بين مانويل ونور الدين وهو ما لم يكن في الحسبان ولم يخطر بالبال . فانتظمت الأحوال «بحسن رأى ملك الروم ومعرفته بما يؤول إليه عواقب الحروب» ، وبعد تكرار المراسلات «أجيب ملك الروم إلى ما التمس من اطلاق سراح مقدمى الافرنج المقيمين في حبس نور الدين» (٢) ومن رواية ولیم الصوري وابن القلانسي يتضح لنا أن الأمبراطور مانويل هو الذى بدأ بطلب الصلح من نور الدين . ويروى المؤرخ جريجوار عكس ذلك فذكر أن نور الدين أرسل السفراء إلى الامبراطور مانويل لتعرض عليه رغبة نور الدين في تحرير الأسرى الصليبيين (٣) . وربما يكون لذلك نصيب من الصحة فان نور الدين أرسل السفراء إلى مانويل ولكن في مرحلة تالية . وعلى أية حال فالأرجح أن الامبراطور مانويل بدأ بعرض الصلح على نور الدين . وتوضح المصادر البيزنطية والأرمينية واللاتينية الأسباب التي دفعت الامبراطور مانويل إلى طلب الصلح ، فذكر المؤرخ كيناموس أن مانويل تلقى أنباء خطيرة من العاصمة

William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(١)

(٢) ابن قاضي شعبة : المصدر السابق ورقة ٧٣ أ - ٧٣ ب ، ابن القلانسي : المصدر السابق ص

٣٥٧ - ٣٥٨ .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٣)

البيزنطية وكانت هذه الأخبار تفيد أن هناك مؤامرة لخلع الامبراطور مانويل عن العرش بتدبير اثنين من رجال البلاط البيزنطى هما ثيودور ستيبوت Theodore Stypiote وبيرو جورجوس Pyrhogeorgos (جورج) (١) ، أما المؤرخ جريجوار فقد روى لنا أن تقدم القوات البيزنطية والصليبية لقتال المسلمين كان كيوم من أيام العيد وفجأة وصل من القسطنطينية خطاب للامبراطور مانويل يعلنه أن ثورة قامت في العاصمة البيزنطية ضده (٢) . وسجل لنا المؤرخ ميخائيل السريانى أن الامبراطور مانويل علم بدأ سيء ، وأن أحد كبار رجال الامبراطورية كان يريد الاستيلاء على العرش (٣) . أما المؤرخ الصليبي ولیم الصوري فأشار أن بعض شئون الامبراطور الخاصة استدعته للعودة إلى العاصمة البيزنطية (٤) .

وإذا كان الامبراطور مانويل عازما على قتال المسلمين وأن أخبار هذه المؤامرة هي التي حالت دون القتال ، فما هي الأسباب التي دفعت الامبراطور مانويل إلى مهادنة نور الدين سرا عندما أرسل اليه وهو في معسكره بالمصيصة؟ ولعل ما قام به الامبراطور من الاعداد للقتال كان تمثيلية احكمت مشاهدتها خاصة وأن المصادر التي تحت أيدينا لم تمدنا بل لم تشر بعد ذلك إلى هذه المؤامرة وما فعله مانويل بشأن المتآمرين ، وأن هناك اتفاقا مسبق مع نور الدين بالصلح . وقد يبدو الأمر غريبا إذا وجدنا نور الدين يقوم بحشد قواته والاستعداد للقتال وهو يعلم بنية الامبراطور مانويل ولكن هذه الغرابة ما تلبث أن تزول إذا علمنا

Cinnamus, op. cit., pp. 189—190, Schlumberger, op. cit., p. 110. (١)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190. (٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 352. (٣)

William of Tyre, op. cit., p. 281. (٤)

أن الحرب خدعة وأن عماد الدين زنكي سبق وانخدع بمثل هذه الهدايا التي أرسلها إليه يوحنا كومنينوس ثم ما لبث أن عاد يوحنا في العام التالي ليحاربه فبذلك يكون نور الدين قد أعد العدة للاحتالين .

والواقع أن مبادرة الامبراطور مانويل بطلب الصلح مع نور الدين سواء عندما كان الامبراطور في المصيصة أم عندما وصلت الجيوش المتحالفة إلى حوض نهر العاصي تكشف لنا عن بعض الجوانب الخفية في السياسة البيزنطية التي هدفت إلى إيجاد ميزان قوى في الشرق يستطيع الامبراطور مانويل من خلاله تحقيق المصالح البيزنطية في المنطقة ، فالامبراطور مانويل أتى بحملته إلى الشرق لتأديب ثوروس ورينو وأنه خدع الملك بلدوين بصفة خاصة والصليبيين عامة بفكرة التحالف لقتال نور الدين لعزل ثوروس ورينو عن أية مساندة صليبية فيسهل عليه بعد ذلك إخضاع قيليقية وأنطاكية للسيادة البيزنطية ، فالسياسة البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كانت ترى في الأوضاع السيئة للامارات الصليبية ترسيخاً للنفوذ البيزنطي على الصليبيين وأن مانويل لم يفكر إطلاقاً في إضعاف قوة نور الدين في الشام (١) ، لأن ذلك يعتبر في نظر الامبراطور خطأ جسيماً. فالصراع بين نور الدين والصليبيين هو سبب الانتصارات التي حققها الامبراطور مانويل في الشرق الأدنى الاسلامي (٢) ، وأن القضاء على نور الدين والقوى الاسلامية يزيد من قوى الصليبيين وحينذاك يصبحون بغير حاجة إلى الامبراطورية البيزنطية وسرعان ما يتنكرون لوعودهم تجاه الامبراطورية (٣) .

Setton, op. cit., I, p. 545.

Runciman, op. cit., II, p. 355.

Chalandon, op. cit., pp. 454—5.

(١)

(٢)

(٣)

تقررت الهدنة بين نور الدين ومانويل بعد تبادل المراسلات بين الطرفين وبيروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أنه تم الاتفاق فى النهاية على إطلاق سراح الأسرى الصليبيين المحتجزين طرف نور الدين يضاف إلى ذلك تعهد نور الدين بمساندة البيزنطيين فى حروبهم ضد السلاجقة (١) . وقد اعتبر الامبراطور مانويل موافقة نور الدين على هذه الشروط تفضيلا منه ، لذلك قابل الامبراطور هذا الفضل بما يضاعفه وأرسل إليه هدايا عظيمة من الثياب الفاخرة المختلفة الأنواع وبكميات كبيرة ، يضاف إلى ذلك خيمة كبيرة من الديباج عظيمة القدر وبعض الخيول والجواهر الثمينة (٢) . وكان من بين هذه الجواهر لؤلؤة عظيمة القيمة كما أرسل اليه مائة ألف دينار (٣) .

وفىما يتعلق بالأسرى الصليبيين فقد أشار المؤرخ كيناموس أن عددهم بلغ ستة آلاف (٤) ، أما المؤرخ جريجوار فقد ذكر أن الاتفاق تم على إطلاق سراح عشرة آلاف من الأسرى (٥) . وعلى أية حال فقد كان من بين الأسرى الذين أطلق سراحهم برتراند أف بلانكفورت رئيس فرسان الداوية (٦) والكونت برتراند أف تولوز Bertrand of Toulouse المطالب

(١) Cinnamus. op. cit., p. 188.

راجع أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور ج ٢ ص ٦٧١ .

(٢) ابن قاضى شعبة : المصدر السابق ورقة ٧٣ أ - ٧٣ ب ، ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٨ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ١٣ أ - ١٣ ب .

(٤) Cinnamus, loc. cit.,

(٥) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٦) تولى رئاسة فرسان الداوية من عام ١١٥٦ - ١١٦٨ م وأسرة المسلمون فى معركة طبرية

عام ١١٥٧ م أنظر : Schlumberger, op. cit., p. 107.

بامارة طرابلس (١). وينفرد ابن الفرات يذكر أنه تم الافراج عن ألف أسير أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في سجون أنطاكية (٢). وعلى ما يبدو أن نور الدين كان راضيا كل الرضا عن النتائج التي أسفرت عن التحالف البيزنطي الصليبي ، لذلك نراه يقوم باعادة الأسرى وقد كساهم بالملابس الجديدة (٣). ومما لاشك فيه أن مثل هذا التصرف الانساني من قبل نور الدين قد أثار دهشة المتحالفين ، وهو أن دل على شيء فانه ليدل على فهم نور الدين والقيادة الاسلامية لنوع من أساليب الحرب النفسية التي لم نسمع عنها من قبل.

هذا ما كان بشأن الشرط الأول من الهدنة والتي اتفقت عليه المصادر البيزنطية والصليبية والعربية . أما الشرط الثاني الخاص بمساعدة نور الدين للامبراطورية البيزنطية ضد السلاجقة الذي انفرد بذكره المؤرخ البيزنطي كيناموس ، فقد نجد سنداً له عندما قام نور الدين بمهاجمة السلاجقة عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م، في الوقت الذي كان فيه القتال دائراً بين السلاجقة والبيزنطيين (٤). وعلى ما يبدو أن هذا الشرط كان شرطاً سرياً بين مانويل ونور الدين لأنه لو كان ذلك معروفاً لدى الصليبيين لما قام الملك بلدوين بمهاجمة دمشق أثناء مهاجمة نور الدين لأملاك السلاجقة (٥) وبالإضافة إلى هذين الشرطين يرى بعض المؤرخين أنه ربما تم الاتفاق بين مانويل ونور الدين على قيام الأخير بمراقبة رينو صاحب أنطاكية نيابة عن الامبراطور

(١) أسرى العريضة عام ١١٤٩ م . أنظر : Duggan, The Story of Crusades, p. 120

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ١٣ ب .

(٣)

Gregoire le Pretre, loc. cit.,

(٤) أنظر ما يلي ص .

(٥)

William of Tyre, op. cit., II, p. 282.

مانويل ودليلهم على ذلك أنه عندما قام رينو بمهاجمة أملاك المسلمين الواقعة بين مرعش ودلوك وما ترتب على ذلك من وقوع رينو أسيرا في أيدي قوات نور الدين عام ١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ - وبقاؤه في الأسر ستة عشر عاما : لم يحرك الامبراطور مانويل ساكنا لاطلاق سراحه باعتباره من أتباع الامبراطورية البيزنطية (١) . ويمكن القول حول عدم مسعى الامبراطور مانويل لاطلاق سراح رينو : أن الامبراطور ارتاح من رينو ومتاعبه ورأى أن الأمر سيكون سهلا في دعم النفوذ البيزنطي في أنطاكية بعد غيبة رينو .

وبعد عقد الهدنة والافراج عن الأسرى وما صحبه من تبادل الهدايا عاد نور الدين إلى حلب واتخذت القوات المتحالفة وجهتها إلى أنطاكية (٢) . ويلاحظ أنه أثناء عودة مانويل وقواته قامت بعض القوات الاسلامية بمناوشة القوات البيزنطية : وقد استاء الامبراطور من هذا التصرف ولكنه لم يقسم بعمل ايجابي تجاه القوات الاسلامية لأنه كان يتعجل العودة إلى بلاده لتوقيف على أمر المؤامرة التي وصلت إلى أسماعه لخلعه عن العرش (٣) .

ولقد ثار جدل كثير حول الجهد الضخم الذي تحمّلته القوى البيزنطية والصليبية الذي لم يسفر إلا عن اطلاق سراح الأسرى . واعتبرت القيادة الصليبية أن الاتفاق مع نور الدين كان بمثابة اجهاض سريع لمثل هذا المشروع العظيم الذي عيّدت عليه القوى الصليبية الآمال الكبار للقضاء على القوى

(١) حسن حبشي : المرجع السابق ص ٨٧-٨٨-٣٥٧-٣٥٨. Runciman, op. cit., ; II, pp. 357—358.

(٢) استغرقت أحداث اتفاق الهدنة بين نور الدين ومانويل عشرة أيام اشتملت على المشر الأواسط من جمادى الأول ٥٥٤ هـ . المشر الأوائل من شهر يونية عام ١١٥٩ م . أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ٣٥٨ .

Cinnamus, op. cit., pp. 188—9.

الاسلامية متمثلة في نور الدين . ويصور لنا المؤرخ جريجوار مدى الصدمة التي لحقت بالصلبيين عندما علموا برغبة الامبراطور في الصلح في الوقت الذي سارت فيه القوات المتحالفة كالأسود الجائعة لا يباليون بأي قوة تعترض طريقهم، ثم شبهها مرة أخرى بالنسور التي استعدت للانقضاض على جموع السمان وأن الصليبيين توسلوا إلى الامبراطور لقتال نور الدين وأوضحوا له أن الأمر لا يتطلب سوى ثلاثة أيام يتم بعدها القضاء على القوات الاسلامية ولكن مانويل لم يستجب إلى توسلاتهم واستمر في خطته التي تهدف إلى مهادنة نور الدين (١) .

وقد اعتبر انسحاب مانويل من وجهة نظر البعض خيانة للقضية الصليبية . وذكروا أن الامبراطور البيزنطي الأناني ضحى بمصالح الصليبيين في سبيل الحفاظ على عرشه (٢). وبالغوا في المهانة التي لحقت بالقوات البيزنطية وشبهوها عند انسحابها بالأرانب وقللوا من قيمة الهدنة التي عقدها الامبراطور مع نور الدين وذكروا أن نور الدين غدر بهم وأنه لم يفرج إلا عن خمسين أسير فقط (٣). وعلى أية حال فاذا كان المسلمون قد ارتاحوا واطمأنت قلوبهم بعد عقد الهدنة (٤) ، فان هذه الهدنة كانت مشرفة للامبراطور مانويل الذي تمكن من اطلاق سراح حوالي ستة آلاف من الأسرى الصليبيين على الأقل دون إراقة دماء (٥) .

Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 190, 192. (١)

Schlumberger, op. cit., p. 110. (٢)

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 192. (٣)

William of Tyre, po. cit., II, p. 282. المصدر السابق من ٣٥٨. (٤) ابن القلانسي

Chalandon, op. cit., p. 455. (٥)

Ludlow, J., op., cit., p. 179. (٦)

وإذا كانت وجهة نظر الصليبيين في حملة مانويل أنها لم تنجز إلا القليل وهو تحرير الأسرى (١)، فإن الامبراطور مانويل قد حقق الكثير للامبراطورية البيزنطية . فلقد تمكن من إخضاع الأمير الأرمني ثوروس وأذل كبرياء الصليبيين متمثلاً في رينو أمير أنطاكية الذي دخل في طاعة الامبراطور عندما شرب كأس المذلة والخوان وهو ما اعتبره الصليبيون عاراً لم يسبق أن لحق بأمر صليبي من قبل . يضاف إلى ذلك أن مانويل نجح في تحرير آلاف الصليبيين دون قتال . وبوسعنا أن نتصور ما عناه الصليبيون من ويلات الحروب وعدد القتلى الذين سقطوا من جانب المسلمين والصليبيين على مدى سنوات طويلة حتى يتم أسر ستة آلاف من الصليبيين ، وإذا كان الصليبيون قد تناسروا اغتصابهم لأراضي المسلمين وأنهم قد استغلوا خضوعهم للامبراطور مانويل ليدفعوه إلى قتال نور الدين (١) . فلعل الامبراطور كان مدركاً في هذه الفترة على الأقل أن بقاء الصليبيين في الأراضي المقدسة أمر مؤقت وإن انقضاء الأسرى من أيدي المسلمين ميزة كبرى قدمها الامبراطور البيزنطي للصليبيين دون اراقة دماء . والدليل على ذلك هو أنه إذا كان الامبراطور مانويل لديه العذر في الانسحاب من أمام القوات الإسلامية عند حوض نهر العاص ، فإن الامبراطور مانويل قد ترأس مع نور الدين وتبادلا الهدايا أثناء اقامته في المصيصة (٢)، وقبل أن يصل إلى أسماعه بعدة أشهر أنباء المؤامرة على عرشه . وكلمة أخيرة نضيفها بعد حملة مانويل على قيليقية والشام وهي أن مانويل وصل في هذه المرحلة من عهده إلى أعلى مراحل السيادة البيزنطية على الأرمن والصليبيين وهو ما لم يتيسر لامبراطور بيزنطي من قبله أو من بعده . كما أن

(١)

Brook, op. cit., p. 482.

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق لوجه ١٣ أ .

مهادنته مع نور الدين ونجاحه في تحرير آلاف الأسرى الصليبيين (١) ، كان من الخدمات الجليلة التي قدمها مانويل للصليبيين لم يتوصل إليها امبراطور بيزنطي آخر إبان الحروب الصليبية بأكملها .

وإذا كانت أخبار المؤامرة التي قامت في القسطنطينية هي التي عجلت بعودة الامبراطور لذلك كان على مانويل العودة بأسرع وقت ممكن . وقد اتخذت القوات البيزنطية طريقها من أنطاكية إلى أرمينية ثم إلى سلوقية ، ومن هناك اتجهت إلى لارندا (٢) ورغم أنه طريق سهل إلا أنه محفوف بالمخاطر لأنه يمر عبر الأراضي السلجوقية ، ولعل ما دفع مانويل إلى المرور عبر هذا الطريق هو اعتماده على الصلح الذي عقده مع السلاجقة منذ أقل من سنة أو لعله إغتر بالنصر الذي أحرزه في أرمينية والشام (٣) . ولما كان مانويل يتعجل الوصول إلى العاصمة فقد سارت القوات البيزنطية بغير انتظام مما شجع السلاجقة على مناوشة القوات البيزنطية ، وقد قام السلاجقة بهذا العمل اعتقاداً منهم أن البيزنطيين أتوا لمحاربتهم ولكنهم عندما تبينوا عكس ذلك كفوا عن مناوشة الجيش البيزنطي ، وليس ذلك فحسب بل قدم السلاجقة للبيزنطيين كل التسهيلات الممكنة ووسائل الاعاشة اللازمة للقوات البيزنطية واستمر الجيش البيزنطي في مسيرته حتى وصل إلى كوتيوم (٤) Cotyaum . وفي هذا المكان استغلت بعض القبائل السلجوقية تواجد بعض القوات البيزنطية

Rey, op. cit., p. 373. (١)

Cinnamus, op. cit., p. 190. (٢)

Schlumberger, op. cit., p. 113. (٣)

(٤) كوتيوم : هي مدينة كوتاهية الحالية وكان المؤرخون العرب يطلقون عليها اسم قطيه .

أنظر : ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ج ١ ص ٢٢٨ ، أنظر أيضاً :

لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٨ ، ١٨٦ .

التي كانت تسير بعيدة عن الصفوف الرئيسية للجيش — وانقضت عليها (١).
وبالغ المؤرخ جريجوار في تقدير مدى الخسائر التي لحقت بالقوات البيزنطية
واعتبر ذلك انتقاما من الامبراطور مانويل لقيامه بعقد الصلح مع نور الدين
وذكر أن السلاجقة قتلوا اثنا عشر ألفا من البيزنطيين واستولوا على عشرين
ألف من الخيول والبغال (٢). ومن الواضح أن مثل هذه الأرقام مبالغ فيها
بشكل سافر ، ولكن يمكن القول أن الهزيمة التي لحقت بالقوات البيزنطية
كانت قاسية (٣) جرحت كبرياء الامبراطور مانويل (٤) ، وترتب عليها
عداء مرير بين الامبراطور البيزنطي مانويل والسلطان السلجوقي قلیج أرسلان (٥).

ولما كانت خطة الامبراطور تستهدف العودة على وجه السرعة إلى —
العاصمة البيزنطية لذلك لم يدخل في صراع مع السلاجقة في هذا الوقت .
واستمرت القوات البيزنطية في مسيرتها حتى وصلت إلى القسطنطينية حيث
احتفل بالنصر الذي أحرزه الامبراطور في قيليقية وأنطاكية ، ولم تشر المصادر
التي بين أيدينا إلى أية أنباء عن المؤامرة التي استهدفت خلع الامبراطور . وعلى
ما يبدو أنها كانت من الأعمال الفردية التي لا وزن لها . والمهم أن الامبراطور
بقي في العاصمة يستعد للانتقام من السلاجقة (٦) . الذين اعتدوا على قواته
وشوهوا النصر الذي عاد به من الشام .

لم يستمر بقاء الامبراطور مانويل طويلا بالعاصمة ، ففي حوالى نهاية عام

-
- | | |
|--|-----|
| Cinnamus, loc. cit., Michel le Syrien. op. cit., p. 352. | (١) |
| Gregoire le Pretre, op. cit., p. 192. | (٢) |
| Frood, op. cit., p. 352. | (٣) |
| Schlumberger, op. cit., p. 114. | (٤) |
| Gregoire le Pretre, op. cit., p. 193. | (٥) |
| Cinnamus, op. cit., p. 191. | (٦) |

١١٥٩ م / أواخر عام ٥٥٤ هـ اتجه مانويل على رأس قواته لقتال السلاجقة الذين أنزلوا الهزيمة بقواته منذ قليل (١) ، واتخذ وجهته إلى اقليم بثينة حيث تقيم القبائل السلجوقية التي اعترضت طريق عودته عندما كان قادما من الشام. ولم يقدم لنا المؤرخ البيزنطي كيناموس المعلومات التاريخية حول هذه الأحداث بل أفاض في سرد البطولات التي ينسبها إلى الامبراطور مانويل ، وعلى أية حال لم تستمر هذه الحملة طويلا فسرعان ما عاد مانويل إلى القسطنطينية بسبب شدة برودة فصل الشتاء ومرض زوجته التي ما لبثت أن توفيت بعد عودته بقليل (٢) .

وحوالي ذلك الوقت يروي لنا المؤرخ كيناموس أيضا أن الامبراطور مانويل قابل وفدا من قبل السلطان قليج أرسلان (٣) . ولم يعط لنا المؤرخ تفسيراً لذلك . ولعل هذه السفارة قد قدمت لعقد الصلح مع الامبراطور وعلى ما يبدو أن الشروط التي قدمها السلاجقة لم تكن مقبولة للامبراطور وعلى ذلك فقد أمر الامبراطور باعداد حملة عسكرية ضخمة لمهاجمة السلاجقة والواضح أن مانويل قد أراد بهذه الحملة الوصول إلى نتائج إيجابية لصالح الامبراطورية. وبذلك تتحقق له السيادة على السلاجقة كما سبق أن تحققت على الأرمن والصليبيين .

بدأ مانويل في تعبئة القوات البيزنطية ، كما أرسل الأمير البيزنطي يوحنا

Michel le Syrien, op. cit., pp. 352—3.

(١)

Cinnamus, op. cit., p. 194.

(٢)

Ibid.

(٣)

كونتوستيفانوس (١) John Contostephanus إلى الأمير ثوروس وإلى كافة الزعماء الأرمن وكذلك إلى الأمير رينو والملك بلدوين يطالبهم بامداده بالوحدات العسكرية الملزمين بتقديمها للامبراطورية ، ولم يكتف الامبراطور مانويل بذلك بل عمل على جمع بعض القوات المرتقة من جزيرة رودس قبل أن تأخذ طريقها إلى الأراضي المقدسة كما نجح مانويل في ضم بعض القوات العربية إلى صفوف الحملة المرتقة (٢) . ويروى ميخائيل السرياني أن الهدف من اعداد هذه الحملة كان القضاء على القوات السلجوقية (٣) .

لم ينتظر مانويل استكمال اعداد هذه الحملة وتعجل الحرب مع السلاجقة واتخذ مانويل وما اجتمع تحت يديه من قوات طريقه إلى مدينة فيلادلفيا وكان ظهور القوات البيزنطية عند هذه المدينة مفاجأة للسلاجقة لذلك نجح مانويل في انزال الهزيمة بالقوات السلجوقية ، ولكن هذا النصر لم يستمر طويلا فسرعان ما أعاد السلاجقة تنظيم صفوفهم وتمكنوا من الاستيلاء على بعض الأراضي عند نهر المياندر ثم ما لبثوا أن هاجموا مدينة لاودكيا الغربية وأسروا جميع سكان هذه المدينة (٤) وظلت الحرب ضارية بين القوات البيزنطية والقوات السلجوقية (٥) . وعلى ما يبدو أن الامبراطور مانويل لم يتمكن من دفع السلاجقة ، وأن الهزيمة التي لحقت بقواته كانت قاسية لذلك قرر الانسحاب والعودة إلى العاصمة البيزنطية .

(١) أشار ولیم الصوری إلى قدوم كونتوستيفانوس ومعه مندوب بيزنطي آخر بغرض ترتيب أمر زواج الامبراطور مانويل من إحدى الأميرات الصليبيات ولم يشر إلى المهمة الخاصة بطلب القوات . أنظر مايلي ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 199.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 198.

(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.

عاد الامبراطور مانويل إلى القسطنطينية وفكر في استعمال سياسته القديمة وهي ضرب قوى المنطقة بعضها ببعض لذلك حرض آل دانشمند على قتال السلاجقة. وقد ساعدت الظروف الخيطة بالسلاجقة وآل دانشمند على اشتعال الحرب بينهما في أواخر عام ٥٥٦ هـ / حوالى أكتوبر ١١٦٠ م بعد وفاة ذو القرنين صاحب ملطية وتولى ابنه ناصر الدين محمد (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) الحكم من بعده (١). وعلى ما يبدو أن الطمع داخل نفس ياغى أرسلان صاحب سيواس يضاف إلى ذلك تحريض الامبراطور مانويل لذلك استولى ياغى أرسلان على مدينة ملطية (٢)، ولما كان قلع أرسلان لا يرضى باتساع أملاك ياغى أرسلان وازدياد نفوذه هذا بالإضافة إلى ما كان من خلاف بين ياغى أرسلان وقلع أرسلان حول زواج الأخير (٣)، لذلك قام قلع أرسلان بمحاربة ياغى أرسلان، وفي الوقت نفسه قام نور الدين بمهاجمة أملاك السلاجقة، وقد تم ذلك على ما يبدو طبقاً لاتفاقية الصلح التي عقدها مانويل مع نور الدين في عام ١١٥٩ م. وقد تمكن نور الدين من الاستيلاء على بهنسى وربعان وكيسون كما هاجم بعض المدن الأخرى (٤).

كان ما وقع بين قلع أرسلان وياغى أرسلان ونور الدين هو ما يتمناه الامبراطور مانويل. ولم يكن في استطاعة قلع أرسلان أو من الحكمة أن تقوم قوائمه بمحاربة مانويل وآل دانشمند ونور الدين في وقت واحد. لذلك جنح قلع أرسلان إلى الصلح وبدأ بالجانب الاسلامي. وتم الصلح بين نور

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢١٧ ، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٦ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 282.

(٤)

الدين وقلج أرسلان ونتيجة لذلك استعاد السلاجقة المدن التي استولى عليها نور الدين (١). كما تم الصلح أيضا بين قلج أرسلان وياغى أرسلان وتم الاتفاق على تسليم السلاجقة مدينة الابلستين إلى ياغى أرسلان (٢).

وبعدما استقر الحال بين قلج أرسلان وياغى أرسلان ونور الدين بدأ قلج أرسلان في تجديد عرض الصلح مع الامبراطور مانويل . ولعل ما دفعه إلى ذلك هو أن الصلح الذي عقده منذ قليل مع آل دانشمند ونور الدين كان صلحا مزعزا وكان قلج أرسلان يخشى من تجدد القتال مرة أخرى . لذلك كان عرض السلطان السلاجوق هذه المرة سخيا إلى حد ما فقد عرض قلج أرسلان اطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين ثمنا لهذا الصلح (٣) . وعلى ما يبدو أنه خلال هذه المفاوضات نجح يوحنا كونتوستفانوس - الأمير البيزنطى الذى اتجه إلى قيليقية والشام لجمع بعض الوحدات العسكرية - أثناء عودته من الشام ومعه الوحدات العسكرية التي جمعها - نجح في ازالة الهزيمة بالسلاجقة وجعلهم يلوذون بالفرار (٤) . دون أن يدري بأمر المفاوضات الدائرة بين السلطان السلاجوق والامبراطور البيزنطى . وجاءت هذه الهزيمة في مصلحة الامبراطورية البيزنطية وبدأ الامبراطور مانويل يتشدد في شروط الصلح . وعلى ما يبدو أن السلطان قلج أرسلان كان عازما على عقد الصلح مع الامبراطور مانويل بأى ثمن ، ويرجع ذلك إلى عدم استقرار الأمور تماما بينه وبين ياغى أرسلان ونور الدين أو لأن الهزيمة التي لحقت

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 194.
(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.
(٣) Cinnamus, op. cit., p. 200.
(٤) Cinnamus, op. cit., pp. 200—201.

بقواته مؤخرًا كانت قاسية أو للمسيبيين معا . لذلك انتهت المفاوضات بتعهد قلعج أرسلان باعادة الأراضي التي دخلها أخيرا وأن يحترم حدود الامبراطورية البيزنطية وأن يجبر اتباعه على تنفيذ هذا الشرط وأن يعتبر السلطان حليفا للامبراطورية وعليه القيام بمساندة الامبراطورية في حروبها ضد أعدائها ويزود الامبراطور مانويل ببعض الوحدات العسكرية عند الحاجة وأخيرا أن يقوم السلطان قلعج أرسلان بزيارة الامبراطور مرة كل عام (١) . وهذه المعاهدة التي عقدت في أواخر عام ١١٦١ م / أواخر عام ٥٥٧ هـ يمكن القول أن الامبراطور مانويل نجح نجاحا ملحوظا في وقف التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى على حساب الممتلكات البيزنطية بعد ما نجح في بسط نفوذه من قبل على الصليبيين والأرمن .

عندما اتجه كونستيفانوس إلى الامارات الصليبية لجمع بعض الوحدات العسكرية لقتال السلاجقة كان الامبراطور مانويل قد كلفه بمهمة أخرى . فقد عهد اليه الامبراطور وإلى المبعوث البيزنطي الآخر الذي رافقه في رحلته وهو ثيوفيلاكس Theophylact الايطالي الأصل الذي يشغل منصب كبير للمترجمين في القصر الامبراطوري ، بتسليم رسالة للملك بلدوين . وقد أورد وليم الصوري نص هذه الرسالة وتتلخص في أن الامبراطور مانويل أخبر الملك الصليبي بموت الامبراطورة ايرين (٢) . وأنها تركت له ابنة واحدة (٣) ،

(١) Cinnamus, op. cit., p. 201.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 287—8.

ويتهم المؤرخ ميخائيل السرياني الامبراطور مانويل بأنه دس السم لزوجته . أنظر

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣) تدعى مازيا وتاريخ ميلادها يرجع إلى عام ١١٥٠ م فقد كانت في الثلاثين من عمرها عند وفاة

الامبراطور مانويل في عام ١١٨٠ م . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 196.

ولم تنجب له ذكرا يرث الامبراطورية وأن عدم وجود وريث للعرش يثير له المخاوف ولذلك اجتمع الامبراطور ورجال البلاط وتشاوروا في هذا الأمر واستقر الرأي على أن يتزوج الامبراطور مانويل من أميرة صليبية لدعم التحالف البيزنطي الصليبي . كما ورد في الخطاب موافقة كافة النبلاء البيزنطيين على ذلك وأن الامبراطور مانويل قد ترك الحرية للملك بلديون في اختيار واحدة من احدى بنات خالتيه وهما مليسند Melisend أخت ريموند الثالث كونت طرابلس وماريا Maria ابنة ريموند أف بواتيه وكونستانس أميرة أنطاكية (١) . ويتضح من هذا الخطاب عدة نقاط هامة يتطلب الأمر إبرازها لما لها من أهمية في هذا البحث سواء في هذا الموضوع أو في مواضع أخرى .
 أولا . أن رجال البلاط والنبلاء البيزنطيين وافقوا على مشروع الزواج .
 ثانيا . الرغبة في مزيد من التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين . (وثالثا . أن المقصود بالزواج انجاب طفل يصبح وريثا للعرش البيزنطي . وعلى ذلك يكون الامبراطور قد خطط لدعم النفوذ البيزنطي على الصليبيين لا في عهده فقط بل من بعده أيضا .

وعلى أية حال لم يكن بوسع الملك بلديون ألا أن يعبر عن فرحته الشديدة للسفارة البيزنطية للشرف العظيم الذي أولاه إياه الامبراطور وبدأ في العمل على تحقيق رغبة صهره السابق واللاحق . ولم يتصرف بلديون بمفرده بل تباحث مع مستشاريه في طلب الامبراطور مانويل وكان محور المفاوضات يدور حول أهمية هذه المصاهرة والنتائج التي تعود على الامارات الصليبية من جراء هذا التحالف . وأخيرا استقر الرأي على ترشيح مليسند لتكون الامبراطورة المقبلة

للإمبراطورية البيزنطية وتم إبلاغ السفارة البيزنطية بذلك . وقد وافقت السفارة على الترشيح ولكنها تحفظت وأشارت أن الكلمة الأخيرة في هذه المسألة — متروكة للإمبراطور مانويل (١) .

وعلى هذا الاتفاق المبدئي تسرع الأمير ريموند في اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة التي تليق بمكانة الإمبراطور وشاركه في ذلك كافة أفراد العائلة . وظل العمل قائماً على قدم وساق في تجهيز العروس بكافة ما يلزمها ابتداء من الحلى والمجوهرات وأدوات المائدة الذهبية ولوازم الحمام حتى سرج الحصان . وأنفق ريموند أموالاً طائلة على هذه التجهيزات . وقد ظلت السفارة البيزنطية لبعض الوقت في الأراضي المقدسة قامت خلالها بجمع كافة المعلومات عن العروس ولم تترك صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها دونت ما يتعلق بأوصاف جسم العروس ثم عادت إلى القسطنطينية (٢) . بعدما انتهت من جمع الوحدات اللازمة لقتال السلاجقة .

وحتى يرد رد الإمبراطور انشغل ريموند بأعداد اثني عشر سفينة لتنقل العروس إلى القسطنطينية وقدمت الوفود من أنحاء الإمارات الصليبية لتوديع الإمبراطورة المقبلة (٣) . وهكذا انشغلت الإمارات الصليبية كلها بأمر هذا الزواج سواء كان ذلك في الأعداد أم في الوداع دون أن يصل رد الإمبراطور مانويل بموافقة الشخصية على الزواج . ومع مضى الوقت زاد قلق ريموند على مصير أخته مليسند .

William of Tyre, op. cit., II, p. 288.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 288—9.

William of Tyre, op. cit., II, p. 289.

(١)

(٢)

(٣)

ولكن هذا القلق ما لبث أن تبدد واستبشر ريموند خيرا بقدوم سفارة أخرى من القسطنطينية على رأسها الكسيوس برينيوس Alexius Bryennius ويوحنا كاماتروس John Camatros حاكم مدينة القسطنطينية (١) . وقد وصلت هذه السفارة إلى طرابلس ولكنها أعطت إجابات مراوغة حول موافقة مانويل على الزواج من مليسند مما جعل القلق يستبد بالأمير ريموند والملك بلديون . ولما فقد صبر ريموند وبلديون وكافة النبلاء من هذا التسويف طلبوا من السفارة أن توضح لهما أسباب هذا التأخير كما أبلغوا السفارة بأنه إذا كان مانويل غير راغب في الزواج من مليسند فعليه أن يتحمل كافة المصروفات التي انفقت في تجهيز العروس ولكن السفارة ظلت على مراوغتها ولم تعط إجابات صريحة . ولم يطق بلديون وريموند وكافة الأمراء بعد ذلك صبرا وقرروا إيفاد مبعوث خاص للامبراطور للوقوف على حقيقة نواياهم وكلفوا أوتو أف ريسبرج Otto of Risberg للقيام بهذه المهمة على ما يبدو في صيف ١١٦١ م ، وزود هذا المبعوث بالصلاحيات اللازمة للحصول على قرار نهائي من الامبراطور ثم ما لبث أن عاد أوتو أف ريسبرج ومعه رسالة من الامبراطور تفيد بعدم موافقته على الزواج من مليسند (٢) .

كان رد الامبراطور مانويل غير متوقع في الدوائر الصليبية بصفة عامة كما كان صدمة للأمير ريموند . يضاف إلى ذلك أن الملك بلديون اعتبره اهانة شخصية موجه إليه . ولعل ما دفع الامبراطور مانويل إلى ذلك بعض الاعتبارات التي تتعلق بالعروس نفسها وبعض الاعتبارات السياسية الأخرى . وبالنسبة

Cinnamus, op. cit., p. 210.

(١)

William of Tyre, op. cit., p. 289.

(٢)

للعروس فقد كانت معتلة الصحة إلى جانب ما يشاع عن عدم صحة نسبها (١) ، رغم أن الحقيقة غير ذلك ، كما أن مليسند لم تكن تتمتع بالقسط الوافر من الجمال الذي تتمتع به ماريا الانطاكية (٢) . أما فيما يتعلق بالجوانب السياسية فلعل الامبراطور البيزنطي كان يرى الزواج من الأميرة ماريا حتى يرسخ النفوذ البيزنطي في الامارة وأن مانويل وضع في أول الأمر حرية الاختيار للملك بلديون بين الاميرتين حتى لا تظهر نوايا مانويل بوضوح في اامارة أنطاكية . ومن زاوية أخرى فلعل الملك بلديون كان مدركا لنوايا مانويل لذلك رشح مليسند للزواج من الامبراطور حتى يبعد النفوذ البيزنطي عن أنطاكية (٣) . ويمكن القول أيضا أن كونستاس أميرة أنطاكية - والدة ماريا كانت ترغب في السيطرة على زمام الأمر في الامارة بعد أسر زوجها رينو وما شاهده من تعلق أهل أنطاكية بالملك واستدعائه لتقرير أحوال الامارة . وما تقرر من وضع اامارة أنطاكية تحت وصاية بلديون للحفاظ عن حقوق بوهمند الثالث في الحكم ، على أن يساعده في تصريف شئون الامارة البطريك ايمرى حتى يبلغ الأمير الصغير سن الرشد ، لم يعجب الأميرة كونستانس هذا التعرف فاتصلت بالامبراطور البيزنطي مانويل (٤) ، توضح له الأمر وربما عرضت عليه ابنتها ماريا لتكون زوجة له . ولقد كان في طلب كونستانس ما يتمناه الامبراطور مانويل فأعلن الزواج من ماريا . يضاف إلى ذلك أن الامبراطور البيزنطي كان يعمل على دعم النفوذ البيزنطي في منطقة الشام من خلال الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين وطالما بقيت الامارات الصليبية في حالة من

Cinnamus, op. cit., pp. 208, 210.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 151; Archer & Kingsford, op. cit., p. 229.

(٢)

Setton, op. cit., I, p. 546.

(٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٨ .

الضعف لمواجهة القوات الاسلامية ، وأن رفض مانويل الزواج من مليسند وزواجه من ماريا سيعمل على زيادة الخلاف بين الصليبيين أنفسهم ، وفي هذا الخلاف منفذا للنفوذ البيزنطى إلى الامارات الصليبية .

عندما اجتاح الغضب اماره طرابلس لعدم موافقة الامبراطور على الزواج من الأميرة مليسند ، خاف الرسولان البيزنطيان من أن يلحق بهما الأذى على يدى ريموند فهربا في قارب صغير وظن الملك بلدوين والأمير ريموند أنهما أبحرا إلى قبرص : وفي الوقت نفسه أجه الملك إلى أنطاكية لتدبير بعض أمور الامارة . وكانت مفاجأة للملك عندما وجد المبعوثين البيزنطيين يتفاوضان مع الأميرة كونستانس بأمر زواج الامبراطور مانويل من ابنتها ماريا بعدما قدموا لها خطابا من الامبراطور يحمل المعنى نفسه (١) . والواضح أن السفارة كانت تحمل هذا الخطاب قبل قدومها للأراضى المقدسة أو أن رسولا بيزنطيا آخر قد حمل لها هذا الخطاب فلم يكن بوسع السفارة الذهاب إلى القسطنطينية والعودة منها في وقت قصير يساوى الزمن الذى استغرقه بلدوين في الانتقال من طرابلس إلى أنطاكية ، كما يدل قيام الأميرة كونستانس على ادارة مفاوضات الزواج بنفسها على ما كان من فتور بين الأميرة والملك ، وأنها لا ترغب في اشتراكه أو حتى الاستئارة برأيه في مثل هذا الأمر العائلى . والواضح أن الأميرة كونستانس كانت غاضبة من الملك بلدوين لعدم ترشيح ابنتها للزواج من مانويل .

على أية حال لم يكن بوسع الملك بلدوين أن يعمل شيئا وكان عليه أن يتقبل الأمر الواقع فكل من مليسند وماريا ابنتى خالتيه ، ورغم أن بلدوين

كان غاضبا من هذه الأحداث إلا أنه بصرف بما يقتضيه الواجب الانساني حيال ماريا فلم يقيم بأى عمل من شأنه أن يعرقل سير المفاوضات ووافق صاغرا على الزواج (١) ، وظل مشغولا لبعض الوقت حتى تمت اعداد الترتيبات اللازمة للعروس (٢). وفى نهاية الأمر رحلت ماريا ومعها المبعوثان البيزنطيات وحاشية عظيمة من النبلاء ، وبعدها وصلت العروس إلى القسطنطينية احتفل الامبراطور مانويل بزواجه من الأميرة الصليبية ماريا فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١١٦١ م فى كنيسة أيا صوفيا (٣) ، وحضر حفل الزواج لوقا بطريك القسطنطينية واثناسيوس بطريك أنطاكية (٤) الاسمى الذى لم يكن قد تسلم مهام منصبه بعد .

ترتب على هذا الزواج مزيدا من النفوذ البيزنطى داخل امارة أنطاكية (٥) كما ترتب عليه أيضا أن الملك بادوين صهر الامبراطور البيزنطى مانويل قد شعر بقيمته الحقيقية لدى الامبراطور مانويل يضاف إلى ذلك غضب ريموند أمير طرابلس من تصرفات مانويل . فى الوقت الذى اشتعلت فيه القناديل فى العاصمة البيزنطية احتفالا بزواج الامبراطور ، كان ريموند يشعل نارا أخرى فى الممتلكات البيزنطية انتقاما من الامبراطور على رفضه الزواج من مليسند . ويروى وليم الصورى أن ريموند أمير طرابلس غضب غضبا شديدا لرفض الامبراطور الزواج من أخته مليسند ، دون أن يقدم أية أسباب مثلها فى

William of Tyre, op. cit., p. 290.

(١)

Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 327.

(٢)

King, op. cit., p. 85.

أنظر أيضا :

William of Tyre, op. cit., II, p. 290.

(٣)

Cinnamus, op. cit., p. 211.

(٤)

Stevenson, op. cit., p. 184.

(٥)

رغم ذلك لم يمتد غضبه إلى زوجته بل إلى ابنتها

ذلك مثل بنات العامة وأن ريموند فكر في كل الوسائل التي يمكن أن ينتقم بها من الامبراطور رغم احساس ريموند بضعف امكانياته . وقد دفعه غضبه إلى جمع حفنة من الصعاليك والقراصنة وسلمهم السفن التي أعدها من قبل لنقل أخته إلى القسطنطينية ليحولوها إلى سفن حربية ، وعهد إلى هؤلاء المرتزقة بتدمير وتخريب ما يقع تحت أيديهم وبصرهم من الممتلكات البيزنطية . وقد نجحت هذه المجموعة في انزال أنشد أنواع الحراب والدمار بالسواحل البيزنطية — والأرجح أنها سواحل جزيرة قبرص أو الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى — دون تفرقة بين السن والجنس ، فقد قامت هذه القوات بسلب كل هذه النواحي وأشعلوا فيها النار وذبحوا المواطنين البيزنطيين واتهكوا حرمة الكنائس والأديرة وليس ذلك فحسب فقد اعتدوا على التجار الصليبيين وسلبوا أموالهم وتجارهم واجبروهم على العودة إلى أوطانهم خالين الوفاض (١) ، ويعلق أحد المؤرخين على الجرائم التي ارتكبتها ريموند بأنها كانت من الوحشية ولم يسمع بمثلا من قبل المسلمين (٢) . ورغم كل هذا لم يقيم الامبراطور مانويل من جانبه بأي عمل لتأديب ريموند مثلما فعل مع رينو من قبل ولم يدخل في صراع مع ريموند (٣) . ولعل مانويل كان مدركا لحقيقة شعور ريموند وأخته مليسند رغم أن مانويل لم يخطيء في حقه فلم تبدر من مانويل أية بادرة تفيد موافقة الشخصية على الزواج . وعلى أية حال فقد اعتبر الامبراطور مانويل أن ما قام به ريموند كأنه لم يقع . وقد شارك المؤرخون البيزنطيون مانويل الشعور بنفسه واعتقدوا أن مثل هذه الحادثة لا

William of Tyre, op. cit., II, pp. 291—2.

(١)

Finlay, op. cit., III, p. 186.

(٢)

Richard, J., le Comte de Tripolisoula Dynastie Toulousaine, p. 30. (٣)

(١) زيارة السلطان قلعج أرسلان
إلى القسطنطينية

يستحق ذكرها ولم يسجلوها ، أو لعلها لم تكن بالقدر الذي سجله لنا ولم
الصوري .

وإذا كان احنفال مانويل بالزواج من ماريانا الانطاكية جاء في أعقاب
انصاره على السلاجقة ليزيد من النفوذ البيزنطي على الصليبيين ، ففي أعقاب
هذا الزواج قام السلطان السلجوقي قلعج أرسلان بزيارة القسطنطينية — طبقا
لشروط المعاهدة التي عقدت بين السلطان والامبراطور منذ قليل — ليزيد
أيضا من النفوذ البيزنطي على السلاجقة . ولقد كان الدافع وراء تسرع السلطان
في زيارة الامبراطور ما تردد من شائعات حول مؤامرة يتزعمها ياغي أرسلان
لخلع السلطان قلعج أرسلان عن العرش وتولية أخيه شاهنشاه بدلا منه (١) .
والواضح أن قلعج أرسلان حاول دعم مركزه في السلطنة السلجوقية في هذه
الفترة بالتودد إلى الامبراطور مانويل لذلك أعطى هذا الأمر أهمية خاصة .
وتولى أمر اعداد ترتيبات الزيارة بنفسه وطلب من حاجبه كريستوفس —
Christophe ابلاغ الامبراطور برغبة السلطان . وبعد اعداد الترتيبات
اللازمة أتجه قلعج أرسلان ومعه أمير أميران — شقيق نور الدين — وبصحبة
ألف فارس إلى العاصمة البيزنطية (٢) .

جاءت زيارة السلطان قلعج أرسلان في مرحلة هدوء نسبي للامبراطورية
البيزنطية في صراعها مع الغرب (٣) ، ولذلك كان لدى الامبراطور مانويل
بعض الوقت لاستعراض عظمة الامبراطورية أمام السلطان السلجوقي (٤) .

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(١)

Michel le Syrien, op. cit., p. 355; Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٢)

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ .

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٤)

فقد اصطحب الامبراطور ضيفه في موكب رسمي عبر شوارع العاصمة البيزنطية وتجلت المصادر البيزنطية في وصف عظمة الامبراطورية وقصورها وكبرى العرش البيزنطى المغطى برقائق الذهب والمحلى بالياقوت الأحمر والارجوانى كما أفاضت أيضا في الهيئة التى ظهر بها الامبراطور مانويل وهو يجلس بجانب السلطان فى احدى قاعات الاستقبال فى القصر الامبراطورى وقد وضع مانويل التاج الامبراطورى على رأسه وهو مرتديا العباءة الارجوانية المرصعة بالجواهر ويحلى صدره بياقوتة كبيرة الحجم (١).

ظلت اقامة السلطان قلعج أرسلان فى العاصمة البيزنطية حسب رواية المؤرخ ميخائيل السريانى حوالى ثمانين يوما . ولقد تخلل هذه الزيارة الطويلة العديد من الحفلات وأقيمت المآدب التى أظهرت بذخ الامبراطورية ، ويروى المؤرخ نفسه أن الأطعمة كانت تقدم للسلطان ومرافقيه فى أوعية من الذهب والفضة وكانت كل هذه الأوعية تهدى للسلطان بعد الطعام وفى المرات التى تناول فيها السلطان الطعام مع الامبراطور قام الامبراطور باهداء كل أدوات المائدة للسلطان (٢) . كما قدم الامبراطور للسلطان خلال زيارته هدايا عظيمة اشتملت على الملابس الحريرية الدقيقة الصنع ومصنفات أخرى من الذهب والفضة كانت موضع أعجاب وانهار السلطان قلعج أرسلان (٣) : ومن طريف ما يروى حول هذه الهدايا أن الامبراطور مانويل قدم للسلطان قطعة من الذهب تصل فى ارتفاعها إلى ارتفاع قامة السلطان (٤) .

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل راجع :

Cinnamus, op. cit., pp. 204—5; Nicetas, op. cit., 154—6.

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

Nicetas, op. cit., p. 156.

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٢)

(٣)

(٤)

وبعد هذا العرض السريع للاحتفالات التي أقيمت للسلطان والهدايا التي قدمها الامبراطور ، نلتي مزيدا من الضوء على النتائج السياسية التي نجمت عن هذه الزيارة . والحقيقة أن هذه الزيارة جاءت تنفيذا لمعاهدة ١١٦١ م وإذا كان السلطان قد تسرع في القيام بها فيرجع ذلك إلى احساسه بأن الامبراطور مانويل ربما يكون وراء القلاقل التي يثيرها ياغى أرسلان ضد السلاجقة لذلك كان توجه قلعج أرسلان إلى القسطنطينية بهدف قطع خط الرجعة على تحالف بيزنطى دانشمندى أو على الأقل وقف تشجيع الامبراطور لآل دانشمند على قتال السلاجقة من وراء ظهر السلطان ، ولعل ذلك ما يفسر لنا بقاء السلطان فترة طويلة بالعاصمة البيزنطية ليلمس بنفسه مدى اتصال آل دانشمند بالامبراطور أو أن هذه الزيارة كانت نوعا من التجسس على الامبراطور مانويل ومدى علاقته بياغى أرسلان والوقوف أيضا على مواطن الضعف والقوة في الامبراطورية البيزنطية ، وربما يكون ذلك ما دفع بعض المؤرخين إلى تسمية قلعج أرسلان بالسلطان الماكر (١) ، فهو لاشك قد وقف بنفسه أثناء هذه الزيارة على أسرار كثيرة من أسرار القصر الامبراطورى .

وعلى أية حال فقد سجل لنا المؤرخون اشارات لا بأس بها حول النتائج السياسية لهذه الزيارة فيروى المؤرخ جريجوار أن السلطان قلعج أرسلان تعهد طوال حياته بالولاء والطاعة للامبراطور مانويل وأقسم على ذلك (٢) ، ويذكر ميخائيل السريانى أن الغرض من زيارة السلطان كان لطلب المساعدة والحصول على الأمان (٣) ، أما المؤرخ البيزنطى كيناموس فقد أشار أن

(١) عمر كال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٠ .

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣)

السلطان تعهد بوقف الغارات التي تشنها القبائل السلجوقية على الأراضي البيزنطية وإعادة المدن التي استولى عليها السلاجقة، وأن يعامل السلطان أعداء الامبراطورية البيزنطية معاملة الأعداء وأن لا يعقد صلحا أو معاهدة إلا بعد موافقة الامبراطور، وأن يقدم للامبراطور بعض الوحدات العسكرية لمساندة الامبراطور في حروبه في الشرق والغرب، وقد أقسم السلطان على ذلك كما أقسم الزعماء السلاجقة الذين رافقوا السلطان على أن يعملوا من جانبهم لضمان تنفيذ هذه الشروط وأن يجعلوا السلطان ملتزما بهذه المعاهدة (١).

والحقيقة أن كل ما رواه المؤرخون لم يتجاوز شروط معاهدة ١١٦١ م وأن ما اتفق من أموال الخزانة البيزنطية في هذه الزيارة لا يتناسب إطلاقا مع النتائج التي عادت على الامبراطورية (٢). ورغم هذا فإن هذه الزيارة قد أكدت عظمة الامبراطورية البيزنطية ومدى فرض نفوذها على السلاجقة وآل دانيشمنند. والدليل على ذلك أنه بعد عودة السلطان قلعج أرسلان إلى عاصمته قونية قدمت سفارة إلى الامبراطور مانويل من قبل ياغي أرسلان صاحب سيواس وشاهنشاه شقيق قلعج أرسلان تطلب من الامبراطور مانويل التوسط لدى السلطان السلجوقي في عقد الصلح ولكن الامبراطور مانويل لم يجب السفارة إلى طلبها وأشار عليها بالاتصال بقلعج أرسلان في هذا الأمر (٣). وإذا كان في موقف الامبراطور البيزنطي ما يشير إلى أنه كان يعمل على إعلاء شأن حليفه السلطان السلجوقي أمام أخيه وياغي أرسلان، فإن ذلك يعني أيضا أن قلعج أرسلان إذا وافق على عقد الصلح فعليه أولا أن يرجع للامبراطور

Cinnamus, op. cit., p. 207.

Chalandon, op. cit., p. 466.

Cinnamus, op. cit., p. 208.

(١)

(٢)

(٣)

مانويل طبقاً للشروط التي تمت أثناء زيارة السلطان للقسطنطينية . وبذلك يكون
الامبراطور مانويل قد نصب نفسه سبداً على السلاجقة بعد الولاء الذي قدمه
السلطان قلاج أرسلان وعلى آل دانشمند بعدما هرعوا اليه يطلبون وساطته في
الصلح مع حلفائه السلاجقة مثلما أصبح منذ قليل على الصليبيين والأرمن .
وعلى أية حال فقد انتهت هذه الأحداث من تاريخ الامبراطورية البيزنطية
بما يمكن أن نسميه فترة ذروة النفوذ البيزنطي في الشرق في عهد الامبراطور
مانويل .

الفصل الخامس

فشل الخطط البيزنطية في ضرب السلاجقة
وغزو مصر

(١١٦٣ - ١١٨٠ م / ٥٥٨ - ٥٧٦)

١١٦٣

- ١ - سوء تصرف الحاكم البيزنطي في أرمينية . ٥٨٦ - ٥٨٧
- ٢ - تحالف بيزنطي أرمني صليبي ضد المسلمين عام ١١٦٤ م ٥٨٦ - ٥٨٧
- ٣ - زواج عموري الأول من الأميرة البيزنطية ماريّا عام ١١٦٧ م .
- ٤ - اتفاق البيزنطيين والصليبيين على غزو مصر عام ١١٦٨ م . ٥٩٥ -
- ٥ - الحملة الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م . ٣٠٣ - ٣٠٤
- ٦ - زيارة الملك عموري للامبراطور مانويل عام ١١٧١ م .
- ٧ - معركة ميريو كيفالون عام ١١٧٦ م ونتائجها .
- ٨ - مشروع حملة بيزنطية صليبية في عام ١١٧٧ م .
- ٩ - تجدد الحروب بين السلاجقة وبيزنطة من عام ١١٧٧ - ١١٨٠ م .



تتميز هذه المرحلة من مراحل حكم الامبراطور البيزنطى مانويل — وهى المرحلة الأخيرة — بفشل الخطط البيزنطية فى ضرب السلاجقة وعدم امكان الامبراطورية البيزنطية من تنفيذ أطماعها فى مصر ، على العكس من المرحلة السابقة التى وصل فيها الامبراطور مانويل بالامبراطورية إلى ذروة النفوذ البيزنطى فى المنطقة . وقد تداخلت أحداث هذه الفترة وتشعبت واشتملت على كافة القوى الموجودة من الأرمن والصليبيين والسلاجقة والمسلمين فى مصر والشام .

وأول ما يطلعنا من أحداث فى هذه الفترة جاء من قبل أندرونيكوس الذى عينه الامبراطور مانويل حاكما على قيليقية فى عام ١١٥٩ م بعد خضوع الأمير ثوروس ، وقد أخذت هذه الأحداث وقائعها على ما يبدو فى شهر سبتمبر عام ١١٦٣ م / شوال ٥٥٨ هـ (١) . وحسب الروايات الأرمنية فقد قام أندرونيكوس بقتل ستيفانى أخى الأمير ثوروس ، وقد اختلفت هذه الروايات فى الطريقة التى قتل بها أندرونيكوس ستيفانى وفى النتائج التى ترتبت عليها ، فيذكر المؤرخ جريجوار أن ستيفانى مات نتيجة خيانة الدوق — أندرونيكوس — ويضيف أن ستيفانى مات خنقا وقام اخواه ثوروس ومليح بالانتقام من البيزنطيين بقتل عدة آلاف (٢) ، وفى رواية أخرى يروى

(١) أشار وليم الصورى أن عمورى كان فى مصر فى هذا الوقت أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, p. 345.

وقد قام عمورى بأربع حملات على مصر الأولى عام ١١٦٣ م والثانية ١١٦٤ م والثالثة ١١٦٧ م والرابعة عام ١١٦٨ م ، أنظر : محمود سعيد عمران : حملة جان دى برين الصليبية على مصر ص ٤٩-٥٩ ، كما قام عمورى بالتحالف مع البيزنطيين بحملة عام ١١٦٩ م أنظر ما يلى ص ٣٠١ وما بعدها ، وعن تحديد التاريخ أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, p. 302.

Gregoire le Pretre, op. cit., p. 198.

سمياد أن البيزنطيين اعتقلوا ستيقاني وقذفوا به في قدر مغلي فمات وخلف وراءه ولدين هما روبان Roupén وليو Leo ، وقد قام ثوروس وأخوه مليح بالانتقام من البيزنطيين وتمكن ثوروس من الاستيلاء على طرطوس والمصيصة وعين زربة وفاهجة (١). ويذكر مؤرخ أرمني آخر أن أندرونيكوس قبض على ستيقاني غدرا وقتله وقد أخذ ثوروس أولاده روبان وليو وأضفى عليهما حمايته وبدأ في الانتقام من البيزنطيين لمقتل أخيه فقتل عددا كبيرا منهم وهرب من تمكن من الهرب وبذلك استولى على مناطق كثيرة (٢). أما المؤرخ ميخائيل السرياني فقد سجل لنا أن أندرونيكوس حاكم قيليقية استضاف ستيقاني على مائدته ثم قام بقتله غدرا كما قتل من كان معه. لذلك غضب ثوروس وقام بقتل عشرة آلاف من البيزنطيين ، ولم يكن أمام أندرونيكوس سوى الهرب إلى ملك بيت المقدس عموري الأول Amalaric I (١١٦٣ — ١١٧٤ م / ٥٥٩ — ٥٧٠ هـ) وحاول أن يبرئ نفسه من التهمة ورجاء في عقد الصلح بينه وبين الأمير ثوروس ووعد بارتضاء ثوروس وتعويضه ببعض الأموال وقد نجح عموري في عقد الصلح بينهما وتوقف ثوروس عن الانتقام من البيزنطيين (٣).

ويتضح من الروايات الأرمنية أن ثوروس ألقى مسئولية قتل أخيه ستيقاني على عاتق أندرونيكوس وأنه قام بقتل آلاف البيزنطيين انتقاما لأخيه وأنه استولى على بعض المدن وأخيرا هرب أندرونيكوس من قيليقية. والواضح أن أندرونيكوس يعتبر مسؤولا فعلا عن قتل ستيقاني. أما قيام ثوروس بقتل

Gempad, op. cit., p. 621 ; Vahram d'Edesse, op. cit., op. p. 507. (١)

Guiragos de Kantzag, op. cit., p. 416. (٢)

Michel le Syrien, op. cit., p. 355. (٣)

آلاف البيزنطيين والاستيلاء على المدين فهو أمر مبالغ فيه بصورة واضحة ، وربما يكون ما حدث هو نوع من التمرد أو الفتنة المحدودة . وعلى أية حال فإن هذه الحادثة قد سببت ازعاجا للامبراطور مانويل ، ففي الوقت الذي أسرع فيه عموري بعد عودته من مصر (١) للقضاء على الفتنة التي قامت في قيليقية قام الامبراطور مانويل بعزل أندرونيكوس وعين مكانه حاكما آخر هو قسطنطين كولمان Constantin Coloman حاكما على قيليقية (٢) . وعلى ما يبدو أن هذا التصرف من قبل مانويل قد أرضى ثوروس وربما يكون الامبراطور قد عوضه أيضا ببعض الأموال كمعاقبته وهدأت الأحوال في قيليقية وعادت إلى ما كانت عليه بدليل ما نراه من تعاون البيزنطيين والأرمن والصليبيين في قتال المسلمين في العام التالي (٣) .

أما أندرونيكوس فقد غادر قيليقية وأتجه إلى الشام ومعه حامية كبيرة من الفرسان وظل في بيت المقدس حتى عودة الملك عموري من مصر ، وقد منحه عموري مدينة بيروت أقطاعا له ، ثم ما لبث أن ارتبط بعلاقات آثمة مع ثيودورا أرملة الملك بلدوين الثالث التي آلت إليها مدينة عكا وهرب معها إلى دمشق ثم تجولا في بلاد المسلمين (٤) ثم انسحبا من الحياة وقنعا بالاقامة في

(١) كان عموري قد حاصر الفرما ولكن ضرغام تصدى له وأجبره على الانسحاب أنظر : William of Tyre, op. cit., II, p. 302; Vitry, op. cit., p. 97.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر :

Schlumberger, G., Campagnes de Roi Amaury I, pp. 36—46.

Cinnamus, op. cit., p. 227.

(٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٠٣ ، Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 153.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, pp. 345—6; Michel le Syrien, op. cit., (٤) p. 361.

اقليم بنطس . وتم تمكن أندرونيكوس في عام ١١٨٣ من الدخول إلى القسطنطينية وتولى عرش الامبراطورية حتى عام ١١٨٥ م (١) .

وكما ساند الملك عمورى الامبراطور مانويل أثناء تمرد ثوروس ، فان الامبراطور مانويل ساند بدوره الصليبيين في حروبهم ضد نور الدين ، وترجع هذه الأحداث إلى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ - ١١٦٤ م عندما قام نور الدين بالتوجه على رأس قواته إلى حصن الأكراد (٢) بغرض منازلة طرابلس (٣) . ولعل ما شجع نور الدين على مهاجمة طرابلس هو احساسه بالنفور القائم بين ريموند الثالث أمير طرابلس والامبراطور مانويل بعد ما قام ريموند بمهاجمة الاملاك البيزنطية لرفض مانويل الزواج من أخته مليسند . وعلى أية حال فقد فوجيء نور الدين بالقوات الصليبية على مقربة منه ، وتضيف المصادر العربية أن كولمان حاكم قيليقية انضم إلى الصليبيين في هذه المعركة ، والواقع أن كولمان انضم إلى القوات الصليبية في مرحلة لاحقة (٤) ، والمهم أن القوات الاسلامية هزمت في هذه المعركة وتمكن نور الدين من النجاة بأعجوبة (٥) . وعاد نور الدين بعد هذه المعركة إلى حمص وأخذ يستعد لملاقاة الصليبيين وفي

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٥٣ .

(٢) حصن الأكراد : حصن متبع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب . ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ وكانت قلعة هذا الحصن تابعة للفرسان الاستتارية وهي قلعة منيعة تحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحيطان بها وقد استولى عليها الاستتارية عام ١١١٠ م واستعادها الظاهر بيبرس عام ١٢٧١ م . راجع : أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٥٩ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ .

(٤) أنظر مايلي ص ٢٨٦ .

(٥) العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٣٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٩٥ ،

ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٣ ، ابن كثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٦ .

الوقت نفسه استعد الصليبيون أيضا لمحاربة نور الدين وقصدوا مدينة حمص ولما علموا بوجود نور الدين بالمدينة خافوا واعتقدوا أن لدية من القوات ما يكفي لزيمتهم لذلك أرسلوا إلى نور الدين يسألونه الهدنة ولكنه لم يجهم ، لذلك عادوا إلى بلادهم بعدما تركوا حامية عند حصن الأكراد (١) .

واستعد نور الدين بكل قواته كما أرسل في طلب النجدة من أخيه قطب الدين في الموصل وقرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف الإسلامية يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد ضد الصليبيين (٢) ، وكانت وجهة القوات الإسلامية في هذه المرة إلى حارم التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية من الجهة الشرقية (٣) ، وكان السبب في قيام نور الدين بالهجوم على الصليبيين هذه المرة هو أن عمورى قاد جيشه للهجوم على مصر للمرة الثانية (٤) ، فأراد نور الدين مهاجمة أملاك الصليبيين ليخفف الضغط على مصر ويضطر الصليبيين للعودة إلى بلادهم وانقاذها من الهجمات الإسلامية (٥) . وما تجدر الإشارة إليه أنه في ذلك الوقت كان الصراع على أشده بين نور الدين والملك عمورى على امتلاك مصر بعدما ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءا بمقتل

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٨ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص

٣١٥ ، ٣١٨ .

Vitry, op. cit., p. 94.

(٣)

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص

١٧١ - ١٧٣ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨٢ - ٦٨٤ ، محمد

مصطفى زيادة : حملة بولس التاسع على مصر ص ١٢ - ١٤ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٨ .

الوزير ابن رزيك وابنه وحلول شاوور حاكم الصعيد في الوزارة وصراعه مع حاجبه ضرغام (١).

قام نور الدين بمهاجمة حارم ، وفي الوقت الذي كان فيه رينواف سانت فاليري Reynald of Saint Valery صاحب حارم يستبسل في الدفاع عنها انضم اليه بوهمند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس والأمير الأرمني ثوروس وقنسطنطين كولمان حاكم قيليقية البيزنطية لمساندته ضد نور الدين (٢) ، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك نية سابقة لمهاجمة المسلمين قد أعدت من قبل وأن الملك عموري اشترك في إعداد هذه القوات قبل القيام بحملته على مصر بدليل ما نراه من اصطحاب عموري لبعض القوات البيزنطية أثناء عودته من قيليقية (٣) بعد القضاء على الفتنة التي أعقبت مقتل ستيغاني ، أو أن عموري أحضر هذه القوات للدفاع عن الإمارات الصليبية أثناء غيابه في مصر ، ومن الواضح أن كولمان لم يشترك في مساندة الصليبيين إلا بعد موافقة الامبراطور مانويل الذي أمده ببعض القوات البيزنطية (٤) .

وعند هذه الامدادات نتوقف قليلا لايضاح أن انضمام كولمان وثوروس إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود نفور بين الأرمن والبيزنطيين بسبب مقتل ستيغاني يضاف إلى ذلك أن تقدم كولمان للدفاع عن حارم وهى من ممتلكات اماره أنطاكية ما يدل على اهتمام البيزنطيين بأمر أنطاكية باعتبارها واقعة تحت السيادة البيزنطية كما أن وجود القوات البيزنطية في المعركة إلى

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٩٠ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 307.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٤) Vitry, op. cit., p. 94.

جانب قوات طرابلس بقيادة ريموند الثالث ما يشير إلى أن حادثة مهاجمة ريموند للأملاك البيزنطية في عام ١١٦١ م لم تترك أى أثر في نفس الامبراطور مانويل (١) .

كان التقاء القوات الاسلامية بالقوات المتحالفة عند حارم في أوائل شهر أغسطس عام ١١٦٤ م / أواسط شهر رمضان عام ٥٥٩ هـ ، ولما وجد نور الدين ضخامة القوات المتحالفة التي قدرها ابن الجوزي بحوالى ثلاثين ألفا (٢) وأنه يحارب أربعة أمراء في وقت واحد يقودون قوات صليبية وأرمينية وبيزنطية (٣) انسحب إلى قرية «عم» بالقرب من حارم وطمع في أن تتبعه القوات المتحالفة فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم ولكن القوات المتحالفة لم تتبعه وعادت إلى حارم فتبعهم نور الدين في عساكره لقتالهم (٤) ، ويشير المؤرخ السرياني المجهول أن الأمير ثوروس نصح الأمراء الآخرين بعدم القتال والانتظار حتى يعود عمورى من مصر ولكنهم لم يأخذوا بالنصيحة لذلك هرب ثوروس من المعركة (٥) .

وعندما تقاربت القوات الاسلامية والقوات المتحالفة واصطفت للقتال حملت القوات المتحالفة على ميمنة القوات الاسلامية وكان فيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا فانهزم المسلمون (٦) . وعلى ما يبدو أن القوة التي هاجمت الميمنة كانت بقيادة قسطنطين كولمان وقد أشارت إليه المصادر الاسلامية

Richard, J., le Comte de Tripoli, p. 30. (١)

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٧ .

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 153. (٣)

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .

A.S.C., op. cit., p. 304. (٥)

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

باسم «الدوقس الرومي» وأنه كان أشدهم على المسلمين (١). ولكن المعركة ما لبثت أن تحولت لصالح المسلمين عندما قام الأمير زين الدين على كوجك وعساكر الموصل بالانقضاض على القوة البيزنطية وأنزل فيهم القتل والأسر الأمر الذي دفع الذي دفع المؤرخ جاك دي فترى إلى اتهام القوات البيزنطية بالجبن ووصفها بأنها عناصر غير محاربة (٢)، والمهم أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر وأحاطوا بالقوات المتحالفة من كل جانب واشتدت رحى الحرب حتى انتهت هزيمة القوات المتحالفة بعدما قتل منها عدد كبير قدرته بعض المصادر بعشرة آلاف فارس وراجل (٣)، كما وقع في أسر المسلمين كل من بوهمند أمير أنطاكية وريموند كونت طرابلس وجوسلين الثالث، وهيو أف لوزجنان Hugh of Lusignan (٤)، وحاكم قيليقية البيزنطي قنسطنطين كولمان (٥) : ولم ينج من الأسر من القادة المتحالفين سوى الأمير ثوروس الذي هرب من ساحة المعركة بعدما تبين له عدم جدوى مقاومة المسلمين (٦). وقد قيده هؤلاء القادة بالسلاسل وساروا إلى حلب مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ستة آلاف (٧).

كانت الهزيمة التي حلت بالقوات المتحالفة هزيمة ساحقة واعتبرت من

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) Vitry, op. cit., p. 94.

(٣) ابن الجوزى : ملخص تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ٥٩٣ ، ابن العديم المصدر السابق ج ٢

ص ٣٢٠ ، ابن كثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن واصل ج ١ ص ١٤٥ ،

أبو شامة ج ١ ص ١٣٣ ، العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٢٦٣ ،

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ص ١٤٧ ، William of Tyre, op. cit., II, p. 308 ;

(٥) Cinnamus, op. cit., p. 216 ; Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

(٦) A.S.C., p. 304.

(٧) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٧ .

تاريخ العرب في
سنة الفتح

أعظم الكوارث التي حلت بالقيادة الصليبية الشمالية (١)، وترتب عليها نتائج متعددة منها ، أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر فتقدموا لمهاجمة حارم واستولوا عليها بعد عدة أيام وسقطت في أيدي القوات الإسلامية في الحادي والعشرين من رمضان ٥٥٩ هـ / الثاني عشر من أغسطس عام ١١٦٤ م (٢) ، كما نجحت (٣) القوات الإسلامية في الاستيلاء على بانياس بعد حوالى شهرين ، الأمر الذي أرغم القوات الصليبية التي كان يقودها عموري في مصر على الانسحاب والعودة إلى الشام لانقاذ بانياس ولكنها وصلت بعد فوات الأوان (٤) . وهكذا نجح نور الدين في الاستيلاء على حارم وبانياس واجبار الصليبيين على الانسحاب من مصر .

كما ترتب على هذه المعركة نتيجة أخرى توضح لنا مدى النفوذ البيزنطي في أنطاكية ، فرغم الانتصارات التي أحرزها نور الدين مما جعل الطريق مفتوحا إلى أنطاكية خاصة بعد أسر بوهمند ، إلا أن نور الدين لم يجازف بمهاجمة المدينة لا لعجزه عن الاستيلاء عليها وإنما لخوفه من الامبراطور البيزنطي مانويل ، ومصادق ذلك أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بالسير إلى أنطاكية لملكها لخلوها ممن يحميها فلم يوافق وقال «أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة ولا تؤخذ إلا بعد حصار طويل . وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ، ومجاورة بوهمند أحب إلى جوار ملك الروم» (٥) .

King, op. cit., p. 90.

(١)

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٧ . William of Tyre, op. cit., II, p. 308.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٠٤ .

(٤) العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٣٦٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٥ .

ولقد كان نور الدين بعيد النظر عندما رفض مهاجمة أنطاكية ، ذلك لأن البيزنطيين كانوا لا يرضون بأى تدخل فى أنطاكية حتى ولو جاء من قبل الصليبيين أنفسهم ، ذلك أنه بعد عودة عمورى من مصر اتجه إلى أنطاكية لتدبير أمورها، ولعله كان طامعا فيها، ولكن البيزنطيين لم يرضوا عن تدخل عمورى فى شئون أنطاكية وقدمت سفارة بيزنطية لتسأله عن أسباب وجوده فى المدينة . ولكن عمورى كان لبقا وأشار أن ذلك بسبب استعداد سفارة لارسالها إلى القسطنطينية بغرض الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات (١) . وهكذا حسم عمورى الأمر ، كما يتضح من رد الملك الصليبي تودده للامبراطورية البيزنطية . ولعل ذلك ما دفع عمورى إلى الشكوى إلى الملك لويس السابع من تدخل البيزنطيين فى أنطاكية (٢) .

وعن النتائج التى جاءت من قبل الأسرى فيمكن القول أنه إذا كان خوف نور الدين من الامبراطور مانويل جعله لا يوافق على مهاجمة أنطاكية، فإن هذا الخوف أيضا دفعه إلى اطلاق سراح قسطنطين كولمان مقابل مائة وخمسين ثوبا من الحرير (٣) . أما فيما يتعلق بالأسرى الأرمن فيروى ميخائيل السرياني أن الأمير ثوروس أرسل إلى نور الدين بعض الهدايا مقابل اطلاق سراح الأسرى الأرمن، ولكن نور الدين رفض هذا العرض الأمر الذى دفع ثوروس إلى مهاجمة مدينة مرعش ونهبها وأسر العديد من المسلمين ، وعند ذلك تحول نور الدين إلى المصالحة وتبودلت الأسرى (٤) .

وعن فك أسر الأمير بوهمند صاحب أنطاكية فقد ذكر المؤرخ ولسم

Cinnamus, op. cit., pp. 237—8. (١)

Amalric I, letter to louis VII, cf., R.H.G.F., XVI, p. 39. (٢)

Cinnamus, op. cit., p. 216. (٣)

Michel le Syrien, op. cit., p. 359. (٤)

الصوري أن الصليبيين عملوا على إطلاق سراحه بعد دفع الفدية وبعد مضي حوالى سنة من وقوعه فى الأسر (١) ، ويضيف ميخائيل السريانى أن بوهمند اتجه إلى القسطنطينية فور الحصول على حريته وعاد محملاً بالهدايا ومعه البطريك البيزنطى الأرثوذكسى أثناسيوس ليكون بطريكا على أنطاكية (٢) . ورغم ذلك فالباحث يرى أن الامبراطور مانويل كان له دور فى إطلاق سراح بوهمند بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية فى أنطاكية عقب أسر بوهمند وقد استفسرت هذه السفارة عن سبب تواجد عمورى فى أنطاكية ، ويعنى ذلك أن بقاء عمورى فى المدينة أمر غير مرغوب فيه من قبل الامبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى لا نجد فيه مثل هذه السفارة عقب أسر رينو أف شاتيون والذى كان لا يزال أسيرا حتى هذا الوقت (٣) ، كما أن استفسار السفارة عن أسباب وجود عمورى فى الإمارة يعنى أمرا آخر ، وهو أن أنطاكية لا تتبع الملك عمورى وليس له حـق التدخل فى الإمارة ويكون ذلك استنادا إلى أمرين أولهما ، اما أن تضع الامبراطورية البيزنطية يدها على الإمارة وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق هذا الغرض وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية وهو ما لم يحدث ، والأمر الثانى أن بوهمند عائد إلى الإمارة عن قريب ولا داعى لوجود عمورى . وإذا كان ذلك ما يتعلق بموقف البيزنطيين والصليبيين من إطلاق سراح بوهمند فإنه استكمالا لهذه القضية — يتطلب الأمر القاء الضوء على موقف نور الدين من فك أسر بوهمند . وقد صور لنا المؤرخ وليم الصورى ، موقف نور الدين خير تصوير فروى أن نور

William of Tyre, op. cit., p. 311.

(2)

Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

(3)

(٤) بقى رينو فى الأسر من عام ١١٦٠ - ١١٧٥ م .

الدين لم يتعود على اطلاق سراح الزعماء بعد وقت قصير، وأن اطلاق سراح بوهمند يرجع إلى بعد نظر ورجاحة عقل نور الدين، وأن ذلك يرجع إلى خوف نور الدين من تدخل القوات البيزنطية أو أن نور الدين رأى إعادة بوهمند ليحكم أنطاكية حتى لا يحل محله في الامارة أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء فيشكل خطورة على الممتلكات الإسلامية (١). وبذلك بات من الواضح أن النفوذ البيزنطي كان له أكبر الأثر على تصرفات نور الدين في مجرى هذه الحوادث، فالنفوذ البيزنطي حال دون تقدم نور الدين لمهاجمة أنطاكية. وكان له أثره الواضح في اطلاق سراح قنسطنطين كولمان، كما أن اطلاق سراح بوهمند يرجع في معظم جوانبه إلى الامبراطور مانويل.

تبقى من هذه القضية نتيجتان : النتيجة الأولى تتعلق بالناحية الاقتصادية، وهي أن نور الدين أطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين مقابل بعض الأسرى المسلمين (٢). أما البقية الباقية فقد بلغت حصيلة القدية ستائة ألف دينار وقد استغلها نور الدين في بناء المدارس والروابط والمستشفيات وما شابه ذلك (٣). أما النتيجة الثانية فتتعلق بالنفوذ الديني في أنطاكية، ذلك أن بوهمند عاد من القسطنطينية ومعه البطريك الأرثوذكسي أثناسيوس الأمر الذي أغضب البطريك الكاثوليكي ايمرى الذي احتج على هذا العمل والتجأ إلى قلعة القصير (٤). وقد أغضب ذلك أيضا رجال الدين طوال فترة بقائه في بطريكية أنطاكية (٥). كما احتجوا أيضا على هذا العمل وأيدهم البابا اسكندر الثالث Alexander III

(١) William of Tyre, op. cit., p. 311.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٥.

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٨.

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 360.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٨٦.

(١١٥٩ - ١١٨١ م) والقوى المسيحية في الغرب ، وقد ظل أنثاسيوس في أنطاكية حتى عام ١١٧٠م عندما مات من أثر الزلزال التي اجتاحت المدينة ولم يعين بطريكا أرثوذكسيا خلفا له (١) . وكلمة أخيرة نسجلها حول هذا التحالف الصليبي الأرمني البيزنطي هي أن هذه المعركة كانت آخر معركة على أرض الشام تشترك فيها القوات البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل ، ورغم النهاية الفاشلة التي منيت بها الا أنها توضح لنا أثر النفوذ البيزنطي على حكام الشام المسلمين والصليبيين .

والواضح أن الملك عموري كان أول من يعلم بما للامبراطورية البيزنطية من نفوذ في منطقة الشام بصفة خاصة والشرق بصفة عامة ، فهو ليس غريبا عن المنطقة وكان يدرك تماما مدى المزايا التي عادت على الامارات الصليبية من جراء مساندة الامبراطورية البيزنطية للصليبيين خاصة في عهد أخيه بلدوين بعد تصاهره مع الامبراطور مانويل ، ولقد كان شعور عموري بهذه الحقيقة في هذا الوقت بالذات نظرا لحاجته إلى مساندة خارجية خاصة ، وأنه منذ عودته من مصر فاشلا بعد حملته الثانية وفكرة العودة إليها لا تغيب عن باله ، وأيقن أنه لا يستطيع القيام بمثل هذا العمل بمفرده لموقف نور الدين من حملاته على مصر .

واتجه عموري إلى الامبراطورية البيزنطية وسعى إلى الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات بأمل تقوية الروابط بين الصليبيين والبيزنطيين ، وليجد في الامبراطورية البيزنطية سنداً له على نور الدين . وبدأ في تنفيذ فكرته في عام ١١٦٥ م / ٥٦٠ - ٥٦١ هـ أي بعد عام من معركة حارم وأعد سفارة

للتوجه إلى القسطنطينية بغرض عرض أمر هذا الزواج، وتكونت السفارة من
هرنسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيسارية ويودس أف سانت أماند
Eudes of Saint-Amand ، وقد ظلت هذه السفارة في العاصمة
البيزنطية لمدة عامين وعادت في عام ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ بعدما انجزت المهمة
التي كلفت بها ومعها ماريا ابنة يوحنا بن عم الامبراطور مانويل، وكان في
صحبهم أيضا بعض النبلاء البيزنطيين ورسى الجميع في ميناء مدينة صور
حيث أسرع الملك عمورى لاستقبال العروس وحاشيتها ثم ما لبثت أن احتفل
بالزواج في كنيسة مدينة صور، وقام البطريك ايمرى باتمام مراسم الزواج في
التاسع والعشرين من أغسطس عام ١١٦٧ م / الحادى عشر من ذى القعدة
عام ٥٦٢ هـ (١) ، وبذلك تعاقبت ملكتان بيزنطيتان على عرش مملكة بيت
المقدس الصليبية (٢) ، وسيكون لهذا التصاهر أثر بعيد في السياسة البيزنطية
في منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ، وأهم ما ترتب عليه تعاون البيزنطيين
والصليبيين بغرض غزو مصر (٣) ..

كان الصراع بين نور الدين وعمورى على فتح مصر قد بدأ منذ عام
١١٦٣ م، وكان كلا منهما يعلم تمام العلم أن فوزه بمصر يعنى انتصاره الحاسم
على خصمه . ورغم أن الموقف كان لصالح الصليبيين في هذه المرحلة :
أواخر عام ٥٦٢ هـ / خريف عام ١١٦٧ م ، إلا أن عمورى كان يعلم تماما
أن نور الدين يعد نفسه لجولة أخرى . لذلك كان على الملك عمورى أن يبحث

William of Tyre, op. cit., II, p. 344.

(١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٤ .

Michel le Syrien, op. cit., p. 369.

(٣)

له عن حليف قوى يسانده على نور الدين وكان أن اتجه عمورى إلى الامبراطور مانويل لتحقيق هذا الهدف (١) .

والواضح أن التفكير في غزو مصر بالتعاون بين الصليبيين والبيزنطيين لم يكن وليد تلك الساعة فقد سبق أن تبودلت عدة رسائل بين الملك عمورى وبين الامبراطور مانويل حول هذا الموضوع ، ومن المحتمل أن يكون عمورى هو الذى أشار على الامبراطور بفكرة غزو مصر وأنه طلب من مانويل مساعدته بالقوات البحرية والأسطول والأموال الضرورية مقابل اقتسام مصر بين الصليبيين والبيزنطيين (٢) .

وإذا كان ذلك ما سجله ولم يصورى حول فكرة غزو مصر فإن المؤرخ البيزنطى كيناموس سجل لنا أن الدافع وراء غزو مصر هو أن الامبراطور مانويل كان يرى أن مصر كانت من ضمن أملاك الامبراطورية فيما مضى - أى قبل الفتح الاسلامى لمصر (٣) - وأن للامبراطورية البيزنطية حقوق على مصر ويجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطى (٤) . وربما يرجع اختيار مانويل لهذا الوقت بالذات هو أن الأميراطور لم يكن فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافس نور الدين وعمورى حول القوز بوادى النيل (٥) . وهكذا بات واضحاً أن

(١) حول هذه الفكرة أنظر : عمر كاك توفيق : المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 348.

(٣) عن فتح المسلمين لمصر أنظر : ابن اصبغ الأموى : فتوح مصر وأعمالها ص ٥ وما بعدها ، الواقدي : كتاب فتوح مصر والاسكندرية ص ٧ وما بعدها .

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 278; Fabri, op. cit., Vol. 2 Part I, p. 329.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٤ .

الامبراطور مانويل كان يطمع في فتح مصر باعتبارها من الأملاك البيزنطية قبل الفتح الاسلامى وأن عمورى يطمع أيضا في مصر طمعا في ثرواتها وحتى لا يستولى عليها نور الدين فيقع الصليبيون بين شقي الرحى ، وبصفة عامة فان استيلاء الصليبيين على مصر يضعف من القوى الاسلامية ويفصل الشرق الاسلامى عن مغربه (١) . ورغم اختلاف أهداف كل من عمورى ومانويل في غزو مصر فانهما اتفقا معا على التعاون في انجاز هذا المشروع (٢) .

كان تصاهر عمورى مع الامبراطور مانويل فاتحة عمل جدى لتنفيذ فكرة غزو مصر ، فقد قدم مع الأميرة ماريا عروس الملك عمورى اثنان من رجال البلاط البيزنطى هما جورج باليرلوج George Palaeologus وأمير آخر يحمل نفس اسم الامبراطور وهو مانويل كومنينوس وإلى جانب المهمة الموكولة اليهما وهى اتمام زواج ماريافقد ، زودوا بالصلاحيات لمناقشة عمورى في أمر التحالف البيزنطى الصليبي لغزو مصر (٣) ، والواضح أنه بعد دراسة الموضوع عادت السفارة إلى القسطنطينية لتحمل إلى الامبراطور ما انتهى اليه رأى الصليبيين حول هذا المشروع .

وعلى ما يبدو أن موقف الصليبيين لم يكن واضحا أو محددا أو كان يكتنفه بعض الغموض لذلك نرى الامبراطور مانويل يقوم بارسال سفارة أخرى في صيف عام ١١٦٨ م / أواخر عام ٥٦٣ هـ (٤) ، وتكونت هذه السفارة من الكسندر أف جرافينا Alexander of Gravina ، وميخائيل

Lamb, The Crusades, p. 34.

Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 157—8.

Cinnamus, op. cit., p. 238.

William of Tyre, op. cit., II, p. 347.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

أف أوترانتو Michael of Otranto وهما من أعضاء البلاط البيزنطى (١) ووصلت هذه السفارة إلى مدينة صور فاستدعاه الملك عمورى واجتمع بها وبمستشاريه وقدمت السفارة خطابا من الامبراطور يوضح فيه أن مصر وهى الدولة الغنية تسيطر عليها الآن حكومة ضعيفة وأصبح الخليفة الفاطمى لا حول له ولا قوة وأن المسلمين بالشام أصبحوا يتطلعون بحماس للاستيلاء عليها لضعف الحكام القائمين على أمرها ، كما أن الامارات الصليبية يجب أن تتسع رقعتها وتمتد حدودها حتى مصر وأن الامبراطور مانويل يعتقد أنه بموجب المساعدات البيزنطية يمكن فتح مصر (٢) .

والواضح من هذه الرواية أن الامبراطور كان يشجع الصليبيين على غزو مصر ويهون عليهم الأمر ، كما أنه وعد بالمساعدة لتحقيق هذا الغرض . كما توضح لنا أيضا أن الامبراطور مانويل كان يعمل على استمالة الصليبيين إليه لانتماء هذا المشروع . ولعله أدرك أن الأسطول البيزنطى لا يكفى وحده للسيطرة على مصر وأنه كان يرى الاستفادة من الجيش الصليبي البرى الذى أصبح الآن يعرف بعض مسالك مصر ودروبها ، يضاف إلى ذلك أن الملك عمورى كان على اتصال ببعض العناصر التى بإمكانها مساعدته فى تحقيق هذا الغرض (٣) .

على أية حال فبعد ما تبودلت الأفكار بين الملك عمورى ومستشاريه من جانب والسفارة البيزنطية من جانب آخر وافق الجانبان على بعض الخطوط

(١) يلاحظ أن كلامن الكسندر وميخائيل كانا من أصل ايطالى أنظر :

Chalandon, op. cit., p. 536.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 347—8.

(٢)

(٣) حول هذه الفكرة أنظر : أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

العريضة للمشروع، وكلف الملك عمورى المؤرخ ولیم الصورى بالتوجه إلى القسطنطينية مع السفارة البيزنطية لعرض رأى الملك الصليبي وكافة النبلاء حول فكرة غزو مصر وخطة التنفيذ : وقد خول ولیم الصورى بسلطات واسعة لانجاز هذا العمل . وعندما وصل ولیم الصورى والسفارة إلى العاصمة البيزنطية كان الامبراطور مانويل مشغولا لبعض الوقت في اخاد الفتنة التي قامت في الصرب في هذا الوقت (١) ، ولما كان الأمر من الأهمية ولايحتمل التأخير من وجهة نظر الصليبيين فقد اتجه ولیم الصورى حيث يوجد مانويل وقابله عند مدينة بوتلا Butella : وقد استقبله الامبراطور استقبالا مشرقيا ثم قام ولیم بشرح مشروع المعاهدة الصليبية البيزنطية وكان الامبراطور يصغى بكل اهتمام وفي نهاية الأمر وافق الامبراطور مانويل على شروط المعاهدة ووضعت في صيغتها النهائية وتتلخص في قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية في غزو مصر وحصول الامبراطورية البيزنطية على جزء معين من أرض مصر واقتسام الاسلاب التي تسلبها الحملة (٢) .

وعلى ما يبدو أنه تم الاتفاق أيضا بشأن رعاية الامبراطور مانويل للكنيسة الأرثوذكسية في الاراضى المقدسة وشاهدنا على ذلك ما سجله الرحالة البيزنطي يوحنا فوكاس في عام ١١٨٥ م / ٥٨١ هـ وما سجله أيضا الرحالة الألماني ليودلف فون سواكيم في عام ١٣٥٠ م / ٥٧١ هـ : عن النص المكتوب باللغة اليونانية واللاتينية في كنيسة السيدة العذراء في مدينة بيت لحم ومضمون هذا النص أن زخرفة هذه الكنيسة قام بها الفنان افرم Ephrem في عهد

(١) عن هذه الأحداث أنظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 345; Vambery, Hungary, p. 119.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 348—9.

(٢)

الامبراطور مانويل والملك عمورى ورالف Ralph أسقف الكنيسة، وقد أنجز هذا العمل فى عام ١١٦٩ م / ٥٦٤ — ٥٦٥ هـ (١) .

عاد وليم الصورى من رحلته فى أول أكتوبر عام ١١٦٨ م / السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٣ هـ ولكنه لم يجد عمورى فى بيت المقدس فقد كان قد توجه إلى مصر على رأس قواته (٢) ، ويتضح من ذلك أن الملك عمورى لم يشأ أن ينتظر فراغ الامبراطور من مشاكله فى البلقان وانفرد دون شركائه البيزنطيين فى الهجوم على مصر (٣) . ولكن هذه الحملة باءت بالفشل بعد ما اتحدت القوات المصرية والشامية تحت قيادة أسد الدين شيركوه . ولما شعر عمورى أن بقاءه فى مصر أصبح مستحيلا اضطر إلى الانسحاب وعادت القوات الصليبية بخفى حفين (٤) .

زاد انزعاج الصليبيين لحكم شيركوه لمصر وضياعها بالنسبة لهم (٥) ، واتحاد القوات الاسلامية فى مصر والشام ، وأيقن الصليبيون أن ممتلكاتهم بالشام أصبحت «على شفا جرف هار» (٦) وأنه أصبح بالامكان تخريب بلادهم وقلع آثارهم (٧) : لذلك نجح عمورى يعمل على حشد القوى الصليبية والبيزنطية والأوربية ليقوم بعمل عسكري كبير ضد مصر ليقضى على القوة

(١) Joannes Phocas, The Pilgrimage in the holy land pp. 19; 31

Ludolph von Sucham, Description of the Holy land, pp. 93—4.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 349.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٣٥ ، ٣٤١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٧١ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٥١ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٧٩ .

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤١ .

الجديدة الناشئة فيها ، وبدأ في تنظيم قواته بالشام وأغرى الفرسان الاستبارية للمشاركة مشاركة فعالة في مشروعه الجديد . وذلك بمنحهم بعض الامتيازات الاقطاعية والمالية في مصر (١) ، واتصل بالامبراطور البيزنطي مانويل ليحدد معه اتفاقية عام ١١٦٨ م التي أبرمها المؤرخ ولیم الصوری من أجل غزو مصر (٢) ، وفي الوقت نفسه استنجد الملك عموري بملوك وأباطرة الغرب الأوربي خاصة المانيا وفرنسا وانجلترا وصقلية وكذلك بكل النبلاء المشهورين (٣) . وأخبرهم أن الصليبيين خائفون على بيت المقدس (٤) ، ولم يكتف عموري بذلك بل لجأ إلى طعن شريكه من الخلف وكاتب بعض أعيان المصريين لمساعدته على تنفيذ فكرته (٥) ، ويضمن القضاء على شريكه قضاء نهائيا . ومن الملاحظ أن الملك عموري عمل على توسيع رقعة النجيدات في الحملة المقبلة وربما كان القصد من وراء ذلك ضمان نجاح الحملة أو لعله قصد من وراء ذلك أيضا ألا تكون مشاركة البيزنطيين في الحملة مشاركة واضحة خشية استيلاء البيزنطيين على مصر وتضييع أحلامه في السيطرة عليها . ومن الملاحظ أيضا أن الغرب الأوربي لم يستجب لنداء الملك عموري وذلك بسبب مشاكله الداخلية (٦) ، فاكتمى عموري بالتحالف البيزنطي ومساندة بعض الأعيان في

(١) King, op. cit., pp. 100—101.

وقد أورد المؤرخ كنج نص هذا الامتياز المؤرخ في الحادي عشر من أكتوبر ١١٦٨ م أي بعد عودة عموري من مصر بقليل ويتضح منه أنه منح الفرسان الاستبارية حوالى مائة وخمسين ألف بزنط سنويا .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 359.

R.H.G.F., XVI, pp. 187—8. (٣) عن رسائل الملك عموري للغرب أنظر :

(٤) العيني : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٤٥٥ .

(٥) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٢٣١ .

Conder, op. cit., p. 126. (٦)

مصر . وما يهمننا في موضوع البحث هو دور الامبراطورية البيزنطية في غزو مصر والاهداف التي كانت تسعى لتحقيقها نتيجة هذا التحالف .

والواضح أن الامبراطور مانويل كان أشد حماساً من الصليبيين لتنفيذ مشروع غزو مصر ، ففي صيف عام ١١٦٩ م / أواخر عام ٥٦٤ هـ لم يعد الامبراطور السفن والقوات البيزنطية المتفق عليها بل قام باعداد سفن وقوات تفوق حجم السفن والقوات التي تضمنتها المعاهدة ، فأعد مائة وخمسين سفينة من نوع الشواني (١) ، يضاف إلى ذلك ستين سفينة كبيرة مسلحة تسليحاً جيداً وقد أعدت لحمل الخيول ومزودة بفتحات واسعة في المؤخرة للدخول وخروج الدواب وهي النوع المعروف بالطريدة (٢) وكذلك بعض الكباري التي تصل بين البر والسفن وحوالي عشرة أو عشرين سفينة من نوع الدرملون (٣) ، وبالغت المصادر العربية في عدد هذه السفن وذكرت أنها «ألف ومائة مركب

(١) الشني : أقدم أنواع السفن الرومانية وزادت أهميتها في العصور الوسطى وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلة ، وعليها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ومتوسط ما يحمل عليها من الرجال مائة وخمسون رجلاً ولها حوالي مائة مجداف . أنظر : ابن علق : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .

(٢) عن الطريدة أنظر أيضاً : أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٣٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 361 ; Nicetas, op. cit., p. 208.
والدرملون : وتجمع درامين وهي نوع من السفن كان معروفاً لدى البيزنطيين كاحدى القطع الحربية وتشتمل على صفين من الجاذيف وتحمل عدداً من الرجال يتراوح بين مائتي إلى ثلاثمائة وهذه السفينة مزودة ببرج محاط بالألواح ليقف فوقه الرجال المقاتلة يرموا إلى وسط مراكب العدو . أنظر : درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ٤٦ - ٤٨ .
ويلاحظ أن مجموع هذه الشواني والدرايين كان بإمكانها أن تحمل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألف مقاتل .

ما بين شيتي وطريدة ومسطح» (١) ، والمهم أن الأسطول البيزنطي كان يحمل من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر (٢) .

تولى قيادة الأسطول البيزنطي أندرونيكوس كونتوستفانوس (٣) ، ويعاونه في هذه المهمة مايورك Maurice الذي كان يتمتع بالثقة الكبيرة

لدى الامبراطور والكسندر أف كونفرسانا Alexandre of Gonversana

أحد نبلاء أبوليا — نظرا لاخلاصه وولائه للامبراطورية . وخرج الاسطول في الخامس عشر من يوليو عام ١١٦٩ م / الثامن عشر من ذى القعدة عام ٥٦٤ هـ من مياه الدردنيل واتجه إلى قبرص فوجد في طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما ، ولعل ما قام الأسطول البيزنطي كان انتقاما من مهاجمة بعض السفن المصرية لجزيرة قبرص عام ١١٥٨ م . وعندما وصل الأسطول البيزنطي إلى جزيرة قبرص أرسل قائده حوالى عشرة سفن إلى عكا تحمل الأموال المتفق عليها اللازمة للصرف على القوات الصليبية، ولتحمل أيضا إلى الملك عمورى خبر تجمع الأسطول في قبرص وأنها على استعداد للانقلاع إلى مصر عندما يكون عمورى وقواته مستعدين للرحيل وظل الأسطول البيزنطي في قبرص حتى شهر سبتمبر دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعداد القوات الصليبية للرحيل (٤) .

(١) المقرئى : المصدر السابق ج١ ص ٣٤٧ . والمسطح ثوع من السفن الحربية الكبيرة وربما سميت كذلك لأن لها سطحا وهى تسع حوالى خمائة راكب أويزيد وتستعمل أيضا في القتال النهري . أنظر أيضاً : سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٦٨ ، درويش النخيل : المرجع السابق ص ٢٤١ - ١٤٣ .

Nictas, op. cit., p. 208.

(٢)

(٣) يلاحظ أن أندرونيكوس كان من القادة المشاة البارزين وليس من القادة البحريين وكانت شهرته في الحرب خاصة في حروب الامبراطورية مع المجر . أنظر :

Foord, op. cit., p. 353.

Nicetas, op. cit., p. 208—9; William of Tyre, op. cit., II, p. 262; (٤)

Cinnamus, op. cit., pp. 278—9.

وعلى ما يبدو أن الملك عمورى كان يحتاج لبعض الوقت لاعداد القوات وتنظيم شئون دولته أثناء غيابه في مصر، وكان عليه أن يعد بعض القوات لحماية المملكة فترة تواجده خارج البلاد (١) ، وهذا يدل على أن الامبراطور كان أكثر استعدادا وتحمسا لغزو مصر في اعداد الأسطول في وقت مبكر ويمثل هذه الأعداد التي تفوق الأعداد المتفق عليها لخير دليل على ذلك ، ولعل الملك عمورى عندما شاهد ذلك خشى من التفوق الحربى البيزنطى في غزو مصر والانفراد بها مما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة ، وعلى أية حال فإن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدد أمن الامارات الصليبية بالقدر الذى تهدد به القوات الاسلامية التي أصبحت تسيطر على مصر والشام في ذلك الوقت . والواضح أن الملك عمورى رأى الانضمام للحملة البحرية البيزنطية حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام الشام المسلمين أو تقع في أيدي القوات البيزنطية إذ رأت الانفراد بالحملة ومهاجمة مصر .

استعدت القوات الصليبية وأرسل عمورى في طلب الأسطول البيزنطى من قبرص (٢) ، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان في الخامس عشر من أكتوبر عام ١١٦٩ م / آخر المحرم ٥٦٦ هـ ، ثم ما لبث أن وصل الأسطول البيزنطى إلى مدينة صور ثم تقدم إلى مدينة عكا ومنها إلى عسقلان (٣) . وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط (٤) «ليتمكن القاصد لها من البر

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 262.

(٢) يلاحظ أن الأسطول البيزنطى ظل في قبرص حوالى ثلاثة أشهر تبدأ من منتصف يوليو حتى منتصف أكتوبر عام ١١٦٩ م .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 262.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

والبحر» (١) ، فان ملكوها «يتخيلونها ظهرا يملكون به الديار المصرية» (٢) .
وإذا كانت أطماع الصليبيين في مصر باتت واضحة فلعل الامبراطورية
البيزنطية كانت ترمى أيضا من وراء السيطرة على مصر في هذا الوقت بالذات
هو ضرب تجارة البنادقة نظراً للصراع الدائر بينهما في ذلك الحين (٣) .

سار الجيش الصليبي من عسقلان في السادس عشر من أكتوبر / أول
صفر أى في اليوم التالى لتجمع القوات في عسقلان واتخذت طريقها إلى مصر .
وقد وصلت إلى مدينه القرما — التى كانت خربة في ذلك الوقت — بعد تسعة
أيام وحاولوا السير بمحاذاة الشاطئ ولكنهم اضطروا للابتعاد عن الطريق
الساحلى لكثرة المياه التى تغمر هذه المنطقة واضطروا إلى الدوران حول
المستنقعات ثم عادوا إلى الطريق الساحلى حتى وصلوا إلى بوغاز بحيرة تنيس
(المنزلة حاليا) وقد ساعدت بعض قطع الأسطول البيزنطى التى كانت تسير
بحذاء الشاطئ على نقلهم إلى الجهة المقابلة ثم واصلوا مسيرتهم حتى وصلوا
إلى شمالي دمياط في السابع والعشرين من أكتوبر / الثالث من صفر وعسكرت
في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة وظلت في انتظار تجمع الأسطول البيزنطى
الذى تباعدت معظم قطعه بسبب شدة الرياح وهياج البحر. ولكن هذا الانتظار
لم يدم طويلا فقد تجمعت السفن بعد ثلاثة أيام بعد هدوء الأمواج ودخلت فم
النيل ورست مقابل القوات الصليبية ولم تتمكن من السير في النيل بعد ذلك
بسبب وجود السلسلة التى تمتد من دمياط إلى برج السلسلة (٤) .

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥١ .

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 363; Nicetas, op. cit., p. 210.

وكان برج السلسلة يقع في وسط النيل وهو أقرب إلى الضفة الغربية من الضفة الشرقية وكان

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلف شيركوه في حكم مصر ، ولما علم بأخبار هذه الحملة فقام بتحسين بلبس والاسكندرية والقاهرة ظنا منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها في الحملات السابقة (١) وبقي صلاح الدين بالقاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده (٢) : ولما علم بوصول القوات المتحالفة عند دمياط أرسل إليها الرجال والسلاح بقيادة أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين (٣) ، كما أرسل عددا كبيرا من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة (٤) ، وفي الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين في دمشق يخبره بما حدث «ويشكو الخفاة من تواجد الفرنج في دمياط» ويقول «أني أن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج . وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر ، وخرجوا عن طاعتي وساروا في أثرى ، والفرنج من أمامي ، فلا يبقى لنا بقية» فسير إليه نور الدين العساكر تباعا كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين في الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي (٥) .

وفي الوقت نفسه تشجعت القوات الصليبية بعدما وصل الاسطول

= من الحجارة وفي غاية المتانة ويتكون من عدة طوابق وفي أسفل البرج توجد السلسلة التي تمتد إلى برج آخر بالمدينة وكان رجال برج المدينة يرخون السلسلة إذا أرادوا أن تصعد السفن في النيل ويشدونها إذا أرادوا منعتها من ذلك : أنظر : Hist. Pate. Alex., pp. 241—2 ; Vitry, lettres de Jacques de Vitry, p. 105.

ولمزيد من التفاصيل راجع : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٢ .

(٢) النوري : نهاية الأرب ج ٢٦ لوحة ١١٦ ، ابن خلدون : المصدر السابق : العبر ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

البيزنطي وبدأت في اقامة معسكرها في الحدائق المنتشرة بين البحر والمدينة، وكان لهذا التأخير نتائج سيئة على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد (١) . لأن المدينة قد امتلأت بالرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات الحرب (٢) . وبذلك ضاع أمل الصليبيين والبيزنطيين في الاستيلاء على دمياط بسهولة ، وكان عليهم بذل جهد أكبر حتى يتمكنوا من اقتحام المدينة . لذلك قاموا باعداد برج خشبي ضخيم مكون من سبعة طوابق حتى يتمكنوا من رؤية ما يجري داخل المدينة من أعلاه وأثناء العمل في تشييد هذا البرج كانت المتجانيقات تضرب المدينة لتحمي العمال الذين يقومون بصنع البرج (٣) ورغم ذلك كله فقد ضبر أهل دمياط رغم كثرة القوات المتحالفة وشدة القتال (٤) . وعلى ما يبدو أن الصليبيين لم يتمكنوا من انزال الضرر بالمدينة تمهيدا لاقتحامها لذلك فكروا في حيلة أخرى ليصلوا إلى قلب دمياط وحاولوا اقامة بعض السراييب ليصلوا إلى المدينة من تحت الأسوار (٥) والواضح أن فكرة حفر السراييب قد باءت بالفشل نظرا لوجود المياه في الخنادق التي تفصل بين الأسوار وتحيط بالمدينة (٦) : أو أن قذائف المدافع عن المدينة قد حالت دون ذلك .

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 364; Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 160—1.

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٣ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٦) كانت الأسوار تحيط بالمدينة من كل جانب ، فمن الناحية البحرية الغربية كان يحيط بالمدينة سوران بينهما خندق كما كان يحيط بالمدينة في بقية الجهات ثلاثة أسوار بينها الخنادق وكانت كل الخنادق تملأ بالمياه كما لم تكن الأسوار كلها متساوية الارتفاع فالسور الخارجي أقل

عاد الصليبيون إلى استعمال البرج الحشبي مرة أخرى وضرب المدينة بالمنجانيقات، وقد تسبب ذلك في هدم جزء من سور المدينة والمنازل المجاورة له (١)، ورغم اشتداد هجمات القوات المتحالفة على دمياط إلا أن أهل المدينة ظلوا ثابتين على قتال المهاجمين (٢)، وعلى ما يبدو أن ما تهدم من السور كان جزءا بسيطا وفي مكان مرتفع لا يسمح بدخول الصليبيين إلى المدينة.

ويروى المؤرخ ولیم الصوری أن القوات الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء محاولات القوات المتحالفة اقتحام المدينة فقاموا بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي وشحنوه بالمقاتلة لمقاومة الجهود الصليبية البرنطية بالفكرة نفسها وقد ردوا على اعتداءات المهاجمين بالعنف نفسه ويضيف نفس المؤرخ مشيدا بالجهود الضخمة والمهارة الفائقة التي أبدتها المسلمون في الدفاع عن مدينتهم وأنهم تفوقوا على القوات المتحالفة التي شعرت بهذا التفوق في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال (٣)، وليس ذلك فحسب فقد أصيبت القيادة المتحالفة بالارتباك. والدليل على ذلك أن القوات المتحالفة أعدت بعض الأبراج الخشبية المتحركة

ارتفاعا من السور الذي في الوسط والسور الملاصق للمدينة أكثر ارتفاعا. عن ذلك ولزید من التفاصيل أنظر : محمود سعید عمران : المرجع السابق ص ٢٠٥-٢٠٦.

Vitry, op. cit., pp. 125—6.

William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(١)

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ١ ص ٢٧٩ ، المقرئی : المصدر السابق ج ١ ص

٣٤٧ ، راجع أيضا ابن أبيك : درر التيجان ورقة ٤٩١ ، ابن الفارقي : تاريخ مبافارين

(ميكرو فيلم) أحداث عام ٥٦٥ هـ .

William of Tyre, op. cit., II, pp. 364—5.

(٣)

ليقاتلوا بها القوات الاسلامية التي تتركز في أبراج المدينة (١)، ولكن القوات المتحالفة قامت بمهاجمة النقط الحصينة في المدينة رغم وجود بعض الأماكن الضعيفة التي لم تكن محمية بما فيه الكفاية بالقوات الاسلامية وكان يمكن السيطرة عليها بسهولة . وبذلك لم تتمكن القوات المتحالفة من انزال أى ضرر سوى هدم كنيسة السيدة العذراء التي كانت ملاصقة للسور (٢) .

وإذا كان ذلك هو الحال مع القوات البرية فإن الاسطول البيزنطي لم يتمكن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة . وبذلك أصبح عاجزا عن تقديم المساعدة العسكرية التي كانت متوقعة (٣) . وليس ذلك فحسب فإن القوات البحرية البيزنطية كانت تحمل معها المؤن التي تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ إبحارها من مياه الدردنيل في منتصف يوليو عام ١١٦٩ م ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها من جراء غارات رينو أف شاتيون وما لحق بها من زلزال بعد ذلك في عام ١١٥٨ م (٤). كما أنها لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من مدينة عكا وبذلك كانت المؤن البيزنطية قد أوشكت على الانتهاء فور إبحارها من عسقلان في منتصف أكتوبر عام ١١٦٩ م . لذلك بدأت القوات البيزنطية تعاني من نقص الأقوات فور وصولها إلى دمياط ثم ما لبثت أن نفذت الأقوات تماما . ولم تجد القوات البيزنطية ما تقفّت به سوى ثمار

(١) يلاحظ أن أبراج المدينة كانت تقع على السور الأوسط للمدينة وكان عددها ثمانية وعشرين برجاً وبكل برج منهم ثلاثة أبراج صغيرة . انظر :

Vitry, op. cit., p. 125.; Roger of Wendover, op. cit., II, p. 424, c.f. Also, Jullien. R.P., Note sur l'Emplacement de l'Ancienne Damiette, p. 74.

William of Tyre, op. cit., II, p. 365. (٢)

Lane-Poole, Saladin. p. 104. (٣)

Runciman, op. cit., II, p. 386. (٤)

التخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار قد نفذت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً واضطرت لأكل الأعشاب . وهكذا انشغل البيزنطيون بأمر الطعام لا بأمر الحرب (١) . وفي الوقت الذي كانت فيه القوات البيزنطية تموت جوعاً (٢) ، كانت القوات الصليبية تحتفظ بكمية وفيرة من الطعام ولكنها ضت بها على القوات البيزنطية لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول فترة القتال فيتعرضون للمجاعة بعد ذلك (٣) .

بدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة بعد هذه المجاعة ولاشك أن تصرف الصليبيين إزاء حلفائهم البيزنطيين وعدم إمدادهم بالآفات قد بذر بذور الشقاق بين القوات المتحالفة ، كما بدأت ملامح النصر تبشر القوات الإسلامية وذلك بفضل الإمدادات التي كان يرسلها صلاح الدين بصورة متلاحقة إلى دمياط (٤) ، وزاد اقتراب المسلمين من النصر كارثة أخرى تعرضت لها القوات المتحالفة التي تعسكر بين المدينة والساحل فقد هبت عاصفة شديدة مصحوبة بسقوط كمية كبيرة من الأمطار أدت إلى اغراق خيام القوات المتحالفة وسببت لهم خسائر جسيمة في المعدات واضطروا لحفر الخنادق حول خيامهم لتجنب المياه (٥) ، ومن الواضح أن حفر الخنادق حول الخيام قد

William of Tyre, op. cit., II, p. 366. (١)

Vitry, History of Jerusalem, p. 25. (٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 366. (٣)

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٤ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٢ ،
ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٣ . أنظر أيضاً :

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161.

William of Tyre, op. cit., II, p. 366; Vitry, op. cit., p. 25. (٥)

أدى إلى انعزال القوات عن بعضها : كما أن حفر الخنادق حول الخيام يؤثر إلى حد كبير في كفاءة القوات القتالية ويعوق من حركتها مما يسهل مهمة القوات الإسلامية في انزال الهزيمة بالمعتدين .

وفي وسط هذه الكوارث التي لاحقت القوات المتحالفة لاحت للمسلمين فكرة استغلال الرياح الجنوبية التي هبت على منطقة دمياط في ذلك الوقت ، فأحضر المسلمون قاربا وشحنوه بالأخشاب والقطران وبعض المواد الأخرى القابلة للاشتعال وأضرموا فيها النار وساعدت الرياح الجنوبية على دفع القارب المشتعل في اتجاه السفن البيزنطية المكعدة في النيل شمالى دمياط . وبينما كان القارب يسير ملتها على ظهر النيل في طريقه إلى السفن البيزنطية دب الزعر في القوات المتحالفة بصفة عامة وفي البحارة البيزنطيين بصفة خاصة لا سيما أن البحارة كانوا داخل معسكراتهم شمالى دمياط (١) . وعلى ما يبدو أن الوقت كان ليلا بدليل ما قام به الملك عمورى عندما علم بأمر القارب بدور ملحوظ في إيقاظ البحارة الذين حاولوا بكل الطرق الحد من الكارثة المقبلة ، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى سفنهم الا بعد ما اصطدم القارب بالسفن البيزنطية وأحرقت منها ست شوانى (٢) وأتت عليها تماما . وأخيرا نجح البحارة البيزنطيون في فصل السفن عن بعضها لانقاذ البقية الباقية (٣) .

وبعدما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التي تعاني منها القوات المتحالفة بسبب المجاعة والأضرار التي لحقت بهم بعد ما اجتاحت السيول معسكراتهم يضاف

William of Tyre, op. cit., II, pp. 366—7.

(١)

(٢) بالغت المصادر الإسلامية في عد السفن التي أحرقت وذكرت أنها ثلاثمائة مركب . أنظر :

المقريزى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٧ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١

ص ٨٥ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 367.

(٣)

إلى ذلك احراق المسلمين لبعض السفن البيزنطية تشجعت القوات الاسلامية وشعرت بالثقة . وتحولت للهجوم على معسكرات القوات المتحالفة ونقلوا ميدان المعركة خارج مدينة دمياط (١) ، وتمكنوا من شن الهجوم على المعسكر البيزنطي (٢) . فقد نجح المسلمون في التسلل عبر بعض الفتحات السرية في سور المدينة وقاموا بهجوم مفاجيء على القوات البيزنطية التي انهارت قواها بسبب المجاعة ولم يعد لديها القدرة على الحرب . وحاول القائد البيزنطي أندرونيكوس كونتوستفانوس الدفاع عن المعسكر وأبدى شجاعة ملحوظة في دفع القوات الاسلامية (٣) . ولكن الواضح لنا أن القوات الاسلامية قد نجحت في انزال الحسائر بالقوات البيزنطية . وفي الوقت نفسه صحت المصادر التي تحت أيدينا عن موقف القوات الصليبية من الهجوم على اخوانهم البيزنطيين مما يدفعنا إلى القول أن القوات الصليبية تراخت في الدفاع عن المعسكر البيزنطي (٤) .

وبعد هذه المعركة بدأت الشائعات تتردد داخل خيام القوات المتحالفة (٥) ولعل هذه الشائعات كانت بسبب سوء نية القوات المتحالفة وخوف كل فريق من الآخر من أن يستأثر بمدينة دمياط لنفسه عند سقوطها (٦) كما بدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى أوطانها حتى لا يهلكون جوعاً أو

(١) يروى ابن الفرات أن القوات الاسلامية شنت على القوات المتحالفة الغارات من الخارج .

أنظر : ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٤ .

(٢) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161. (٢)

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 367. (٣)

(٤) حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 368. (٥)

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٣ .

بحد السيف في أرض مصر ، لذلك بدأ التفكير في عقد الهدنة مع المسلمين
للانسحاب إلى بلادهم (١)، خاصة وأن نور الدين قد ألهم بلاد الصليبيين
بالغارات (٢) . ويفهم من رواية ولیم الصوري أن القادة الصليبيين والبيزنطيين
اشتركوا في وضع شروط الهدنة وتنفيذ بنودها. فقد روي أن بعض القادة
الصليبيين هم الذين تولوا عقد الهدنة مع بعض القادة المسلمين وأن أحد القادة
البيزنطيين يدعى جيفيلينو Jovelino هو الذي تولى تنفيذ شروط الاتفاق
بكل دقة (٣) ويتضح من ذلك أن الصليبيين هم الذين شرعوا أولا قبل
البيزنطيين في عقد الهدنة مع المسلمين . ولا يعنى ذلك أن البيزنطيين لم يكونوا
راغبين في الاتفاق على الانسحاب من مصر بدليل قيام أحد القادة البيزنطيين
بتنفيذ شروط الهدنة كما وأن حالة القوات البيزنطية عند دمياط كانت تشير
إلى سوء حالتهم وأن الأفضل لهم العودة إلى أوطانهم بأسرع وقت .

وإذا قمنا بتحليل العوامل التي أدت إلى هزيمة الحملة الصليبية البيزنطية
على دمياط نرى أن بعضها يرجع إلى الجانب البيزنطي وبعضها الآخر إلى
الجانب الصليبي وأخيرا كانت هناك أسباب ترجع إلى الجانب الاسلامي . وفيما
يتعلق بالجانب البيزنطي نرى أن القائد البيزنطي أندرونيكوس قائدًا بريًا ،
وليس قائدًا بحريًا لذلك لم يستخدم الأسطول البيزنطي استخدامًا عسكريًا في
المهجوم على مدينة دمياط وأن الدور الذي قام به الأسطول اقتصر على نقل
القوات حتى ساحل دمياط ، مما يدل على ضعف بصيرة القائد البيزنطي هو

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161.

(١)

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥١ ، الحافظ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص

٥٦ ، ابن الوردي : تمة المختصر ج ٢ ص ٧٧ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 368.

(٣)

ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهل مهمة القوات الاسلامية في احراق عدد منها . كما أن القيادة البيزنطية كانت مترخية ومتساهلة في اصدار التعليمات العسكرية التي تكفل أمن سفنها حتى ترك البحارة البيزنطيين يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية . ومن الأسباب التي تتعلق بالجانب البيزنطي أيضا انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية ، ويروى ولیم الصوري في هذا الصدد أن الامبراطور وعد بارسال الأموال اللازمة ولكنه لم ينفذ وعده ولذلك قاسى الجيش البيزنطي من المجاعة (١) . وفي تصوري أن عدم ارسال الامبراطور مانويل للأموال ليس بالسبب الذي يؤدي إلى المجاعة ، لأنه لو جاءت الأموال للحملة وهي عند سواحل مصر فإن هذه الأموال ستصبح عديمة الفائدة لأن أهل مصر ربما لا يبيعون الأقوات للحملة . والسبب الرئيسي في هذه المجاعة يرجع إلى قائد الأسطول البيزنطي لأنه أبحر إلى دمياط ومؤنه على وشك النفاذ . وربما يرد على ذلك بأن الملك عموري لم يكن مستعدا للبحار فور استعداد الأسطول البيزنطي وأنه السبب في تأخير رحيل الحملة حتى نفذت الأقوات . وهنا يمكن القول أن قائد كل قطاع مشغول عن قطاعه وأعلم بشئونه وأن القائد البيزنطي كان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان الا إذا كان القائد البيزنطي كان يرى أنه سيستولى على دمياط بين يوم وليلة وفي هذا خطأ آخر يرجع إلى غروره وقلة بصيرته .

أما عن الأسباب الخاصة بالجانب الصليبي فيمكن ارجاعها إلى الملك عموري ، لأن القوات الصليبية أخرت الهجوم على المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي . وربما يكون للقيادة الصليبية عذرهما إذا كانت

قواتها قليلة العدد، ولكنه إذا كان حجم القوات البيزنطية قد وصل إلى حوالى خمسة وعشرين ألف فالأرجح أن تكون القوات الصليبية بالعدد نفسه استنادا إلى الاتفاق الخاص بغزو مصر الذى يقضى باقتسام مصر بين البيزنطيين والصليبيين . والمهم أن تأخير الهجوم على المدينة قد أعطى الفرصة للمسلمين لتحسين المدينة وامدادها بالرجال والسلاح لمقاومة القوات المتحالفة. وعامل ثان تقع مسؤوليته على الجانب الصليبي : وهو أنانية القوات الصليبية التى ضنت على القوات البيزنطية بالأقوات وهى تراها ساهتلك جوعا وإن كان عذر الصليبيين فى ذلك هو الخوف من مجاعة تلتحق بقواتهم فيما بعد فانهم بهذا العمل قد منعوا القوات البيزنطية من التعامل عسكريا مع المسلمين وأصبحت القوى البيزنطية عديمة الفائدة بعدما خارت قواها . وعامل ثالث يعزى إلى القيادة الصليبية وهو أنه عندما نقل المسلمون ميدان المعركة خارج مدينة دمياط وانقضوا على المعسكر البيزنطى المنهار من جراء المجاعة نرى القوات الصليبية تقف موقف المتفرج ولا تدافع عن القوات البيزنطية .

وبعدما قمنا بتحليل مسؤولية الجانب البيزنطى والجانب الصليبي كل على حده، نرى أن بعض جوانب فشل الحملة يرجع إلى الجانبين معا . وأول هذه الأسباب يرجع إلى اختيار الوقت الذى قدمت فيه الحملة إلى مصر وهو فصل الشتاء وكان من نتيجة ذلك تعرض الحملة للعواصف والسيول التى أغرقت معسكرات القوات المتحالفة وأثرت على كفاءتها القتالية . والسبب الثانى يرجع إلى اختيار المكان الذى عسكرت فيه القوات المتحالفة وهى المنطقة التى تمتد من دمياط شمالا حتى البحر وقد قدرها المؤرخ ولیم الصورى بحوالى ميل واحد (١) وتمتد بطول الساحل : فان هذه المنطقة لا تكفى لاستيعاب قوات الحملة التى بلغ عددها ما يقرب من خمسين ألفا إلا إذا حشرت فيها وبذلك

تصبح صيدا سهلا لقذائف المسلمين: وإذا انتشرت شرقا على طول الساحل فان الجزء المواجه للمدينة من القوات المتحالفة لا يكفي لاسقاط المدينة . وإذا كان السبب الأول يتعلق بالزمان والسبب الثاني يتعلق بالمكان فان السبب الثالث يختص بعدم وجود قيادة موحدة للحملة ومثال ذلك ما نراه من الخلل الذي أصاب عمليات الهجوم على المدينة ومن وجود بعض الأقوات عند الصليبيين ولا نراها عند البيزنطيين وعدم مساندة الصليبيين للبيزنطيين عندما شن المسلمون الهجوم على المعسكر البيزنطى . ولاشك أن عدم وجود قيادة موحدة تتولى قيادة الحملة قد أدى إلى سوء التفاهم بين الجانبين وعمل على نشر الشائعات داخل معسكراتهم واتهام كل جانب منهم الجانب الآخر بأنه السبب فى فشل الحملة ، ويروى ميخائيل السريانى أن البيزنطيين حاولوا خداع الصليبيين للاستيلاء على دمياط لصالحهم (١) .

أما عن الأسباب التى أدت إلى فشل الحملة وتعلق بالجانب الاسلامي فأول ما يطالعنا منها هو صمود شعب مدينة دمياط فى وجه المعتدين، خاصة وأن المدينة لم تكن محصنة بما فيه الكفاية لمواجهة مثل هذه الاعتداءات (٢) . والسبب الثانى يرجع إلى سرعة ارسال صلاح الدين للقوات والمؤن والسلاح للدفاع عن المدينة وفى مقدمتهم ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين بالإضافة إلى مجموعة من الأعيان ، ولاشك أن وصول مثل هذه الشخصيات إلى دمياط قد رفع من الروح المعنوية لأهل المدينة . ثالثا ، اتحاد القوات

Michel le Syrien, op. cit., p. 369.

(١)

(٢) أتم صلاح الدين بتحصين المدينة بعد هذه الحملة فرتب المقاتلة على البرجين وأمر بترميم سور

المدينة وحفر الخنادق وعمل الجسور . أنظر المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٤٧ .

الاسلامية في مصر والشام - بهدف دفع المعتدين - بصورة خالصة النية لم تكن مألوفة بين مصر والشام في هذا الوقت ، وهي نقطة في غاية الأهمية وسيكون لها أثرها البعيد في منطقة الشرق الأدنى بأكملها . رابعا : القدرة العسكرية للقوات الاسلامية وحسن بصيرتها ومن ذلك أن القوات الاسلامية عندما فكرت في مهاجمة معسكرات القوات المتحالفة لم تقم بمهاجمة معسكرات الصليبيين بل قامت بمهاجمة المعسكرات البيزنطية حيث تهاك القوات البيزنطية جوعا لذلك كانت غارات المسلمين مؤثرة وفعالة . وأخيرا فقد كان الموقف نور الدين الذي قام بإرسال القوات تباعا إلى مصر وقيامه كعادته بالضغط على الصليبيين بالشام ومهاجمة أملاكهم الأمر الذي ساعد على انتهاء العمليات العسكرية في مصر والعودة إلى بلادهم (١) . وفي ختام هذا التحليل نوضح سرعة وحسن تصرف القوات الاسلامية وابتكار أساليب جديدة في فنون الحرب ، وذلك عندما استغل المسلمون ظاهرة هبوب الرياح الجنوبية ليشعلوا قاربا اسلاميا لتدفعه هذه الرياح إلى السفن البيزنطية فتتزل بها أفدح الخسائر .

وبكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الحملة وعقدت الهدنة بين الطرفين ، وبعد ما عقدت الهدنة سمح المسلمون للقوات البيزنطية والصليبية بالانتقال بين المعسكر ومدينة دمياط وكان المسلمون في غاية الكرم فاقاموا الأسواق لأعدائهم ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الأقوات ، وقد ظلت الأسواق لمدة ثلاثة أيام استعدت خلالها القوات المتحالفة للرحيل (٢) ، بعدما أحرق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥٢ ، أنظر أيضا : النويري : المصدر السابق ج ٢٦

لوحه ١١٩ ، ابن بهادر : المصدر السابق ورقة ٢٥ ، ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ق ١ ص ٢٧٩ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 368.

(٢)

ما ثقل عليها حملة من المنجانيقات وغيرها (١) ، واتخذت طريقها إلى بلادها في الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥ هـ / السابع عشر من ديسمبر عام ١١٦٩ م أي بعد حوالي خمسون يوما من القتال (٢) . واتخذت القوات الصليبية طريقها برا إلى الأراضي المقدسة ، أما السفن البيزنطية فقد أبحرت من دمياط ولكنها تعرضت لعاصفة عنيفة أغرقت معظمها وقذفت الأمواج بجثث البيزنطيين إلى الساحل الشامي وظلت البقية الباقية تحت رحمة الأمواج التي دفعت بعضها إلى سواحل قيليقية ومنها سفينة القائد البيزنطي أندرونيكوس الذي اتخذ طريقه برا من قيليقية حتى القسطنطينية (٣) .

أما النتائج السياسية التي ترتبت على فشل الحملة ، فمما لاشك فيه أن هذا الفشل قد أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين في مصر وقد ترتب على ذلك سقوط الخلافة الفاطمية في مصر (٤) ، وظهور إدارة واحدة في مصر والشام تقف ضد أطماع البيزنطيين والصليبيين في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي (٥) وإذا كان اتحاد القوات الاسلامية في مصر والشام لا يؤثر بصورة مباشرة على الامبراطورية البيزنطية ، فان أثره بات واضحا ومهددا للامارات الصليبية (٦) بصورة خطيرة فقد شعر الصليبيون يوما بعد يوم بازدياد تضيق المسلمين عليهم وأنهم بعد أن كانوا متجهين بكل جهودهم نحو خطر نور الدين من

(١) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٥ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ٥١ ، تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : كتاب التاريخ ص ٢٦٢ .

(٣) Nicetas, op. cit., p. 210.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٤ ، راجع أيضا : عمر كمال توفيق ملكة بيت المقدس ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٥) جمال الدين الشبال : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ٢٥ .

ناحية الشمال ، أصبح عليهم أن يوزعوا قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر (١) ، لذلك سارع الصليبيون إلى طلب النجدة من الغرب الأوربي واتجه الملك عمورى بنفسه إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور مانويل للاتفاق معه على عمل عسكري مشترك آخر ضد مصر (٢) .

أما فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيروى المؤرخ كيناموس أن صلاح الدين أرسل في أعقاب الحملة يعرض على الامبراطور مانويل تقديم جزية سنوية للقسطنطينية ولكن الامبراطور رفض العرض الذى تقدم به صلاح الدين (٣) ، بينما يذكر المؤرخ نيكيتاس أن الامبراطور مانويل عقد صلحاً مع صلاح الدين (٤) وقد يبدو الأمر في منتهى الغموض ازاء الروايات البيزنطية وبذلك يصبح من الصعب الأخذ بجانب منها أو رفضها خاصة وأن المصادر العربية واللاتينية لم تشر إلى مثل هذا الاتفاق ولكنه إذا تتبعنا العلاقات بين صلاح الدين والامبراطورية البيزنطية في السنوات اللاحقة للحملة نرى أن الامبراطور الكيسوس الثانى كومنين (١١٨٠ - ١١٨٣ م) ابن الامبراطور مانويل قد أرسل في بداية عهده يطلب عقد الصلح مع صلاح الدين وقد استجاب صلاح الدين لطلبه واشترط عدم مشاركة الامبراطورية في أى مشروع للهجوم على مصر (٥) ، وعلى ذلك فالباحث يرفض رواية كيناموس تماماً . أما المؤرخ نيكيتاس فيبدو أنه خلط بين مانويل وابنه الكيسوس .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٨ - ٧١٩ .

(٢) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر ما يلى ص ٣٢١ وما بعدها .

Cinnamus, op. cit., p. 278.

(٣)

Nicetas, op. cit., II, p. 210.

(٤)

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٦٨ .

وعلى أية حال فاذا كانت الحملة الفاشلة على دمياط قد عملت على كسر حدة النفوذ البيزنطى فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ، فان الأحداث التى جرت فى قيليقية حوالى ذلك الوقت قد ساعدت أيضا على هدم جانب من نفوذ الامبراطورية فى المنطقة. وترجع هذه الاحداث إلى ملىح أخى الأمير ثوروس الأرمينى . فقد اختلف ملىح مع أخيه لعدم ثقة ثوروس فيه ولأنه كان فاسدا وشريرا حسب ما وصفه المؤرخ ميخائيل السريانى (١) ، فأتجه ملىح إلى نور الدين الذى رحب به وقال «استعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه تمنعه من الغارة على البلاد المجاورة» (٢) وقد ظل ملىح فى خدمة نور الدين حتى موت أخيه ثوروس فى عام ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ ، وقد خلف ثوروس أبنة القاصر روبان (١١٦٨ — ١١٧٠ م) تحت وصاية الأمير توماس . وقد تمكن ملىح بمساعدة نور الدين وقواته من دخول قيليقية وتعهد للأمرء الأرمين بالحفاظ على حقوق ابن أخيه، ولكن ملىح ما لبث أن نقض هذا العهد وسيطر على دفة الحكم (١١٧٠ — ١١٧٥ م) واعتقل روبان واضطر الوصى إلى الفرار خارج البلاد ولجأ إلى أنطاكية (٣) ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بين ملىح وبين هيثوم حاكم مدينة لامبرون وزوج أخت روبان ، ولكن ملىح تمكن من انزال الهزيمة بقوات هيثوم (٤) ، وبدأ يقوى على جيرانه من الأرمين ثم تمكن بعد قليل من السيطرة على أدنه وطرسوس والمصيصة . ويضيف ابن الأثير أن الامبراطور مانويل أرسل جيشا كبيرا إلى قيليقية لقتال ملىح ولكن ملىح انتصر على القوات البيزنطية بفضل مساعدة

Michel le Syrien, op. cit., p. 362.

(١)

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٨٧ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 386.

(٣)

Sempad, op. cit., pp. 622—4.

(٤)

القوات التي أرسلها نور الدين ، كما أسرا عددا كبيرا من البيزنطيين ، ولكي يرد مليح الجميل إلى نور الدين أرسل اليه كثيرا من الغنائم وثلاثين من الاعيان الذين وقعوا في الأسر ، فسير نور الدين بعضهم إلى الخليفة العباسي المستضيء (١) . ويتفق المؤرخ الأرمني سباد مع ابن الأثير في أن مليح أرسل الغناء والاسلاب إلى نور الدين ولم يشر المؤرخ سباد إذا كانت هذه الغنائم والاسلاب بيزنطية أو أرمنية وإنما يفهم من سياق النص أنها كانت أرمنية خاصة وأنه لم يتحدث اطلاقا عن البيزنطيين في الفترة التي تولى فيها مليح حكم أرمنية (٢) . وعلى ما يبدو أن الأمر اختلط على ابن الأثير وربما اعتقد أن ما قام به مليح ضد الأرمن كان موجها ضد البيزنطيين باعتبار اقليم قيليقية كان خاضعا للحكم البيزنطي في ذلك الوقت. ومما يجعلنا نميل إلى هذا الرأي أن المصادر البيزنطية لم تشر إلى مهاجمة مليح للامبراطورية البيزنطية أو أن القوات البيزنطية قامت بعمل عسكري ضد مليح .

وسواء أكان ما قام به مليح في قيليقية ضد الأرمن أم ضد البيزنطيين فإن مثل هذه الأعمال كانت مزعجة للامبراطور مانويل . وربما كانت الامبراطورية البيزنطية لا تخشى مليح في هذه المرحلة لأن قتال الأرمن لبعضهم البعض يجعلهم ينقسمون إلى فرق ما بين مؤيدة ومعارضة لحكم مليح ، ولكن مانويل كان يخشى من اتحاد عسكري أرمني يوجه إلى صدر الامبراطورية فيما بعد خاصة وأن مليح يعتمد على نور الدين وقواته الاسلامية التي أصبحت تمتد من الشام إلى مصر .

وبينا كانت أحداث قيليقية تشغل بال الامبراطور مانويل قدم إلى

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

Sempad, op. cit., p. 624.

(٢)

القسطنطينية الملك الصليبي عموري . ويوضح لنا المؤرخ ولیم الصوري أسباب وأهداف زيارة عموري للامبراطور مانويل ، فروى من أسبابها أن الملك عموري استدعى النبلاء الصليبيين وشرح لهم موقف الإمارات الصليبية من جميع الوجوه وأوضح أن الأخطار تحيط به من كل جانب وأن العبء أصبح ثقيلا على الإمارات الصليبية خاصة وأن المسلمين يزددون قوة وثروة يوما بعد يوم وأن الجليل الصليبي الخالي (١) لا يتمتع بالحكمة والروية وأنه لم يتمكن من الحفاظ على الممتلكات التي تسلمها من أجداده وآبائه ، وأن الحالة السيئة للإمارات الصليبية أصبحت لا تحفى على أحد ، وطلب الملك عموري من مستشاريه مشاركته الرأي لإصلاح حال الإمارات الصليبية . وقد أنفق النبلاء الصليبيون على ضرورة الاعتماد على المساعدات الخارجية حتى يمكن للإمارات الصليبية مواجهة المسلمين ، وأخيرا استقر الرأي على ضرورة طلب المساعدة من الغرب الأوربي والبابا . كما استقر الرأي أيضا على ضرورة عرض الأمر على الامبراطور البيزنطي مانويل بصفة خاصة لعدة أسباب وهي : أن الامبراطورية البيزنطية أقرب إلى الإمارات الصليبية من الغرب الأوربي وأن (٢) بوسع نجدات بيزنطية أن تصل إلى الصليبيين قبل نجدات الغرب الأوربي فضلا عن تفوق الامبراطورية البيزنطية في ثروتها عن أوروبا ، كما وأن الإمارات الصليبية تعتمد على بيزنطة التي طالما أمدت الصليبيين بالعون على العكس من الغرب الأوربي الذي أصبح لا يليق نداء الصليبيين (٣) . وتبلور الموقف بين

(١) هو سلاسة الصليبيين التي ولدت وتربت في الأراضي المقدسة وكان يطلق عليهم البولانيين Poulains كما أطلق هذا الاسم أيضا على الطفل المولود من أم غريبة وأب صليبي المولد وذلك على سبيل السخرية والتحقير أنظر : Vitry, op. cit., p. 57—7.

Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 160.

(٢) عن ذلك راجع :

الملك عمورى والنبلاء للاعتماد كلية على الامبراطورية البيزنطية وتقرر ايفاد سفارة للامبراطور مانويل على مستوى عال يتولى أمرها شخص يتصف بالحكمة والروية ، فأعلن الملك عمورى أنه سيتولى بنفسه التوجه إلى العاصمة البيزنطية . وقد اعترض بعض النبلاء على سفر الملك لأن الرحلة شاقة وصعبة بالنسبة للملك ، والأهم من ذلك أن ابتعاد الملك عمورى عن الامارات الصليبية فيه خطر كبير على الصليبيين من الهجمات الاسلامية ولكن الملك عمورى أصر على التوجه إلى القسطنطينية مهما كانت النتائج (١) .

بدأت رحلة الملك عمورى في العاشر من مارس عام ١١٧١ م / أول رجب عام ٥٦٦ هـ واصطحب معه ولیم الصورى وحاشية على مستوى عال من النبلاء وقد استمرت هذه الزيارة أكثر من أربعة أشهر (٢) وقد أفاض المؤرخ ولیم الصورى في وصف الرحلة والحفلات التي أقيمت على شرف الملك وحاشيته (٣) وهمنا في هذا البحث النتائج السياسية التي ترتبت على هذه الزيارة ، فقد عقدت عدة اجتماعات بين الملك ومستشاريه والحال كذلك مع الامبراطور مانويل ومستشاريه واجتماعات أخرى بين المستشارين الصليبيين والبيزنطيين كما عقدت الاجتماعات بين الجانب البيزنطي والصليبي على مستوى الامبراطور والملك ، وفي هذه الاجتماعات كان الحديث يدور حول الأسباب التي دفعت الملك للقدوم إلى العاصمة البيزنطية واحتياجات الامارات الصليبية ، وقد

النتائج السياسية
الزيارة

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 377—8.

وعن انحلال الامارات الصليبية راجع : جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 280; Ebersolt, Orient et Occident, II, p. 11.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 379—380.

أشاد الملك عمورى بصفة خاصة بمركز الامبراطورية البيزنطية وما لها من أجداد سابقة (١).

وكان من أبرز الموضوعات التى درست فى هذه الاجتماعات مشروع جديد لغزو مصر، وقدهون الملك على الامبراطور أمر هذا المشروع وطلب من الامبراطور أن يتعهد معه بغزو مصر، وأخيرا وافق الامبراطور على رغبة الملك الصليبي وعقدت معاهدة بين الامبراطور مانويل والملك عمورى (٢). وعاد الملك عمورى وحاشيته إلى الأراضى المقدسة فوصل عن طريق البحر إلى ميناء صيدا فى الخامس عشر من يوليو عام ١١٧١ م / العاشر من ذى القعدة عام ٥٦٦ هـ محملا بالهدايا التى أسبغها عليه الامبراطور مانويل ورجال البلاط البيزنطى على رأسهم صهره يوحنا كما كان لحاشية الملك جانباً من هذه الهدايا (٣).

وفىما يتعلق بالمعاهدة التى عقدت بين الامبراطور مانويل والملك عمورى فإن نص هذه المعاهدة لم نعثر عليه فى المصادر التى تحت أيدينا ، ولكنه يمكن استخراجه من النصوص التاريخية المتعلقة بهذه الفترة كما يمكن استنتاج بعضه من الأحداث التاريخية اللاحقة لزيارة الملك للقسطنطينية ، وهى محاولة من الباحث للوصول إلى كل أو بعض ما ورد فى اتفاق مانويل وعمورى . ومن النصوص التاريخية ما أشار به المؤرخ البيزنطى كيناموس وهو أن الملك عمورى اعترف بالتبعية للامبراطور البيزنطى مانويل (٤) ، ولعل ما يدفع الباحث إلى الأخذ بهذه الرواية هو أن الملك عمورى عندما تم استقباله فى القصر

William of Tyre, op. cit., II, p. 381. (١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 382—3. (٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 383; Michel le Syrien, op. cit., p. 373. (٣)

Cinnamus, op. cit., p. 280. (٤)

الامبراطورى بالقسطنطينية جلس على مقعد أول اربعة اعمام من مرموق الامبراطور (١) . وهو دليل على التبعية كما يحدث في الغرب الأوربي (٢) . ومما تم الاتفاق عليه أيضا أن الامبراطور مانويل وعد ببذل المساعدة البحرية والمالية عندما يكون الوقت مناسباً لوضع خطة لغزو مصر ، ويفهم ذلك بوضوح من النص الذى أورده ولیم الصورى عندما قدمت سفارة بيزنطية إلى الأراضي المقدسة في عام ١١٧٧ م / ٥٧٢ - ٥٧٣ هـ تطلب من الصليبيين اعداد حملة برية لغزو مصر بالاشتراك مع السفن البيزنطية تنفيذا للمعاهدة التى عقدها الملك عمورى مع الامبراطور مانويل وجدها بالشروط نفسها الملك بلدوين الرابع (٣) . Baldwin IV (١١٧٣ - ١١٨٥ م / ٥٦٨ - ٥٨١ هـ) وأن كان مأوردناه قد اعتمد على النصوص البيزنطية والصليبية ، فانه استنتاجاً من الأحداث اللاحقة يمكن القول أنه تم الاتفاق على أمر ما بشأن مليح أمير أرمينية : فمن المنطقي أن موضوع أرمينية وما كان يدور فيها من أحداث قبل وأثناء زيارة الملك عمورى كان ضمن الموضوعات التى تناولتها المناقشات بين الامبراطور والملك ، وعلى ما يبدو أن أحداث أرمينية لم تكن مزعجة بقدر كبير للامبراطور مانويل بدليل ما نراه من سلوك عمورى تجاه مليح وعدم قيام الامبراطورية بأى عمل عسكري ضد مليح حتى مماته ، أو ربما يكون ذلك بسبب مشاغل الامبراطورية مع السلاجقة .

لم يقتصر الأمر على عمورى في مهاجمة مليح بل اشترك أيضا في هذا العمل اماراة أنطاكية وأميرها بوهمند الثالث . وكان الدافع إلى هذه الحوادث

William of Tyre, op. cit., II, p. 380.

(١)

C.M.H., IV, p. 377.

(٢)

William of Tyre, op. cit., II, p. 420.

(٣)

أنظر أيضا ما يل ص ٣٥٧ وما بعدها

هو أن توماس الوصى على أرمينية قد فر إلى أنطاكية ولجأ إلى بوهمند الثالث (١). ومن الملاحظ أن توماس هذا كانت أمه أرمينية ووالده لاتبى ، كما أن مليح كان ضمن فرسان الداوية وخدم في صفوفها ، ولما سيطر على الموقف في أرمينية أنزل أشد العذاب بأهل ملته وباللاتين الذين كانوا في خدمة أرمينية وأوقعهم في الأسر وبعث بهم إلى نور الدين ، وقد غضب بوهمند من تصرفات مليح (٢) . والواضح أن توماس كان له دور في تحريض بوهمند لقتال مليح ، ولعل بوهمند أراد أيضا القيام بمهاجمة مليح لارضاء الامبراطور مانويل الذى كان له دور واضح في اطلاق سراح بوهمند ، يضاف إلى ذلك أن بوهمند كان أحد أتباع الامبراطور وعليه قتال مليح الذى تعتبر تصرفاته خروجاً على السيادة البيزنطية .

على أية حال استعد بوهمند بقواته لقتال مليح ، وعندما علم عمورى بذلك أسرع إلى أنطاكية على رأس قواته لتدارك الأمر قبل فوات الأوان فقد كان يرى أن قتال القوات الصليبية للقوات الأرمينية فيه اهدار لهذه القوى التى يجب ادخارها لقتال المسلمين وسعى لتحقيق السلام في أول الأمر وأرسل إلى مليح يقترح عليه الاجتماع به لتصفية هذه الخلافات وتظاهر مليح بالموافقة على طلب الملك وظل يراوغ عمورى فاضطر هذا الأخير للتوجه على رأس قواته (٣) . وعلى ما يبدو أن بعض قوات أنطاكية قد انضمت إليه وهو في طريقه إلى قيليقية فدخلها ، وقامت قواته باحراق المحاصيل التى وجدت في طريقها وحاولت تخريب القلاع التى صادفتها . وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى الملك عمورى تخبره

Sempad, op. cit., p. 624; Curzon, R., Armenia, p. 247.

William of Tyre, op. cit., II, pp. 386—7.

William of Tyre, op. cit., II, p. 387.

(١)

(٢)

(٣)

أن نور الدين قام بمهاجمة حصن الكرك (١) ذو الأهمية العسكرية الخاصة لدى الصليبيين (٢)، فاضطر للعودة بأسرع وقت إلى بيت المقدس تاركاً أرمينية على حالها (٣). وانتهت هذه الأحداث في عام ١١٧٣ م / ٥٦٨ هـ ، ثم ما لبث عموري أن مات في العام التالي ، وبعد سنة أخرى اغتيل مليح وخلفه في إمارة أرمينية روبان الثالث ١١٧٥ - ١١٨٧ م / ٥٦٨ - ٥٨٣ هـ (٤) ، ولم تشر المصادر التي تحت أيدينا إلى أي عمل عسكري قامت به الامبراطورية ضد مليح أو ضد خليفته ، ولعل ذلك مرجعه إلى أن حاكم أرمينية الجديد قد سار في فلك الامبراطورية البيزنطية كما أن الامبراطورية كانت مشغولة في هذا الوقت بالصراع مع البنادقة والسلاجقة .

ويهمنا في هذا البحث صراع الامبراطورية البيزنطية مع السلاجقة الذين

(١) كان من المتفق عليه أن يقوم نور الدين وصلاح الدين بمهاجمة الحصن معا ولكن صلاح الدين انسحب إلى مصر قبل أن يصل إلى الحصن خوفاً من نور الدين في هذا الوقت بسبب ما كان بينهما من خلاف . عن ذلك ولزيد من التفاصيل أنظر : ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٩٢ - ٣٩٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ . بينما يرى ابن شداد أن صلاح الدين هو الذي هاجم الحصن وجرى بينه وبين الفرنج وقعت ولكنه لم يظفر بشيء ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) أما حصن الكرك نفسه فكان يقع مكان كرموآب Ker Moab ، والكرك اسم محرف عن السريانية كاركو Karko التي تعني حصن . وقد بنى هذا الحصن باين Payen ساق الملك فولك الانجوى عام ١١٤٢ م وهو قلعة حصينة في أطراف الشام من نواحي البلقاء ويقع على سن جبل عال يحيط به الأودية من جميع الجهات عدا جهة الرض ويقال أنه مكانه كان ديرا للروم وبه الحدائق والآبار وترجع أهمية الحصن إلى وقوعه في جنوب الشام حيث ملتقى التجارة وحركة المرور بين العالم الاسلامي وقد استعاد صلاح الدين هذا الحصن بالاضافة إلى قلعة الشوبك المجاورة له عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م عن ذلك أنظر : لي سترانج : فلسطين في العصر الاسلامي ص ٤٥٠ - ٤٥١ ، ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٣ ، شمس الدين الانصاري : نخبه الدهر ص ٢١٣ ، الأصفهاني : الفتح القس ص ٥٩ - ٢٦٠ .

William of Tyre, op. cit., II, pp. 387—8.

(٣)

Michel le Syrien, op. cit., p. 379.

(٤)

كانوا أشد أعداء الامبراطورية خطورة في الشرق لاتصالحهم المباشر بحدود الامبراطورية البيزنطية. فبعد أن قام السلطان قلعج أرسلان بزيارة القسطنطينية وجدد معاهدة الصلح مع الامبراطور مانويل ظن الامبراطور أنه أخضع السلاجقة لسلطانة ولكن هذا الخضوع كان خضوعاً مؤقتاً لكي يستغل قلعج أرسلان هذه الفرصة في صراعه مع آل دانشمند (١) . وقد حانت الفرصة للسلطان السلجوقي عندما توفي ياغي أرسلان عام ٦٥٠ هـ / ١١٦٤ م وقيام الصراع على الحكم بين آل دانشمند حتى انتهى الأمر إلى تولى ذو النون حكم سيواس مرة أخرى ٥٦٤ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٨ م - ١١٧٣ م (٢) واتخذ لنفسه لقب ناصر الدين (٣) .

وقد تمكن قلعج أرسلان من استمالة ذي النون إلى جانبه كما استولى قلعج أرسلان على بعض ممتلكات ناصر الدين محمد بن ذي القرنين حاكم ملطية (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) وذلك في عام ١١٦٨ م، ثم انقلب على ذي النون واستولى على أملاكه في العام نفسه وأخيراً استدار إلى أخيه شاهنشاه وطرده من أنقرة وجانجرس في العام التالي (٤) . وكان على هؤلاء البحث عن قوى خارجية لمساندتهم ضد قلعج أرسلان . ولما كان الامبراطور مانويل مشغولاً في أوروبا في هذا الوقت فقد لجأ آل دانشمند وشاهنشاه إلى نور الدين . ولما كان نور الدين غير راض عن توسعات قلعج أرسلان فقد أخذ يستعد لقتال السلطان السلجوقي ، وعندما حانت له الفرصة سار على رأس قواته

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

(٣) زامبارو : المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٢١ .

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 291 ; Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

واتجه إلى الممتلكات السلجوقية وتمكن من الاستيلاء على مرعش في أوائل
ذى القعدة عام ٥٦٨ هـ / حوالى منتصف يونية عام ١١٧٣ م، ثم ما لبث أن
استولى على كيسون وبهنسى وغيرها من بلاد السلاجقة ثم اتجه إلى سيواس
واستولى عليها أيضا، ولم يجد السلطان قلعج أرسلان مخرجا سوى مفاوضة نور
الدين . وأخيرا استقر رأى على بقاء ذى النون في حكم سيواس تحت حماية
عساكر نور الدين (١)، ولم ينجح نور الدين في إعادة شاهنشاه إلى أملاكه
خاصة بعدما هدد قلعج أرسلان بقتل أولاد شاهنشاه (٢) ، كما تم الاتفاق أيضا
بين نور الدين وقلعج أرسلان على القيام بعمل مشترك ضد الامبراطورية
البيزنطية (٣) ، ولكن نور الدين ما لبث أن توفي في العام التالى (٥٦٩ هـ /
١١٧٤ م) .

ويعتبر نور الدين فقد ذو النون نصيره الأول كما أن عساكر نور الدين
التي كانت في خدمته رحلت عنه إلى الشام بعد وفاة نور الدين فاغتم قلعج
أرسلان الفرصتين واستولى على سيواس (٤)، ففر ذو النون وانضم إلى شاهنشاه
شقيق قلعج أرسلان واتجهوا إلى القسطنطينية هذه المرة يلتمسان مساعدة الامبراطور
مانويل (٥) الذى كان قد فرغ من مشاكله في الغرب تقريبا وعقد الصلح مع
البنادقة (٦) ، وبدأ يتطلع إلى الاهتمام بشئون آسيا الصغرى بعد حوالى اثني

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩١ - ٣٩٢ ، ابن العديم ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٢) Michel le Syrien, op. cit., pp. 373-4.

(٣) روى ابن الأثير أن ابن نور الدين قال للسلطان قلعج أرسلان «أنت مجاور الروم ولا تغزوهم ،
وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام، ولا بد من الغزاة معي» فأجابه قلعج أرسلان إلى ذلك .

أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩٢ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) Cinnamus, op. cit., p. 295.

(٦) عمر كال توفيق : المرجع السابق ص ١٤٤ .

عشر سنة استغلها قلعج أرسلان أحسن استغلال في دعم نفوذه على آل دانشمند.
لم تكن فترة الاثنى عشر عاما الممتدة من عام ١١٦٢ حتى عام ١١٧٤ م
فترة سلام مطلق بين السلجقة والامبراطورية البيزنطية ، فمن الملاحظ أن
السلطان قلعج أرسلان لم يقيم بتنفيذ معاهدة عام ١١٦٢ م كاملة وأنه لم يرد إلى
الامبراطورية المدن التي استولى عليها وتعهد بردها طبقا لهذه المعاهدة، كما أن
القبائل السلجوقية الرحل كثيرا ما قامت بانتهاك حدود الامبراطورية ولكن
السلطان قلعج أرسلان كان في منتهى الذكاء والدهاء عندما اعتذر للامبراطور
عن مثل هذه الأعمال موضحا أنه غير راض عن هذه الانتهاكات وقدم له
بعض الهدايا (١)، وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقي في كسب الوقت
لدعم نفوذه في آسيا الصغرى على العكس من الامبراطور مانويل الذي لم يقيم
بأى عمل في آسيا الصغرى سوى اقامة بعض التحصينات الدفاعية التي كلف
بها كل من بازل تزيكاندل Basil Tzikandel وميخائيل أنجيلوس
Michel Angelus لتنفيذها ولقد كان أشد هذه التحصينات ما تم اقامته
عند نهر المياندر ونهر هرمس لتربط بين مدن المنطقة وبعضها (٢).

كانت العلاقات السلجوقية البيزنطية قد بدأت في التوتر عام ١١٧٣ م
عندما تحالف نور الدين مع قلعج أرسلان لقتال البيزنطيين ، فاشتد القلق
بالامبراطور مانويل واتصل بالسلطان السلجوقي وأوضح له أنه على استعداد
لمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة الاملاك السلجوقية مقابل انسحاب قلعج
أرسلان من هذا التحالف (٣) ، وعلى ما يبدو أن قلعج أرسلان وافق

Nicetas, op. cit., p. 158.

(١)

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٤٠ أنظر أيضا :

Nicetas, op. cit., pp. 163, 193—5.

Cinnamus, op. cit., p. 289.

(٣)

الامبراطور مانويل على طلبه . ثم ما لبث أن توفي نور الدين فارتاح الامبراطور البيزنطى من خطر كان يهدده وبدأت العلاقات تعود من الناحية الظاهرية لتكون علاقات ودية . ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك فقد كان كل جانب يستعد من جانبه ليغتزم الفرصة لقتال الطرف الآخر وهو أحسن استعدادا من خصمه (١) .

وفي عام ١١٧٤ م ظهرت بعض العوامل التى ساعدت على نشوب الحرب بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية، فمما لاشك فيه أن فرار شاهنشاه وذى النون إلى القسطنطينية وترحيب الامبراطور مانويل بهما قد أثار مخاوف قلعج أرسلان وبات يتوقع الخطر بين ليلة وأخرى ، وعلى ما يبدو أيضا أن الامبراطور فريديريك باربارسا Frederick Barbarossa امبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) قد دخل فى مفاوضات مع السلطان قلعج أرسلان باعتباره أشد أعداء الامبراطورية البيزنطية فى الشرق وحته على قتال الامبراطور مانويل ، وكان فريديريك يقصد من وراء ذلك أن يتحول الامبراطور مانويل عن المسائل الأوروبية إلى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى (٢) . كما أن قضاء السلطان السلجوق على آل دانشمند تقريبا قد شجعه على قتال الامبراطور مانويل بعد ما تخلص من عدو طالما كان يهدد ظهره أثناء حروبه مع الامبراطورية البيزنطية، وفوق ذلك أن آل دانشمند اعتمدوا فى هذه المرحلة على مساندة نور الدين الذى ازداد نفوذه فى الفترة الأخيرة وقيام الخليفة العباسى فى بغداد باصدار منشور يقضى بتعيين نور الدين حاكما على الموصل

Finlay, op. cit., III, p. 190.

(١)

Chalandon, op. cit., pp. 598—9.

(٢)

والجزيرة واربل واخلط والشام وديار مصر وبلاط قلعج أرسلان (١)، وأخيرا فان أمن السلاجقة لا يتحقق من ناحية الحدود الغربية إلا باستيلاء السلاجقة على بقية الممتلكات البيزنطية الواقعة في آسيا الصغرى .

هذا ما يختص بجانب السلطان قلعج أرسلان ، أما فيما يتعلق بجانب — الامبراطور مانويل والعوامل التي أدت إلى قيام الحرب بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة في هذا الوقت ، فيمكن القول أن هناك بعض الأسباب التي ترجع إلى الغرب الأوربي والآخر إلى الجانب الشرقى . ومن الأسباب الأوربية يمكن القول أن الامبراطور مانويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت بعدما عقد الصلح مع البنادقة، يضاف إلى ذلك أن استئناف الصراع بين البابا وفريديريك بارباروسا قد أعطى الفرصة للامبراطور مانويل لاستئناف الحرب مع السلاجقة وإعادة حقوق الامبراطورية في آسيا الصغرى ووضع حد للتوسع السلجوقي (٢) . أما الأسباب الشرقية فمما لاشك فيه أن فرار ذى النون وشاهنشاه كان من العوامل التي ساعدت على تجدد القتال بين الامبراطورية والسلاجقة خاصة وأن هذين الأميرين كانا يعتمدان على بعض العناصر المؤيدة لهما في الامارات الدانشمندية (٣) ، يضاف إلى ذلك أن التحصينات التي أقامها مانويل في مدينة لاودكيا في وادى نهر المياندر قد شجعت بعض العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها وامتداد الخزانة البيزنطية بالضرائب المعتادة ، ولاشك أن الامبراطور قد شعر بقيمة هذا العامل

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩٢ .

(٢) Vasiliev, op. cit., II, p. 78.

(٣) أنظر مايلي ص ٣٣٩ .

الاقتصادى وكان عليه أن يؤمن بقاء هؤلاء المواطنين فى هذه المناطق حتى لا يهجروها ويكفوا عن دفع الضرائب (١) .

أما عن الأسباب المباشرة التى أدت إلى قيام الحرب بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة هى أن الامبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قلعج أرسلان يطلب منه أن يعيد إلى شاهنشاه وذى النون أملاكهم (٢) . كما أرسل إليه أيضا يطلب منه إعادة المدن التى لم يكن قد أعادها حتى ذلك الوقت طبقا لمعاهدة ١١٦٢ م (٣) . وفى الوقت الذى أرسل فيه مانويل إلى السلطان السلاجقى يطلب منه تحقيق ذلك كانت القوات البيزنطية على أهبة الاستعداد للقتال (٤) ، مما يشير إلى أن الامبراطور البيزنطى قد عقد العزم على قتال السلاجقة وافترض مقدما عدم قيام السلطان بتحقيق رغبات الامبراطور . وعلى ما يبدو أن قلعج أرسلان لم يكن قد استعد للقتال وحتى يعمل على كسب الوقت أبدى موافقته على رد المدن للامبراطورية البيزنطية وطلب من الامبراطور مانويل ارسال مندوب عنه لاستلام هذه المدن فأرسل الامبراطور البيزنطى قائده الكسيوس أف أولبس Alexius of Aulps ومع قوة بلغ تعدادها ما يقرب من ستة آلاف من الجنود البيزنطيين لتنفيذ هذه المهمة (٥) . ولما كان قلعج أرسلان عازما على عدم رد هذه المدن للامبراطور مانويل وحتى يظهر حسن نواياه تجاه الامبراطور وأن الرفض لم يأت من جانبه أرسل إلى سكان هذه المدن واعداد اياهم على ما يبدو ببعض المزايا إذا بقيت مدنها

Nicetas, op. cit., p. 195.

(١)

Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(٢)

Cinamus, op. cit., p. 292.

(٣)

Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(٤)

Nicetas, op. cit., p. 226; Cinamus, op. cit., p. 292.

(٥)

تابعة للسلاجقة، كما وعد أيضا بمساندتهم ضد البيزنطيين فانحاز السكان إلى جانب السلطان السلجوقي ورفضوا تسليم المدن إلى المندوب البيزنطي فعاد دون أن يحق المهمة التي أوفا من أجلها الأمر الذي أغضب الامبراطور مانويل واعتبره خدعة من جانب السلطان قلعج أرسلان (١).

إذا كان الامبراطور مانويل قد أحس بالدور الذي لعبه قلعج أرسلان ونتج عنه عدم رد المدن للامبراطورية، فإن الامبراطور أدرك أيضاً أن السلطان السلجوقي سوف لا يوافق على رد أملاك آل دانيشمند إلى ذى النون وكذلك إعادة مدينتي أنقرة وجانجرس إلى شاهنشاه، وبدأ التفكير في استعمال القوة ضد السلاجقة في الوقت الذي وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الامبراطور مانويل إلى مدينة ضروليوم. والواضح أن شاهنشاه قد لعب دوراً في هذا الوقت وحرص الامبراطور على مهاجمة مدينة أماسية التي تقع إلى الشرق من جانجرس وهون الأمر على الامبراطور وأوضح له أن بعض أعوانه في هذه المدينة التي لا تخضع للسلطان السلجوقي سوف يقدمون له المساعدة، ولعل شاهنشاه كان يقصد من وراء ذلك أن يتسلم هذه المدينة ليحكمها عوضاً عن أملاكه التي استولى عليها أخوه قلعج أرسلان، وعلى أية حال فإن الامبراطور مانويل الذي لم يكن راغباً إلى دفع قواته الأصلية إلى مثل هذه الحروب الفرعية طلب من قائده جابراس Gabras التوجه إلى المقاطعات القريبة من مدينة أماسية وجمع بعض القوات البيزنطية ومهاجمة المدينة، وكان أن انجبه جابراس إلى بفلاجونيا وطرايزون ومعه شاهنشاه وتم حشد بعض القوات البيزنطية واتجهوا إلى أماسية، والواضح أن كل من شاهنشاه وجابراس تولى

قيادة جانباً من القوات البيزنطية ، وقد نجح جابراس في الوصول بقواته إلى مدينة أماسية فرحب به أهلها وطلبوا منه دخول المدينة ولكنه خشي من محاصرة السلاجقة — التي كانت على مقربة منه — للمدينة فقرر الانسحاب . وقد شجعه على ذلك ما بلغه من أخبار هزيمة القوات التي كان يقودها شاهنشاه على أيدي القوات السلجوقية . وانتهى الأمر بعودة جابراس وشاهنشاه إلى معسكر الامبراطور عند ضروليوم (١) ، في صيف عام ١١٧٥ م / أوائل عام ٥٧١ هـ تقريبا .

وحوالي ذلك الوقت أو بعده بقليل بدأ الامبراطور مانويل في العمل على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية في آسيا الصغرى والحقيقة أن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية للقيام بمثل هذا العمل بعدما سيطر قلعج أرسلان تقريبا على معظم آسيا الصغرى وهزم منافسيه واحدا بعد الآخر وكون دولة متجانسة قوية تحل محل الامارات الصغيرة المتنافسة التي طالما خدم تنافسها الامبراطورية البيزنطية (٢) وعلى أية حال فقد خطط مانويل لاقامة عدة تحصينات عند مدينة ضروليوم التي كانت خربة في هذا الوقت باعتبار أن هذه المنطقة تمثل نقطة استراتيجية هامة في قلب آسيا الصغرى وتحكم في عديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات .

ولكي يقيم مانويل مثل هذه التحصينات كان عليه أن يقوم أولا بطرد السلاجقة الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم حول هذه المنطقة ، ثم بدأت أعمال التحصينات وسار العمل على قدم وساق حتى تم اعداد السور خلال أربعين يوما كما تم حفر خندق أمام هذا السور ، ولم تسلم القوات البيزنطية

Cinnamus, op. cit., pp. 294—6.

(١)

Diehl, op. cit., p. 149; Byron, The Byzantine Achievement, p. 149. (٢)

من مهاجمة القبائل السلجوقية أثناء قيام هذه التحصينات ، كما أن السلطان قلعج أرسلان اعتبر قيام مثل هذه الأعمال الدفاعية دليل على سوء نية الامبراطور وأنه يعد العدة لمحاربته ، لذلك أرسل قلعج أرسلان إلى الامبراطور مانويل يستفسر منه عن الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات فأوفد مانويل أحد قواده ويدعى توماس ليلبلغ السلطان بأنه بدأ بالعدوان وأنه كان السبب في اخفاق جابراس في مهمته وليطالب أيضا السلطان بتسليم مدينة أماسية ولكن قلعج أرسلان لم يوافق على طلب الامبراطور فعاد المبعوث البيزنطي فاشلا في مهمته (١).

بدأ الموقف يزداد توترا بين السلطان والامبراطور ، وبازدياد هذا التوتر زادت اقامة التحصينات (٢) ، فبعد ما فرغ مانويل من اقامة التحصينات عند ضروليوم اتجه إلى مدينة لوباديون لتفقد القوات البيزنطية هناك ثم اتجه جنوبا إلى وادي نهر المياندر وقام هناك لبعض الوقت ثم فيه تحصين المنطقة خاصة مدينة سوبلايون Soublaion للسيطرة على الطرق المواجهة لمدينة قونية ثم عاد إلى العاصمة البيزنطية في أواخر عام ١١٧٥ م ، وأثناء اقامة الامبراطور مانويل في القسطنطينية حدث أمران ، أولهما ، أن الامبراطور عاقب جابراس بالسجن لفشله في الاستيلاء على مدينة أماسية ، وثانيهما أن السلطان قلعج أرسلان أرسل إلى الامبراطور يعرض عليه الصلح ويقترح تجديد معاهدة عام ١١٦٢ م ولكن الامبراطور مانويل رفض هذا العرض (٣) .

وبذلك بات الأمر واضحا أن الحرب واقعة لا محالة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة وأخذ كل منها يستعد للقتال. والواقع أن الامبراطور

Cinnamus, op. cit., pp. 296—7.

(١)

Finlay, op. cit., III, p. 191.

(٢)

Cinnamus, op. cit., pp. 297—9; Nicetas, op. cit., p. 229.

(٣)

مانويل كان أكثر استعداد للقتال بعدما كرس كل همه لهذا الغرض وأعد الغدة لحرب طويلة مع السلاجقة وظل حتى ربيع عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ تقريبا يعمل على خزن كميات كبيرة من المؤن - عند معسكره الذى أقامه عند لاباديون - التى أحضرها من تراقيا وحملت على ثلاثة آلاف مركبة كما قام بحشد قواته فى هذا المعسكر بالإضافة إلى القوات التى انضمت اليه من الصرب وهنغاريا (١) بحكم ولائهما للامبراطورية . ولم يكتف الامبراطور بهذا الحشد من القوات البيزنطية التى اشتملت أيضا على عناصر صليبية وانجليزية (٢) وهى العناصر اللاتينية التى تعمل فى القوات البيزنطية ، بل أرسل إلى البابا الكسندر الثالث خطابا فى التاسع والعشرين من يناير فى العام نفسه يبلغه بتطورات الموقف فى آسيا الصغرى ويطلب منه ارسال نجدات من الغرب الأوربي لمساعدة الامبراطورية فى حروبها ضد السلاجقة (٣) ، وقد لى البابا نداء الامبراطور وكلف أحد الكرادلة ويدعى شريز وجون Chrysogone بالتوجه إلى ملك فرنسا يحثه على حمل الصليبية . وانتشرت الأخبار فى كل ربوع أوروبا باستعداد الامبراطور مانويل لحرب السلاجقة ، وظهر أمام الغرب والبيزنطيين والصليبيين أن الامبراطور مانويل كما لو كان يعد الغدة

(١) Cinnamus, op. cit., p. 299.

(٢) يتضح ذلك من الخطاب الذى أرسله الامبراطور مانويل إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا حول هذه المعركة وأشار بأن الانجليز الذين كانوا فى المعركة سيبلغوا الملك بكافة التطورات .
أنظر :

Manuel I Comnenus, letter to Henry II dated 1176, cf. Roger of Hovenden, op. cit., I, p. 422.

Manuel I Comnenus, letter to the pope Alexander III, dated 1176, (٣)
cf. R.H.G.F. Vol. XV, p. 952.

لحملة صليبية ضخمة لقتال السلاجقة والمسلمين على حد وصف بعض المؤرخين (١). وفي صيف عام ١١٧٦ م / أوائل عام ٥٧٢ هـ كانت القوات البيزنطية البرية قد استعدت للقتال (٢).

ولتقف وقفة قصيرة لمناقشة الأسباب التي أدت إلى قيام فكرة أن الامبراطور مانويل يعد لحملة صليبية ضد العالم الاسلامي وانتشار هذه الفكرة في الشرق والغرب على السواء ، فمما لاشك فيه أن ما طلبه الامبراطور مانويل من البابا لارسال النجندات لقتال السلاجقة فسر نحو هذا الاتجاه كما أن قيام البابا بدعوة لويس السابع إلى الاستعداد لحملة صليبية قد أيد هذا الرأي . ومن العوامل التي ساعدت على نشر هذه الفكرة أسطورة الكاهن يوحنا Prester John لأنه في عام ١١٥٠ م أخذ الغربي الأوربي يتداول رسالة جرى الزعم أن كاتبها هو الكاهن يوحنا ووجهها إلى الامبراطور مانويل بغرض التعاون المشترك بينهما للقضاء على العالم الاسلامي ، ورغم أنه كان من المعروف أن هذا العمل من تزييف أحد القساوسة الألمان إلا أن الغرب الأوربي لم يتغافل هذه الرسالة وظل يتناقلها منتظرا الوقت الذي يظهر فيه الكاهن يوحنا ليتعاون مع الامبراطور مانويل في القضاء على المسلمين (٣) . وإذا كان

William of Tyre, op. cit., II, p. 414; Nicetas, op. cit., p. 230; (١)

Chalandon, op. cit., p. 506.

وعن مفهوم الحملات الصليبية التي قادها البابا البيزنطيون أنظر : عمر كمال توفيق :
مقومات العدوان الصليبي على الشرق العربي ص ٢ وما بعدها .

Cinnamus, op. cit., p. 299. (٢)

Runciman, op. cit., II, pp. 422—3, III, p. 163. (٣)

وعن نص الخطاب المرسل من الكاهن يوحنا إلى الامبراطور مانويل أنظر :

Youssef Kamal, Monamenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III,
fasc. IV, pp. 890—1.

ذلك ما ساعد على انتشار الفكرة من الناحية النظرية ، فمن الوجهة العملية أن الامبراطور مانويل قد حشد عشرات الآلاف من الجنود من شعوب متعددة لقتال السلاجقة . أما عن قتال بقية العالم الاسلامى فيروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أن الامبراطور أعد في هذا الوقت مائة وخمسين سفينة أخذت اتجاهها إلى سواحل مصر (١) . وبدراسة الحملات البحرية التى أغارت على شواطئ مصر في الفترة من ٥٦٩ إلى ٥٧٣ هـ / ١١٧٤ - ١١٧٨ م يتضح لنا أنها ثلاث غارات الأولى على الاسكندرية والثانية والثالثة كانت على مدينة تبليس وجميعها جاءت من قبل مملكة صقلية (٢) في عهد وليم الثانى William II (١١٦٦ - ١١٨٤ م) .

ومن ذلك يتضح لنا أن السفن البيزنطية التى أشار إليها المؤرخ كيناموس لم تقم بأى عمل عسكري ضد مصر كما يلاحظ أيضا أن العدد الذى أشار إليه المؤرخ نفسه كان مناسبا للغزو مصر ، فهل كان اتجاه السفن إلى سواحل المدن الصليبية بالشام لتكون نواة للأسطول البيزنطى الذى تعهد الامبراطور به لمساعدة الصليبيين طبقا للمعاهدة التى عقدها مع الملك عمورى وجدها الملك بلدوين ؟ الواقع أن المصادر الصليبية لم تشر إلى مثل ذلك ، والأرجح أن صحت هذه الرواية أن هذه السفن اتجهت إلى قبرص وقبعت هناك خاصة وأن صقلية كانت لها تحركات عسكرية بحرية في هذا الوقت وربما خشى الامبراطور من مهاجمة صقلية لجزيرة قبرص أو أن الامبراطور قد أمر بإبحار هذه السفن بدعوى قتال المسلمين في مصر لزيادة حماس القوات البرية .

على أية حال فقد كان من الواضح أن الامبراطور يعد العدة للقيام بحرب

Cinnamus, op. cit., p. 309.

(١)

(٢) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

شاملة في الشرق تتولى القوات البيزنطية والقوات المتحالفة معها أو الداخلة في تبعية الامبراطورية جانب آسيا الصغرى ويتولى الاسطول البيزنطي جانب مصر بالاشتراك مع الصليبيين .

والمهم أنه في صيف عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ بدأت القوات البيزنطية تستعد لمهاجمة السلاجقة وقام الامبراطور مانويل بتقسيم قواته إلى قسمين ، القسم الأول منها لمهاجمة السلاجقة من الشمال وتولى قيادته — أندرونيكوس فاتازس Andronicus Vatazes ابن عم الامبراطور ومعه ذو النون حاكم سيواس الذي طرده قلعج أرسلان وبلغ تعداد ما تحت أيديهما من قوات ما يقرب من خمسين ألفا حسب رواية ميخائيل السرياني (١) . وكانت وجهتها مدينة نيكسار التي كانت داخلة تحت حكم ذى النون من قبل وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند في هذه المدينة . اتجه فاتازس وذو النون والقوات البيزنطية — التي كانت معظمها قد جمع من اقليم بفلاجونيا — إلى الشمال وتمكنت القوات البيزنطية من حصار نيكسار (٢) . وعلى ما يبدو أن الحصار كان شديدا على المدينة لضخامة القوات البيزنطية وقربها من اقليم بفلاجونيا البيزنطي الذي أمدّها بالرجال والسلاح ، لذلك لجأ السلاجقة إلى الحيل لضرب القوات البيزنطية . وتنفيذا لذلك قام حاكم المدينة الذي أطلق عليه ميخائيل السرياني «الركي الماكر» بالقاء خطابات إلى داخل المعسكر البيزنطي موجهة إلى القائد البيزنطي ويعنى ما ورد بها أن الدانشمندان الذين سلمت لهم القيادة يريدون أن يوقعوا بالقائد في أيدي السلاجقة الذين أعدوا له الكائن

Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

Nicetas, op. cit., p. 236; Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(١)

(٢)

وهم ينتظرون الفرصة المناسبة . فلما أطلع القائد البيزنطى على هذه الخطابات صدق ما ورد بها وبدأ يتوقع خيانه ذى النون . وبعدما انتشر خبر هذه الخطابات داخل المعسكر البيزنطى وبدأ التوتر ينتشر بين القوات البيزنطية لجأ السلاجقة إلى حيلة أخرى وأشاعوا خبر موت الامبراطور مانويل فانتهز الذعر داخل المعسكر البيزنطى واضطروا إلى رفع الحصار والانسحاب فى حالة من الفوضى الأمر الذى سهل مهمة السلاجقة فى تعقب القوات البيزنطية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة (١) . وقتل فى هذه المعركة القائد البيزنطى وحملت رأسه إلى السلطان قلعج أرسلان (٢) .

هرعت القوات البيزنطية التى نجت من الكارثة إلى الامبراطور مانويل الذى كان يتولى قيادة القسم الثانى من القوات البيزنطية وهو القسم الرئيسى متخذاً طريقه إلى قونية لقتال السلاجقة لتبلغه بالكارثة التى حلت بالقوات البيزنطية عند نيكسار ومقتل فاتازس وقد انزعج الامبراطور لهذه الأخبار أشد الانزعاج (٣) . وعلى ما يبدو أن الامبراطور مانويل قد ظن أن القوات السلجوقية لازالت عند نيكسار وأن العاصمة السلجوقية قونية أصبحت خالية من القوات لذلك نجده يحاول الوصول إلى قونية فى أقرب وقت ممكن لى يفاجئ السلاجقة . ولم يسلك طريق ضروليوم وهو الطريق المعتاد بل اتجه ومن معه إلى القوات إلى مدينة لاودكيا الواقعة على نهر المياندر فى السابع عشر من سبتمبر عام ١١٧٦ م / الحادى عشر من ربيع أول عام ٥٧٢هـ، واخترق وادى النهر حتى وصل إلى مدينة سوبلايون ثم سار شمالى بحيرة اجردير Egerdir

Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

Nicetas, op. cit., p. 236.

Michel le Syrien, loc. cit.

(١)

(٢)

(٣)

واتجه إلى الجبال الضخمة المعروفة باسم سلطان داغ التي تقع إلى القرب من قونية وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتيز Tzibritze الذي يقع في نهايته قلعة ميريو كيفالون الخربة ليكون في مواجهة مدينة قونية مباشرة (١) .

بدأت المتاعب تحقيق بالقوات البيزنطية عندما بدأت تعبر هذا الممر الجبلي ويصف الامبراطور مانويل نفسه حالة الجيش البيزنطي فروغى أن العربات التي كانت تجرها الثيران كانت كثيرة العدد كبيرة الحجم يضاف إلى ذلك معدات الحصار التي كانت ترافق الجيش ، ونظرا لضيق الممر اضطرت القوات البيزنطية أن تسير إلى جانب العربات والمعدات والدواب متلاصقة إلى جوار بعضها ، وليس ذلك فحسب بل أن القوات البيزنطية أصيبت بمرض أدى إلى انتشار الاسهال فخارت قواها لدرجة أن الامبراطور مانويل قد وصف أجساد قواته في هذه المرحلة بأنها كانت لينة كالشمع (٢) .

لم يكن تقدم القوات البيزنطية إلى قونية مفاجأة للسلاجقة ، ولعل السلطان قليج أرسلان قد علم بتقدم الامبراطور ومكان تجمع القوات البيزنطية من بعض الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا في أيدي القوات السلجوقية عند نيكسار وعن طريق القبائل السلجوقية الرحل التي تجوب المنطقة . وتروى المصادر البيزنطية أن قليج أرسلان كان قد أرسل في طلب النجيدات من أمراء الشرق الاسلامي حتى أصبحت القوات التي كانت تحت قيادة السلطان السلجوقي أكبر من

Nicetas, op. cit., p. 230, cf. Also; Sempad, op. cit., p. 626; (١)

Ostrogorsky, op. cit., p. 347:

Vasiliev, op. cit., II, p. 82.

Manuel I, op. cit., p. 420. (٢)

حجم القوات البيزنطية (١) أو على الأقل مساوية لها (٢) والواقع أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه النجذات ولعل الامبراطور حاول أن يصور للملك الانجليزى كبر حجم القوات التى هاجمته وأنه كان يحارب القوات الاسلامية كلها بمفرده . والواضح أن القوات السلجوقية كانت متمرسه على قتال البيزنطيين وتجيد فنون القتال فى الممرات (٣) ، ومن خير الأدلة على ذلك قتال السلاجقة لجيش كونراد ولويس السابع (٤) .

ومن فنون القتال التى مارسها السلاجقة فى هذه المرحلة أنهم لم يدخلوا فى صراع مباشر مع القوات البيزنطية فى أول الأمر بل قاموا بحرق المحاصيل التى تقع فى الأراضى المارة بها القوات البيزنطية كما قاموا أيضا بتسميم الآبار حتى تحرم الجيش البيزنطى من المأكل والمشرب (٥) ، واكتفت القوات السلجوقية فى هذا الوقت بمناوشة الجيش البيزنطى فى بعض المواقع ثم ما لبثت أن تراجعت (٦) ولعل القوات السلجوقية كانت تقصد من وراء هذا الانسحاب دفع القوات البيزنطية إلى التقدم داخل الممر فى أسرع وقت ممكن . وعند هذه المرحلة من القتال يروى المؤرخ البيزنطى نيكيتاس أن السلطان قلع أرسلان عرض الصلح على الامبراطوريل ولهذا السبب قام الامبراطور بدعوة مستشاريه وقواده للتداول فى أمر الصلح مع السلاجقة ولكن العناصر الشابة التى حضرت الاجتماع رفضت عرض السلطان وأصررت على مواصلة الحرب (٧) . ولعل

Manuel I, loc. cit.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 231.

(٢)

Finlay, op. cit., III, p. 191.

(٣)

(٤) أنظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

Nicetas, op. cit., p. 231.

(٥)

Manuel I, op. cit., p. 420.

(٦)

Nicetas, op. cit., p. 233.

(٧)

انسحاب السلاجقة بعد المناوشات التي قاموا بها قد فسرت لدى القادة الشبان بأن القوات السلجوقية غير قادرة على الحرب .

والواقع أن الامبراطور نفسه كان متحمسا للقتال خاصة بعد كل هذه الاستعدادات الضخمة التي أعدها للمعركة ، لذلك انساق وراء قواده الشبان الرافضين للصالح لخوض المعركة (١) ، وعلى أية حال فعندما علمت القوات السلجوقية برفض الامبراطور للصالح كانت قد اكتسبت بعض الوقت في اعداد نفسها ولجأت كعادتها إلى حرب الكمائن والمناوشات وهم يرصدون تحركات القوات البيزنطية عبر ممر تريبرتز الجبلى وهى في طريقها إلى قونية . وكان على الجيش البيزنطى أن يعبر هذا الممر الجبلى الذى يبلغ طوله عشر أميال في أسرع وقت حتى تتمكن من الخروج من هذا المضيق الوعر إلى السهل المبسط أمام مدينة قونية ، لذلك اندفع البيزنطيون وما يصاحبهم من العربات والمعدات حتى تكسدت بداخله وتعذرت مسيرة الجيش البيزنطى — بعدما حشرت داخل الممر حشرا — في أى اتجاه وقد تسببت المقدمة التي كانت تحت قيادة الاخوان يوحنا واندرونيكوس أنجيلوس والمؤخرة بقيادة أندرونيكوس كونتوستفانوس في غلق الممر من الأمام ومن الخلف على القوات الرئيسية للجيش التي كانت تحت قيادة قنسطنطين ماكروذكاس Constantine Macrodocas وأندرونيكوس لامبارداس Lambardas وموروزوميس Morozomis وبلدوين شقيق ماريا زوجة الامبراطور (٢) .

كانت القوات السلجوقية تراقب وترصد تحركات القوات البيزنطية

Duggan, A., The Story of the Crusades, p. 141.

(١)

Manuel I, op. cit., p. 420; Nicetas, op. cit., p. 233.

(٢)

بكل دقة (١) وتأخذ أماكنها على قمم الجبال وفي بعض الأماكن الخفية. عن أعين القوات البيزنطية عبر الوديان ، وفي الوقت الذي حشرت فيه القنواب البيزنطية تماما داخل الممر كانت القوات السلجوقية تحيط بها من كل جانب مركزة تواجدها على جانبي الممر في الأماكن المرتفعة (٢). وفي اللحظة المناسبة قام السلاجقة بضرب المقدمة لايقاف محاولة الجيش البيزنطي في التقدم وشل حركته وقد نجحت المقدمة إلى حد ما في الصمود أمام القوات السلجوقية وتمكنت من الاحتماء ببعض التلال المجاورة (٣). ومن الواضح أن القوات هي التي لجأت إلى التلال أما المعدات فقد ظلت بالممر وأدت إلى وقف مسيرة بقية الجيش البيزنطي تماما حتى يمكن القول أن القوات البيزنطية أصبحت أسيرة في أيدي السلاجقة .

وبعدما تمكن السلاجقة من ايقاف مسيرة الجيش البيزنطي انتقلوا لمهاجمة الجيش الرئيسي بغرض شطر القوات إلى شطرين وقد نجح السلاجقة في هذه المهمة وأنزلوا أقدح الخسائر بالقوات التي كانت تحت قيادة بلدوين الأنطاكي الذي لقي حتفه في المعركة وسرعان ما دبت الفوضى في صفوف القوات البيزنطية وتمكن السلاجقة من محاصرة النصف الخلفي للجيش البيزنطي (٤) ، وأنزلت فيه القتل كما اقتربت من القوات وظلت تهاجمها بالطريقة التي تحلوا لها (٥) حتى يمكن القول أن القوات السلجوقية كانت تستعرض نفسها أمام الجيش البيزنطي .

Finlay, op. cit., III, p. 192.

Michel le Syrien, op. cit., p. 384.

Nicetas, op. cit., p. 234.

Nicetas, loc. cit.

Manuel I, op. cit., p. 421.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

ولما كانت قوات السلاجقة تمتاز بخفة الحركة انتقلت مرة أخرى إلى المقدمة وركزت سهامها على الثيران التي تجر العربات وقتلت عددا كبيرا منها ثم بدأت في دفع كتل الأحجار من أعلى قمم الجبال لتزيد من خسائر العدو (١). وهكذا نجح السلاجقة في اصطیاد القوات البيزنطية بعدما جشرت تماما داخل المعمر (٢) وهذه الصورة أصبح الجيش البيزنطي تحت رحمة القوات الملجوقية التي ظلت تخطره وإبلا من النبال. وحاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق بأى طريقة وفشلت جميع المحاولات التي قامت بها — بعدما ساء عليها السلاجقة كافة السبل — للخروج من هذه المقيرة إذا جاز لنا هذا التعبير. ودب اليأس في نفوس البيزنطيين بعدما انهارت قواهم وفقدوا شجعانهم على القتال. وحاول بعضهم اللجوء إلى بعض التلال المجاورة ولكن تحرك هذه القوات إلى أعلى قد أثار التراب الموجود في المنطقة مما استحال معه رؤية القوات لبعضها فاصطدمت ببعضها وسقط الفرسان وحيولهم على الأرض ووقعوا تحت سنانك الخيل (٣)، وقتل البيزنطيون أنفسهم في هذه المحاولة وزادت خسائر الجيش البيزنطي في الأرواح والمعدات

ولكى يفت السلطان قلع أرسلان في عضد القوات البيزنطية الباقية أحضر رأس فائزس وحملها أحد السلاجقة على عصا طويلة وطاف بها أمام القوات البيزنطية (٤)، وبعد ما رأى البيزنطيون هذا المشهد حاول بعضهم النجاة بأنفسهم رغلا صعوبة هذه المحاولة (٥)، وكان من أول ضرب المثل على

Michel le Syrien, op. cit., p. 384 (١)

La Monte, the World of the Middle Age, p. 327. (٢)

Manuel I, op. cit., pp. 421—2. (٣)

Nicetas, op. cit., p. 236. (٤)

Finlay, op. cit., III, p. 193. (٥)

الهرب الامبراطور نفسه بعدما أصبحت حياته معرضة للخطر لأول مرة في حياته (١) ، ونجح الامبراطور في التسلل إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة من الممر الجبلي كما استطاعت بعض قواته اللحاق به ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد وانقضوا على الامبراطور والفارين معه وأنزلوا فيهم القتل (٢) ومن نجا من القتل وقع في الأسر وتمكن الامبراطور مانويل من الأفلات باعجوبة عندما لجأ إلى أحد الوديان المتطرفة البعيدة عن أعين السلاجقة (٣) .

خرج مانويل من هذه المحنة وقد امتلأت خوذته بالثقوب وعلامات سهام السلاجقة ظاهرة على درعه وظل يتنقل بين الوديان في محاولة منه للاتصال بالمقدمة المحتمية بالتلال بعدما لحق به أندرونيكوس كونتوستمانوس قائد المؤخرة وبعض القوات وأخيرا نجح مانويل في الانضمام لجنود المقدمة بعدما تعرف على مكانهم بصعوبة واحتسب مانويل ومن معه بهم ، فقد كان السلاجقة يطاردونهم ويسرون في أثرهم ، ثم ما لبث الامبراطور والقوات البيزنطية الهاربة معه وجنود المقدمة أن وجدوا أنفسهم محاصرين من كل جانب (٤) ، وبدأت هذه القوات تشكل صيدا سهلا للقوات السلجوقية خاصة وأن المؤن قد نفذت تماما بعدما استمر القتال لمدة سبعة أيام متتالية في ظروف غير عادية (٥) .

كان حال الجيش البيزنطي يدعو للثناء فقد قتل وأسر منه العديد والبقية

Duggan, op. cit., p. 141.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 238.

(٢)

Manuel I, op. cit., p. 422.

(٣)

Nicetas, op. cit., pp. 240—2.

(٤)

Michel le Syrien, op. cit., p. 384.

(٥)

الباقية اما تهم على وجهها في شعاب الودياد أو جريحة في أرض المعركة، أو محتمية بالتلال ومحاصرة من كل جانب . وعلى أية حال لم ينقذ القوات البيزنطية المحاصرة من الهلاك بعدما لجأ اليها الامبراطور سوى حلول الظلام . ورغم ذلك لم تدع القوات السلجوقية القوات البيزنطية المحاصرة تنهأ بالراحة ، فكان السلاجقة يرددون نداءات طوال الليل تشير إلى أنهم أعدوا العدة لآبادة القوات البيزنطية مع بزوغ الفجر . وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوس القوات المحاصرة وباتوا يتوقعون نهايتهم مع نهاية هذه الليلة وظلوا يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير (١) .

كانت ليلة عصيبة على البيزنطيين فلم تعد لديهم الفرصة على الفرار بعد ما أحكم عليهم السلاجقة الحصار ، كما لم يكن لديهم القدرة على الحرب بعدما انهاروا جسديا ومعنويا . وفي وسط هذه الظروف العصيبة عزم الامبراطور مانويل على الفرار وقد سبب اعلان مانويل لهذا النية الفرار في القيادة البيزنطية وهب أندرونيكوس كونتوستفانوس محتجا على هذه الفكرة ووجه اللوم إلى الامبراطور الذي تسبب في اباداة جزء كبير من القوات البيزنطية المحتشدة هناك وأضاع أموال الامبراطورية بسبب حماقته وقلة بصيرته (٢) . وعلى ما يبدو أن أندرونيكوس هذا قام بدور ملحوظ في إعادة تنظيم القوات البيزنطية ومع بزوغ فجر اليوم التالي كان البيزنطيون قد جمعوا قواتهم استعدادا للدفاع عن أنفسهم ضد ما يدبره السلاجقة من هجوم ، ثم ما لبثت القوات السلجوقية أن بدأت في مناوشة القوات البيزنطية استعدادا للمعركة . وعند هذه المرحلة يروى المؤرخ ميخائيل السرياني أن الامبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قليج

Nicetas, op. cit., p. 242.

(١)

Manuel I, op. cit., p. 421 ; Nicetas, op. cit., p. 245.

(٢)

أرسلان يعرض عليه الصلح وتسليم المدين التي قام الامبراطور بتحسينها —
ضروليوم وسوبلايون — مقابل انقاذ القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب (١).

أما المؤرخ البيزنطي نيكيتاس فيروي أن السلاجقة اندفعوا تجاه البيزنطيين
وتولى اثنان من القادة البيزنطيين وهما يوحنا وماكروودكاس أمر تنظيم الدفاع
عن القوات البيزنطية : وفي هذه اللحظة ظهر أحد القادة السلجوقيين ويدعى
جابر اس Gabras وأصدر أوامره للقوات السلجوقية بالكف عن القتال ثم
تقدم إلى الامبراطور مانويل وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان وطلب
منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات ضروليوم وسوبلايون (٢).

وحول عقد الصلح يروي الامبراطور مانويل نفسه في الخطاب الذي
أرسله إلى الملك هنري الثاني ، أن السلطان قلع أرسلان أرسل إلى الامبراطور
يتوسل إليه في عقد الصلح مقابل اطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين
والتحالف مع الامبراطور ضد أعدائه يضاف إلى ذلك ما يضعه الامبراطور
من شروط توافق رغباته ، وانتظر الامبراطور مانويل يومين ثم ما لبث أن
تبين له عدم جدوى القتال ضد السلاجقة والتقدم إلى العاصمة قونية خاصة
بعدها فقدت القوات البيزنطية كل آلات الحصار ومعدات الحرب يضاف
إلى ذلك أن معظم الثيران التي كانت تجر العربات قد نفقت في المعركة ، لذلك
استجاب الامبراطور لطلب الصلح (٣).

وبنظرة تحليلية إلى هذه الروايات الثلاث يتضح منها أن مبدأ الصلح قد

Michel le Syrien, op. cit., p. 284.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 245.

(٢)

Manuel I, op. cit., p. 422.

(٣)

تقرر بين السلطان والامبراطور كما يتضح أيضا أن القوات البيزنطية كانت في حالة سيئة للغاية لا تمكنها من مواصلة القتال على العكس من القوات السلجوقية التي كانت مستعدة للمعركة ، يضاف إلى ذلك اتفاق ما دونه نيكتاس مع ما سجله الامبراطور مانويل في أن السلطان قلع أرسلان قد بدأ يعرض الصلح على الامبراطور على العكس من رواية ميخائيل السرياني ، ولعل مرجع اتفاق روايتي نيكتاس ومانويل أن نيكتاس اطّلع على نسخة من الخطاب الذي أرسله مانويل إلى صديقه هنري ملك إنجلترا واستقى منه هذه المعلومة وغيرها ، يؤيد ذلك أن ما دونه نيكتاس حول هذه المعركة يتفق كثيرا مع ما كتبه مانويل خاصة وأن المؤرخ نيكتاس لم يدون التاريخ الخاص بعهد الامبراطور مانويل الا بعد بضع سنوات من نهاية حكمه (١). كما وأن الباحث لا يميل إلى ما رواه مانويل حول هذا الصلح بالذات لأنه الامبراطور قد صور لنا أن حالة القوات البيزنطية كانت في منتهى السوء وليس لديها معدات للقتال ثم ذكر أن السلطان قدم عرض الصلح لذلك يبدو الأمر متناقضا ، وإذا كان الامبراطور قد أرسل إلى صديقه هنري يبلغه بالهزيمة ففي الوقت نفسه كان مانويل لا يريد أن يوضح لصديقه مدى المهانة التي لحقت به حول استجداء الصلح من السلطان وحاول أن يصور الواقع بما لا يضيع هيبة الامبراطور فأشار بأن السلطان هو الذي طلب الصلح . وعلى ذلك فالباحث يميل إلى الأخذ برواية ميخائيل السرياني وهي أن الامبراطور أرسل في طلب عقد الصلح مع السلطان ويختلف معه في أن ذلك كان مقابل تدمير حصون مدينتي ضروليوم وسوبلايون ، وليس إلى تسليم هذين المدينتين للسلاجقة وذلك استنادا إلى الأحداث التاريخية التالية وإلى ما سجله المؤرخ نيكتاس في هذا الصدد .

(١) انظر ما سبق من ٧ .

وبعد ما تقرر الصلح بين الطرفين أقسم الجانب البيزنطى والسلجوقى على احترام شروط المعاهدة (١) وقام السلطان قلع أرسلان من جانبه بإرسال ثلاثة من الأمراء السلاجقة يصحبهم بعض الفرسان لمساعدة القوات البيزنطية على الانسحاب واصطحبها حتى تأخذ طريقها إلى العاصمة البيزنطية ، ومن الملاحظ أن بعض رؤساء القبائل السلجوقية الرحل قد غضبوا لقيام السلطان بعقد الصلح مع الامبراطور واتجهوا لمقابلة السلطان ووجهوا إليه اللوم على تصرفه هذا الذى أنقذ الجيش البيزنطى من الهلاك، وعلى أنه قدم اليهم بعض المؤن عند انسحابهم. ولكن السلطان لم يستمع اليهم لذلك قاموا من جانبهم بمهاجمة القوات البيزنطية أثناء عودتها ، وقد استاء البيزنطيون من هذا التصرف والقوا اللوم على الأمراء السلاجقة الذين يرافقونهم ولكن الأمراء أفادوا بأن هؤلاء من الرعاة وليس للسلطان سلطان عليهم ، وعلى أية حال فقد قاسى البيزنطيون الكثير من هجمات هذه القبائل وفقدوا حوالى عشرين ألفا من قواتهم أثناء عودتهم حسب ما رواه المؤرخ ميخائيل السريانى (٢) ولاشك أن مثل هذا العدد مبالغ فيه بصورة واضحة .

أما المؤرخ نيكيتاس فيروى أن الامبراطور مانويل حاول أثناء انسحابه إلى القسطنطينية أن يتفادى رؤية أشلاء قواته ولكن بعض القادة البيزنطيين أجبروه على المرور فى الطريق نفسه الذى سلكته القوات البيزنطية أثناء قدومها ليرى بنفسه جثث البيزنطيين التى تفرش الطريق ، ويتفق نيكيتاس مع ما رواه ميخائيل السريانى عن تعرض بعض القبائل السلجوقية الرحل للقوات البيزنطية أثناء انسحابها ورواها على سبيل المناوشات ، وأضاف أن الامبراطور

Manuel I, op. cit., p. 422.

(١)

Michel le Syrien, op. cit., p. 384.

(٢)

مانويل عندما مر على مدينة سوبلايون أمر بإزالة تحصينات هذه المدينة التزاماً منه بشروط الصلح ثم واصل مسيرته حتى مدينة خونية وهناك وزع الأموال على الجرحى ثم جد في السير إلى العاصمة البيزنطية وعندما بلغ مدينة فلادلفيا بعث إلى العاصمة يعلن نبأ الكارثة التي حلت به (١) ، وقد شبهها بمعركة مانزكرت ولكنه هون من شأنها وأشار أنه لا زال على قيد الحياة مطلق السراح وأنه عقد الصلح مع السلطان (٢) ، ولما بلغ الإمبراطور العاصمة بعث بالأموال الكثيرة إلى السلطان قلعج أرسلان لاطلاق سراح الأسرى البيزنطيين (٣).

وعن الأسباب التي أدت إلى هزيمة القوات البيزنطية في معركة ميريو كيفالون يمكن القول أن الإمبراطور مانويل والقادة البيزنطيين كانوا يعلمون أن السلاجقة يجيدون الحرب الخاطفة وأن بوسعهم التنقل بسرعة في أرض المعركة من مكان إلى آخر والأهم من ذلك كله أنهم يجيدون نصب الكمائن خاصة في الممرات الجبلية، وكان على الإمبراطور مانويل وقادته أن يستفيدوا من الكوارث التي حلت بالملك كونراد ولويس السابع أثناء قيادتهما للحملة الصليبية الثانية ، ولكن الإمبراطور وبعض قادته المتهورين اندفعوا إلى داخل ممر جبلي يبلغ طوله عشرة أميال دون أن يرسلوا بعض الفرسان لاستكشاف

(١) Nicetas, op. cit., pp. 247—8.

(٢) Manuel I, op. cit., pp. 422—3.

(٣) ولقد تعرضت المصادر الإسلامية بإيجاز شديد إلى هذه المعركة وذكرها ابن الأثير في عام ١١٧٣/٥٥٦٩ م وروى أن ملك الروم عبر خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلعج أرسلان فجري بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٤١١ . كما تعرض بإيجاز أيضاً لهذه المعركة المؤرخ سبيد أنظر : عن المادة الواردة بالمتن أنظر : Sempad, op. cit., p. 626. Michel le Syrien, op. cit., p. 385.

المنطقة ولحماية الجيش أثناء العبور (١) ، والواضح أن الغرور قد ركب رأس
الامبراطور وقواده المتهورين بفضل القوات الضخمة التي كانت تحت قيادتهم
والتي وصفت عددها المؤرخ ولیم الصوری بأنها كانت فوق تخيل البشر (٢) .

ولقد ترتب على هذه المعركة عدة نتائج في الشرق والغرب على السواء ،
ولعل ما أظهر هذه المعركة بأنها من المعارك الحاسمة في تاريخ الشرق هو أن
الامبراطور مانويل نفسه قد شبهها بموقعة مانزكرت (٣) . ويجب علينا ألا
ننساق وراء هذه الفكرة . فالامبراطور مانويل المهزوم في هذه المعركة قد
ذكر ذلك في الخطاب الذي أرسله إلى صديقه هنرى الثاني وحاول أن يقارن
بين معركة ميريو كيفالون ومعركة مانزكرت ليعطى انطباعا لدى الغرب
الأوربي بكبر حجم المعركة الذي يفوق حجمها الطبيعي وليصور أيضا أنه
أفضل من سلفه الامبراطور رومانوس الذي أسر في معركة مانزكرت لأنه
وأن خسر المعركة فإنه ظل حرا مطلق السراح ، ولعل ما هول من شأن هذه
المعركة ما قام به عدوه الامبراطور فريدريك بارباروسا عند وصفه بعد هذه
المعركة بأنه ملك وليس امبراطور وأن على مانويل أن يقدم له فروض الولاء
والطاعة (٤) .

وإذا كانت المعارك الحاسمة في التاريخ تقاس بحجم النتائج المترتبة عليها
فان نتيجة هذه المعركة لم تغير الكثير من صورة الصراع بين الامبراطورية
البيزنطية وبين السلاجقة في تلك الفترة ، والواضح أن ما أسفرت عنه هذه

Finlay, op. cit., III, p. 192.

(١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 415.

(٢)

Manuel I, op. cit., p. 423.

(٣)

Ostrogorsky, op. cit., p. 347.

(٤)

المعركة يتلخص في أنها وضعت حدا لمحاولات الامبراطور مانويل في طرد السلاجقة نهائيا من آسيا الصغرى أو في وقف أطماع السلاجقة في السيطرة على آسيا الصغرى بأكملها ، وأنه خلال الأعوام التالية لحكم مانويل لم يعد الجيش البيزنطى فى وضع يسمح له بشن الهجوم على السلاجقة وذلك بسبب الخسائر التى لحقت بالقوات البيزنطية وتحولت القوات البيزنطية إلى الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد السلاجقة الذين لم يكفوا عن اختراق الحدود (١) ومن الملاحظ أنه لم ينتج عن هذه المعركة أن اكتسب السلاجقة أرضا جديدة في آسيا الصغرى.

وحول هذه النتائج أيضا رأى بعض المؤرخين المحدثين أنه بعد هذه المعركة ضاعت هيبة الامبراطورية البيزنطية كحامية للإمارات الصليبية (٢)، والرد على هذا الزعم يأتي من قبل الصليبيين أنفسهم فى عام ١١٧٧ م / ٥٧٢ هـ — ٥٧٣ هـ — نرى الأمراء الصليبيين يعملون على دعم العلاقات البيزنطية الصليبية فقد تزوج بوهمند الثالث أمير أنطاكية من إحدى الأميرات البيزنطيات وهى الأميرة ثيودورا قريبة الامبراطور مانويل (٣)، وفى هذا العام نفسه أيضا أى بعد معركة ميريو كيفالون بعام واحد نرى الامبراطور مانويل يقوم بارسال الاسطول البيزنطى للتعاون مع الصليبيين فى غزو مصر (٤) ، كما أن المؤرخ وليم الصورى توجه إلى القسطنطينية فى أكتوبر عام ١١٧٩ م / جمادى الأولى

(١) Chalandon, op. cit., p. 513; Ostrogorsky, op. cit., p. 343;

Vasiliev, op. cit., op. cit., II, pp. 83—4; Baynes & Moss, Byzantium, p. 31.

(٢) Setton, op. cit., I, p. 594; Ostrogorsky, loc. cit.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, 452—3; Runciman, op. cit., II, pp.

418—9 & n. 2 in p. 419.

(٤) أنظر مايل ص ٣٥٨—٣٥٩.

٥٧٥ هـ وعاد بعد سبعة أشهر تقريبا من هذه المهمة التي وصفها المؤرخ نفسه بأنها أتت بفوائد عظيمة للصليبيين ، يضاف إلى ذلك أنه في حوالى شهر مارس عام ١١٨٠ م / شوال ٥٧٥ هـ أى قبيل ممات الامبراطور مانويل بأشهر قليلة كان يوجد في البلاط البيزنطى بعض الأمراء الصليبيين يلتصقون العيون والمشورة من الامبراطور ، فقد توجه بلدوين صاحب الرملة إلى القسطنطينية ليطلب من الامبراطور مانويل مساعدته على دفع فدية أسره (١) وإلى جانبه كان يوجد جوسلين خال الملك بلدوين الرابع ليعرض على الامبراطور بعض الأمور التي تتعلق بشئون مملكة بيت المقدس (٢) . ومن الواضح بعد ذلك أن الأمراء الصليبيين كانوا يجدون في الامبراطور مانويل حاميا وسندا وملاذا لهم حتى أواخر أيام حياته . وعلى أية حال فإن مشروع الحملة البيزنطية الصليبية في عام ١١٧٧ م وحروب الامبراطورية البيزنطية مع السلاجقة ستفسر لنا الكثير حول هذه الآراء .

وفى يتعلق بمشروع حملة عام ١١٧٧ م فإن أسبابه ترجع إلى المعاهدة التي عقدها الملك عمورى والامبراطور مانويل الأول في عام ١١٧١ م أثناء زيارة عمورى للقسطنطينية بهدف غزو مصر ، وإذا كانت هذه الفكرة لم تنفذ في حينها فإن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى حالة الأسطول البيزنطى الذى تحطم عند دمياط أثناء عودته إلى المياه البيزنطية بعد فشل الحملة في عام ١١٦٩ م . أما الأسباب التي دفعت الامبراطور مانويل إلى اختيار هذا الوقت بالذات فقد أصبحت متعددة ومتشابكة بعضها يرجع إلى الامبراطورية البيزنطية نفسها

(١) أسر بلدوين في معركة مخاضة الاحزان . لمزيد من التفاصيل أنظر : ابن الأثير المرجع السابق

ج ١١ ص ٤٥٥ .

William of Tyre, op. cit., II, p. 453.

(٢)

وجانبها منها يتعلق بالامارات الصليبية والجزء الأخير منها. يردده الباحث إلى أطماع مملكة صقلية في الديار المصرية .

وفيما يتعلق بالجانب الخاص بالامبراطورية البيزنطية فيمكن القول أنه بعد هزيمة الجيش البيزنطى فى معركة ميريو كيفالون فى عام ١١٧٦ كان على الامبراطور مانويل أن يقوم بعمل عسكرى فى الشرق لىوضح لحكام المنطقة - على حد مفهوم الامبراطور مانويل - أن الامبراطورية كانت ولا تزال أقوى من أية دولة فى المنطقة وأن معركة ميريو كيفالون لا تزيد عن معركة هزمت فيها القوات البرية البيزنطية وأن الأمر يحتاج فقط لبعض الوقت لاعادة تنظيم هذه القوات وأن الاسطول البيزنطى لازال محتفظا بكيانه وبوسعه أن يهاجم أقوى وأعنى دول المنطقة وهى مصر (١) .

أما الامارات الصليبية فالمعروف أن بقائها فى المنطقة مرهون بالمساعدات الخارجية . ومن الملاحظ أن كافة المساعدات التى قدمها لها الغرب الأوربى فى هذه الفترة قد باءت بالفشل ومثالنا على ذلك الحملة الصليبية الثانية : كما أن الامبراطورية البيزنطية هى التى ساندت الوجود الصليبي ابان حكم الامبراطور مانويل على وجه الخصوص : لذلك كان الأمراء الصليبيون يرجون بأية مساعدة تقدمها الامبراطورية البيزنطية تساعدهم على ضرب المسلمين فى هذه الوقت بالذات بعد ما تمكن صلاح الدين من حكم مصر والشام وتغيرت موازين القوى لصالح المسلمين (٢) ، يضاف إلى ذلك أن الامارات الصليبية

(١) سميح عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٢) حول تغيير موازين القوى وأسبابها والنتائج المترتبة عليها راجع :

Joseph, N.Y., Arab Awakening During the Crusades, cf. Bulletin of the Faculty of Arts, 1971, pp. 11—22.

كانت لا تملك أسطولا حربيا يساعدها في الاغارة على مصر وأن قيام
الامبرطورية البيزنطية بتقديم هذا الاسطول يعتبر من أجل الحملات التي
تقدمها بزنطة للامارات الصليبية وفرصة يجب على الصليبيين اغتنامها .

أما الجانب الذى يتعلق بمملكة صقلية النورمانية وهى المملكة التى كانت
تطمع فى السيطرة على حوض البحر الأبيض وظهرت كدولة أوربية قوية
خاصة بعد ما ساندت البابا اسكندر الثالث والعصبة اللباردية ضد فريدرىك
الأول Frederick I امبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) (١) . وعلى
أية حال فالواضح أن الأسطول الصقلى كان له دور ملحوظ فى الاغارة على
على الموانئ المصرية فى السنوات الأخيرة ومن ذلك غارات الأسطول على
الاسكندرية فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ / الثامن
والعشرين من يوليو عام ١١٧٤ م (٢) بهدف غزو مصر بدليل ضخامة
الاستعدادات التى هاجموا بها المدينة وكذلك الغارات التى قاموا بها على
مدينة تنيس بعد ذلك بقليل (٣) وهكذا بدأت أطماع مملكة صقلية فى غزو
مصر تبدو واضحة خاصة للصليبيين والبيزنطيين . وإذا كان الصليبيون يرحبون
بأية قوى خارجية للقضاء على المسلمين فانهم لا يرحبون اطلاقا بمملكة صقلية
التي بدأت تعمل على غزو مصر لتفوز بها بمفردها ، و الحال نفسه مع البيزنطيين
الذين بدأوا يدركون خطورة الموقف بعدما تسلل الاسطول الصقلى إلى الديار

(١) Haskins, The Norman in European History, pp. 219 ff. Painter. Si.,
A History of Middle Ages, p. 199.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : أمبرتو ريتزيتانو : صفحة من تاريخ العلاقات
بين غيليام الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبي فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية

١٩٤٩ ص ٤٧ - ٥٨ .

(٣) راجع ما سبق ص ٣٣٨ .

المصرية بأمل السيطرة عليها وهو ما لا ترضى عنه الامبراطورية البيزنطية لسببين .
أولهما ، أن بيزنطة كانت تعتبر مصر جزءا من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية
فقدتها عندما فتح العرب مصر وأن على بيزنطة أن تعمل على إعادة الممتلكات
إلى حظيرة الامبراطورية ، وثانيهما أن اقتراب الاسطول الصقلي إلى سواحل
مصر فيه تهديد خطير لنفوذ بيزنطة في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي كله وإذا
لم تقم بيزنطة بعمل عسكري لقطع خط الرجعة على الأسطول الصقلي في هذا
الوقت لزاد نفوذ صقلية في المنطقة وامتد إلى السواحل الشامية وحلت صقلية
محل بيزنطية في الدفاع عن الصليبيين (١) .

أما عن الأحداث المتعلقة بهذا المشروع فالواقع يفرض علينا أن ننظر إليه
نظرة أعم وأشمل من النظرة التي تناولته بها المصادر والمراجع المتاحة لنا ،
لأنه في مطلع عام ١١٧٦ م عندما كان الاستعداد قائما على قلم وساق لقتال
السلاجقة أرسل الامبراطور مانويل إلى البابا الكسندر الثالث يطلب منه العمل
على ارسال النجندات العسكرية لقتال السلاجقة وقام البابا بدوره بحث الملك
لويس السابع على حمل الصليب وانتوجه إلى الأراضي المقدسة (٢) ، يضاف
إلى ذلك أنه بعد هزيمة الامبراطور في معركة ميروكيغالون أرسل الامبراطور
مانويل أيضا سفارة إلى صديقه هنري الثاني ملك إنجلترا وتقابلت السفارة مع
الملك في الثاني عشر من نوفمبر عام ١١٧٦ م وسلمت له خطابا من الامبراطور
يتضمن أخبار المعركة والكارثة التي حلت بالقوات البيزنطية ، وفي الوقت

(١) حول تدخل صقلية لمساعدة الصليبيين بعد وفاة مانويل راجع سعيد عبد الفتاح عاشور :
المرجع السابق ج ٢ ص ٨٤٢ ، عندما قامت صقلية بأرسالها أسطولها لمساعدة الصليبيين وتبنى
فكرة حملة صليبية جديدة في عام ١١٨٧ م ضد المسلمين .

(٢) أنظر ما سبق ص ٣٣٦ .

نفسه كان فيليب كونت فلاندرز Philip Count Flanders موجودا في البلاط الانجليزى (١) ، ولاشك أنه علم بالكثير عن الشرق من السفارة البيزنطية ، وعلى ما يبدو أن الملك هنرى قد وعد السفارة بعمل عسكري ضد المسلمين . وعلى أية حال ما لبث فيليب أن وصل إلى الأراضى المقدسة في أول أغسطس عام ١١٧٧ م / الثالث من صفر عام ٥٧٣ هـ ومعه عدد كبير من الفرسان (٢) . والمهم أن تعاطف الملك هنرى قد تلاق مع الجهود التى قام بها البابا مع لويس السابع ملك فرنسا لذلك نجد الملك هنرى يقوم في الثامن عشر من أغسطس من العام نفسه بالتوجه إلى اقليم نورماندى Normandy ليتصالح مع الملك لويس وتم عقد معاهدة بينهما في الخامس والعشرين من الشهر نفسه تتضمن عقد تحالف بينهما أيضا واتفق هنرى ولويس على القيام بحملة صليبية مشتركة ضد المسلمين (٣) . وعلى ذلك أصبح واضحا أن وصول فيليب إلى الأراضى المقدسة كان قبل اتفاق هنرى ولويس على الصلح وعلى الحملة وأن قدوم فيليب لا صلة له بالحملة وأنه لم يكن مقدمة لها أو خاتمة لجهود الغرب الأوروبى فى اعداد حملة صليبية لم يوفق قادة الغرب فى اعدادها .

والمهم أنه فى الوقت الذى وصل فيه فيليب إلى الأراضى المقدسة كان يوجد فى بيت المقدس سفارة بيزنطية مكونة من أندرونيكوس أنجيليوس ويوحنا دوكاس والكسندر جرافينا وجورج سيناتس George Sinaites لتبلغ الملك بلدوين أن الوقت أصبح مناسباً لتنفيذ المعاهدة التى عقدها

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 35. (١)

Roger of Hovenden, op. cit., I, p. 452; William of Tyre, op. cit., II, (٢)
p. 417.

(٣) عن نص هذه المعاهدة أنظر :

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 36.

الامبراطور مانويل مع الملك عمورى فى عام ١١٧١ م والتى جدد لها الملك بلديون بالشروط نفسها بهدف غزو مصر ، كما أبلغت السفارة الملك بلديون بأن الامبراطور مانويل أرسل سبعين سفينة من نوع الشوانى وبعض السفن الأخرى وهى راسية فى ميناء عكا على أهبة الاستعداد للقتال (١) .

ولما كان الملك بلديون لا يزال فى دور النقاها من مرض الملاريا فقد عرض على فيليب كونت فلاندرز قيادة الحملة خاصة وأن الصليبيين استبشروا بقدومه خيرا لما عرف عن والده من تحمسه للحركة الصليبية واعتقدوا أن الابن لا يقل حماسا عن والده . وتجدد الأمل فى نفوس الصليبيين لغزو مصر . ولكى يغرى الملك بلديون فيليب بقيادة القوات الصليبية عرض عليه الوصاية على مملكة بيت المقدس ، ولكن فيليب رفض هذا العرض وأشار أنه قدم إلى الأراضى المقدسة فى مهمة خاصة وهى تزويج ابنتى عمه الاميرتين سيبلا Sibylla وايزابيلا Isabella من ولدى أحد أتباعه المخلصين وهو روبرت أف بيتون Robert of Bethune وأنه يود العودة إلى بلاده فى أسرع وقت ممكن لتدبير أموره هناك وأضاف أنه ليست لديه أية أطماع فى الحصول على سلطات فى مملكة بيت المقدس (٢) .

كان موقف فيليب من مشروع الحملة الصليبية اليزنطية صدمة للصليبيين (٣) . وعلى ما يبدو أن التزادة الصليبيين قد اقتنعوا بالأعذار الشخصية التى قدمها فيليب وحتى لا يجبروه على الارتباط بمملكة بيت المقدس إذا عين وضيأ عليها عينوا رينو أف شاتيون - الذى أصبح أميرا على حصن الكرك بعد اطلاق

William of Tyre, op. cit., II, p. 420; Joseph ben Joshua, op. cit., I, (١)
p. 172.

William of Tyre, op. cit., II, p. 422. (٢)

Schlumberger, G., Renaud de Chatillon, p. 182. (٣)

سراحه من الأسر — وصيا على المملكة واكتفوا بأن عرضوا على فيليب أمر قيادة الحملة في الوقت الذي كانت فيه السفارة البيزنطية في غاية القلق على مشروع الحملة . وأمام ضغط السفارة البيزنطية تشاور الصليبيون في الأمر وعرض المشروع مرة أخرى بكل تفاصيله أمام فيليب كما قدموا له صورة من المعاهدة التي عقدت بين البيزنطيين والصليبيين حول هذا المشروع ، وهون الأمراء الصليبيون أمر هذا المشروع على فيليب ، ولكن فيليب أجاب بأنه غريب على المنطقة ولا دراية له بأرض مصر ولكن الصليبيين طمأنوه وأبلغوه بأنهم لديهم خبرة واسعة بأرض مصر كما أن فصل الخريف مناسباً جداً للأعمال العسكرية على شواطئ مصر ولكن فيليب عاد وأجاب أنه يخشى قدوم الشتاء على القوات المتحالفة وهي تعمل في مصر كما أنه يخشى من الأمطار والحجاعة (١) . وبذلك بات واضحاً أن فيليب ليس لديه النية على الإطلاق لقيادة الحملة على مصر (٢) والواقع أن فيليب كان على صواب عندما رفض قيادة الحملة لأن هذه الحملة كان محكوماً عليها بالفشل لثلاثة أسباب : أولاً ، أن الأسطول البيزنطي الذي هاجم دمياط عام ١١٦٩ م كان يعادل ثلاثة أمثال السفن التي أعدت لمشروع هذه الحملة ورغم ذلك باء بالفشل . ثانياً ، أن أي قيادة صليبية تتولى أمر هذه الحملة لم تكن مثل قيادة الملك عموري الذي كان شديد الحماس لغزو مصر ، وثالثاً . أن الأوضاع السياسية والعسكرية قد تغيرت في المنطقة لصالح المسلمين . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين كان يعلم بأمر هذه الحملة واستعد لملاقاتها (٣) . على العكس

William of Tyre, op. cit., II, pp. 421—2.

(١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٧ .

من حملة عام ١١٦٩ م التي فاجأت مدينة دمياط . ولعل في هذه الأسباب ما يكفي للرد على الذين هولوا من أمر هذا المشروع وأنه أضاع على الصليبيين فرصة فصل مصر عن الشام الاسلامية (١) .

وعلى أية حال لم يستسلم الصليبيون لهذه النهاية فقد كانوا يعملون جاهدين على الابقاء على التحالف البيزنطي الصليبي كما أنهم أحسوا أنه من العار عدم قيامهم بتنفيذ المعاهدة المعقودة بين البيزنطيين والصليبيين وضياع الحماس البيزنطي ورغبة الامبراطور مانويل الملحة لتنفيذ فكرة غزو مصر . لذلك أبلغوا السفارة البيزنطية بعدم استعدادهم في هذا الوقت لتنفيذ رغبات الامبراطور وطلبوا من السفارة ارجاء هذه الحملة إلى شهر ابريل من العام التالي ١١٧٨ م / شوال ٥٧٣ هـ ، ولما كان البيزنطيون شديداً الحماس لغزو مصر فقد وافقوا على طلب القادة الصليبيين ولكنهم اشترطوا أن يذهب معهم إلى مصر فيليب كونت فلاندرز وعليه أن يقسم على ذلك ولكن فيليب رفض ذلك وفشل أمر هذا المشروع وعادت السفارة إلى بلادها .

كان بوسع الامبراطور مانويل أن يحدد أمر هذه الحملة مرة أخرى ، ولكن حروبه مع السلاجقة في السنوات التالية ساعدت على دفن هذا المشروع والواقع أن المصادر التي تحت أيدينا لم تساعدنا على تحديد تاريخ لهذه الحروب فقد أشارت إليها في الفترة الممتدة من عام ١١٧٧ حتى نهاية عهد الامبراطور مانويل . وترجع أول هذه المعارك إلى السلطان قلقج أرسلان عندما أرسل ما يقرب من أربعة وعشرين ألفاً من العساكر السلجوقية لنهب وادي المياندز والوصول إلى شاطئ البحر حيث تقع مدينة بلاتيه ، Palatia وقد نجحت

القوات السلجوقية في تنفيذ المهمة الموكولة اليها وتوغلت في الوادى ونهبت مدينة بلاتيه وترالس Tralles وأنطاكية الميانسدر (١) ، ولما كان الامبراطور مانويل لازال يعانى من الصدمة التى لحقت به بعد هزيمة معركة ميريوكيفالون وأن حالته الصحية لم تعد تمكنه في هذا الوقت من قيادة القوات البيزنطية (٢) ، فقد عهد إلى بعض قواده ومنهم يوحنا فاتازاس وقنسطنطين دو كاس وآخرين بالتصدى للقوات السلجوقية ، ولما كان الامبراطور لا يود أن تحل بقواته كارثة أخرى مثل كارثة ميريوكيفالون ، فقد طلب من القادة البيزنطيين عدم الاشتباك مع السلاجقة إلا بعد أن يتأكدوا أنهم قادرون على هزيمتهم ، ويضيف المؤرخ البيزنطى نيكيتاس وهو المصدر الوحيد الذى روى هذه الأحداث أن القوات البيزنطية تمكنت من اباداة القوات السلجوقية عند عودتها أثناء قيامها بعبور أحد الجسور الواقعة على نهر المياندر (٣) وحول هذه النتيجة يصبح هناك احتمالان . أولهما ، أن المؤرخ قد غالى في نتيجة هذه المعركة . وثانيهما ، أن القوات السلجوقية لم تكن بالعدد الذى ذكره المؤرخ نفسه وأنها لا تعدون تكون فرقة استطلاعية لسير أغوار القوات البيزنطية .

وعلى ما يبدو أن القوات البيزنطية قد شجعها هذا النصر واستعدت فيما بعد لقتال السلاجقة فأعد الامبراطور مانويل حملة عسكرية ونصب على قيادتها أندرونيكوس أنجيلوس ومانويل كانتاكوزين Cantacuzene والتقت القوات البيزنطية والسلجوقية في وادى نهر المياندر أيضا مما يشير إلى أن القوات السلجوقية قد علمت بأمر هذه الحملة فأسرعت لملاقاتها ، وقد استطاع السلاجقة

Nicetas, op. cit., p. 251.

(١)

William of Tyre, op. cit., II, p. 415.

(٢)

Nicetas, op. cit., p. 254.

(٣)

من الحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية وطاردوها حتى مدينة لاودكيا الغربية ودب الخلل في صفوف البيزنطيين واتمسوا النجاة بأرواحهم وهرب أندرونيكوس من ساحة المعركة ولكن كانتا كوزين تمكن من اعادة جمع القوات البيزنطية بعد مجهود كبير ثم ما لبثت أن عادت ادراجها (١).

والواضح أن المعارك التي دارت بين القوات السلجوقية والقوات البيزنطية بعد معركة ميريوكيفالون حتى هذا الوقت اقتصرت على أعمال السلب والنهب ومحاولة كل طرف انزال الهزيمة بالطرف الآخر. وأن المعركة التالية تشير إلى بداية تحول في السياسة السلجوقية وهي محاولة السلاجقة العمل على كسب أراض جديدة على حساب الامبراطورية البيزنطية كما تشير أيضا إلى تحول ميدان المعركة من وادي نهر المياندر الذي يقع في الجزء الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى إلى شمال آسيا الصغرى بالقرب من نهر الهاليس. وترجع بداية هذه المعركة إلى قيام الأتراك السلاجقة بحصار مدينة كلوديوبوليس — Claudio polis، ولما سمع الامبراطور مانويل بأمر هذا الحصار خرج بنفسه على رأس قواته لانقاذ المدينة من يد السلاجقة، وقد نجح الامبراطور مانويل في الوصول إلى المدينة قبل سقوطها ونجح في فك الحصار المضروب عليها (٢). وتعتبر هذه المعركة آخر المعارك العسكرية التي دارت بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل وآخر معركة أيضا تولى فيها الامبراطور قيادة القوات البيزنطية لقتال السلاجقة، وبهذا النصر الجزئي الذي أحرزه الامبراطور يمكن القول أن هذه المعركة أصلحت بعض الضرر الذي سببته كارثة ميريوكيفالون الا أنه أصبح من الملاحظ أن السلاجقة

Nicetas, op. cit., p. 254.

(١)

Nicetas, op. cit., p. 257.

(٢)

أصبحوا عند نهاية حكم مانويل أقوى بمراحل عما كانوا عليه عند توليته عرش الامبراطورية (١) .

وهكذا انتهت المرحلة الأخيرة من مراحل حكم مانويل بفشله في الحد من ازدياد القوة الاسلامية ، وعدم نجاحه في تحقيق أطماعه في الديار المصرية ، وهزيمة الجيش البيزنطى هزيمة نكراء على يد القوات السلجوقية وتحول الامبراطورية البيزنطية من مرحلة الهجوم على الأتراك السلاجقة إلى مرحلة الدفاع عن أملاكها . ثم ما لبث مانويل أن مات في الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١١٨٠ م . / أول جمادى ثانياً عام ٥٧٦ هـ .

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤١ .

الختامة

نتائج السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

١١٤٣ - ١١٨٠ م



مرت السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول بأربع مراحل كان لكل منها طابع خاص ، وقد تميزت المرحلة الأولى التي امتدت من عام ١١٤٣ حتى عام ١١٤٨ م بجهود الامبراطور مانويل في المحافظة على النفوذ البيزنطي الذي سبق لأسلافه أن أقاموه في الشرق. واشتملت هذه الفترة على أحداث متعددة لها أهميتها دخل فيها مانويل في صراع مع ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية واشتبك مع الأتراك السلاجقة في معارك عسكرية لفترة ليست بقصيرة ، كما شاهدت هذه المرحلة أيضا قيام الحملة الصليبية الثانية وما صاحبها من أحداث أثناء عبورها آسيا الصغرى في طريقها إلى الشام وما قام هناك من اتصالات بين الامبراطورية البيزنطية وهذه الحملة الصليبية . وقد حاول الامبراطور مانويل خلال تلك الفترة الابقاء على النفوذ البيزنطي في المناطق التابعة للامبراطورية ونجح في ذلك إلى حد كبير وبالذات في علاقته مع دولة سلاجقة الروم ومع امارة أنطاكية ، ولكنه لم يوفق في سياسته مع بعض زعماء الأرمن خاصة بعدما هرب الأمير الأرمني ثوروس من الأسر ونجح في العودة إلى قيليقية وفرض نفوذه على جانب كبير منها في الوقت الذي لم يقم فيه الامبراطور مانويل بأي عمل إيجابي ضد ثوروس .

ومن أهم ما توصل اليه الباحث في هذا الفصل هو ملاحظته من إعجاب الامبراطور مانويل بالفروسية وتقديره للشهامة العربية ، وكذلك نجاح هذا الامبراطور في اجبار ريموند أف بواتيه على احترام سيادة الأراضي البيزنطية بقوة السلاح عام ١١٤٣ م ، ثم ما كان من أمر خضوع ريموند للامبراطور مانويل مكرها عندما إتجه إلى القسطنطينية عام ١١٤٥ م طالبا الصفح والغفران مقابل حماية الامبراطور مانويل لامارة أنطاكية من المسلمين بعدما شعر بحركة البعث الاسلامي التي تزعمها عماد الدين زنكي ومن بعده أبنه نور الدين ،

ورغم وعد الامبراطور بمساعدة ريموند الا أن مانويل لم ينفذ ما وعد به وترك ريموند يحارب المسلمين حتى سقط قتيلا في عام ١١٤٩ م دون أن يحرك الامبراطور ساكنا .

وقد وضع الباحث أيضا في هذه المرحلة كيف أن الامبراطور مانويل لم يكن مسئولاً عن فشل الحملة الصليبية الثانية وأنه لم يتحالف مع السلاجقة لضرب القوات الصليبية أثناء مرورها عبر آسيا الصغرى وأن الامبراطور مانويل كان قد عقد الهدنة مع السلاجقة لمدة اثني عشر عاما من عام ١١٤٦ م حتى عام ١١٥٨ م وأنه أخبر البابا والملك لويس بذلك قبل قدوم الحملة . وليس ذلك فحسب بل أن الامبراطور مانويل قدم النصائح الكافية لكل من كونراد ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا حتى لا تتعرض القوات الصليبية لهجمات السلاجقة أثناء عبورها آسيا الصغرى . ولكن عدم أخذ كونراد بنصائح الامبراطور والأخطاء التي وقع فيها لويس وهجوم السلاجقة على القوات الصليبية هو الذي أنزل أفدح الخسائر بالحملة . يضاف أيضا إلى نتائج هذه المرحلة أن الصليبيين والأرمن رغم كرههم للبيزنطيين إلا أنهم ألقوا باللائمة على الامبراطور مانويل لعدم نجدة مدينة الرها وتركها تسقط في يد المسلمين .

ومن الخصائص التي تظهر في علاقة الأرمن بالامبراطورية البيزنطية هي أن تراخي الامبراطور مانويل في القيام بأي عمل عسكري ضد الأمير ثوروس بعد هروبه من القسطنطينية قد شجع ثوروس على بسط نفوذه على جانب كبير من قيليقية وتمكنه من اقامة امارة حاجزة بين المسلمين والبيزنطيين ، الأمر الذي ترتب عليه نتائج سيئة على النفوذ البيزنطي في الشام ، ومن ذلك أن نور

الدين اطمأن إلى حدماء إلى وجود ثوروس في امارته وحارب ريموند والقوات الصليبية في أنطاكية وأنزل بها أفدح الخسائر .

أما المرحلة الثانية فقد اشتملت على الأحداث الممتدة من عام ١١٤٩ م حتى عام ١١٥٧ م . وكان طابع هذه الفترة يتلخص في المناورات السياسية التي قام بها مانويل في المنطقة ، وهي نوع من «الدبلوماسية» الماكرة أن جاز لنا هذا التعبير ، حاول من خلالها الامبراطور مانويل دعم نفوذ الامبراطورية في اماره أنطاكية وازدافه بعض مدن وقلاع اماره الرها المهاره إلى أملاك الامبراطورية . كما تميزت هذه المرحلة أيضا بمحاولة الامبراطور مانويل لضم بعض قوى المنطقة إلى جانبه - دون تدخل القوات البيزنطية - لضرب الأمير ثوروس ، ومن ذلك عندما تحالف مانويل مع السلطان مسعود الذي قام بحملتين ضد ثوروس ، ولما فشل مانويل في تحقيق أهدافه تحول لتحريض رينو أف شاتيو أمير أنطاكية بهدف القضاء على ثوروس . وقد فشل مانويل في تحقيق أهدافه أيضا فقد تحالف رينو مع ثوروس وأنفقا على مهاجمة جزيرة قبرص التي كانت ضمن أملاك الامبراطورية في ذلك الوقت ، وتمكنت القوات الصليبية التي جمعها رينو والقوات الأرمنية التي انضمت اليه من مهاجمة الجزيرة وأنزلوا بها أشد أنواع الخراب . ويلاحظ في هذه المرحلة أن القوات البيزنطية لم تقم بأى عمل عسكري في الشرق ، فقد كان مانويل مشغولا بالصراع ضد النورمان في صقلية لاستعادة المدن التي استولى عليها روجر الثانى ، وكذلك انشغاله بالصراع مع هنغاريا والضرب وما عساه أن يكون من أمر الحملة الصليبية التي كان يخطط لها الملك لويس والملك روجر ضد الامبراطورية البيزنطية التي اعتبرها الغرب الأوربي مسئولة عن فشل الحملة الصليبية الثانية .

ومما تلاحظ على هذه المرحلة أن الامبراطور مانويل فشل في ربط اماره أنطاكية بالامبراطورية البيزنطية عن طريق الزواج السياسي وخروج الامارة من دائرة النفوذ البيزنطي وتمرداها على الامبراطورية ومهاجمة أملاكها . كما أن الامبراطور مانويل استغل ضعف الصليبيين وتمكن من اقامة اماره بيزنطية لمدة سنة واحدة تقريبا على أنقاض بعض مدن وقلاع اماره الرها المنهارة . ولكن مشاعر سكان الامارة لم ترض عن الحكم الاسلامي بديلا وانضم السكان بمحض ارادتهم إلى الجانب الاسلامي ودخلوا في طاعة نور الدين ولم يتمكن مانويل من مقاومة مشاعر السكان والقوات الاسلامية وفشل في اقامة اماره الرها البيزنطية . يضاف إلى ذلك أن الامبراطور مانويل فشل في القضاء على الأمير ثوروس . وانتهت هذه المرحلة من تحكم مانويل وقد انحسر النفوذ البيزنطي عن قيليقية .

وتميزت المرحلة الثالثة التي اشتملت على أحداث الفترة الممتدة من عام ١١٥٨ م حتى عام ١١٦٢ م ، بوصول النفوذ البيزنطي في الشرق إلى ذروته في عهد الامبراطور مانويل خاصة مع الأرمن والصليبيين والسلاجقة وآل دانشمند وإلى حد ما مع نور الدين . وقد تضمنت هذه الفترة قيام الامبراطور مانويل بأعمال عسكرية ضخمة في الشرق بعد ما فرغ الامبراطور نسيبا من مشاكله في الغرب ووقع الهدنة مع وليم الأول ملك صقلية في عام ١١٥٨ م ، كما نجح الامبراطور أيضا في عقد الصلح مع السلاجقة في العام نفسه ليتفرغ لاختضاع ثوروس ورينو بسبب تمردهما على السيادة البيزنطية . وقد نجح مانويل في اذلال ثوروس ورينو وأجبرهما على احترام السيادة البيزنطية . واشتملت هذه المرحلة أيضا على استعداد القوات البيزنطية والصليبية للحرب مع نور الدين ولكن الظروف حالت دون وقوع اشتباكات عسكرية بين

الأطراف المتصارعة وانتهى الأمر بعقد الصلح بين نور الدين ومانويل الذي تمكن بموجب هذا الصلح الافراج عن آلاف الأسرى الصليبيين . وفي المرحلة نفسها أيضا يعود الامبراطور مانويل لقتال السلاجقة بسبب اعتدائهم على القوات البيزنطية أثناء عودتها من الشام . وقد نجح الامبراطور مانويل في الحاق الهزيمة بالقوات السلجوقية وعقد الصلح مع السلطان قلاج أرسلان الذي كان عليه بموجب هذا الصلح أن يقوم بزيارة القسطنطينية مرة كل عام وأن يقدم بعض قواته لمساندة الامبراطورية في حروبها ضد أعدائها .

وابان هذه الفترة وصلت الامارات إلى درجة من الضعف والانشقاق لم تمكنها من مواجهة المسلمين وأن الملك بلدوين الثالث تصاهر مع الامبراطور مانويل بهدف مساندة الامبراطورية البيزنطية للامارات الصليبية ضد المسلمين ، وأن الامبراطور مانويل استغل انشقاق الصليبيين في ضرب بعضهم ببعض ، هذا فضلا عن استغلال الصليبيين في تطويق الأمير ثوروس من الخلف وبذلك يضمن مانويل سيطرته على الصليبيين والأرمن في وقت واحد . وعندما قاد مانويل حملته في عام ١١٥٨ م نجح في تنفيذ ذلك وتمكن من اخضاع رينو أمير أنطاكية وثوروس أمير قيليقية .

هذا ويلاحظ أن مانويل كان يهدف إلى إيجاد نوع من توازن القوى بين المسلمين والصليبيين ، فقد كان لا يرى القضاء على المسلمين أو يترك الصليبيين فريسة للقوات الاسلامية وأنه من خلال الصراع بين الطرفين يتمكن من بسط نفوذ الامبراطورية في الشام ، لذلك لم يدخل في حرب مع نور الدين رغم استعداد القوات البيزنطية والصليبية للقتال ، واكتفى بعقد الصلح مع نور الدين الذي أطلق سراح آلاف الأسرى الصليبيين .

وقد استغل الامبراطور مانويل الصراع الذى كان دائرا بين السلاجقة وآل دانيشمندي في السيطرة عليهما معا ، وليس ذلك فحسب بل أن الامبراطور مانويل استغل خضوع الصليبيين للسيادة البيزنطية واجبرهم على امسداد الامبراطورية ببعض الوحدات العسكرية لمساندة الامبراطورية في قتالها ضد أعدائها ، وأنه لولا القوات الصليبية لما تمكن مانويل من هزيمة السلاجقة في أواخر عام ١١٦١ م واجبار السلطان قلعج أرسلان على عقد صلح مهين .

أما المرحلة الرابعة فقد اشتملت على الأحداث الممتدة من عام ١١٦٣م حتى عام ١١٨٠ م أى حتى نهاية حكم الامبراطور مانويل . وتميزت هذه الفترة بفشل خطط الامبراطورية البيزنطية العسكرية في الشرق . وهى الخطط التى كان يهدف من ورائها الامبراطور مانويل إلى دعم النفوذ البيزنطى في المنطقة ومحاولة ضم مصر أو جانب منها إلى أملاك الامبراطورية البيزنطية . فقد تحالف مانويل مع الصليبيين والأرمن للحد من تقدم القوات الاسلامية في الامارات الصليبية ، وقد انتهى أمر هذا التحالف بالفشل والحاق الهزيمة بالقوات المتحالفة . كما تحالف مانويل مع الصليبيين بهدف غزو مصر وقد فشل هذا التحالف أيضا وهزمت القوات المتحالفة عند دمياط ، وأعقب ذلك دخول الامبراطور مانويل في صراع مرير مع السلاجقة ، وطال هذا الصراع لسنوات متتالية انتهى بهزيمة القوات البيزنطية هزيمة ساحقة في معركة ميروكيفالون . وماتل ذلك من مشروع تحالف بيزنطى صليبي بهدف غزو مصر وفشل هذا المشروع وتجدد القتال بين السلاجقة والبيزنطيين وتمكن البيزنطيون من احراز بعض الانتصارات المحدودة التى أصلحت جانبا من كرامة ميروكيفالون ثم ما لبث مانويل أن مات بعد قليل .

ومن نتائج هذه المرحلة أن الامبراطور مانويل ترك الأمير ثوروس على

حاله في قيليقية وان اطمئنان ثوروس إلى جانب الامبراطورية جعله يتحالف مع البيزنطيين والصليبيين في مهاجمة نور الدين ، ورغم فشل هذا التحالف وهزيمة القوات المتحالفة فقد ترتب عليها نتائج هامة جدا ، منها أن نور الدين كان يدرك أهداف الامبراطور مانويل في امارة أنطاكية وأن نور الدين كان يخشى أيضا القوات البيزنطية وتقدمها في الشام لذلك أطلق سراح بوهمند الثالث أمير أنطاكية ليعود إلى امارته بدلا من وقوعها تحت السيادة البيزنطية المباشرة وتصبح حدود الامبراطورية متأخرة للاملاك الاسلامية . كما أطلق نور الدين سراح قسطنطين كولمان الحاكم البيزنطي في قيليقية خوفا من الامبراطور مانويل . ومن النتائج التي توصل اليها الباحث أيضا أن الامبراطور حاول من خلال الصراع الذي دار بين المسلمين في الشام والصليبيين بهدف غزو مصر أن يتدخل إلى جانب الصليبيين حتى يفوز بالديار المصرية أو جانب منها باعتبار أن مصر كانت ضمن أملاك الامبراطورية قبل الفتح العربي .

أما عن العلاقات البيزنطية السلجوقية : فان مانويل حاول محاولات مستميتة في القضاء على السلاجقة وأنه أستنجد بالغرب الأوربي لتحقيق أهدافه ولكن الغرب لم يمدد بالقوات التي طلبها وهزم الجيش البيزنطي هزيمة نكراء في معركة ميروكيفالون عام ١١٧٦ م بسبب قلة بصيرة الامبراطور العسكرية وكان أهم ما ترتب على هذه المعركة هو تحول القوات البيزنطية من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع .

بعد هذا العرض والتحليل الختامي لموضوع البحث يمكن القول أن—
الامبراطور مانويل فشل في نهاية الأمر في اعادة قيليقية إلى السيادة البيزنطية كما كان الحال في عهد والده يوحنا ، وأنه فشل أيضا في الحد من القوة الإسلامية لضرب الامارات الصليبية ، يضاف إلى ذلك عدم نجاح مانويل في

القضاء على السلاجقة وتقديمهم في آسيا الصغرى وإكنة وفق فقط في الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الصليبيين حتى أواخر أيام حياته . أما فيما يتعلق بسياسة الامبراطورية في الديار المصرية فقد فشلت في جميع مراحلها .

وعلى أية حال فإنه عند موت مانويل كان ابنه الكسيوس الثاني لا يزال قاصرا ، كما أن أمه الوصية على العرش وهي ماريا الأنطاكية اللاتينية الأصل والتي اعتمدت على اللاتين في إدارة شئون الامبراطورية ، كانت غير محبوبة في الامبراطورية البيزنطية . وقد استغل أندرونيكوس كومنينوس ما صاحب ذلك من الاستياء العام ونصب نفسه امبراطورا . ولكن الفتن الداخلية وخطر التورمان وحروب البحر قد تسببت في عزله عام ١١٨٥ م ، واعتلى العرش البيزنطي من بعده اسحق انجيليوس الذي لم تكن لديه المؤهلات اللازمة لتفادي الأزمات التي هددت الامبراطورية فخلعه عن العرش أخوه الكسيوس الثالث Alexius III (١١٩٥ - ١٢٠٣ م) . وبسبب الأخطار الداخلية والخارجية لم تكن الامبراطورية البيزنطية في وضع يسمح لها أن تتبع سياسة شرقية ناجحة ازاء جيرانها في الشرق ، بل أن القسطنطينية ما لبثت أن سقطت في يد قواد الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م وقام اللاتين في القسطنطينية واستولى الصليبيون على العديد من مدن الامبراطورية البيزنطية وانحسر أمر البيزنطيين في أماكن محدودة مثل امبراطورية نيقية في آسيا الصغرى (١) .

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : عمر كال توفيق : المرجع السابق ص ١٥٣ وما بعدها .

الجداول والمصادر والمراجع

قائمة بأسماء الحكام

الآباطرة البيزنطيون

١١١٨ — ١٠٨١	الكسيوس الأول كومنينوس
١١٤٣ — ١١١٨	حنا الثاني كومنينوس
١١٨٠ — ١١٤٣	مانويل الأول كومنينوس
١١٨٣ — ١١٨٠	الكسيوس الثاني كومنينوس
١١٨٥ — ١١٨٣	أندرونيكس الأول كومنينوس
١١٩٥ — ١١٨٥	اسحق الثاني أنجيليوس
١٢٠٣ — ١١٩٥	الكسيوس الثالث أنجيليوس
١٢٠٤ — ١٢٠٣	اسحق الثاني — الكسيوس الرابع
١٢٠٤	الكسيوس الخامس

سلاجقة الروم بآسيا الصغرى :

١٠٨٦ — ١٠٨١	سليمان بن قتلش
١١٠٧ — ١٠٩٢	قلج أرسلان الأول
١١١٦ — ١١٠٧	ملكشاه الأول بن قلج أرسلان
١١٥٦ — ١١١٦	مسعود الأول بن قلج أرسلان
١١٨٨ — ١١٥٦	قلج أرسلان الثاني

آل دانشمند :

أ — فرع سيمواس

١١٤٣ — ١١٠٢	أبو المظفر محمد ناصر الدين بن كمشكين
١١٥٥ — ١١٤٣	ذو النون عماد الدين بن محمد (للمرة الأولى)

١١٥٦ - ١١٦٧

ياغى أرسلان نظام الدين بن كمشكين
أبو محمد اسماعيل غازى جمال الدين بن ياغى أرسلان
ابراهيم شمس الدين بن كمشكين
أبو القادر اسماعيل شمس الدين بن ابراهيم
ذو النون (للمرة الثانية) متخذاً لقب ناصر الدين

١١٦٨ - ١١٧٣

ب - فرع ملطية :

١١٤٣ - ١١٥٠

عين الدين بن كمشكين

١١٥١ - ١١٦٠

ذو القرنين بن عين الدين

١١٦٠ - ١١٧١

ناصر الدين محمد بن ذى القرنين

١١٧١ - ١١٧٣

فخر الدين القاسم بن ذى القرنين

بنو زنكى :

أ - أتابكة الموصل :

١١٢٧ - ١١٤٦

عماد الدين زنكى بن أقسنقر

١١٤٦ - ١١٤٩

سيف الدين غازى الأول بن زنكى

١١٤٩ - ١١٧٠

قطب الدين مودود بن زنكى

١١٧٠ - ١١٧٦

سيف الدين غازى الثانى بن مودود

١١٧٦ - ١١٩٣

عز الدين مسعود الأول بن مودود

ب - أتابكة الشام :

العادل نور الدين محمود بن زنكى

١١٤٦ - ١١٧٤

فى حلب

١١٥٤ - ١١٧٤

فى دمشق

الصالح نور الدين محمود بن اسماعيل

١١٨١ — ١١٧٤ في حلب

بنو أرشق :

أ — الأراتقة في حصن كيفا ثم في آمد

١١٤٨ — ١١٠٨ داود بن سقمان

١١٧٤ — ١١٤٨ قرا أرسلان بن داود

١١٨٥ — ١١٧٤ محمد بن قرا أرسلان

ب — الأراتقة في ماردين :

١١٢٢ — ١١٠٨ ايلغازي الأول بن أرشق

١١٥٢ — ١١٢٢ تمر تاش بن ايلغازي

١١٧٦ — ١١٥٢ ألبى بن تمر تاش

١١٨٤ — ١١٧٦ ايلغازي الثاني بن ألبى

السدولة الفاطمية :

١١٣٠ — ١١٠٢ الأمر ، أبو علي المنصور

فترة شعور

١١٤٩ — ١١٣١ الحافظ ، أبو الميمون عبد المجيد

١١٥٤ — ١١٥٠ الظافر ، أبو المنصور اسماعيل

١١٦٠ — ١١٥٥ الفائز ، أبو القاسم عيسى

١١٧١ — ١١٦١ العاضد ، أبو محمد عبد الله

الدولة الأيوبية :

١١٩٣ — ١١٧٤ الناصر صلاح الدين يوسف

الامارات الصليبية :

أ — ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية :

جودفري أف بويون ١٠٩٩ — ١١٠٠

بلدوين الأول (أول ملك متوج) ١١٠٠ — ١١١٨

بلدوين الثاني ١١١٨ — ١١٣١

فولك الأنجوي ١١٣١ — ١١٤٤

بلدوين الثالث ١١٤٤ — ١١٦٢

عموري الأول ١١٦٢ — ١١٧٣

بلدوين الرابع ١١٧٣ — ١١٨٥

ب — أمراء أنطاكية النورمان :

يوهمند الأول ١٠٩٨ — ١١٠٤

تنكرد ١١٠٤ — ١١١٢

روجر دى سالرنو ١١١٢ — ١١١٩

يوهمند الثاني ١١٢٦ — ١١٣٠

ريموند أف بواتيه ١١٣٦ — ١١٤٩

ريموند أف شانيون (أرناط) ١١٥٣ — ١١٦٠

يوهمند الثالث ١١٦٣ — ١٢٠١

ج — أمراء طرابلس :

ريموند الأول (الصنجيل) ١١٠٢ — ١١٠٥

وليم جوردان ١١٠٥ — ١١٠٨

برتراند ١١٠٨ — ١١١٣

بونز ١١١٣ — ١١٣٧

ريموند الثاني ١١٣٧ — ١١٥٢

١١٨٧ — ١١٥٢	ريموند الثالث
	د — أمراء الرها :
١١٠٠ — ١٠٩٨	بلدوين البولوني
١١١٨ — ١١٠٠	بلدوين أف بورج
١١٣١ — ١١١٩	جوسلين الأول
١١٥٠ — ١١٣٢	جوسلين الثاني
	أمراء أرمينية الصغرى :
١٠٩٠ +	روبان الأول
١١٠٠ +	قسطنطين الأول
١١٢٩ — ١١٠٠	ثوروس الأول
١١٣٦ — ١١٢٩	ليون الأول
١١٦٧ — ١١٤٤	ثوروس الثاني
١١٧٠ +	روبان الثاني (تحت الوصاية)
١١٧٥ — ١١٧٠	مليح
١١٨٧ — ١١٧٥	روبان الثالث

مختصرات لبعض أسماء المصادر والمراجع
التي وردت في حواشي الرسالة

A.S.C.	— Anonymous Syriac Chronicle.
C.M.H.	— The Cambridge Medieval History.
C.S.H.B.	— Corpus Scriptorum Historia Byzantinae.
Ency. Brit.	— Encyclopaedia Britannica.
Hist. Patr. Alex.	— L'Histoire de Patriarches d'Alexandrie.
Mon. Cart.	— Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.
P.P.T.S.	— Palestine Pilgrims Text Society.
R.E.G.	— Revue des Etudes Greques
R.H.C.—Doc. Arm.	— Recueil des Historiens des Croisades Documents Armeniens.
R.H.C.—Hist. Occ.	— Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux.
R.H.G.F.	— Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
R.O.L.	— Revue de l'orient latin.

مجموعات ودوريات

مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة

American Historical Review.

Bongars, J. (ed.), Gesta Dei per Francos, sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2 t. Hanover. 1611.

Bulletin de l'Institut Egyptien.

Byzantion.

The Cambridge Medieval History 8 Vols. Cambridge 1911—1936.

Corpus Scriptorum Historia Byzantinae. Bonn, 1828—97.

Dumbarton Oaks Papers.

Journal Asiatique.

The Journal of Hellenic Studies.

Journal of The Royal Asiatic Society.

Michaud, J., Bibliothèque des Croisades. 4 vols. Paris., 1829;

I. Chroniques de France;

II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;

III. Chroniques d'Allemagne, des pays du nord, grecques;

IV. Chroniques arabes.

Palestine Pilgrims' Text Society. 13 vols. and general Index. London, 1887—1897.

Revue des Etudes Grecques.

Recueil des Historiens des Croisades, publi par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols, 1841—1906.

I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844—1895).

II. Historiens Orientaux, (Arabes), 5 tomes (1892—1906);

III. Historiens Grecs, 2 tomes (1895—1881);

IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869—1906);

V. Lois, 2 tomes (1841—1843);

Recueil des Historiens des Gaules et de la France, 23 vols. ed. Bouquet Paris, 1869—1904.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogüe et Ch. Schefer. Paris, 1893—1911.

Speculum.

دوائر المعارف

Encyclopaedia (An) of The World History, London, 1948.

Encyclopaedia Americana. 29 Vol. & Index. New - York, 1944—5.

Encyclopaedia Britannica. 22 Vol. & Index. Chicago, 1968.

Encyclopaedia International. 19 Vol. & Index. New-York, 1970.

Encyclopaedia (The) of Islam. Vol. I, II, III, Leiden, 1960-71.

المصادر الاجنبية

١ - مصادر بيزنطية

Anna Comnena.,

The Alexiad, Tran. E.R.A. Sewter, Great Britain, 1969.

Cinnamus, J.,

Epitome Historiarum, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.
Bonn, 1836.

Manuel I,

1 — Letter to Louis VII dated 1146 in R.H.G.F. Vol XVI p. 9—10.

2 — Letter to The Pope Eugenius III dated 1146, Cf., R.H.G.F., XV.
pp. 440—1.

3 — Letters to Louis VII King of France dated 1146. in R.H.G.F. Vol
XVI, p. 9—10, 82.

4 — Letter to the Pope Alexander III dated 1176, in R.H.G.F.
p. 952.

5 — Letter to the King Henry of England, Cf. Roger of Hovenden Vol
I p. 419—423.

Nicetas, Ch.,

Historia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae Bonn 1835.

Phocas, J.,

A Brief Description 1185 A.D. (tran. Aubrey Stewart) in The Pa-
lestine Pilgrims Text Society Vol. V, London 1889.

Prodromus, Th.,

Poemata, Cf., R.H.C. Grecs, II, pp. 741—774.

Psellos, M.,

Chronographie (Histoire d'un Siècle de Byzance (976—1077) 2 vols.
Paris 1926—8.

٢ - مصادر لاتينية

Amalric I, King of Jerusalem,

1 — Letter to Henry II King of England dated 1169 AD. in R.H. G.F.
Vol XVI pp. 187—188.

- 2 — Letters to Louis VII King of France dated 1162 A.D. in R.H.G.F.
Vol XVI pp. 36—40.

Conrad III, King of Germany,

Letter to Wibald, in R.H.G.F. XV 533—4.

Eugen III,

Letter to Louis VII in R.H.G.F., XV, pp. 429—430.

Fulcher of Chartres,

Chronicle of The First Crusade tran. by M.E. McGinty Vol. I, London, 1941.

Fabri, Felix.,

The Book of Wandering (1480—83) 2 Vol., 4 Parts. tran. by Aubrey Stewart., London 1893.

Ludolph Von Suchem's,

Description of The Holy Land, written in the year A.D. 1350, Tran.
by Aubrey Stewart, London, 1895.

Louis VII King of France,

Letter to Suger, Cf., R.H.G.F., XV, p. 496.

Ode of Deuil,

De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English
Translation by Viraginia Gingerick Berry, New York, 1948.

Otto of Freising,

- 1 — The Deeds of Frederick Barbarossa, ed. & tr. by Mierow. C.C., New
York 1953.

- 2 — The Two Cities, Tran. Mierow, C.C. New York, Columbia Uni-
versity Press, 1928.

Pretre—Jean,

Lettre au le Emperor Byzantine Manuel, dated 1155. Cf., Y. Kamal,
Mon Cart. t. III, Fasc. IV, 1934 (pp. 890—1).

Roger of Hoveden,

The Annals of Roger de Hoveden, comprising the history of En-
gland and The Other Countries of Europe from A.D. 732 to A.D.
1201, tran from the Latin with notes & Illustration by Henry T.Rily,
2 Vols, London, 1853.

Roger of Wendover,

Flowers of History 2 Vols., tran. from the latin by Gilles, J.A.,
London, 1849.

Saewulf,

The Pilgrimage to Jerusalem (1102—1103), (tran-Rev. Canon. Brownlow) in The Palestine Pilgrims Text Society Vol. IV. London, 1892

Tudebadus,

De Hierosolymitano Itinere, Cf. R.H.C. Hist. Occ. Vol. III pp. (169-229).

Vitry, Jacques de,

1 — The History of Jerusalem, tran. from the latin Original by Aubrey Stewart, London, 1896.

2 — Lettres de Jacques de Vitry, edition Critique Par R.B.C. Cuygens, Leiden 1960.

William Archbishop of Tyre,

A Histiry of Deeds Done Beyond the Sea 2 Vols. translated & Annotated by Emily Atwater Babcock & A.C. Kery, New York, 1943.

Wilbrandi de Oldenburg,

Extracts, A Journal of Pligrimage, Cf. Cobham, C.D., T. & transcribed, Excerpta Cypria, Materials for a History of Cyprus. Cambridge 1908, pp. 13—14.

حسن حبشي (المترجم)

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس — دار الفكر العربي ١٩٥٨

٣ — مصادر سريانية

Anonymous Syriac Chronicle,

The First & the Second Crusades, ed. & tran. dy A.S. Tritton of the Royal Asiatic Society. London, 1933 Part I pp. 69 - 101, Part II pp. 273 - 305.

Michel le Syrien,

La Chronique de Michel le syrien, Cf. R. H. C. Arm. Vol. I, Parir, 1869 pp. 309 - 409.

٤ — مصادر أرمنية

Le doctor Basil,

Oraison Funebre de Baudouin, Comte de Keçoun et de Marasch,
C.F., R.H.C. Doc. Arm., I,

Grégoire le Pretre,

Chronique de Gregoire le Pretre, Cf. R.H.C. Arm. Vol. I, pp. 151—
201.

Guiragos de Kantzag,

Histoire d'Armenie, extrait. Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 413—430

Hethoum, Comte de Gorigos,

Table Chronologique, Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 471—490.

Matthieu d'Edesse,

Chronique, extrait, cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 1—180.

Saint Nerses,

Elegie sur la Prise d'Edesse Par Emad-ein Zankui. Cf., R.H.C. Doc.
Arm. pp. 226—307.

Saint Nerses de Lampron,

extraits de Son Ouvrage, Cf., R.H.C., Doc. Arm. I, pp. 557—603.

Samuel d'Ani,

Chronographie, extrait, Cf. R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 447—468.

Sempad, Le Conetable,

Chronique du Royaume de la Petite Armenie, extrait. Cf., R.H.C.
Doc. Arm., I, pp. 610.

Vahram d'Edesse,

Chronique Rimee des Rois de la Petite Armenie. Cf., R.H.C. Doc.
Arm., I, pp. 493—535.

Vartan le Great,

Abrege d'Histoire Universelle, Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 431—
443.

٥ - مصادر متنوعة

Daniel, The Russian Abbot,

The Pilgrimage in the Holy land (1106—1107), (annotated by C.W. Wilson) in the Palestine Pilgrims' Text Society Vol IV London, 1888.

Joseph ben Joshua ben Meir,

Chronicle (tran. from Hebrau by C.H.F. Biallablotzky) 2 vols.
London, 1834—1836.

المصادر العربية

١ - مخطوطات (١)

ابن أبي السرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن محمد بن أبي السرور زين الدين البكري :

«النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية» - دار الكتب المصرية - رقم ٢٢٦٦ تاريخ .

ابن أبيك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

١ - «دور التيجان وغرر تواريخ الأزمان» - دار الكتب المصرية رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - «كنز الدرر وجامع الغرر» - ٩ ج - دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣ تاريخ .

ابن بهادر (عاش في القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر «فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر» - دار الكتب المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

ابن الجوزي «محمد» (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) شمس الدين أبو الخير :

«ملخص تاريخ الاسلام» - مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٢٠٧٢ -

د .

ابن الجوزي (ت ٥٦٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :

«مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» - دار الكتب المصرية رقم ٢١٨١ تاريخ .

ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن
الفرات :

«تاريخ الدول والملوك» - ١٨ ج - دار الكتب المصرية - رقم
٣١٩٧ تاريخ . «تصوير شمسي» .

ابن الفارق (ت ٨٦٧ هـ / ١٢٨٨ م) أحمد بن يوسف علي بن الازرق :
«تاريخ ميفارقين» - ميكروفيلم - جامعة الدول العربية - معهد
المخطوطات ، نسخة مصورة عن مخطوط المتحف البريطاني -
رقم ٥٨٠٣ .

ابن قاضي شهبه (ت ٨٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) بدر الدين محمد بن أبي بكر :
«الدر الثمين في سيره نور الدين زنكي» - مكتبة بلدية الاسكندرية
رقم ١٣٣٦ ب .

أبو الدم الحموي (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله :
«التاريخ المظفرى» - مكتبة بلدية الاسكندرية - رقم ١٢٩٢ ب .
بالمخرمة (عاش في القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبد الله ابن
أحمد بن علي :
«قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» - ٦ ج - دار الكتب المصرية
رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) أحمد بن عبد الله :
«عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان» -
مجلدان - دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ . «تصوير
شمسي» .

العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين :

«عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» - ٢٣ ج في ٦٩ مجلدا - دار
الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ «تصوير شمسي» .

النويري الكندي (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :

«نهاية الأرب في فنون الأدب» - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية
رقم ٥٤٩ معارف عامة «تصوير شمسي» .

٢ - الكتب

ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم
الملقب عز الدين :

١ - «التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل» - تحقيق عبد القادر

أحمد طلبات - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٦٣ .

٢ - «الكامل في التاريخ» - ١٢ جزء في ١٢ مجلد + الفهرس - بيروت

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

ابن اسحق الأموي (ت حوالي ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م)

«فتوح مصر وأعمالها» - مطبعة الحجر الباهرة - القاهرة - ١٢٧٥ هـ

ابن أبيك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري :

«كنز الدر وجامع الغر» - الجزء السادس - (الدره المضئنة في

أخبار الدولة الفاطمية) - تحقيق صلاح المنجد - القاهرة ١٣٨٠ هـ

١٩٦١ م .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

«مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار ،

وعجائب الأسفار» - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٩٣٤-١٩٣٧ م.

ابن الجوزى (ت ٣٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :
«مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» - المجلد الثامن - ق ١ - ٢ -
حيدر آباد - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :
«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» - ٧ ج - القاهرة (بولاق)
١٢٨٤ هـ.

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة :
«سيرة صلاح الدين الأيوبي المنهارة بالنوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية» - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٦٤ م.

ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله :
«زبدة الحلب في تاريخ حلب» - ٣ ج - تحقيق سامي الدهان -
دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٨ م.

ابن القرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي :
«تاريخ ابن القرات» - المجلد الرابع ج ١ ، ٢ والمجلد الخامس ج ١
عنى بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع - البصرة
(مطبعة حداد) ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م.

ابن القلانسي (ت ٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي ابن محمد

«تاريخ أبي يعلى حمزة بن القلانسي ، المعروف بذيّل التاريخ
دمشق - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

ابن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر
«البداية والنهاية في التاريخ» - ١٤ ج القاهرة (مطبعة السعادة)
١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

ابن ممانى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير ابى سعد :
«كتاب قوانين الدواوين» - جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور
عزيز سوريال عطية - القاهرة (مطبعة الجمعية الزراعية) ١٩٤٣ م .

ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن حلب :
«أخبار مصر» - ٢ ج - نشر هنرى ماسيه - القاهرة (مطبعة
المعهد العلمى الفرنسى) ١٩١٩ م .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» - ٤ ج - ١ ، ٢ ، ٣
تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠ م - ج ٤ .
تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن
عثمان شهاب الدين :

«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» - جز ١
فى مجلد واحد - القاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .

ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل
ابن على :

١ — «المختصر في أخبار البشر» ، ويعرف بتاريخ أبي الفداء» —

٤ ج — استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ — «تقويم البلدان» — نشره رينو وديسلان — باريس (دار

الطباعة السلطانية) ١٨٤٠ م صورة بالأوفست بمعرفة مكتبة المثنى

ببغداد .

أبو الفرج الملقب (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون :

«تاريخ مختصر الدول» بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

١٨٩٠ م .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري

بردي :

«الانجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» — ٩ ج — القاهرة (مطبعة

دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ — ١٣٩١ هـ / ١٩٢٩ — ١٩٤٢ م .

أسامه بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامه بن رشد

الكفافي الشيزري المعروف بابن منقذ :

«كتاب الاعتبار» لندن ١٨٨٤ .

الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :

١ — «تاريخ دولة آل سلجوق» — مصر (مطبعة الموسوعات)

١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م .

٢ — «الفتح القسى في الفتح القدسى» — تحقيق وشرح وتقديم

محمد محمود صبح — القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٥

تاج الدين شاهنشاه بن أيوب (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) .

«منتخبات من كتاب التاريخ» - أنظر ابن شداد : النوادر
السلطانية والمحاسن اليوسفية - مطبعة المؤيد والآداب ١٣١٧ هـ
ص ٢٥٢ - ٣١٢ .

الحسن بن عبد الله (عاش في القرن الثامن هـ / الرابع عشر م)
«آثار الأول في ترتيب الدول» - القاهرة (بولاق) ١٢٩٥ هـ .

الدمشقي (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) محمد أبي طالب الأنصارى الصوفى المعروف
بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقي :

«نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» - بطرسبرج ١٨٦٦ م .

الذهبي (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس
الدين :

«دول الاسلام» - ٣ ج - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية
الكائنة بمدينة حيدر آباد الدكن) ١٣٣٧ هـ .

الراوندى (ت بعد ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م) محمد بن علي بن سليمان :
«راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية» نقله من
الفارسية إلى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربي وآخرين -
القاهرة - (دار القلم) ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

صدر الدين أبو الحسن علي (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) ابن ناصر
«أخبار الدولة السلجوقية» - نشره محمد اقبال - لاهور (مطبعة
جامعة البنجاب) ١٩٣٣ م .

العظيمي (ت بعد ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م) محمد بن علي محمد بن أحمد بن نزار
التنوخى الحلبي :

«تاريخ العظمى» — نشره كاهن أنظر :

Journal Asiatique, Tome ccxxx, 1938—pp. 353—448.

الفارقي (٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق :
«تاريخ الفارقي» الدولة المروانية — حققه وقدم له الدكتور بدوي
عبد اللطيف عوض — القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

القلقشندی (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن علي بن أحمد عبد الله :
«صبي الأعشى في صناعة الانشاء» — ١٤ ج — القاهرة ١٩١٣ —
١٩٢٠ / ١٣٣١ — ١٣٣٨ هـ .

المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقي الدين أبو العباسي أحمد :
١ — «السلوك لمعرفة دول الملوك» — الجزءان الأول وانشائي إلى
سنة ٧٤١ هـ — نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة —
القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ — ١٩٤٢ م .
٢ — «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» — ٤ ج —
القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٤ — ١٣٢٦ هـ .

ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)

«سفر نامه» — نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب — القاهرة
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

L'Histoire des Patriarches d'Alexandria, extraits, tran, Blochet, cf. Revue
de l'Orient Latin, Vol. XI. Paris, 1908. (pp. 240—260).

الواقدي (٢٠٧ هـ / ٨١٥ م) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد :
«كتاب فتوح مصر والاسكندرية» — ليدن ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م .

اليافعى اليمنى (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ - ١٣٦٧ م) أبو محمد عبد الله بن أسعد

ابن على :

مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»

٤ ج حيدر آباد الدكن (مطبعة دائرة المعارف النظامية) ١٣٣٧ -

١٣٣٩ هـ .

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله

الملقب شهاب الدين :

«معجم البلدان» ٥ أجزاء وفهرس - ليبزج ١٨٩٠ م .

المراجع الاجنبية

Addison, C.G.,

The History of the Knights. Templors. London, 1842.

Adeney, W.F.,

The Greek & Eastern Churches. Edinburgh, 1908.

Anderson, J.G.C.,

The Road System of Eastern Asia Mainar with the Evidence of Byz, in the Journal of Hellenic Studies Vol XVII 1879. pp. 22—44.

Archer, T.A., & Kingsford C.L.,

The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1894.

Bailly, A.,

Byzance. Paris, 1948.

Baynes, N.,

The Byzantine Empire. Oxford, 1952.

Baynes & Moss,

Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1949.

Bellac, H.,

The Crusade. London, 1937.

Brehier, L.,

1 — La Civilisation Byzantine. Albin Michal. Paris, 1970.

2 — Vie et Mort de Byzance. Paris, 1947.

Brooke, Z.N.,

A History of Europe from 911—1198. Vol 2 First Published. London 1938.

Brundage, J.A.,

Crusades : A Documentary Survey. The Marquette University Press, 1962.

Byron, R.,

The Byzantine Achievement an Historical Perspeclive A.D. 330—
1453. London, 1929.

Cahen, C.,

La Syrie du Nord. Paris, 1940.

Campbell, G.A.

The Crusades. London, 1935.

Chalandon, F.,

Les Comnenes, T. II : Jean II Comnene et Manuel Comnene. Paris,
1913.

Conder, C.R.,

The Latin Kingdom of Jerusalem 1099—1291. London, 1897.

Curzon, R.,

Armenia — London. 1854.

Diehl, C.,

1 — Byzantium : Greatness & Decline. Tran. From French by Naomi
Walford. New Jersey, 1957.

2 — Histoire de l'Empire Byzantin. 12 me Edition. Paris, 1934.

Duggan, A.,

The Story of The Crusades 1097 — 1291. London, 1963.

Ebersolt, J.,

Orient et Occident. 2 Vols. Paris, 1929.

Fedden, R. & Thomson, J.,

Crusader Castles. London, 1957.

Finlay, G.,

History of Greece, from its Conquest by the Romans to the Present
time. B.C. 146—A.D. 1964. 7 Volumes. Oxford, 1877.

Folz, R.,

The Concept of Empire in Western Europe translated by Sheila Ann
Ogilvie. London, 1969.

Foord, E.,

The Byzantine Empire. London, 1911.

Freeman, E.A.,

The Historical Geography of Europe (ed. J.B. Bury). Third edition
London, 1903.

Grousset, R.,

1 — L'Empire du Levant. Paris, 1949.

2 — Histoire des Croisades. 3 Vols. Paris, 1935.

Haskins, C., H.,

The Normans in European History. New York, 1959.

Heyd, W.,

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. 2 Vols. Leipzig,
1885—1886.

Hendy, M.,

Coinage & Money in The Byzantine Empire, Cf. Dumbarton Oaks
Papers. 1969.

Hutton, W.H.,

Constantinople : The Story of the Old Capital of the Empire. Lon-
don, 1921.

Jullien, R.P.,

Note sur l'Emplacement de L'Ancienne Damiette, Cf., Bulletin de
L'Institut Egyptien, 1886 (pp. 72—77.) Le Caire 1887.

King, E.J.,

The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Lamb, H.,

The Crusades : The Flame of Islam. London, 1931.

La Monte, J.,

1 — The Lordes of Caesarea in the Period of the Crusades. in Speculum
Jornal of Mediaeval Studies Vol XXII, 1947. pp. 145—161.

2 — To What Extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin
Crusading States ? in Byzantion Vol VII, 1972. pp. 253—264.

3 — The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Ludlow, J. M.,

The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Martin, Abb.,

Les Premiers Princes Croises et les Syriens Jacobites de Jerusalem,
in *Journal Asiatique* Vols XII, & XIII. Paris, 1888 pp. 471—400,
1889 pp. 33—79.

Michaud, M.,

History of the Crusades. tran. from the french, by W. Robson 3
Vols. London, 1852.

Neale & Others,

A History of The Holy Eastern Church. The Patriarchate of Antioch
London, 1873.

Norwich, J. J.,

The Kingdom in the Sun 1130—1194. London, 1970.

Oman, C.,

1 — **The Byzantine Empire.** Sixth impression. London, 1922.

2 — **A History of The Art of War in The Middle Ages** 2 Vols. Vol I
378—1278. Vol 2 Second Edition, London, 1924.

Ostrogorsky, G.,

History of The Byzantine State. Oxford, 1956.

Painter, S.,

A History of The Middle Ages 284—1500. New York, 1954.

Rey, E.,

1 — **Resume de L'Histoire de Princes d'Antioche.** in R.O.L. tome 1896
pp. (319—407).

2 — **Les Seigneurs de Barut** in R.O.L. 1896 pp. 12—24.

Rice, T.,

Everyday Life in Byzantium. London, 1976.

Richard, J.,

Le Comte de Tripoli sous la Dynastie Toulousaine. Paris, 1945.

Runciman, S.,

1 — **Byzantine Civilisation.** London, 1936.

2 — **A Story of The Crusades.** 3 Vols. Cambridge., 1954.

Schlumberger, G.,

1 — *Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem*. Paris, 1906.

2 — *Renaud de Chatillon Prince d'Anlioche, Seigneur de la terre d'Ou-*
tre Joudain. Paris, 1933.

3 — *Sceaux Byzantins Inédits*. in *Revue des Etudes Grecques* tome
XIII, 1900 pp. (467—492).

Setton, K.M., (ed.)

A History of The Crusades. 2 Vol. Pennsylvania, 1958—1962.

Smail, R. C.,

Crusading Warfare 1097—1193. Cambridge, 1956.

Stevenson, W.B.

The Crusaders in The East. Cambridge, 1907.

Tout, T.F.

The Empire & the papacy 918—1273. London, 1909.

Vambery, A.,

Hungary in The Ancient, Mediaeval, & Modern Times. 3th. ed.
London, 1889.

Vasiliev, A.A.,

History of The Byzantine Empire. 2 Vols. Madison, 1929.

Walker, C.H.,

Eleanor of Aquitaine & the Disaster at Cadoms Mountain on the
Second Crusade. in *American Historical Review*, July. 1950 pp.
(857—861).

Walter, G.,

La Vie Quotidienne a Byzance au Siecle des Comnenes 1081—1180.
Hachette, Paris, 1866.

Woodhouse, F.C.,

The Millitary Religious Order of The Middle Ages. London, 1879.

Joseph, N. Y.,

Arab Awakening During The Crusades, Cf. *Bulletin of The Faculty*
of Arts, 1971, pp. 11—22.

المراجع العربية والمعربة

أحمد مختار العبادى (دكتور) ، السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام - جامعة بيروت العربية
١٩٧٢ .

أسدرستم (دكتور) :

١ - الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم
بالعرب - ٢ ج - بيروت (دار المكشوف) ١٩٥٦ .

٢ - كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى - ٣ جزء - بيروت
١٩٥٨ .

أنطون خانجى :

مختصر تواريخ الأرمن - أورشليم - ١٨٦٨ م .

جمال الدين الشبال (دكتور) :

١ - مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية
(مطبعة مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ م .

٢ - تاريخ مصر الاسلامية - ٢ ج الاسكندرية (دار المعارف)
١٩٦٧ .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

بحوث التاريخ الاقتصادى - ترجمة توفية اسكندر - القاهرة
(مطابع دار النشر للجامعات المصرية) ١٩٦١ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- ١ - «العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى» - الطبعة الثانية - الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .
- ٢ - «الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي» - الاسكندرية - (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .
- ٣ - «العدوان الصليبي على مصر» هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور» - الطبعة الأولى - الاسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٦٩ م .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

- «تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» - ٤ ج - طبعة أولى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦٧ .

حسن حبشى (دكتور) :

- ١ - «الحرب الصليبية الأولى» - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٥٨ .

- ٢ - «نور الدين والصليبيون» حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجرى - القاهرة (دار الفكر العربى) ١٩٤٨ .

درويش النخيلي (دكتور) :

- «السفن الاسلامية على حروف المعجم» - القاهرة - (مطبعة الأهرام التجارية) ١٩٧٤ .

زامبناور :

- «معجم الانساب» - جزءان - مطبعة جامعة فؤاد ١٩٥١-١٩٥٢

سعاد ماهر (دكتور):

«البحرية في مصر الاسلامية وأثارها الباقية» — القاهرة ١٩٦٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

١ — «قبرص والحروب الصليبية» — القاهرة (مكتبة النهضة المصرية

. ١٩٥٧

٢ — «الحركة الصليبية» صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربى فى

العصور الوسطى» — ٢ ج — طبعة أولى — القاهرة (مكتبة

الانجلو المصرية) ١٩٦٣ .

٣ — «أوروبا العصور الوسطى» — ٢ ج — الطبعة الثالثة — القاهرة

. ١٩٦٤

سليم حسن هيشى :

«الاسماعيليون عبر التاريخ» بيروت ١٩٦٩ .

عبد المنعم ماجد (دكتور):

«ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر» — التاريخ السياسى —

اسكندرية — (دار المعارف بمصر) ١٩٦٨ .

على مبارك (ت ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م) على مبارك بن سليمان بن ابراهيم الرومى:

«الخطط التوقيقية لمصر والقاهرة وتعرف بخطوط على مبارك — ٢٠

ج فى ٤ مجلدات — القاهرة (بولاق) ١٣٠٤ — ١٣٠٦ .

عمر كمال توفيق (دكتور):

١ — «مملكة المقدس الصليبية» — الاسكندرية (مطبعة رويال

. ١٩٥٨

- ٢ — «تاريخ الامبراطورية البيزنطية» — الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .
- ٣ — «مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي» الامبراطور يوحنا تريمسكس وسياسته الشرقية ٩٦٩ — ٩٧٦ م — طبعة ثانية — الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .
- ٤ — «المؤرخ ولیم الصوری» — مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧) — مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ — ص ١٨١ — ٢٠٠ .
- ٥ — «الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضي المقدسة» . الاسكندرية ١٩٥٩ .

لی سترانج :

- ١ — «بلدان الخلافة الشرقية» نقله إلى العربية بشير فرنسيس — وكوركيس عواد — بغداد (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ٢ — «فلسطين في العصر الاسلامي» — ترجمة محمود عمايري — عمان (طبعة أولى) ١٩٧٠ .

محمود سعيد عمران : (دكتور)

«حملة جان دي برين الصليبية على مصر»

الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الاسكندرية) ١٩٧٨ .

نبيه، عافز (دكتور) :

الامبراطورية البيزنطية — دمشق ١٩٧٠ .

كشاف عام

(أ)

- آمد : ١٥٠ :
ابن الاثير (مؤرخ) : ١٢٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ .
ابن الازرق الفارقي (مؤرخ) : ١٨١ .
ابن أيبك (مؤرخ) : ١٧٥ .
ابن الجوزي (مؤرخ) : ٢٨٧ .
ابن رزيك (الوزير الفاطمي) : ٢٨٦ .
ابن الفرات (مؤرخ) : ٣٦ ، ٢٥٥ .
ابن القلانسي (مؤرخ) : ٢٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٥١ .
ابن منقذ (مؤرخ) : ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ .
ابن ميسر (مؤرخ) : ٢١٤ .
ابن وفا : ١٦٩ ، ح ١ ، ١٧١ .
ابو شامة (مؤرخ) : ٢٤٦ .
ابو الفرج الملقب (مؤرخ) : ٦١ .
ابو القاسم (أمير سلجوقي) : ٤٧ .
ابو العساكر سلطان بن منقذ (حاكم شيزر) : ٩٣ .
أبوليا (مدينة) : ٣٠٢ .
ابيروس (مدينة) : ٤٧ .
اتارد (اسقف الناصرة) : ٢٢١ .
اثناسيوس (بطريك عين زربة) : ١١٢ ، ١١٣ .

- اثناسيوس (بطريك أنطاكية) : ٢٧١ ، ٩١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
 أثيمه : ٧ .
 اجناس الملطي (مؤرخ) : ٢٤ .
 أجنس (ابنه جوسلين) : ١٧١ .
 ادريانوبل — أدورنه (مدنية) : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ،
 ٩٦ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ٣١٩ .
 إربل (مدنية) : ٢٥٠ ، ٣٣١ .
 أرتاح (مدنية) : ٨٦ .
 أرمينية (اقليم) : ٣٢ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٥ ،
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٧ ،
 ١١٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣١ ، ٢٥٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ .
 أزميز (مدنية) : ٤٦ ، ٥٠ .
 استيفاني — ستيفاني (شقيق ثوروس) : ٢٩ ، ١١٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ .
 اسد الدين شيركوه : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ .
 اسحق (أمير بيزنطي) : ٥٥ ، ٥٧ .
 اسحق بن الامبراطور يوحنا : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
 اسحق كومنينوس (عم الامبراطور مانويل) :
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٣ .
 اسحق الثاني انجيلوس (امبراطور) : ٧ ، ٢٧٤ .

٢٩٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .	اسكندر الثالث (البابا)
٢٢ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ١٠١ .	أضاليا (مدينة)
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ،	
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٢٨ .	
٢٩٨ .	افرام (فنان)
٥٠ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١٥٥ .	إفسوس (مدينة)
١٠٢ ، ١٠٣ .	اكسوخوس (وزير بيزنطى)
١٤٩ .	اكويتين (مقاطعة)
يكثر ذكرهم :	آل دانشمد
٧٨ ، ٩٣ .	الأثارب (مدينة)
٥٩ ، ٢٦٤ .	الابلسين (مدينة)
يكثر ذكرهم .	الأرمن
٢٠٦ .	الاسكندرونة
٣٠٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦ .	الاسكندرية
١٤٤ .	الاناضول
٤٤ ، ٤٣ ، ٤٤ .	الب أرسلان
٩٢ .	البلاط (مدينة)
٢٩٩ ، ٥٠ .	البلقان
٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ .	البيره (مدينة)
٨٨ ، ٣٣١ .	الجزيرة (إقليم)
٢٦ — ٢٩ ، ٣١ — ٣٢ ، ٥٨ —	الرها
٦٠ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٩ ،	

١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٥ — ١٣١ ،
 — ١٣٣ — ١٣٦ — ١٤٨ ، ١٦٠ —
 — ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٤ —
 ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ .
 ٣٦٩ — ٣٧٠ .

أراوندان (مدينة) : ٥٠ ، ٦١ ، ١٣١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ .
 الروم (قلعة) : ٦١ ، ١٣١ ، ١٨٥ .
 السويدية (ميناء) : ١٥٩ — ١٦٠ .
 الشام : يكثر ذكرها .
 الصرب : ٤١ ، ٥٤ ، ح ١ ، ٢٩٨ ، ٣٣٦ .
 ٣٦٩ .

الفرما (مدينة) : ٣٠٤ .
 الفونس كونت تولوز : ١٦١ .
 القسطنطينية : يكثر ذكرها .
 القصير (قلعة) : ٢٩٢ .
 الكرك (حصن) : ٣٢٦ ، ح ١ ، ح ٢ ، ٣٥٩ .
 الكسندر أف جرافينا (قائد بيزنطي) : ١٠٦ ، ٢٩٦ ، ٣٥٨ .
 الكسندر أف كونفرسانا : ٣٠٢ .
 الكسيوس (ابن عم مانويل) : ٢٤١ ، ٢٤٢ .
 الكسيوس (ابن الامبراطور يوحنا) : ١٠١ .
 الكسيوس الأول (امبراطور) : ٢٠ ، ٤١ ، ٤٦ — ٥١ ، ٦١ .

٦٣ — ٦٦ — ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٥ —

. ١٢٢ ، ٨٨

الكسيوس الثاني (امبراطور) : ١٢ ، ١٣ ، ٣١٨ ، ٣٧٤ .

الكسيوس الثالث (امبراطور) : ٣٧٤ .

الكسيوس أف أولبس (قائد بيزنطى) : ٣٣٢ .

الكسيوس برينيوس (سفير بيزنطى) : ٢٦٨ .

الكسيوس جيفارد (مستول بيزنطى) : ٢٠٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

الكسيوس كاسيانوس (حاكم مدينة سلوقية) :

. ٢٢٨ :

اللاذقية (مدينة) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ .

ألمانيا : ١٠٩ ، ٣٠٠ .

الحجر : ١٠ ، ١١ .

المصيصة (مدينة) : ٥٨ — ٥٩ ، ٦٣ — ٦٤ ، ٧٠ :

١٠٢ ، ١١٠ ، ١٩٠ — ١٩١ :

١٩٧ : ١٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ،

٢٣٥ — ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٤٤ ، ٢٤٦ — ٢٤٧ ، ٢٥٢ —

. ٢٥٣ ، ٢٨٢ ، ٣١٩ .

الموصل (مدينة) : ٨٨ ، ١٣٠ — ١٣١ ، ٢٥٠ ،

. ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٣٠ .

المستضىء (الخليفة العباسى) : ٣٢٠ .

اليانور أف اكويتين : ١٣٨ ، ١٤٩ .

- أليس (أميرة صليبية) : ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ .
- أماسية (مدنية) : ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
- أمودا (قلعة) : ١١٢ ، ح ٣ ، ١١٣ .
- أنا كومنيننا (مؤرخة) : ١٧ ، ح ٢ ، ٥١ ، ٧١ ، ٨٧ .
- إنب (قلعة) : ١٧٠ .
- أنجلترا : ٣٠٠ .
- اندرونيكوس (ابن الامبراطور يوحنا) : ٢٠ ، ١٠١ .
- اندرونيكوس (حاكم قيليقية) : ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٨١ —
٢٨٤ .
- اندرونيكوس أنجيلوس (قائد بيزنطي) : ٣٤٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
- اندرونيكوس فاتازس (قائد بيزنطي) : ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ .
- اندرونيكوس كومنينوس (امبراطور) : ٨ ، ٣٢ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،
١٩٤ ، ٣٧٤ .
- اندرونيكوس كونتوستفانوس (قائد بيزنطي)
- : ٣٠٢ ، ٣١١ — ٣١٢ ، ٣١٧ .
- : ٣٤٣ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ .
- اندرونيكوس لامبارداس (قائد بيزنطي) : ٣٤٣ .
- انسلم (اسقف بيت لحم) : ٨٣ .
- أنطاكية : ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ،
- ٢٤ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ —
- ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ — ٥٩ — ٦٠ ،
- ٦٤ — ٦٦ — ٦٨ — ٧٠ ، ٧٢ —

٧٥ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٣ ، ٨٩ ،
 ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ — ٩٧ ، ١٠١ ،
 ١٠٦ — ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ،
 ١٢٥ — ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ،
 ١٥٩ — ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ،
 ١٦٩ — ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ،
 ١٧٩ ، ١٨٢ — ١٨٧ ، ١٩٠ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٣ — ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٩ — ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،
 ٢١٩ ، ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ — ٢٤١ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ — ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ — ٢٦٠ ، ٢٧٠ —
 ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ —
 ٢٩٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ — ٣٢٥ .

أنقرة (مدينة) : ٥٢ ، ٢٠٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ .

انكونا (مدينة) : ١٦٤ .

آنى (مدينة) : ٤٢ .

أودو أف ديل (مؤرخ) : ٢١ ، ٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ١٥٧ .

١٥٨ .

أوتو أف ريسبرج (مبعوث صليبي) : ٢٦٨ .

أوتو أف فراينج (مؤرخ) : ٢٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ،

. ١٥٨

أوربان الثاني (البابا) : ٦٦ .

أوسكين (أمير أرميني) : ١٩٣ .

إيزابيلا (أميرة صليبية) : ٨١ ، ١٣٣ ، ٣٥٩ .

إيطاليا : ١١ ، ١٠٩ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ٢١٣

إيفرارد أف باريس (رئيس فرسان الداوية)

. ١٥٧

إيمري (بطريك) : ١٧٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ،

٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ،

. ٢٩٤

إيوانيس الكسيوني (مؤرخ) : ٢٤ .

(ب)

بابولا (قلعة) : ١٢٦ .

بارداس (قائد بزنطى) : ٥٢ .

باريس : ٢١ .

بارين - بعين (قلعة) : ٧٦ ح ٢ ، ٩١ ، ١٦١ .

بازل (أمير أرميني) : ٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩١ .

بازل (حاكم قلعة برسبرت) : ١٩٣ .

بازل بن شومان (مؤرخ) : ٢٤ .

بازل تريكاندل (قائد بزنطى) : ٣٢٩ .

- بازل دجه (أمير أرميني) : ٦٢ .
- بافرا (مدنية) : ٢٢٥ .
- باکرد (أمير أرميني) : ٦١ ، ٦٠ .
- بالرمو (مدنية) : ١٤٠ .
- باننوكرا تور (دير) : ١٣٢ .
- بانياس (مدنية) : ٢٨٩ .
- بثينة (اقليم في آسيا الصغرى) : ٢٦١ ، ٥٢ ، ٧ .
- براناكا (مدنية) : ١٢٤ ، ١١٧ .
- برتا أف لزاباخ (الامبراطورة إيرين) : ١٠ ، ١٠٩ ، ١٣٢ ، ٢٦٥ ، ح ٢
- برتراند أف بلانكفورت (رئيس فرسان الداوية)
- : ٢٥٤ .
- برتراند أف تولوز (أمير صليبي) : ٢٥٤ .
- برتونك (قلعة) : ٢٠٢ ، ح ٢ ، ٢٢٤ .
- برج السلسلة (برج دمياط) : ٣٠٤ .
- برسبرت (قلعة) : ١٩١ .
- برسق (قائد بيزنطي) : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٤٢ .
- بطرس الناسك : ١٩ .
- بعرين (قلعة) : انظر بارين
- بغداد : ١٢٦ ، ١٧٢ ، ٣٣٠ .
- بغراس (جاستون — قلعة) : ٨١ ، ١٩٩ ، ح ١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
- بفلاجونيا (اقليم) : ٤٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩ .
- برنارد أف فالنس (بطريك) : ٨٦ .

- برنارد أف كليرفو : ١٣٧ .
- بز اغه (مدنية) : ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٣٣ ، ١٨٢ .
- بروسه (مدنية) : ٥٢ .
- بلاتيه (مدنية) : ٣٦١ ، ٣٦٢ .
- بلبيس (مدنية) : ٣٠٥ .
- بلدوين (أمير الرها) : ٦٨ ، ٦٩ .
- بلدوين الثاني (ملك صليبي) : ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٠ .
- بلدوين الثالث (ملك صليبي) : ١٦ ، ١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٦١ ، ١٧٢ .
- ١٧٦ ، ١٨٢ — ١٨٤ ، ١٨٦ ،
- ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ — ٢٢٦ ،
- ٢٣٣ ، ٣٢٤ ، ٢٣٨ — ٢٤٨ ،
- ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ،
- ٢٦٦ ، ٢٦٨ — ٢٧١ ، ٢٨٣ ،
- ٢٩٣ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ .
- بلدوين الرابع (ملك صليبي) : ٣٢٤ ، ٣٥٤ .
- بلدوين الأنطاكي (قائد صليبي) : ١٠٦ ، ٣٤٤ .
- بلدوين (حاكم الرملة) : ٣٥٤ .
- بلدوين (حاكم مرعش وكيسون) : ٥٦ ، ٦٣ ، ١٣٤ .
- بلدوين (أمير صليبي) : ٣٤٣ .
- بنطس (اقلیم — مدنية) : ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٢٥ ، ٢٨٤ .
- بوتلا (مدنية) : ٢٩٨ .
- بوزان (حاكم أنطاكية) : ٤٧ .

- بورثلا (مر) : ١٩٨ .
- بونز (أمير صليبي) : ٧٥ .
- بوهمند الأول : ٥٠ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٧ — ٧٢ .
- ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ١٣٨ ، ١٧٢ .
- ٢٣٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ —
- ٢٩٢ .
- بوهمند الثاني : ٥٤ ، ٧٤ .
- بوهمند الثالث : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٦ ، ٣٢٤ .
- ٣٢٥ ، ٣٥٣ ، ٣٧٣ .
- بياترس (أمير صليبي) : ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،
- ١٨٦ ، ١٨٩ .
- بيت المقدس : يكثر ذكرها
- بيتكاس (مدنية) : ١١٧ .
- بيرهوجورجوس (جورج — من البلاط البيزنطي) : ٢٥٢ .
- بيروت : ٢٨٣ .
- (ت)
- تانا (بحيرة) : ١١٩ .
- تاتيكوس (قائد بيزنطي) : ٦٩ ، ٧٠ .
- تاج الملوك بوري (حاكم دمشق) : ٨٩ .
- تانكرد (حاكم أنطاكية) : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
- ٧٣ .

٣٣٦ :	تراقيا (مدنية)
٣٦٢ :	ترالس (مدنية)
٣١٥ ، ٣٠٥ :	تقى الدين عمر
١٢٧ ، ١٢٥ ، ٨١ ، ٦١ ، ٥٠ :	تل باشر (مدنية)
١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٣٣ ، ١٣١ :	
١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٧ ، ١٧٥ :	
١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٦ :	
١٨١ :	تل خالد (قلعة)
٢٣١ ، ١٩٩ ، ١٩٨ :	تل حمدون (مدنية)
٣٥٦ ، ٣٣٨ ، ٣٠٤ :	تنيس (مدنية — بحيرة)
٨٥ :	تودبودوس (مؤرخ)
١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ٩٣ ، ٩٢ :	توماس (قائد بزنطى)
٢٢٦ ، ١٩٦ ، ١٩٠ ، ١٨٦ :	
٣٢٥ ، ٣١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٠ :	
٣٣٥ :	
١٩٣ :	تيجران (أمير أرمينى)

(ث)

٣٥ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٧ :	ثوروس (ملك أرمينية)
٧٥ ، ٦٥ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٥ :	
١١٥ — ١١٣ ، ٧٨ ، ٧٧ :	
١٨٩ ، ١٧٣ ، ١٢٦ ، ١٢٥ — :	

٢٠٢ ، ٢٠٥ — ٢١٠ ، ٢١٣ —
 ٢١٥ ، ٢٢٤ — ٢٢٦ ، ٢٢٨ —
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ — ٢٨٤ ،
 ٢٨٦ — ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ،
 ٣٦٧ — ٣٧٣ .

ثیری کونت فلاندز (أمیر صلیبی) : ٢٢٠ .

ثیودور الأول لامسکاریس (امبراطور بیزنطی)

: ٧ .

ثیودور سستیوت (من رجال البلاط البیزنطی)

: ٢٥٢ .

ثیودور فاتازاس (قائد بیزنطی) : ٢٣١ .

ثیودور کونتوستفانوس (قائد بیزنطی) : ١٩٢ .

ثیودورا (أميرة بیزنطیة) : ١٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ،

٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٣ ، ٣٥٢ .

تیوفیلاکت (مترجم بیزنطی) : ١٠٦ ، ٢٦٥ .

(ج)

جابر اس (قائد بیزنطی) : ٣٣٣ — ٣٣٥ ، ٣٤٨ .

جاستون (قلعة) : أنظر بغراس .

جاك دی فتری (مؤرخ) : ٣٣ ، ٢٨٨ .

جان کومنینوس (حاكم قبرص) : ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

- جانجرس (مدنية) : ٥٥ ، ٥٦ ، ٢٠٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ .
- جبريل (حاكم ملطية) : ٦٠ .
- جيلة (مدنية) : ١٦٨ .
- ج. بر (مدنية) : ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٧٧ ، ١٨١ .
- جعبر (قلعة) : ١٣٤ .
- جرجوار (مؤرخ) : ٢٨ — ٣٢ ، ٦٥ ، ١١٢ — ١١٣ ،
- ١٧٥ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
- ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ،
- ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٣ ،
- ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ،
- ٢٦٠ ، ٢٨١ .
- جرجوار بهلافوني (قسيس أرمني) : ١٠٤ ، ١٨٥ .
- جرجوري السابع (البابا) : ٤٤ .
- جيرار (أسقف اللاذقية) : ٢٣٥ .
- جيفيلينو (قائد بيزنطي) : ٣١٢ .
- جودفري أف بوايون (ملك صليبي) : ٦٧ — ٦٩ .
- جودفري (رئيس فرسان الداوية بالانابة)
- : ٢٣٨ .
- جودفري أف رانكون (بارون فرنسي)
- : ١٥٦ .
- جورج سنياتس (سفير بيزنطي) : ٣٥٨ .
- جورج باليولوج (سفير بيزنطي) : ٢٩٦ .

- جورجى (شخصية أرمينية) : ٢٣٠ .
 جوسلين الأول كورتناى : ٧٥ .
 جوسلين الثانى (أمير الرها) : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٦٥ ، ٧٨ ،
 ٧٩ — ٨١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ١٢٥ — ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ،
 ١٧٥ — ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ،

. ٢٠٢

- جوسلين الثالث : ٢٨٨ .
 جوسلين بيسلوس (سفير صليبي) : ٢٢١ ، ٢٣٨ .

(ح)

- حارم (مدنية) : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٣ .
 حران (مدنية) : ٨٨ ، ١٢٧ .
 حسان (حاكم مدينة منبج) : ١٨٨ .
 حسام الدين تمرقاش (أمير ملاردين) : ١٣١ ، ١٨١ .
 حسن (حاجب) : ٩١ .
 حطين : ١٨ ، ح ١ .
 حلب : ٤٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .
 ٩٢ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦٩ ،
 ١٧١ ، ١٧٩ ، ٢٤٩ — ٢٥١ .
 ٢٥٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

حماة : ٧٧ ، ٢٤٩ .
حمص : ٨٩ ، ٢٤٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(خ)

خللاط : ٣٣١ :
خلقدونية : ٤٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ :
خونية (مدنية) : ٧ ، ١٠٥ ، ٣٥١ .

(د)

دادجيح (جبل) : ٢٣٠ ، ح ٣ .
داركون (رافد نهر) : ٤٦ .
دلوك (مدنية) : ١٣١ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
٢٥٦ .
دمشق : ٢٢ ، ٨٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٨ :
٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ .
دمياط : ١١ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٣ :
٣٠٣ — ٣٠٦ ، ٣٠٩ — ٣١٣ ،
٣١٥ — ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٤ ،
٣٦٠ ، ٣٧٢ .

دورازو (مدنية) : ٥٠ ، ٧١ ، ١٥١ ، ١٥٣ .

ديمترىوس براناس (قائد بيزنطى) : ١١٠ ، ١٤١ .

ديونيسيوس بن الكلبي (مؤرخ) : ٢٥ .

(ذ)

ذو القرنين (صاحب ملطية) : ١٩٤ ، ٢٦٣ .

ذو النون بن محمد بن غازي (أمير دانشمندی)

: ١١٥ .

(ر)

راسل (قائد نورماني) : ٤٥ .

راتسبون (مدنية) : ١٤٩ .

رالف (أسقف) : ٢٩٩ .

رانسمان (مؤرخ) : ٨٦ .

رعبان (مدنية) : ٥٩ ، ٦١ ، ١١٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

. ٢٦٣

روبان الثالث (حاكم أرمني) : ٣٢٦ .

روبان بن ثوروس : ٣١٩ .

روبان بن ستيفاني : ٢٨٢ .

ذو النون ناصر الدين (أمير دانشمندی) : ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ — ٣٣٣ ،

. ٣٤٠ ، ٣٣٩

روبان بن ليو : ٦٥ .

روبرت أف بيتون (أمير صليبي) : ٣٥٩ .

روبرت أف سورديفال (أمير صليبي) : ١٨٧ .

روبرت جويسكاردا (دوق أبوليا) : ٤٦ ، ٦٧ .

روجر الثاني (ملك صقلية) : ٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ — ١٤٠

، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ،

. ١٦٤ ، ٢١٣ ، ٣٦٩ .

- روجر (حاكم أنطاكية) : ٧٣ — ٧٤ .
روجر أف وندوفر (مؤرخ) : ١٦ .
رودس : ٢٦٢ .
روما : ١٨ .
رومانوس الرابع (امبراطور بيزنطى) : ٤٣ . ٥٩ . ٣٥٢ .
ريموند أف يواتيه (أمير أنطاكية) : ١١ . ١٥ . ٢٠٢ . ٦٤ : ٧٤ —
٨٣ : ٩٢ — ٩٥ : ٩٧ .
١٠٧ . ١١٠ : ١١١ : ١١٥ .
١٢٥ : ١٢٦ . ١٢٨ : ١٣١ —
١٣٣ : ١٣٨ : ١٣٩ : ١٦٠ .
١٦١ : ١٦٨ — ١٧٢ : ١٧٤ .
١٧٩ . ١٨٢ . ١٩٠ : ١٩٢ .
٢٠٣ : ٢٦٧ . ٢٦٨ : ٢٧٠ .
٢٨٨ : ٣٦٧ — ٢٦٨ : ٢٧٠ .
٢٨٨ : ٣٦٧ — ٣٦٩ .
ريموند كونت تولوز : ٦٨ : ٦٩ : ٨٧ .
ريموند الثانى (كونت طرابلس) : ١٦١ : ١٨٦ .
ريموند الثالث (كونت طرابلس) : ١١ : ١٦ : ٢٦٦ : ٢٧١ : ٢٧٢ .
٢٨٤ : ٢٨٦ : ٢٨٧ .
رينيه جروسيه (مؤرخ) : ٨٦ .
رينو (حاكم أرعش) : ١٧١ .
رينو أف سانت فاليرى (حاكم حارم) : ٢٨٦ .

رينو دی شاتیون (أرناط) : ٢٩ ، ٢٠٢ — ٢١٥ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٣ — ٢٢٦ ، ٢٣٢ —
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ — ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣٠٨ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦٩ — ٣٧١ .

زاخاس (أمیر سلجوقی) : ٤٧ ، ٥١ .
 زین الدین علی کوجک : ٢٥٠ ، ٢٨٨ .

(س)

سارديس (مدنية) : ٥٠ .
 سانت دنیس (دير) : ٢١ .
 سانت نرسیس (شاعر أرمني) : ١٣٤ .
 سيللا (أميرة صليبية) : ٣٥٩ .
 سروج (مدنية) : ٨٩ ، ١٣٠ .
 سليمان بن قتلش (سلطان سلجوقي) : ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٠ .
 سليوقية (مدنية) : ٦٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ .
 سمباد (مؤرخ) : ٣١ ، ٣٢ ، ٦١ ، ١١١ ، ١٩١ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٨٢ ،
 ٣٢٠ .
 سميساط (مدنية) : ٥٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٧٧ ، ١٨١ ،
 ١٨٦ .

- سوبلايون (مدنية) : ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
٣٥١ .
سوجر (رئيس دير سانت دنيس) : ١٣٧ .
سيلس (مدنية) : ٦٣ .
سيلستوس (مدنية) : ١٤٢ ، ١٥٠ .
سيف الدين سوار (حاكم حلب) : ٩١ ، ٩٣ .
سيمون (أمير صليبي) : ١١٣ .
سينوب (مدنية) : ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٥ .
سيواس (مدنية) : ٧٠ ، ١١٥ ، ١٨٢ ، ٢٢٥ ، ٢٦٣ .
٢٧٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ .

(ش)

- شالتدون (مؤرخ) : ١١٩ ، ٢٤٣ .
شاهنشاه (أمير سلجوقي) : ٢٠٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٣٢٧ ،
٣٢٨ ، ٣٣٠ — ٣٣٤ .
شاور (وزير فاطمي) : ٢٨٦ .
شريز وجون (كاردينال) : ٣٣٦ .
شهاب الدين (خال صلاح الدين) : ٣٠٥ ، ٣١٥ .
شيزر (مدنية) : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ٩٣ — ٩٧ ،
١٣٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩ .

(ص)

- صقلية : ١٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٥ ،

- ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٩ .
- صالح الدين الأيوبي : ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ .
- صموئيل الآفي (مؤرخ) : ١١٢ .
- صور : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ .
- صوفيا (مدينة) : ١٤١ .
- ضرغام (وزير فاطمي) : ٢٨٦ .
- ضوريوم (مدينة) : ٤٩ ، ٥١ ، ١١٨ ، ٣٣٣-٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(ط)

- طرابلس : ٦٩ ، ٧١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٨٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ .
- طرايزون (مدينة) : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
- طرسوس (مدينة) : ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٣٣٣ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٦٠ ، ١٩٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٨٢ ، ٣١٩ .
- طلائع بن رزيك (وزير فاطمي) : ٢١٤ .
- طوانه (مدينة) : ٦٨ .

(ع)

- عرب (أمير سلجوقي) : ٥٤ .
- عزاز (مدنية) : ١٧٩ .
- عز الدين قليج أرسلان (أمير سلجوقي) : ١٨٠ .
- عسقلان : ٨٢ ، ٢٠٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ .
- عكا : ٢٢ ، ١٦٠ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ .
- ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٥٩ .
- عماد الدين زنكي : ٢٧ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨١ .
- ٨٨ — ٩١ ، ٩٣ — ٩٧ ، ١١١ .
- ١١٤ ، ١٢٦ — ١٢٩ ، ١٦٧ .
- ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ .
- ٣٦٧ .
- عم (قرية) : ٢٨٧ .
- عموري الأول (ملك صليبي) : ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .
- ٢٣٨ ، ح ١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ .
- ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ — ٢٩١ .
- ٢٩٣ — ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
- ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ .
- ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٣٨ .
- ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
- عين الدولة (صاحب ملطية) : ١٩٤ .

عين الدين بن كمشكين (صاحب ملطية)

. ١٧٧ :

عين تاب مدنية : ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٧٥ ، ١٣١ :

. ١٨٨ :

عين زربه (مدنية) : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ :

. ١١٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣١ :

. ٢٨٢

غازي بن دانشمند (أمير دانشمندی) : ٧٠ .

(ف)

فازيليف (مؤرخ) : ١٤٣ .

فاهجه (مدنية) : ٦٣ ، ١١١ ، ١١٢ ، ٢٨٢ .

فاهرام الرهاوى (مؤرخ) : ١١٢ .

فترى (مدنية) : ٣٦ .

فخر الدين بن عمار : ٨٧ .

فريدريك (أسقف عكا) : ٢٠٤ .

فريدريك أف سوايبا : ١٥٤ .

فريدريك (رئيس أساقفة صور) : ١٨ .

فريدريك بارباروسا (امبراطور ألمانيا) : ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ .

فرنسا : ٧١ ، ٣٠٠ ، ٣٣٦ .

فريحيه (مدنية) : ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

فضل الله بن جعفر : ١٢٧ .

فوشيه (أسقف بيت المقدس) : ١٦١ .

- فوشيه أف شارتر (مؤرخ) : ١٩ .
 فولك الانجوى (ملك صليبي) : ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٠ ،
 ١٢٥ .
 فيلادلفيا (مدنية) : ٥٢ ، ١٤٥ ، ٢٦٢ ، ٣٥١ .
 فيلاريتوس (أمير أرمني) : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .
 فيليب كونت فلاندرز : ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .
 فيلومليون (مدنية) : ٥٢ ، ١١٨ ، ١٤٦ .
 فيليبوليس (مدنية) : ٧ ، ١٤٢ .

(ق)

- قبرص : ٢٦ ، ٢٩ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٧ .
 — ١١٠ ، ٢٠٧ — ٢١٠ ، ٢١٢ —
 ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ .
 ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ .
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
 ٣٠٨ ، ٣٣٨ ، ٣٦٩ .
 قسطنطيني (مدنية) : ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٦ .
 قرا أرسلان بن داود : ٩٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ .
 ٢٥٠ ، ٢٨٥ .
 قلع أرسلان (سلطان سلجوقي) : ١٠ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٧ —
 ٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ —
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

٢٦٣ — ٢٦٥ ، ٢٧٣ — ٢٧٧ ،
٣٢٧ — ٣٣٥ ، ٣٣٩ — ٣٤٢ ،
٣٤٥ — ٣٤٧ ، ٣٥١ — ٣٦١ ،
٣٧١ ، ٣٧٢ .

الحجاج (قلعة)

: ٧٥ .

قونية (مدنية)

: ح ١ ص ٣ ، ٥٦ ، ١١٦ — ١٢١ ،
١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
٢٧٦ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
٣٤٣ ، ٣٤٨ .

قنسطنطين دو كاس (قائد بيزنطى) : ٣٦٢ .

قنسطنطين كولسان (قائد بيزنطى) : ١٠٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ —

٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٧٣ .

قنسطنطين ماكرو دو كاس (قائد بيزنطى)

: ٣٤٣ .

قطب الدين (شقيق نور الدين) : ٢٨٥ ، ٢٥٠ .

قورس (مدنية)

: ١٣١ .

قزىقوس (مدنية)

: ٤٤ ، ٤٦ .

قيسارية (مدنية)

: ٢٩٤ .

قيصرية (مدنية)

: ٤٢ ، ٦٢ ، ١١٥ .

قيليقية : (اقليم)

: يكثر ذكرها .

(ك)

- ١ - كاسترون (قلعة) : ٢٣١ .
- ٢ - كاسيا نوس (حاكم بيزنطى) : ٥٤ .
- ٣ - كانتا كوزينوس - كانتا كوزين (قائد بيزنطى) : ٧١ ، ٣٦٣ .
- ٤ - كاكيج الثانى (ملك أرمينى) : ٦٣ .
- ٥ - كبادوكيا (اقليم) : ٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ١١٣ ، ١٩٩ .
- كريتوبولس (مدنية) : ١٢٠ .
- كريستوف (حاجب) : ٢٧٣ .
- كفر طاب (مدنية) : ٩٣ .
- كلوديوبوليس (مدنية) : ٣٦٣ .
- كوتيوم (مدنية) : ٢٥٩ ، ح ٤ .
- كوخ بازل (أمير أرمينى) : ٦١ .
- كورفو (جزيرة) : ١٤٠ ، ١٦٤ .
- كونستانس (أميرة صليبية) : ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٠ ، ١٧٢ - ١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢٢١ .
- ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
- كونراد الثالث (ملك ألمانيا) : ١٤ ، ٢١ - ٢٣ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ - ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ .

. ٣٦٨ ، ٣٥١ ، ٣٤٢ ، ١٦٤

. ٦٤ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٥٦ ، ٣١ :

. ٢٠٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٧

. ٣٢٨ ، ٢٦٣

. ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ١٨١ ، ١٧٦ :

. ١٨٢ ، ٩٢ ، ١٥ ، ١٣ ، ١٢ :

. ٢٣٥ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢١٠

. ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥١ ، ٢٣٩

. ٣١٨ ، ٢٩٥ ، ٢٧٥ ، ٢٦١

. ٣٣٨ ، ٣٢٣

كيسون (مدنية)

كيفا (حض)

كيناموس (مؤرخ)

(ل)

. ٢٥٩ ، ٢٢٥ :

. ٣١٩ ، ٣١ :

. ٢٣١ :

. ١٥٧ :

. ٢٦٢ ، ١٥٦ ، ١٤٨ ، ١٤٥ :

. ٣٦٣ ، ٣٤٠ ، ٣٣١

. ٣٣٦ ، ٣٣٥ :

. ٢٧١ :

. ١٤٤ ، ١٤٠ — ١٣٦ ، ٢٣ — ٢١ :

. ١٦٤ — ١٥٤ ، ١٥٢ — ١٤٩

لارندا (مدنية)

لامبرون (مدنية)

لاموس (مدنية)

لاندولف (حاكم اضااليا)

لاودكيا الغربية (مدنية)

لوباديون (مدنية)

لوقا (بطريك)

لويس السابع (ملك فرنسا)

، ۲۰۳ ، ۲۹۰ ، ۳۳۷ ، ۳۴۲ ،

، ۳۵۱ ، ۳۵۷ ، ۳۵۸ ، ۳۶۸ ،

۳۶۹ .

لیو الاول (ملك أرمينية) : ۳۰ ، ۵۵ ، ۶۳ — ۶۵ ، ۱۹۲ .

لیو بن ستیفانی (أمیر أرمینی) : ۲۸۲ .

لیودلف فون سواکیم (رحالة) : ۲۹۸ .

لیونستیس (بطریک) : ۱۰۳ .

لیکاندوس (مدنية) : ۲۰۱ .

(م)

مار برسوم (قدیس — دیر) : ۲۴ .

ماردین (مدنية) : ۱۸۱ ، ۲۵۰ ، ۲۸۵ .

ماریا (أميرة صليبية) : ۱۰ ، ۲۶ ، ۳۵ ، ۱۱۶ ، ۱۷۳ ،

۲۶۶ ، ۲۶۹ — ۲۷۱ ، ۳۷۳ ،

۲۹۴ ، ۲۹۶ ، ۳۷۴ .

مانویل الاول (امبراطور بزنطی) : یکنر ذکره

مایورک (قائد بزنطی) : ۳۰۲ .

مانویل کانتاکوزین (قائد بزنطی) : ۳۶۲ .

مایروس (سفیر بزنطی) : ۱۴۱ .

متی انرهاوی (مؤرخ) : ۲۸ ، ۳۱ .

مایورین (عم لويس السابع) : ۱۵۶ .

مجاهد الدین بزآن (قائد کردی) : ۱۷۰ .

- محمد الدين بن الدابة (حاكم حلب) : ١٧٨ .
- مجيد الدين أبق (صاحب دمشق) : ١٦٩ .
- محمد (عليه الصلاة والسلام) : ١٠٨ ، ١٠٥ .
- محمد ناصر الدين بن كشتكين (أمير دانشمندی) : ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ .
- مرعش (مدنية) : ٢٥٦ ، ٢٠٢ ، ١٧٥ ، ١٣١ ، ٥٩ .
- ٣٢٨ ، ٢٩٠ .
- مسعود (سلطان سلجوقي) : ٥٦ ، ٥٤ ، ٥٢ ، ٣٢ ، ٢٩ .
- ١١٨ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ٩٦ ، ٥٧
- ١١٩ ، ١٢١ - ١٢٣ ، ١٢٦ ،
- ١٢٧ ، ١٤٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
- ١٧٨ ، ١٨٠ - ١٨٢ ، ١٨٤ ،
- ١٩٥ - ٢٠١ ، ٣٦٩ .
- معرة النعمان (مدنية) : ٩٣ .
- معين الدين أنر (حاكم دمشق) : ١٦٢ ، ١٦٩ ، ح ٥ ، ١٧٠ .
- ملاجنة (مدنية) : ١١٧ - ١١٦ .
- ملطية (مدنية) : ٥٩ ، ٥٨ ، ٢ ، ح ٤٩ ، ٢٤ .
- ٢٦٣ ، ١٩٥ ، ١١٥ ، ٦٣ ، ٦٠
- ٣٢٧ .
- ملك شاه (ابن ألب أرسلان) : ٤٤ .
- ملكشاه (ابن قلیج أرسلان) : ٥٢ - ٥٠ ، ٤٧ .

ملیح (أمیر أرمینی) : ۳۲ ، ۳۵ ، ۲۸۲ ، ۳۱۹ ، ۳۲۰

. ۳۲۴ — ۳۲۶

منصور (حصن) : ۶۱ ، ۱۳۱ ، ۱۷۷ ، ۱۸۱

موروزومیس (قائد بزنطی) : ۳۴۳

میخائیل السابع (إمبراطور بزنطی) : ۴۳ — ۴۵ ، ۵۹ ، ۶۶

میخائیل السریانی (مؤرخ) : ۲۴ — ۲۷ ، ۱۰۴ ، ۱۱۳ ، ۱۹۵

، ۲۰۶ ، ۲۰۸ ، ۲۰۹ ، ۲۱۲

، ۲۵۲ ، ۲۶۲ ، ۲۷۴ ، ۲۷۵

، ۲۹۰ ، ۲۹۱ ، ۳۱۵ ، ۳۱۹

. ۳۳۹ ، ۳۴۷ ، ۳۴۹ ، ۳۵۰

میخائیل أنجیلوس (قائد بزنطی) : ۳۲۹

میخائیل باراناس (قائد بزنطی) : ۲۱۰ — ۲۱۲

میخائیل بسلوس (مؤرخ) : ۱۷ ، ح ۳

میخائیل خونیاثس (مؤرخ) : ۷

میخائیل أف اوترانتو (مبعوث بزنطی) : ۱۰۶ ، ۲۹۷

میخائیل کورکوس (بطریک القسطنطنیة)

: ۱۰۳

میلسند (أميرة صلیبیة) : ۱۲ ، ۱۶ ، ۱۲۵ ، ۱۲۹ ، ۲۶۶

. ۲۷۲ ، ۲۸۴

(ن)

ناصر الدین محمد بن ذو القرنین (أمیر دانشمندی)

: ۲۶۳ ، ۳۲۷

نجم الدين ألب أرسلان (صاحب ماردين)

: ٢٨٥ .

: ٢٥٠ . نجم الدين بن تمر تاش (قائد)

: ١٠٤ . نورسيس سكنور هالي (قسيس)

نصير الدين (نائب نور الدين في الموصل)

: ١٣٠ .

نصرة الدين (أمير أميران — شقيق نور الدين)

: ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٣٧ ، ٣٦ .

: ٨٨ .

نصيبين (مدينة)

: ٦٠ ، ٥٩ . نقفور الثالث (امبراطور بيزنطى)

: ٤٦ ، ٤٥ . نقفور بوتانيتس (حاكم عمورية)

: يكثر ذكره . نور الدين محمود

: ٣٥٨ .

نورمادى (اقليم)

: ٢١١ .

نيقوسيا (مدينة)

: ١٢٤ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٥ .

نيقومديا (مدينة)

: ٦٨ ، ٦٠ ، ٤٩ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٧ .

نيقية (مدينة)

: ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١١٧ ، ٨٥

: ٣٧٤

: ٢ ، ١٩ ، ١٣ — ١١ ، ٩ ، ٨٢٧ .

نيكتاس خونياتس (مؤرخ)

: ٣٤٢ ، ٣١٨ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ٨

: ٣٦٢ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨

: ٨٧ .

نيكتاس^١ شالينتر (قائد بيزنطى)

نيكسار (مدنية) : ٥٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤ ، ٣٤١ .

(هـ)

هرقل (امبراطور بيزنطي) : ٤١ .
 هرسيوس (رئيس أساقفة قيسارية) : ٢٩٤ .
 همفري أف تورون (أمير صليبي) : ٢٢١ .
 هنري الثاني (ملك إنجلترا) : ٩ ، ١٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ .
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

هنگاريا : ١٠ ، ٥٤ ، ح ١ ، ٢٢٤ ، ٣٣٦ .
 ٣٣٩ .

هيشوم الأول (ملك أرميني) : ٣١ ، ١٩٣ ، ٣١٩ .

(و)

وليم الأول (ملك صقلية) : ٢٢٤ ، ٣٧٠ .
 وليم الثاني (ملك صقلية) : ٣٣٨ .
 وليم التاسع (دوق أكويتين) : ٧٤ .
 وليم أف باريس (أمير صليبي) : ٢٢١ .
 وليم جوردان (قائد صليبي) : ٨٧ .
 وليم الصوري (مؤرخ) : ١٧ — ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٨٩ ،
 ٩٢ ، ٩٤ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ،
 ٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٢٧ ،

٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ —
 ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ — ٣١٤ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٣ .

ويبالد أف كورنى (أسقف) : ٢٣ ، ١٤٦ .

(ى)

ياغى أرسلان (أمير سلجوق) : ١١٥ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٣٢٧ .

ياغى سيان (حاكم أنطاكية) : ٦٠ .

يعقوب (قائد) : ١٩٨ ، ١٩٩ .

يغرى (مدنية — معركة) : ١٦٨ ، ح ٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

يوحنا (الكاهن) : ٣٣٧ .

يوحنا الثانى كومنينوس (إمبراطور بيزنطى)

٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
 ٥٥ — ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ،
 ٧٣ ، ٧٤ — ٨٣ ، ٩٠ — ٩٧ ،
 ١٠١ — ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ،

. ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ .

. ١٣٣ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ٢٣٢ .

. ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٣٢٣ .

. ٣٧٣

يوحنا الرابع (بطريق أنطاكية) : ٨٦ .

يوحنا (ابن عم الامبراطور مانويل) : ٢٩٤ .

يوحنا دو كاس (سفير بيزنطى) : ٣٥٨ .

يوحنا روجر (أمير بيزنطى) : ١٠٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

يوحنا فاتازاس (قائد بيزنطى) : ٣٦٢ .

يوحنا فوقاس (رحالة) : ص ١٧ ، ح ٤ : ٢٩٨ .

يوحنا كامراتوس (وزير بيزنطى) : ١٠٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ .

يوحنا كونتوستفانوس (أمير بيزنطى) : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

يوجين (البابا) : ٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٦٤ .

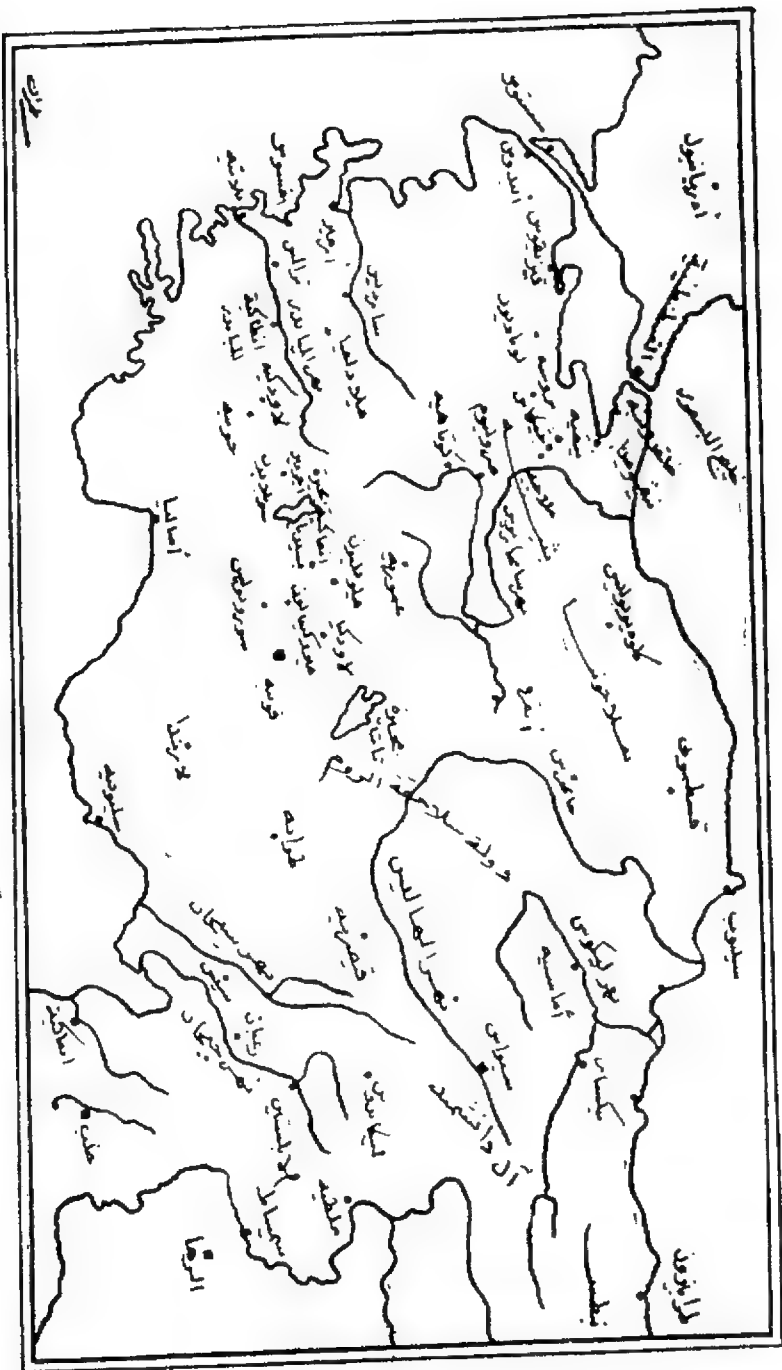
يودس أف سانت أماند (سفير صليبي) : ٢٩٤ .

يوسف بن يوشع (مؤرخ) : ٣٢ .

يوماتيوس فيلو كاس (حاكم قبرص البيزنطى)

: ٨٧ .

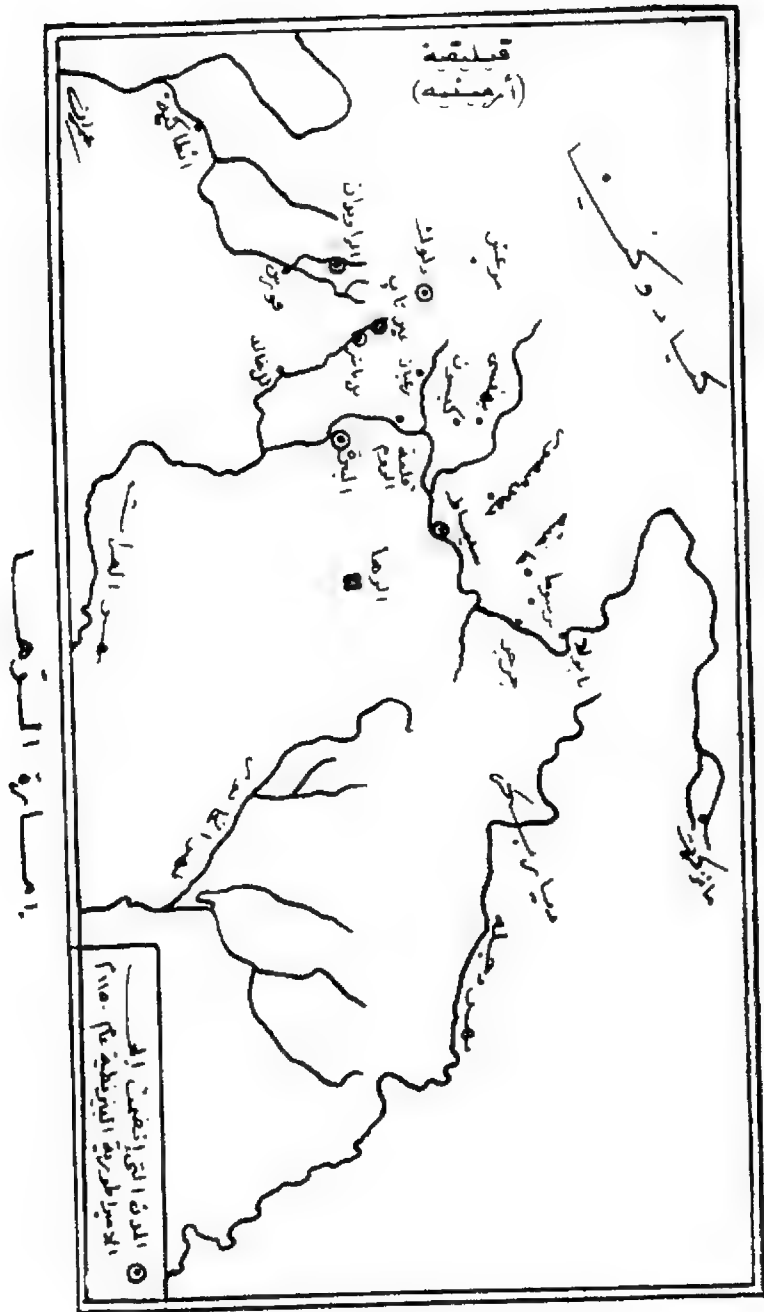
يونه (مدنية) : ٢٢٥ .

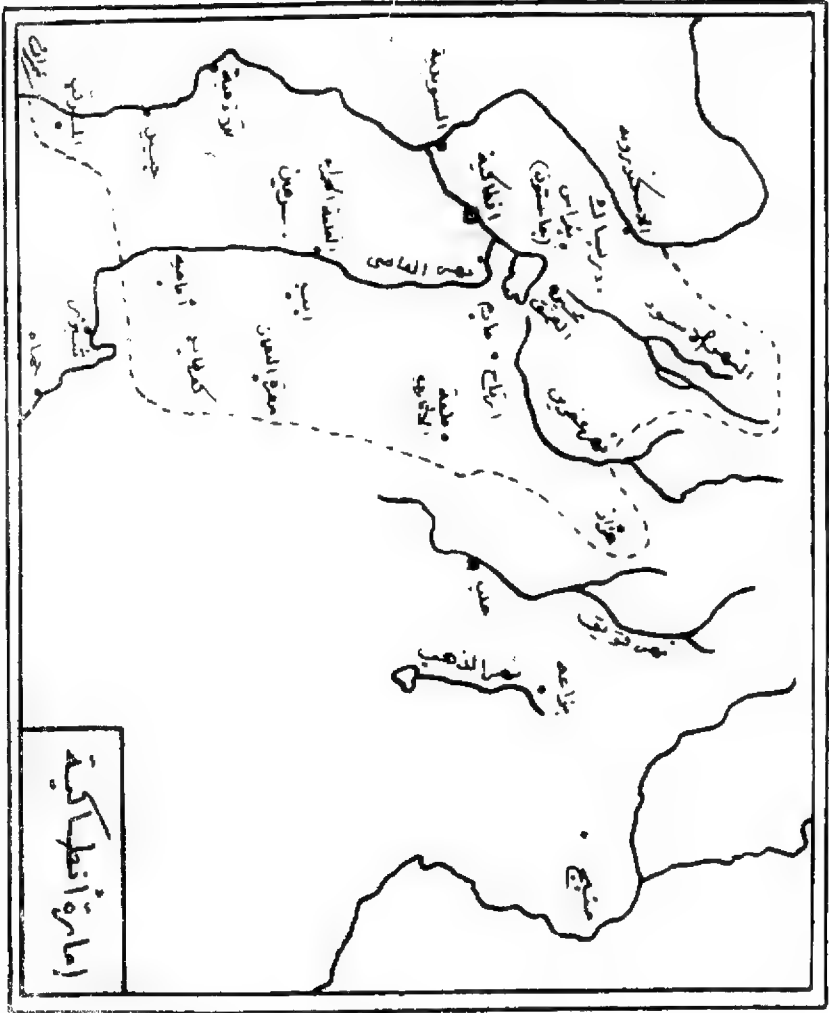


أَسِيَا الصُّغْرَى



أرضية الصفر

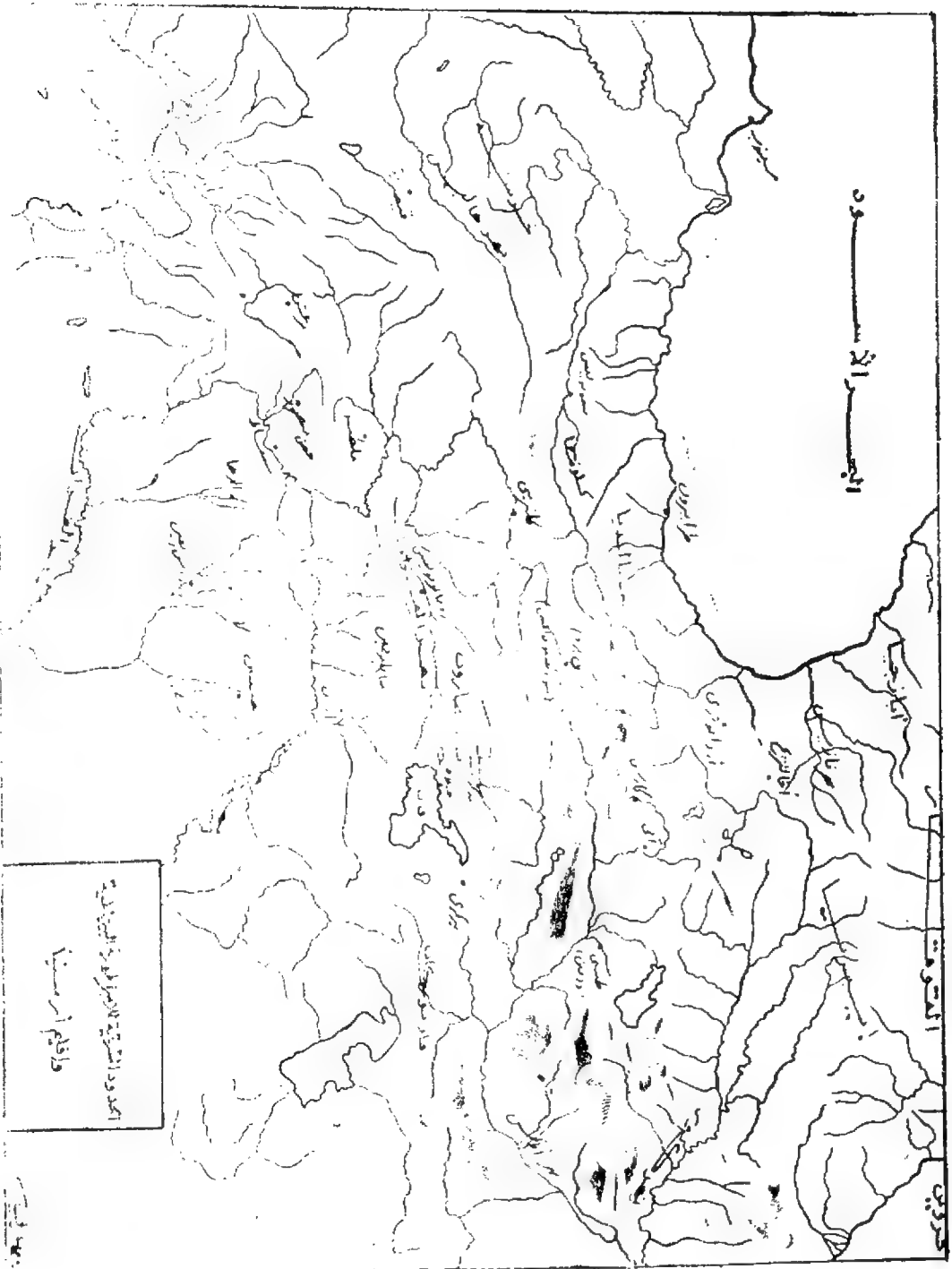




انجمن الاسلام

حرفین

المستوفی



آب و هوا و اقلیم و زمین و گیاه

فراهم آرمینیا

تصويبات لأهم الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	قبل الأخير	بازل ابن شومان	بازل بن شومان
٢٥	الأول	ديونيسوس ابن الكلبي	ديونيسوس بن الكلبي
٦٠	السابع	باعى سيمان	ياغى سيمان
١٠١	السابع	الكسيوس	الكسيوس
١٠٣	الثانى	والوقت نفسه	وفى الوقت نفسه
١٠٤	الرابع	فحمى اللون	قمحى اللون
١٠٦	الرابع عشر	ميشيل أف اوترانتو	ميخائيل أف اوترانتو
١٠٦	ح ٣ ، ٥	Cinnamos	Ciunamus
١١٤	السابع	بما يدل	مما يدل
١١٦	الثالث عشر	تقديم	تقدم
١١٨	الثانى	فيلومليون	فيلومليون
١٣٤	الرابع	فى أيدى الصليبيين	فى أيدى المسلمين
١٤٢	الثانى	فيليوامس	فيلينوليس
١٤٢	العاشر	اديانبول	أديانوبل
١٤٦	الثانى عشر	كورفرى Corvey	كورفى Corvey
١٤٦	السابع عشر	فيلومليون Philomelion	فيلومليون Philomelion
١٦٤	الرابع	كروفو	كورفو
٢٠٤	الرابع عشر	صنى	صفا
٢٢١	الثامن	هقرى	همقرى
٣٤٣	السادس عشر	ماكرو دكاس	ماكرو دو كاس

تم بحمد الله

عظيم شكرى وتقديرى لجميع المسئولين بدار المعارف ومطبعة (السفير)
ولجميع العاملين الذين عملوا فى طبع هذا الكتاب .

محمود سعيد عمران

سجده الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه
جروب معين التاريخ للأهل التاريخ

١/١٢٢٥٥٩

٦٢٥

دار المعارف - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)